محمد

كارين أرمسترونج

الطبعة الثانية

سطور

كتاب سطور (١)

سيرة النبىّ

محمد

تأليف : كارين آرمسترونج

ترجمة

د. فاطمة نصر

د. محمد عنانى

طبعة ثانية

١٩٩٨

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب:

• MUHAMMAD
A BIOGRAPHY OF THE PROPHET

تأليف:

• KAREN ARMSTRONG

الصادر فى سنة ١٩٩٢ عن:

HARPER COLLINS
PUBLISHERS,
10, East 53rd Street, New York, NY,
10022

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للناشر ©

تصميم الغلاف : هيفاء سعود العنود فيصل

شكـــر

يتقدم المترجمان بالشكر إلى المراجع الأستـاذ عمر الشناوى وإلى فنى الكمبيوتر الأستاذ عصام عيسوى.

الفهـــرس

الصفحة

محمد .. هذا الإنسان (مقدمة المترجميْن) ٥

مقدمة المؤلفة ١٥

الفصل الأول: العدو محمد ٣١

الفصل الثانى: محمد رجل الله ٧١

الفصل الثالث: الجاهلية ٨٥

الفصل الرابع: الوحى ١١٣

الفصل الخامس: النذير ١٤١

الفصل السادس: افتراق الطرق ١٦٧

الفصل السابع: الهجرة: قبلة جديدة ٢٠١

الفصل الثامن: الحرب المقدسة ٢٤٧

الفصل التاسع: السِّلم المقدس ٣١٣

الفصل العاشر: وفاة الرسول ٣٧١

هوامش الكتاب ومراجعه ٣٩٤

محمد.. هذا الإنسان

«سيرة النبى محمد» كتاب من تأليف كاتبة غربية، موجه فى الأساس إلى المتلقى الغربى من خلال الخطاب الذى يمكن أن يستوعبه ويستجيب له ذلك المتلقى المحمّل بموروثات وتصورات معادية للإسلام ولشخصية الرسول. وكارين آرمسترونج Karen Armstrong مؤلفة الكتاب كاتبة بريطانية، مجالها البحث فى تاريخ الأديان. قضت آرمسترونج شقاً من حياتها راهبة. ويبدو أنها وجدت حياة الأديرة غير موائمة لتجسيد رؤيتها الدينية الخاصة، فمن خلال كتاباتها المتعددة يتضح أنها تؤمن بأن الديانات التوحيدية الثلاث تحمل رسالة الحب والعدالة والسعادة للإنسان هنا على الأرض. ورغم ذلك اتخذت أكثر الصراعات والعداوات والحروب الدموية - الدين منطلقا لها. وإزاء هذا كرست الكاتبة جهدها للدراسة المستنيرة والبحث الدءوب، والأسفار والاستماع للرأى والرأى المخالف، فى محاولة منها للوصول إلى جذور الظاهرة.

لم يقتصر سعى الكاتبة على محاولة التأصيل والفهم. فقد كرست جهودها فى سبيل «النضال» عن طريق الكلمة لمقاومة الشر السائد. ويمثل الجزء الأكبر من الشر السائد الآن ممارسات الغرب المستنير المهيمن ضد الشعوب والأفراد وما ينجم عن ذلك من معاناة وفُرقة وانكسار، وسيادة الأحقاد والكراهية والعنف. ومن كتاباتها، يتضح أيضا، أنها تحققت من أن تلك الأحقاد دافعها المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلقة، كما أنها أيضا وراء ما يتبناه الغرب من مواقف إزاء «الآخر»، وفى حالتنا، فهذا «الآخر» هو الإسلام. تتعمد آرمسترونج تصحيح المفاهيم ودحض الأساطير بهدف نشر ما تعتقد أنه رسالة الأديان السماوية أى القبول والمحبة والوفاق.

وغالبـا ما تتخذ آرمـسترونج من حـدث أو قضية - أى من واقع مـعاش يعكس معالجة الغرب المسيحى له رؤيـة مغلوطة وتحيزات أصّلت لها الأساطير المتوارثـة عن القرون الوسطى - منطلقـا لكتاباتهـا. وبما أن الغرب هـو القوة المهيمنة اليوم، فالنتيجة هى زياة المعانـاة الإنسانية وتعميق الفرقة والقطيعة بين الإسلام والغرب. فاتخذت من ردود فـعل المسلمين إزاء كتاب سلمان رشدى «آيات شيطانيـة»، ومن ترحيب الغـرب المبالغ فيـه بالكتاب وازدرائه لمشـاعر المسلمين، منطلقـا لكتـابها عن مـحمـد. وبالمثل، كان الواقع المأسـاوى فى القدس (وفى فلسطين المحتلة بأكملها) هو منطلقها لكتابة دراستها الفذة بعنوان «القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث».

الكتاب وأهميته:

كتاب «سيرة النبى محمد» هو دراسة قامت بها الكاتبة ونشرتها إبان موجة الكراهية والعداء للمسلمين والإسلام التى انفجرت فى الغرب بعد نشر «آيات شيطانية». أما حافزنا على ترجمة هذا الكتاب فليس هو الزهو بذلك الصوت الغربى المسيحى الذى حاول إنصاف محمـد وقدم شهادة موضوعية عنه وعن الإسلام. فـمحمد، والإسـلام عقيـدة ورؤية لن يضارا أو ينصفـا بعداوة أو صداقـة أحد. كما أن الكتـاب لا يقدم معلومات جـديدة عن حياة محـمد، فالكاتبة تعتمد بشكل أساسى على المعلومات التى تستقيها من ترجمات وسير النبى الأولى، كما أن الكتـاب موجه بصفة رئيسيـة إلى القارئ الغربى وليس إلى القارئ العربى المسلم. فلمـاذا إذن حرصنا على ترجمته واخـتياره ليكون الكتاب الأول فى سلسلة كتب «سطور»؟

من وجهـة نظرنا، فإن هـذا الكتاب مثـال لأسلوب الخطاب والتـخاطب وسبل الإقـناع، وذلك لأن الكاتبة تضع فى بؤرة شـعورها نفـسيـة ووجدان وأسلوب تفكير المتلقى وإحـساسه بذاته، كما أن رؤية الكاتـبة تبرهن على أن الكاتب لكى يقنع فعليه أولا أن يقتنع، والإنسان لن يقتنع، ولن تواتيه فرصة الرؤية الموضوعية إلا إذا خلص نفسه من المسلمات والتحيزات والأفكار المسبقة وجرّد نفـسه من رواسب التنشئـة، وعوائق اللاوعى الفردى والجـماعى، كى

يصل لما يمكن أن يصل إليه من رؤية موضوعية. فالقارئ الغربى فى غالبيته مسيحىّ الحضارة والموروثات، عقلانى التوجه، أما تلك الموروثات العقائدية فقد أثرت فى توجهاته الواعية واللاواعية، فإن كان بعض فقهاء الإسلام قد قسم العالم إلى «دار الإسلام» و «دار الحرب» فالغربيون فى عمومهم ـ وبناء على ما توارثوه من أساطير ـ يقسّمون العالم إلى دار حضارة وتقدم، أى الغرب، ودار جهالة وتخلف، ويأتى على رأسها العالم الإسلامى. غير أنهم، فى نفس الوقت، يستمدون إحساسهم بهويتهم من منطلق عقلانية فكرهم وإنسانية توجهاتهم. والكاتبة بعرضها لحياة محمد تبين للغربيين أن كراهيتهم وعداءهم لمحمد وللإسلام والمسلمين ومرادفتهم لهم بالعنف والهمجية والتخلف والشهوانية يناقض ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكرى وعقائدى، وهى بوضعها يدها على هذا التناقض تهدم دفاعات القارئ الغربى، وتصيب زهوه بهويته العقلانية فى مقتل.

أما أسلوب كارين آرمسترونج فى خطابها فهو أسلوب هادئ النبرة، دافئ، موضوعى وموثق، فتعرض فى الفصل الأول من هذا الكتاب، والمعنون «محمد العدو» لأسباب عداوة الغرب للإسلام ممثلا فى شخص نبيه محمد، ولتجليات تلك العداوة وأصولها والتهم التى كيلت جزافا لمحمد وللإسلام، ثم تحولت إلى أساطير أصبحت لها مصداقية الحقائق التاريخية، وتُرجع الكاتبة تلك العداوة لأسبابها الحقيقية وهى الجهل والخوف. ثم تحدد تلك الاتهامات التى تتلخص فى أن الإسلام دين جهالة، وأن محمداً مُدعٍ مارق على المسيحية واليهودية، وأنه أيضا كان يسعى للكسب السياسى وتحقيق القوة وإرضاء شهواته، هذا بالإضافة إلى تصوير الإسلام على أنه دين وشريعة حرب، وأن الحرب هى الطريق الذى يسلكه للانتشار والانتصار. والكاتبة فى عرضها لقائمة الاتهامات تلك ـ والتى يتخذها الغرب دوافع للكراهية والازدراء ـ تبين تناقضاتها وجزافيتها، وتوضح أن دعائمها التى قامت عليها هى الجهالة والخوف.

ثم تعرض كارن آرمسترونج لحياة محمد كما أوردتها كتب السيرة. وفى نبذة عن تلك الكتب تبين الكاتبة أن محمدا والإسلام، هما الرسول الوحيد، والديانة الوحيدة اللذان تم التأريخ لهما فى زمن مبكر، ثم تعرض وتحلل أسلوب المؤرخين ومنهجهم فى تقصى الحقائق وتبين كيف أنهم كانوا يتنقلون بين الأقطار بحثا عن مصادر الروايات الشفاهية، وأنهم بعد ذلك كانوا يقومون بتصفية تلك الروايات، ثم عرض ما يستوثقون من مصداقيته حتى ولو عنى ذلك عرضهم لما لا يتفق مع رؤيتهم الشخصية، وبعد ذلك يتركون للقارئ حرية اختيار الأصلح والأكثر مصداقية.

وفى سردها لحياة محمد، تُبين أن الإله الذى دعا محمد إلى عبادته هو الإله الذى عبده إبراهيم ودعا إليه موسى وعيسى، أى أن الله ليس اسما لكيان اخترعه محمد، لكن معنى اللفظ هو الإله الواحد. وبعد ذلك تعدد الكاتبة، معتمدة على الموروثات وكتب السيرة، صفات محمد الشخصية التى عرفت عنه قبل البعثة، وما كان عليه من صدق وأمانة ودماثة خلق وتعاطف مع المهمشين من اليتامى والفقراء والعبيد والنساء، وأيضا ما كان عليه من روحانية وورع. وتمضى كارين آرمسترونج فى محاولة منها لشرح ماهية الوحى وكيفية تلقى محمد له، مبينة أن محمداً لم يَسْعَ إلى التجربة. وأنها قد أذهلته وأربكته فى بادئ الأمر. ولكى تقرب مفهوم الوحى من ذهن القارئ الغربى تعقد المقارنة بين ما تلقاه محمد وما تلقاه الأنبياء السابقون، وخاصة موسى. وفى محاولة أخرى منها لتقريب المفهوم من ذهن قارئها، تتحدث عن الإلهام الشعرى والوحى الفكرى لتبين أن هناك ما لا يمكن شرحه عقلانيا مما يأتى به البشر. ثم توضح أن الوحى بالنسبة لمحمد كان تجسيدا «لكلمة الله» على لسان بشرى وبلغة إنسانية، مثلما كان حمل مريم العذرى تلقِّيا لنفس الكلمة فى صورة بشرية. إذاً فمحمد واللغة من جهة، ومريم من جهة أخرى، هى الأشكال البشرية التى تجسدت فيها كلمة الله. وكان محمد ومريم فى وضع المتلقى البشرى لما هو مقدس. ثم تسرد الكاتبة أثر القرآن فى إسلام الكثيرين ممن كانت قلوبهم غُلفًا من أهل مكة، وخاصة عمر بن

الخطاب، ثم تذهب لتشرح خاصية القرآن الروحانية والجمالية الفريدة والمتفردة، والتى مازالت تمارس نفس الأثر على جموع المسلمين، والتى لا يمكن للقارئ الغربى أن يلمسها من خلال الترجمات ومن خلال القراءات المتحيزة سلفا، لأن القارئ الغربى تعوّد على الخطاب الحسى العقلانى.

وتعالج الكاتبة أيضا ما تعرّض له محمد، وهو الإنسان البسيط، المرهف الحس، المهيض الجناح، هو والأقلية المستضعفة ممن آمنوا برسالته - من ازدراء واضهطاد، وأيضا شجاعة مجابهتهم عتاة مكة الذين ناصبوه العداء بدافع الخوف والجهالة، ولا يخفى على القارئ فى هذا الصدد المقارنة الضمنية - والتى تطرح نفسها - بين دوافع الغرب وأسلوب معاداته للإسلام فى الماضى والحاضر، وبين موقف أهل مكة فى ذلك الزمن السحيق.

ومن خلال سرد آرمسترونج لوقائع حياة الرسول فى المدينة ومحاولته إقامة مجتمع عدل وكفاية تبين أنه فى جوهره تحقيق للمشيئة الإلهية، وأيضا من خلال عرضها لغزواته ومعاركه الحربية، تقدم الكاتبة مفهومًا جديدًا للجهاد يختلف عن مفهوم الدعاية الغربية المسمومة المحمومة. فخلافا للمسيح، الذى قضى حياته مُبشرًا مسالما بالرسالة السماوية، خاض محمدٌ معارك إيجابية واعترك مع الواقع ليردع الظلم ويدفع العدوان. أى أنه، وبلغة اليوم، قدم المثال على الفعل الإيجابى affirmative action، ذلك الأسلوب الذى يتبناه الغربيون اليوم لتحقيق العدالة ومقاومة المظالم والتحيزات. فحروب الإسلام كانت دفاعية، وردا للعدوان، بالإضافة إلى كونها وسيلة لفرض «السلام الإسلامى pax Islamica» الذى أمكن فى ظله وقف حمامات الدم وإقامة مجتمع عادل أساسه القيم الرفيعة، إذا فالجهاد هو النضال المستمر ضد الذات وضد الآخر من أجل تحقيق الإرادة الإلهية والعمل على إسعاد البشرية. إذاً فالإسلام لم ينتصر ولم ينتشر عن طريق السيف ولم تكن الحرب وسيلة أو هدفًا له قط. وعلى عكس ذلك، فهو دين الاستمرارية مع الماضى، وعقيدة سلم وتسامح.

أيضا، لم يكن محمد قط ذلك الفرد الشهوانى الذى يصوره الغرب، وتبلور الكاتبة هذه الحقيقة فى خطابها من خلال عرض لحياة محمد مع زوجاته، فتبين أن علاقته بهن كانت علاقة محبة حميمية دافئة أليفة، وكان أيضا يعدل بينهن قدر استطاعته البشرية، كما كان يستشيرهن فى الأمور العامة والخاصة ويأخذ بما صلح من المشورة. ثم إنّ الكاتبة، وعن طريق أسلوب عرضها الدرامى لبعض المواقف الحياتية مع عائشة، تؤكد ذلك البعد الإنسانى، وتقدم صورة تتوهج ألفة ومحبة. وبالإضافة إلى ذلك، تُقرر آرمسترونج أيضاً أن الحقوق التى حصلت عليها المرأة فى الإسلام، والكيان الكريم الذى اكتسبته هما ثورة بجميع المقاييس. كما أن تشريع تعدد الزوجات جاء حدا للممارسات الشهوانية ولانتهاك المرأة الجسدى والاجتماعى وليس العكس. كما أنه أيضا كان يخدم ظروفًا اجتماعية قائمة.

وفى فصلها الأخير، تعرض الكاتبة لوفاة محمد، كما أن الفصل لا يتوقف عند واقعة الوفاة. فتقدم مشهد مرض محمد ووفاته فى حجر زوجته عائشة، مشهدا مفعما بالأحاسيس التى تمس شغاف القلوب، غير أن ما تنقله لنا يؤكد على أن محمداً عاش ومات إنسانا مثل كل البشر، فقد ولد ضعيفا يتيما وغادر الحياة وهو يعانى من المرض يتلمس الحب والدفء الإنسانى اللذين منحتهما عائشة، لم يمت محمد فى ساحة القتال، أو فى مقعد الملك والأبهة، وغادر الحياة بهدوء كما أتاها.

ذلك التأكيد، من قبل الكاتبة، على محمد الإنسان العادى، لا يستهدف فقط اختراق تحيزات القارئ الغربى واجتلاب مشاعر المودة والتعاطف، لكن أيضا يبلور عبقرية محمد المتفردة ويكرم الإنسان فى شخص محمد. إن إنجازات محمد فى خلال السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من حياته، والتى تُبرهن الكاتبة على أنها ترقى لمرتبة الإعجاز البشرى، لتأكيد على قيمة الإنسان وما يمكنه إنجازه إن هو أخلص لرسالته وآمن بها واتبع طريق الحق.

غير أن الكاتبة تُخصص الجزء الأكبر من فصلها الأخير لتبين أن المسلمين الأوائل، باتباعهم سبيل محمد، تمكنوا من الرقى والرفعة وأقاموا كيانًا شاسعًا

ساده التسامح والعدل والتعايش بين الأديان، مما حـقق التقدم وخير البشرية. وتضيف أن عـداء أوربا المسيحـية بدأ حينمـا شعر الغـربيون بتهـديد لكيانهم وهويتـهم. وبناء على ذلك، وعلى أسس من الجـهل التام بالقـرآن وبمحمـد وبالإسلام بثوا سموم الكراهية واختلقوا الأسـاطير وخاضوا الحروب الوحشية المدمرة ضد المسلـمين والإسلام، أى أنهم «نصَّروا» ـ إذا صح التعـبير ـ تلك المخاوف والجـهالات والأطماع وألبـسوها لباس الدين. وفـيما بعـد - وبعد سيـادة العقلانية ونهـضة الغرب - استـمرت تلك الأساطيـر تحكم وجدانهم وتشكل توجهاتهم ومـواقفهم، ودارت الدائرة، ووجد المسلمـون أنفسهم فى مأزق دينـى وحضارى لم يحـاول تفهـمه الغـرب الذى يتخـذ من العقـلانية والتسامح والدعوة إلى الحرية والعدالة أسساً حضارية لوجوده. وإزاء الازدراء والكراهيـة والظلم من جانب الغـرب للمسلمين كـره المسلمون الـغرب، بل «أسلمـوا» تلك الكراهية. ومن خـلال هذا المنطلق تحاول الكـاتبة شرحًـا لما يسمى بالأصولية الإسلامية.

وبعد ذلك تبين آرمسترونج كيف تجاوز شخص محمد ـ بالنسبة للمسلمين اليوم ـ الشخصية التاريخيـة له. أى أنه أصبح كل ما هو غالٍ وكريم ومقدس بالنسبـة للمسلمين. أى أن أى امـتهان لشـخص الرسول هو امتـهان لعقـيدة المسلمين وتاريخهم وقيمهم وأسلوب حياتهم ووجودهم. وهذا يفسر الغضب والثورة اللذين قوبل بهـما كتاب سلمان رشدى وتأييـد الغرب وتبنّيه وتكريمه للكتاب وكاتبه.

تختم الكاتبة رسالتـها بقولها إن محمداً لم يمُتْ، فـهو يعيش فى وجدان كل مسلم وفى أسـلوب تفكيره وممارساته الحـياتيـة اليوميـة، أى أن شخص محمـد بالنسبة للمسلمين هو الهـوية: الماضى والحاضر والمستقـبل. ثم تنتهى بقولها إن محمدًا أتى بالإسلام، والإسلام دين سلام ووفاق، وإنه لن يختفى أو يذوى أبدا، وإن بقاءه فى عنـفوانه وقوته هو خـير للبشـرية، لأنه يدعو ـ كما دعا محمد ـ إلى إرساء قواعد الحب والعدل والسلام الإنسانى.

ترجمة الكتاب:

أما عن الترجمة فلا تقتصر على نقل الأفكار التى يكتبها كاتب من الكُتّاب بل تتجاوز ذلك، شاء المترجم أم أبى، إلى نقل أسلوب التفكير الذى يتجسد فى الصياغة اللغوية. ومهما تكن براعة المترجم وخبرته، ومهما يبلغ حرصه على تفادى «عجمة» الأسلوب، فإن طريقة التفكير المتجسدة فى أسلوب الصياغة تتسرب رغم أنفه إلى النص المترجم. فطريقة التفكير بالإنجليزية ذات سمات من المحال تلافيها مثل أسلوب المقارنة (أفعل التفضيل) والتحرز فى التعبير (كاستخدام «فيما يبدو» بكثرة) وندرة المحسنات التى اعتادها قارئ العربية ويتوقعها من كل كاتب عربى أصيل، إلى آخر ذلك مما يعرض له دارسو علم الترجمة أو فنون الترجمة. والمترجم لا يستطيع أن يتحاشى كل ذلك مهما حاول، ولذلك فهو - إلى حد ما - يترجم الأفكار وأسلوب التفكير معاً.

فإذا كان الكتاب الذى يتصدى المترجم لترجمته حافلاً بالعبارات المقتبسة من التراث العربى القديم، والتى تنتمى إلى ما يسمى باللغة التراثية، فقد تخرج ترجمته جامعة بين أسلوبين، الأول أسلوب الكاتب الأجنبى (وهو يترجمه إلى العربية المعاصرة) والثانى هو أسلوب المقتطفات الذى يشى باللغة التراثية، فهو مستقى من كتب السِّير والمغازى والتاريخ التى بعُد العهد بها، وإزاء ذلك كان على المترجم أن يلتزم الحرص فى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، حفاظاً على سلاسة الفكرة ووضوح المعنى.

وغنىّ عن البيان أن المقتطفات قد اقتبست كما هى حرفياً ودون تغيير، وأن الدقة روعيت فى التحقق من صحتها، ومن نسبتها إلى قائليها، مع ذكر المصادر الأصلية، نشداناً للصدق التاريخى وتحرياً للأمانة. ولكن هذا الكتاب، على كل ما به من مقتطفات عربية، كتاب أجنبى، يمثل أفكاراً أجنبية ومنهجاً أجنبياً موجهاً إلى قارئ أجنبى. والكاتبة تؤكد ذلك فى كل مكان حين تستخدم ضمير المتكلم «نحن» وحين تتحدث عن ثقافتها الغربية التى نشأت فى كنفها ونشأ قارئها المقصود فى كنفها.

والمأمول أن يذكر القــارئ ذلك وهو ينتقل من أسلوب إلى أسلوب، ومن فكرة إلى فكرة، فالسياق يمثل إطاراً فكرياً أجنبياً، ويــقدم وجهة نظر مختلفة عمــا درج عليه، ومــا أحرانا أن نعــرف ما يقــوله الآخرون، وكيف يقــولونه أيضاً. ومهما يكن جهد المترجم فى تجنب العجمة فلابد أن تستتبع أمانة النقل لمحاتٍ من أسلوب الكاتب الأجنبى الأصلى.

والله من وراء القصد،،،

المترجمان

مقدمة المؤلفة

أصبح الدين من جديد قوة يُعمل لها حسابٌ ونحن نقترب من نهاية القرن العشرين، إذ نشهد صحوة واسعة الانتشار، ولم تكن لتدور بخلد الكثيرين فى الخمسينيات والستينيات عندما كان العلمانيون يفترضون أن الدين خرافة بدائية تجاوزها الإنسان العقلانى المتحضر وتخطّاها، بل إن البعض كان يتنبأ بنبرات واثقة، بأن الدين فى النزع الأخير، وكان الكثيرون يعتبرون أن الدين لا يزيد، على أحسن الفروض، عن كونه نشاطًا فرديًا لم يعد قادراً على التأثير فى الأحداث العالمية، ونحن ندرك الآن أن تلك النبوءة كانت كاذبة. ففى البلدان التى كانت تنتمى إلى الاتحاد السوفييتى، والتى عاشت عقوداً طويلة فى ظل سياسة الإلحاد الرسمية، عاد الرجال والنساء إلى المطالبة بحقهم فى ممارسة شعائرهم الدينية. أما فى الغرب فقد رأينا أن من لم يكونوا يبدون اهتماماً كبيراً بالعقيدة المذهبية التقليدية ومؤسسات الكنيسة، أصبحوا يظهرون وعياً جديداً بالحياة الروحية وحياة النفس الباطنة، ومن أشد المظاهر إثارةً اليوم ما نشهده من تفجر نزعات التديّن الجذرية التى نطلق عليها عادة صفة «الأصولية» فى معظم الأديان الرئيسية. وتعتبر تلك النزعة صورة من صور الإيمان الذى اكتسب طابعاً سياسياً حاداً، ويرى البعض أنها تمثل خطرًا داهماً على السّلْم العالمى والسِّلْم المدنى. ولا تملك الحكومات أن تتجاهلها وإلا تعرضت لأخطارها. وهكذا، وعلى نحو ما شهدناه كثيراً فى الماضى، أعقبت عصر التشكك والاسترابة فترة من الحماس الدينى الملتهب. والواقع أن الدين حاجة إنسانية ذات جذور عميقة لا يمكن التغاضى عنها أو إقصاؤها إلى الهوامش والحواشى، مهما تكن العقلانية ومهما يكن مستوى التقدم الذى وصل إليه مجتمعنا، وقد يُرحّب البعض بعصر الإيمان الجديد الذى نشهده،

وقد يـأسف له البعض الآخـر، ولكنه من المحال أن يزعم أحـد أن الدين لا علاقة له بالمشـاغل الرئيسية فى هذا القـرن. فالغريزة الدينية ذات قـوة عارمة ويمكن تسخـيرها للخيـر وللشر، ومن ثم فيجب علـينا أن نفهمهـا ونفحص مظاهرها فحصًـا دقيقاً، لا فى مجتـمعنا فحسب، بل فى الثقـافات الأخرى أيضًا.

لقـد تقلص حجم العـالم إلى حد مـذهل، فكشف لنا عن مـدى ترابطنا المحتـوم ولم نعد قادرين على اعـتبار أنفـسنا منفصلين عن غـيرنا فى المناطق النائية من الكرة الأرضية أو قـادرين على أن نترك أبناءها لمصيرهم، بل نحن نتحمل المسـئولية عن بعضنا البعض ونواجـه أخطاراً مشتركة. كمـا أصبحنا قادرين عـلى احترام الحـضارات الأخـرى وتقديرها، وهو مـا لم يكن يخطر على بال أحد قبل هذا العـصر. فبدأ الناس لأول مرة فى شـتى أرجاء العالم يستـمدون الإلهام من أكـثر من دين واحد، بل إن الكثـيرين قد اعـتنقوا دينًا ينتمى لثقافة أخرى. وهكذا نجد البـوذية تنعم بازدهار كبير فى الغرب، حيث كانت للمسـيحية فى يوم من الأيام اليـد الطولى. وحتى فى البلدان التى ظل الناس مستمسكين بدين آبائهم فيها، وجـدناهم يتأثرون أحياناً بتقاليد غيرهم. فكان السـير سـارفـيبـالى روذاكريشـنان (١٨٨٨ - ١٩٧٥) وهو الفيلسـوف الهندوسى والسـياسى الـعظيم، قد تلقى تـعليمـه فى الكليـة المسيـحيـة فى مدراس. وأثر تأثيراً قوياً فى الفكر الدينى للناس فى الشـرق والغرب جميعاً. كمـا أن الفيلسوف اليـهودى مارتـن بوبر (١٨٧٨-١٩٦٥) قد كتب رسـالته للدكـتوراه عن اثنين من مـتصـوّفة المسـيحـية فى العـصور الوسطى، وهـما نيكولاس القوصـائى ومايستر إيكهـارت، ولقد انكبّ المسيحـيون على قراءة أعمـاله بحمـاس، وكان له تأثيره العـميق فى أفكارهم وحـياتهم الروحـية. والواقع أن اليهود لا يهتـمون بأعمال بوبر اهتمام المسـيحيين بها، ولكنهم لا شك يقـرءون رجل اللاهوت البـروتسـتانـتى بول تيليش (١٨٨٦-١٩٦٥)، وصاحب الفكر الحديث هارفى كوكس. لقد بدأت حواجز المسافات الجغرافية تتهـاوى، وكذلك حواجـز العداء والخوف، وهى التى كـانت تفصل الأديان بعضها عن بعض، وتضع كلا منها فى غرفة محكمة الإغلاق.

وإذا كانت نسبة كبيرة من التعصب القديم لاتزال قائمة، فإن ما ذكرناه يعتبر تطوراً يحمل الأمل فى طياته، فمن المظاهر التى تدعو للتفاؤل أن نرى علماء اليهودية والمسيحية يحاولون التوصل إلى تفاهم جديد، بعد قرون من عداء المسيحيين للساميّة. لقد بدأ الناس يدركون وحدة التجربة الدينية على أعمق مستوى بين أبناء البشر، ويتبينون أن التقاليد التى كنا «نحن» نزدريها ذات يوم تستطيع أن تخاطب أحوالنا الراهنة وأن تبث الحيوية من جديد فى حياتنا الروحية. وقد تترتب على ذلك آثار عميقة، فربما هجرنا إلى الأبد أسلوب النظر القديم إلى ديننا وثقافتنا أو أديان الآخرين وثقافاتهم. ولقد شبّه بعضهم التأثير المرجح لذلك بالثورة التى أحدثها العلم فى نظرة الرجال والنساء إلى الدنيا على امتداد العالم بأسره. ولاشك أن الكثيرين سوف يجدون فى هذا التطور تهديداً خطيراً، وسوف يقيمون المتاريس الجديدة التى تمنع «الآخر» من الوصول إليهم، ولكن البعض قد بدءوا يلمحون بالفعل آفاقا أرحب، ويكتشفون أنهم يستجيبون للمثل الدينية العليا التى كان أسلافهم يولونها السخرية والازدراء.

لكنه يبدو، مع ذلك، أن أحد الأديان الكبرى لا يزال خارج دائرة النوايا الطيبة المذكورة، وأنه ما يزال يحتفظ بصورته السلبية فى الغرب على الأقل، فالذين شرعوا فى استلهام أديان مثل دين «الزّن» أو «التلويّة» يندر أن ينظروا نفس النظرة المتعاطفة إلى الإسلام، مع أنه الدين الثالث لإبراهيم الخليل، وأقرب فى روحه إلى تراثنا اليهودى المسيحى، فلدينا فى الغرب تاريخ طويل من العداء للإسلام، ويبدو أنه راسخ الجذور مثل عدائنا للسامية، وهو العداء الذى شهد صحوة تدعو للقلق فى أوربا على مدى السنوات الأخيرة. ورغم ذلك كله، فلقد بدأ الكثيرون يشعرون، على الأقل، بالخوف من هذا التعصب القديم منذ وقوع المحرقة النازية. ولكن الكراهية القديمة للإسلام تُواصل ازدهارها على جانبى المحيط الأطلسى، ولم يعد يمنع الناس أى وازع عن مهاجمة ذلك الدين، حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلا أقل القليل.

ولهذا العداء أسبابه المفهومة، لأنه لم يحدث - قبل ظهور الاتحاد السوفييتى فى القرن الحالى - أن واجه الغرب تحديا مستمرا من دولة أو من

منهج فكرى يوازى التحدى الذى واجهه من الإسلام. فعندما نشأت الإمبراطورية الإسلامية فى القرن السابع للميلاد، كانت أوربا ماتزال منطقة متخلفة. وقد امتدت الفتوحات الإسلامية بسرعة إلى معظم بقاع العالم المسيحى فى الشرق الأوسط، وكذلك إلى الكنيسة المسيحية العظيمة فى شمال إفريقيا وهى التى كانت لها أهميتها الحيوية لكنيسة روما. وكان فى هذا النجاح الرائع خطر داهم يتهدد أبناد الغرب، إذ تساءلوا إذا ما كان الله قد تخلى عن المسيحيين وأبدى رضاه عن الكفار؟ بل إنه حتى حين خرجت أوربا من دياجير العصور المظلمة، وأنشأت حضارتها العظيمة، ظل الخوف القديم من استمرار توسع الإمبراطورية الإسلامية قائمًا. كانت أوربا عاجزة عن التأثير فى تلك الثقافة القوية والدينامية، وكان الفشل هو مآل المشروع الصليبى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، بل إن الأتراك العثمانيين لم يلبثوا أن جاءوا بالإسلام إلى عتبة دار أوربا نفسها. وكان من المحال على المسيحيين الغربيين، بسبب هذا الخوف، أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية. وفى الوقت الذى كانوا ينسجون فيه خيالاتهم المخيفة عن اليهود، كانوا يرسمون صورة شائهة للإسلام تعكس بواعث قلقهم الدفينة. كان علماء الغرب يهاجمون الإسلام باعتباره عقيدة تجديف فى الدين ويصفون محمدًا بأنه المدَّعى الأكبر، ويتهمونه بأنه أنشأ ديناً يقوم على العنف، ويمتشق السيف لفتح العالم. وأصبح اسم محمد (الذى حُرِّف إلى ماهوميت) بمثابة البُعْبُع الذى يخيف الناس فى أوربا، وكانت الأمهات تستعملن اللفظة فى تخويف أطفالهن العاصين. وكانت مسرحيات الإيماء تُصوِّره فى صورة عدو الحضارة الغربية الذى حارب قديسنا الشجاع سانت جورج.

وأصبحت هذه الصورة الزائفة للإسلام تمثل إحدى الأفكار الراسخة فى أوربا، بل لاتزال تؤثر فى آرائنا ونظرتنا إلى العالم الإسلامى. وقد زاد من تعقيد المشكلة أن المسلمين بدءوا - ولأول مرة فى التاريخ الإسلامى - فى إضمار وتنمية كراهية مشبوبة للغرب. وكان ذلك يرجع، إلى حد ما، إلى

سلوك الأوربيين والأمريكيين فى العـالم الإسلامى. ولكنه من الخطأ أن نظن أن الإسلام دين يتسم بالعنف أو بالتعصب فى جوهره، على نحو ما يقول به البعض أحـياناً، بل إن الإسـلام دين عالمى ولا يتصف بـأى سمات عـدوانية شرقية أو معادية للغرب. والواقع أنه عندما التقى المسلمون لأول مرة بالغرب الاستعـمارى إبان القرن الثامن عشـر، بُهر الكثيرون منهم بحضـارته الحديثة وحاولوا محاكاتها. ولكن الحـماس المبدئى قد زال فى السنوات الأخيرة وحل محله استياء مرير. وينبغى أن نتذكر أيضاً أن «الأصولية» قد ظهرت فى معظم الأديان، ويبدو أنها اسـتجابة على نطاق العالم بأسره للّون الخـاص من الحياة فى أواخر القرن العـشرين، فقد خرج الهندوسيون الأصـوليون إلى الشوارع للدفاع عن نظام الطبقـات أو الطوائف الاجتماعية ومعـارضة مسلمى الهند، كما بدأ اليهود الأصوليون فى إقامة مسـتوطنات غير قانونية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وأقسـموا أن يطردوا جميع العـرب من الأراضى المقدسة، ونجح حزب الأغلبـية الأخـلاقية الذى يتـزعمـه جيرى فـالويل، واليمين المسـيحى الجديد، الذى كان يعتـبر أن الاتحاد السوفييتى هـو الإمبراطورية الشريرة، فى اكتساب قوة تدعو للدهشـة فى الولايات المتحدة إبّان الثمانينيات. ومن الخطأ إذن أن نفـترض أن المتطرفين الإسـلامـيين يمثلون عقـيـدتهم تمثيـلا صادقـا، ويتساوى فى الخطأ اعـتبارُ المرحوم آية الله الخومينى تجـسيداً للإسلام، ورفضُ التقاليـد اليهودية الحافلة والمعـقدة بسبب السياسـات غير الأخلاقـية التى كان يمارسها الحاخام مائير كاهانى. وإذا كـانت «الأصولية» تبدو منتشرة فى العالم الإسلامى، بوجه خاص، فالسبب هو الانفجار السكانى. وإذا شئنا الاقتصار على مثال واحد له مغزاه، ذكرنا أن عدد سكان إيران لم يكن يزيد على تسعة ملايين قبل الحـرب العالمية الثانية، وقد وصل عـددهم اليوم إلى ٥٧ مليونًا، ويبلغ متوسـط أعمارهم ١٧ سنة، إن صورة الإسلام الأصـولية والحلول التى تتـضـمنهـا هذه الصورة الـتى تتسـم بالتطرف ولا ترى درجـات بين اللونين الأبيض والأسود، صورة تمليها عقيدة الشباب.

ولا يعرف معظم أبناء الغـرْب عن الإسلام التقليدى ما يكفى لتـقييم هذا الاتجاه الجديد ووضعـه فى منظوره الصحيح. فعندما يحتجـز الشيعةُ الرهائنَ فى لبنان باسم «الإسـلام»، فمن الطبيـعى أن يشعر النـاس فى أوربا وأمريكا بالنفـور من الدين نفسـه دون أن يدركوا أن هذا السلوك مـخالف لنـصوص وتشريعـات مهمة فـى القرآن عن أخذ الأسرى ومـعاملتهم، ولكن أجـهزة الإعلام والصـحافة الـشعبـية لا تقوم، فى كل الأحـوال، للأسف، بتوفـير المعلومات التى نحتـاجها. بل إن هذه الأجهزة قـامت بتغطية إعلاميـة واسعة لأقوال المسلمين الـذين تعالت أصواتهم تأييـدا للفتـوى التى أصدرها آية الله الخومينى بإهدار دم سلمان رشدى، وكانت تلك التغطية أكبر كثيراً من تغطية آراء الأغلبية الذين عارضوا الـفتوى. والواقع أن السلطات الدينية فى المملكة العربية السـعودية وشيوخ الجامع الأزهر فى القـاهرة - وهو الذى يتمتع بمكانة مرمـوقة - عارضـوا تلك الفتـوى قائلين إنهـا غير قـانونية وغـير إسلامـية، فالشريعة الإسـلامية لا تسمح بالحكم بالإعدام على أحد دون مـحاكمة، ولا تمتد سلطتهـا القضائية إلى خارج العالم الإسـلامى. وفى مارس ١٩٨٩ عُقد المؤتمر الإسلامى الذى أعلنت فـيه أربع وأربعون دولة عن رفـضها بالإجـماع لفتوى الخومينى (من مجموع الدول الإسـلامية الأعضاء البالغ خمساً وأربعين دولة) ولكن أنباء ذلك الرفض لم تحظ إلا بإشارة عابرة فى الصحافة البريطانية بحـيث ظل الناس أسرى الانطبـاع الخاطئ بأن العـالم الإسلامى كله يـدعو بأعلى صوته الى إراقة دم رشدى. وأحياناً مـا تلجأ الصحافة إلى إثارة نوازع التعصب التـقليدية، على نحو ما اتضح بصورة خـاصة إبان أزمة النفط التى أثارتها منظمة البلدان المصدرة للنفط عالم ١٩٧٣، فـكانت الصور المستخدمة فى رسوم الكاريكاتير والإعـلانات والمقالات الشعبيـة ذات جذور تضرب فى أعمـاق المخاوف الغربيـة القديمة من وجود مـؤامرة إسلامـية للاستـيلاء على العالم.

ويرى الكثيرون أن حال المجتـمع الإسلامى الآن يبرر نظرتنا النمطية إليه، فحياة الأفراد تبدو رخيصة، والحكومات تجنح أحيانا إلى الفساد أو الاستبداد،

والنساء يتعـرضن للقهر، وليس من النادر أن يُرجع الناس أسـباب هذه الحال إلى «الإسلام»، ولكن العلماء يحذروننا من المبالغة فى تأكيد الدور الذى يقوم به أى دين فى حـياة مـجتـمع من المجـتمـعات، ويقـول مارشـال ج.س. هودجـسون، المؤرخ الإسـلامى البـارز، إن الظواهر التى يُدينـها الغـرب فى العالم الإسلامى هى من الخصائص التى تُميز معظم المجتمعات فى مرحلة ما قبل التحديث، ولم تكن الحياة فى أوربا تخـتلف كثيرا عن ذلك منذ ثلاثمائة سنة.

ولكننا نلحظ أحيانـاً وجود رغبة مؤكدة، فـيما يبدو، للقول بأن العـقيدة الدينية نفسها هى السبب فى كل خلل فى العالم الإسلامى، وهكذا فكثيراً ما يدين «أنصار المرأة» الدين الإسلامى باعـتباره مسئولا عن عـادة ختان الإناث رغم الحقيقة القائلة بأنها فى الواقع عادة إفريقية، ورغم عدم ذكرها فى القرآن على الإطلاق، بل عدم النص عليهـا فى ثلاثة من المذاهب الفقهية الرئيـسية الأربعة، بل إن المذهب الرابع قد اقتبسها مـن شمال إفريقيا حيث كانت تمثل حقـيقة اجـتماعـية واقعة. وهـكذا فمن المحال علينا إصـدار تعميـمات عن الإسلام، مثلما يستحيل التعميم بالنسبة للمسيحية، فكل منهما يتضمن أفكاراً ومثلاً عليا بالغة التنوع.

وأحد الأمثلة الواضـحة على التنميط هو الافتراض الشـائع بأن الممارسات الإسلاميـة المتبعة فى المملكة العربية السعـودية هى أصدق شكل من أشكال الدين الأصلى، فـهى تبـدو ذات طابع قديم، ولـذلك يُفتـرض أنهـا تشبـه الممارسـات المتبعـة فى أول مجتمع إسـلامى. ولما كان الغرب قـد ظل ردحاً طويلاً من الزمن ينظر إلـى النظام فى المملكة العـربية السـعـودية نظرة بُغض ومقـت، فقـد أصبح يميل إلى بغض الإسـلام ومقـته أيضـاً. ولكن المذهب الوهّابى مذهب طائفـة إسلامية واحـدة، إذ نشأ فى القرن الثامن عـشر وكان يشبه المذهب التطهرى (البيوريتانى) فى المسيحية الذى ازدهر إبان القرن السابع عشر فى إنجلتـرا، وفى هولندا، وفى ولاية ماساتشوستس الأمـريكية. وكان المتطهرون والوهابيون يزعمون أنهم يريدون العودة إلى الدين الأصلى، ولكن

كلا من المذهبين كان يمثل تطوراً جديداً كل الجدة، ويمثل استجابة للأوضاع الفريدة التى سادت فى زمن كل منهما، وكان للمذهب الوهابى والمذهب التطهرى تأثير مهم فى العالمين الإسلامى والمسيحى على الترتيب، لكنه من الخطأ أن نعتبر أيا منهما مذهباً معيارياً لأى من الدينين. فكل حركة من حركات الإصلاح فى أى دين تحاول العودة إلى الروح الأصلية للمؤسس، ولكنه من المحال بعث الأوضاع السابقة كاملة غير منقوصة.

وأنا لا أقول إن الإسلام لا تشوبه أى شائبة على الإطلاق، فجميع الأديان مؤسسات إنسانية، وهى كثيراً ما ترتكب أخطاء خطيرة، وكان تعبيرها عن عقائدها يتسم أحيانا بالقصور بل يدفع إلى النفور. ولكنها أيضا خلاقة، إذ مكّنت ولا زالت تمكّن الملايين من الرجال والنساء من الإيمان بالمعنى الأقصى للحياة، والقيمة القصوى لها، على كل ما يتعرض له الجسد بطبيعته من المعاناة. ولذلك فإن من يضع «الإسلام» فى فئة غير مقدسة خاصة به أو من يفترض أن تأثيره كان سلبياً تماماً، أو حتى تغلب عليه السلبية، يبتعد عن الدقة والإنصاف جميعاً، بل إنه يعتبر خائناً للتسامح ورح التراحم اللذين نفترض أن المجتمع الغربى يتحلى بهما. والواقع أن الإسلام يتميز بكثير من المثل العليا والرؤى التى ألهمت اليهودية والمسيحية، ومن ثم فقد ساعد الناس على غرس وتنمية القيم التى يشترك فيها مع ثقافتنا الخاصة. والتقاليد اليهودية المسيحية لا تحتكر عقيدة التوحيد ولا الحرص على العدالة والتأدب والتراحم واحترام الإنسانية..

والحقيقة أن التفسير الإسلامى لعقيدة التوحيد يتميز بعبقرية خاصة، وعلينا أن نتعلم منه أمورًا مهمة، ولقد تزايد وعيى بهذه الحقيقة وبصورة مطردة، منذ أن بدأت أتعرّف على الإسلام، والحق أننى كنت أكاد أجهل ذلك الدين تماما حتى سنوات قليلة خلت، وكان أول ما نبهنى إلى أن التقاليد الإسلامية يمكن أن تخاطبنى فتلقى منّى أذنا صاغية ـ رحلة قمت بها إلى مدينة سمرقند فى أثناء عطلة من العطلات، إذ رأيت أن العمارة الإسلامية تنطق بروحانية حافلة بأصداء الكاثوليكية التى كنت أدين بها يومًا ما. وفى عام ١٩٨٤ كُلّفت

بإعداد بـرنامج تليفـزيونى عن الصوفـية، أى مـذهب التصـوف الإسلامى، وبهرنـى بصفة خـاصة تقـدير الصوفـيين للأديان الأخرى، وكـانت تلك من الصفات التى لم أعثر عليها قطعـا فى المسيحية ! وكان ذلك بمثابة الطعن فى كل ما كنت أعرفه ظنًا عن الإسلام وأُسلّم به دون مناقشة، ووجدتنى متعطشة لمعرفـة المزيد، وأخيـرًا حدث أن اهتديـت إلى سيرة مـحمـد، وإلى القرآن، الكتـاب المنزّل الذى أتى به إلى العـرب، أثناء دراستى للـحروب الصليبيـة والصراع الدائر فى الشـرق الأوسط. ولم أعد الآن من المؤمنين بالمسيـحية أو الممارسين لشعائرها، بل لا أنتمى رسميا لأى دين آخر، ولكننى عكفت على مراجعة أفكارى عن الإسلام، وفى الوقت نفسه وجدتُنى أعيد النظر فى معنى التجربة الدينيـة نفسها، فرأيت أن الأنبياء والرسل فى جـميع الأديان الكبرى يتميزون بأن رؤاهم للحقيـقة المتعالية القصوى تتشابه فيما بينهـا تشابها كبيرا، ومهما يكن التفسير الذى نختاره لهـذه التجربة الإنسانية، فهى حقيقة لا يمكن إنكارها، وقد ينكر البوذيون أن هذه الرؤية تتجاوز الطبيعة إلى عالم الخوارق، قائلين إنها حالة ذهنية طبيعـية لدى الإنسان، ولكن أديان التوحيد تُطْلقُ على هذه الحقيقة المتـعالية اسم «الله». وأعتقد أن محمداً مـرّ بهذه التجربة وساهم مساهمة متميزة وقيّمة فى التجرية الروحية للإنسانية. فإذا كنا نبغى أن ننصف جيراننا المسلمين، فيجب أن نقدر هذه الحقيقة الأساسية حق قدرها، وهذا هو السبب الذى دعانى إلى كتابة هذا الكتاب.

ومن الغريب أن لا يجـد القارئ العادى فى متناول يده إلا عـدداً محدوداً من الكتب التى تروى السـيرة النبـوية، وأنا أقـر بديْنى الكبيـر إلى المجلدين اللذين كتبهما و. مونتجومـرى واط، وهما: «محمد فى مكة» و «محمد فى المدينة»، ولكنهمـا موجهان إلى الطالب، وكل منهـما يفترض وجود مـعرفة أساسية بحياة محمد، وهى التى لا يحـيط بها الجميع. أما كتاب مارتن لِنْجز بعنوان: «محمد: سيرة حياته استناداً إلى أقدم المصادر» فهو يتضمن ثروة من المعلومات الباهرة، التى استقاها من كُتّـاب السيرة فى الفترة من القرن الثامن [الميـلادى] حـتى العاشـر، ولو أن لِنْجـز يوجـه خطابه إلى المقـتنعين أصـلاً

بكلامه، أما خارج دائرتهم فسوف يطرح القارئ أسئلة كثيرة، أساسية أو حتى خلافية، ولا يتعرض لها لنْجز فى كتابه. وربما كانت أكثر كتب السيرة النبوية المتاحة للقراء حاليـا جاذبيةً كتاب ماكسيم رودانسـون بعنوان «محمد». ومزية رودانسون أنه ذو أسلوب يُخفى مدى تبحره فى العلم، ولقد تعلمت كثيرا من كتـابه، ولكنه يكتب من وجهة نظر المـتشكك والعلمانى. ولما كـان يركّز فى كتابه على الجوانب السياسية والحـربية فى حياة النبى، فإنه لا يُعيننا حقاً على تفهم الرؤية الروحية للنبى محمد.

أما المنهج الذى اتبـعته فـهو يختلف بعض الشيء، وكـانت نقطة انطلاقى هى أننا نعـرف عن محـمد أكثـر مما نعرف عن مـؤسس أى دين من الأديان الرئيسية الأخرى، وأن دراسة حياته يمكن أن تهبنا إدراكاً عـميقاً ومُهِماً لطبيعة التجربة الدينية. فـجميع الأديان تمثل حواراً بين حقيقة مطلقـة تستعصى على التعبيـر، وبين الأحداث الدنيوية، وفترة نبوّة محـمد تتيح لنا أن نفحص هذا الحوار فـحصاً أوثق مما يتيـسَّرُ للباحـثين فى العادة. فسوف نرى أن التـجربة الدينية التى خاضها محمد تتشابه تـشابهاً كبيراً مع تجارب أنبياء بنى إسرائيل، ومع تجربة القديسـة تيريزا الأفيلية، والسيدة جـوليان من بلدة نوريتش. ولقد استندت كذلك إلى أحداث شتى فى حياة النبى لإيضاح ما تؤكد عليه التقاليد الإسلامـية تأكـيداً شـديدًا، وجمـيع الأديان الكبرى تتناول عـددا كبـيرا من الموضوعـات نفسهـا ولكن كلا منها يتـميز ببصـيرة نافذة خـاصة به، وهكذا فـسوف يكون علينا أن ننظر فـى الأسبـاب التى تدعو المسلمين إلى اعـتبـار السيـاسة واجبـا دينيا. لقـد نجح محمـد نجاحاً سـياسـياً غيـر عادى، ويميل المسيـحيون إلى التشكك فـى الطابع الربّانى لهذا الانتصـار الدنيوى؛ ولكننا نتسـاءل بدورنا: ألا يوجد طريق آخـر يوصلنا إلى الله سوى طريق الإخـفاق الذى سلكه المسيح؟

وأنا أنظر إلى الـنبىّ أيضـاً من وجـهـة نظـر الشـخص الـذى لديه بعض التصورات المحددة سلفا عن الإسلام، وهكذا فـعندما نرى محمدا وهو يشن الحرب على مكة، فيجب أن نسأل إذا ما كان الـنبى حقاً قد أسس ديناً يعتمد

على السيف؟ كيف يمكن لرجل من رجال الله أن يكون على استعداد للقتال والقتل؟ وعندما ننظر فى علاقة محمد بزوجاته وبناته، فيجب علينا أن نسأل إذا ما كان حقاً متعصباً للرجال، وإذا ما كان قد أسس ديناً ينص على كراهية المرأة.

لقد بيّنت لنا حرب الخليج فى عام ١٩٩١، أننا نرتبط ـ شئنا أم أبينا ـ بروابط عميقة بالعالم الإسلامى. وبالرغم من الأحلاف المؤقتة، فالواضح أن الناس فى العالم الإسلامى قد فقدوا الثقة فى الغرب. ومن المحال فى أى وقت أن نعزو انقطاع حبل التواصل إلى خطأ من طرف واحد، فإذا كان الغرب يريد استعادة التعاطف والاحترام اللذين كان يتمتع بهما فى الشرق الأوسط، فعليه أن يفحص دوره فى الشرق الأوسط، وينظر فى الصعوبات التى تواجهه إزاء الإسلام. وهذا هو ما حدانى فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى رصد تاريخ كراهية الغرب لنبىّ الإسلام. ولكن الصورة ليست كاملة السواد، إذ تمكن بعض الأوربيين منذ الأيام الأولى من النظر إلى الإسلام نظرة متوازنة إلى حد ما، ولكنهم كانوا دائماً يمثلون أقلية، كما أنهم لم يسلموا من العيوب، ومع ذلك فقد حاولت تلك الحفنة من الناس تصحيح أخطاء معاصريهم وتجاوز الآراء السائدة، ولا شك أن تلك التقاليد التى تتمسك بالمزيد من التسامح والتعاطف والشجاعة هى التى يجب علينا أن نسعى لتشجيعها.

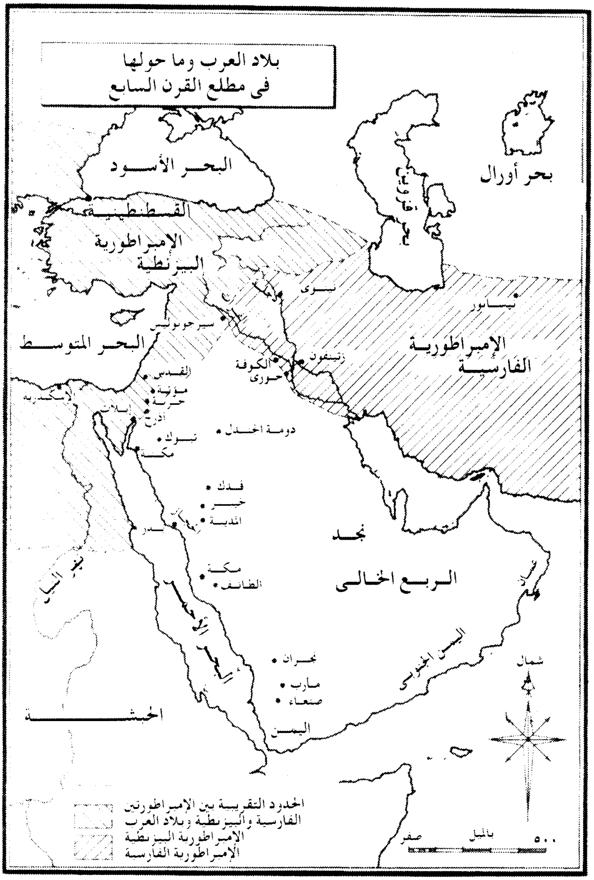
بلاد العرب وما حولها
فى مطلع القرن السابع
البحر الأسود
بحر أورال
القسطنطينية
الإمبراطورية البيزنطية
البحر المتوسط
نيسابور
الإمبراطورية الفارسية
الكوفة
القدس
مؤتة
الإسكندرية
دومة الجندل
تبوك
فدك
خيبر
المدينة
مكة
الطائف
نجد
الربع الخالى
نجران
مأرب
صنعاء
اليمن
اليمن الجنوبى
الحبشة
شمال
الحدود التقريبية بين الإمبراطوريتين
الفارسية والبيزنطية وبلاد العرب
الإمبراطورية البيزنطية
الإمبراطورية الفارسية
صفر
بالميل
٥٠٠

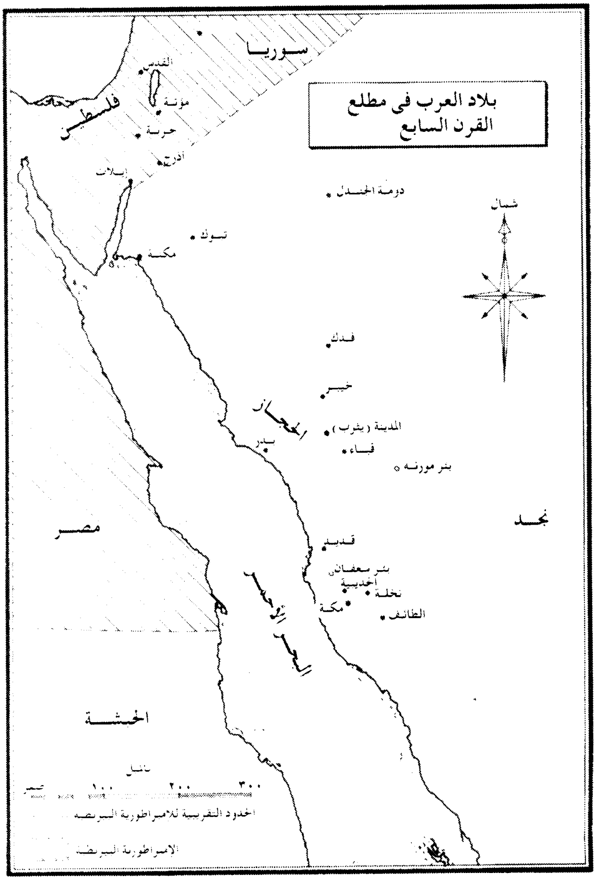
بلاد العرب فى مطلع
القرن السابع
سوريا
فلسطين
القدس
مؤتة
أذرح
إيلات
دومة الجندل
تبوك
شمال
فدك
خيبر
الحجاز
المدينة (يثرب)
بدر
قباء
نجد
مصر
قديد
الحديبية
نخلة
مكة
الطائف
البحر الأحمر
الحبشة

قبيلة قريش فى القرنين الخامس والسادس
للميلاد تقريباً ـ مؤسسو
العشائر فى مربعات مثل تيم

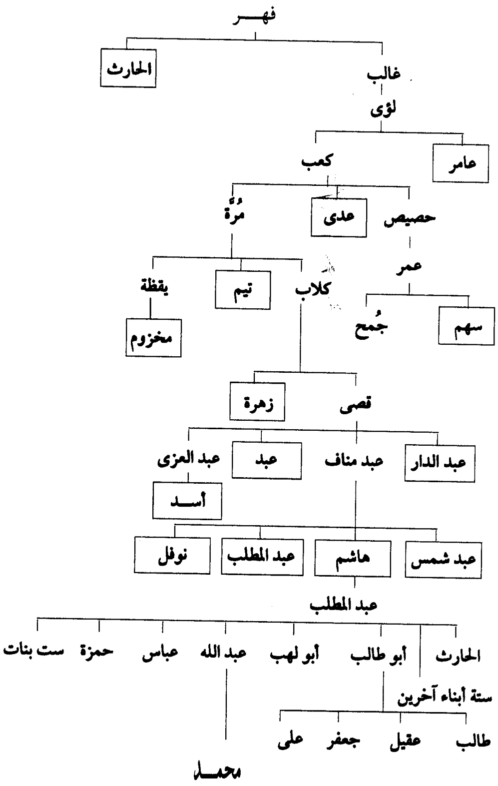

نسب محمد والأسر التى تربطها به صلة قرابة

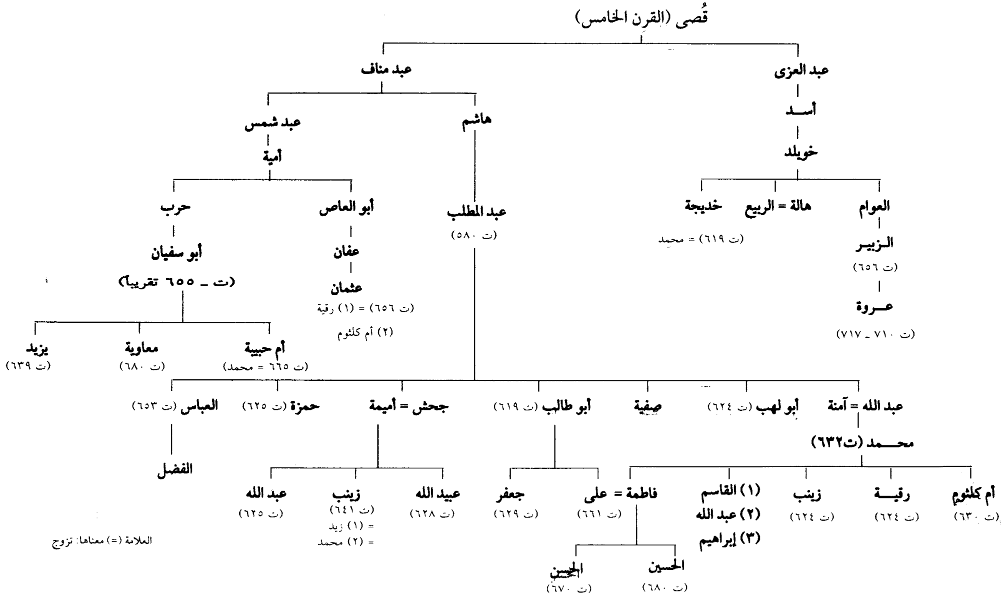

الفصل الأول
العدو محمد

كان ولايزال من العسير على أبناء الغرب أن يتفهموا العنف الذى اتسم به رد فعل المسلمين للصورة الخيالية التى رسمها سلمان رشدى للنبى محمد فى رواية **آيات شيطانية**، وكان من الصعب عليهم أن يصدقوا أن رواية من الروايات يمكن أن تثير درجة من الكراهية تصل إلى حد إهدار الدم، وبدا لهم أن رد الفعل الإسلامى دليل على تعصب إسلامى لا يرجى منه بُرء، كما أقض مضاجع أبناء بريطانيا إدراك ما تعتنقه الجاليات الإسلامية فى البلدان التى يقيمون بها من قيم مختلفة، وهى قيم فيما يبدو غريبة عنهم، وأنها على استعداد للدفاع عنها حتى الموت. ولكن هذه القضية المؤسفة كانت تحمل فى طياتها بعض ما يذكرنا بصفحات من ماضى الغرب، وهى صفحات تبعث على القلق، تُرى هل استطاع أبناء بريطانيا، وهم يشهدون المسلمين المقيمين فى مدينة برادفورد أثناء إحراقهم الرواية المذكورة، أن يقيموا علاقة من لونٍ ما بين ذلك الحدث وبين حوادث إحراق الكتب فى أوربا المسيحية على مرِّ القرون؟ إذ حدث فى عام ١٢٤٢ على سبيل المثال أن قام الملك لويس التاسع، ملك فرنسا، الذى كان يشغل منصب قديس رسمى فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بإدانة التلمود اليهودى باعتباره هجوماً خبيثًا على شخص السيد المسيح، ومن ثم أصدر أمرًا بحظر الكتاب، وأضرمت النار فى النسخ المصادرة أمام الملك. ولم يكن لويس التاسع على استعداد لمناقشة خلافاته مع الجاليات اليهودية فى فرنسا بالوسائل السلمية والعقلانية وقال ذات يوم إن الأسلوب الوحيد للنقاش مع أحد اليهود هو أن تقتله «بطعنة نافذة فى بطنه إلى أقصى ما يصل إليه السيف»[١]. وكان لويس التاسع هو الذى بدأ الحملة

الأولى من محاكم التفتيش، والتى كانت تهدف إلى معاقبة المارقين من أبناء المسيحية، ولم يكتف بإحراق كتبهم، بل أحرق المئات من الرجال والنساء. كما كان يبغض المسلمين كذلك، وكان على رأس حملتين من الحملات الصليبية ضد العالم الإسلامى. كان الغرب المسيحى، لا الإسلام، هو الذى لا يطيق التعايش فى زمن لويس التاسع، مع الآخرين، وقد يكون لنا، أن نقول إن التاريخ المرير للعلاقات بين المسلمين والغرب قد بدأ بالهجوم على النبى محمد فى إسبانيا المسلمة.

ففى عام ٨٥٠ خرج راهب يدعى بيرفكتوس إلى السوق فى قرطبة، وكانت عاصمة دولة الأندلس المسلمة، حيث لقيه بعض العرب الذين سألوه أن يفاضل بين النبى عيسى والنبى محمد. وأدرك بيرفكتوس على الفور أن بالسؤال شَرَكًا نُصب له، لأن قانون الإمبراطورية الإسلامية كان يقضى بإعدام من يسبّ النبى محمدًا، ومن ثم التزم الحذر فى إجابته أول الأمر ولكن زمامه أفلت فجأة فانطلق يصب وابلاً من الشتائم فزعم أن نبى الإسلام دجال ومولع بالجنس بل وأنه المسيخ الدجّال نفسه، وسرعان ما ألقى به فى السجن.

وكانت تلك حادثة شاذة فى قرطبة، إذ كانت العلاقات طيبة فى العادة بين المسلمين والمسيحيين، وكان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة فى أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوربا سبقًا يقاس بالسنين الضوئية، وكان كثيراً ما يطلق عليهم المستعربون:

> المسيحيون مولعون بقراءة الأشعار والقصص العربية، وهم يدرسون فقهاء الإسلام وفلاسفته، لا ليدحضوا ما يقولون بل لتصحيح لغتهم العربية وتنميق أسلوبهم، وهل لدينا اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير اللاتينية للكتاب المقدس أو من يدرس الأناجيل أو كتابات

الأنبياء والرسل؟ وا أسفا! إن جميع شباب المسيحيين من ذوى المواهب يعكفون على قراءة الكتب العربية ودراستها بحماس(٢).

كان بول الفارو، وهو الإسبانى العلمانى الذى كتب هذا الهجوم على المستعربين فى تلك الفترة أو نحوها، يعتبر الراهب بيرفكتوس بطلاً ثقافيًا ودينيًا. إذ إن تهجمه على النبى محمد كان قد أثار حركة أقلية ذات طابع غريب فى قرطبة، فكان الرجال والنساء يَمْثُلون أمام القاضى (الذى يقضى بأحكام الإسلام) ويُثبتون إخلاصهم للمسيحية بشن هجوم مقذع وانتحارى على النبى.

وعندما وصل بيرفكتوس إلى السجن، كان يرتعد فرقًا ورعبًا، ولكن القاضى قرر ألا يصدر حكمًا بإعدامه، إذ رأى أنه كان ضحية استفزاز ظالم من المسلمين، ولم يلبث بيرفكتوس، فى غضون أيام معدودة، حتى أفلت زمامه من جديد فطفق يسب نبى الإسلام سبابًا بذيئاً لم يُطق القاضى إزاءه إلا تطبيق القانون بكل صرامة. ونُفذ حكم الإعدام فى الراهب، فإذا بجماعة من المسيحيين، الذين كانوا - فيما يبدو - من زعانف المجتمع، يمزقون أوصاله ويضفون هالة من القداسة على رفات «شهيدهم». وبعد أيام مَثُلَ راهب آخر يدعى إسحق أمام القاضى وأخذ يسب محمدًا ودين محمد بحرارة جعلت القاضى يظنه مخموراً أو مختلّ العقل فصفعه على وجهه ليعيده إلى صوابه، ولكن إسحق استمر فى السباب، فلم يجد القاضى بُدًا من وضع حد لمثل ذلك الانتهاك الصارخ للقانون.

لم تكن قرطبة فى القرن التاسع تُشبه مدينة برادفورد عام ١٩٨٨، إذ كان المسلمون يتمتعون بالقوة والثقة بالنفس، وكانوا، من ثَمَّ، أبعد ما يكون عن الرغبة فى قتل أولئك المتعصبين المسيحيين: كانوا يرون، أولاً، أن المتعصبين لا يتمتعون، فيما يبدو، بكامل قواهم العقلية، وكانوا يدركون ثانياً أن أبغض ما يبغضونه هو تقديم شهداء يحاطون بالتقديس. ولم يكن المسلمون ينفرون

من الاستماع إلى ما تقوله الأديان الأخرى، فلقد ولد الإسلام فى كنف التعددية الدينية بالشرق الأوسط، حيث تتعايش شتى العقائد على مرّ القرون، وكانت الإمبراطورية البيزنطية المسيحية الشرقية تسمح كذلك بحرية الأقليات الدينية فى ممارسة شعائرها وإدارة شئونها الدينية الخاصة. ولم يكن القانون فى الإمبراطورية الإسلامية يحرم جهود الدعوة المسيحية، بشرط ألا يتعرض المسيحيون فى غضون ذلك للهجوم على النبى محمد، الذى يحبه المسلمون حُبّاً جمًا. بل إن بعض مناطق الإمبراطورية كانت تتسم بوجود تقاليد راسخة من التشكك والتفكير الحر، وكانت تواجه بالتسامح ما دامت فى حدود الذوق السليم، وما دامت لم تجنح إلى التجريح، وكان القاضى والأمير فى قرطبة يكرهان الحكم بالإعدام على بيرفكتوس وإسحق، ولكنهما لم يكونا قادرين على السماح بانتهاك القانون على هذا النحو. لكنه لم تمض أيام قلائل على إعدام إسحق حتى وصل ستة رهبان من الدير نفسه، وقاموا بالتهجم على النبى محمد بصورة مقذعة. وبلغ عدد الشهداء الذين لاقوا حتفهم فى ذلك الصيف، بهذا الأسلوب، نحو خمسين. وقد اشترك أسقف قرطبة مع المستعربين فى إدانتهم، إذ انزعج الجميع أشد الانزعاج من تيار تقديس الشهداء الذى جنح فجمح، ولكن الشهداء وجدوا من يدافع عن قضيتهم وهما قسيس يدعى يولوجيو، وپول ألفارو، إذ قال كلاهما إن الشهداء هم من «جنود الله» الذين كانوا يقاتلون ببسالة دفاعاً عن عقيدتهم، وإنهم شنوا هجوما معنويا معقداً على الإسلام، عجزت السلطات الإسلامية عن ردّه، لأنه كان، فيما يبدو، سيثبت أنها على خطأ.

كان الشهداء ينتمون لشتى المستويات الاجتماعية، فكانوا من الرجال والنساء، ومن الرهبان والقسس، ومن غير رجال الدين، ومن البسطاء ومن كبار العلماء. وكان يبدو أن الكثيرين منهم يسعون لتحقيق هوية غربية متميزة واضحة. ويبدو أن بعضهم كان ينتمى إلى أسرات مختلطة، حيث أحد

الأبوين مسلم والآخر مسيحى، وكان البعض الآخر يُنصح بأن يستوعب الثقافة الإسلامية استيعابا كاملا - إذ أُطلقت عليهم أسماء عربية(٣) أو عُيِّنوا فى وظائف معينة بالحكومة - ومن ثم اختلطت عليهم السبل وأصيبوا بالحيرة. ولا شك أن فقدان الجذور الثقافية قد يحدث قلقاً عميقًا، بل إنه، حتى فى أيامنا هذه، قد يؤدى إلى نشوء نزعة تديّن تتسمك بروح التحدى والعدوان، وهى النزعة التى تتوسل بها النفس لفك الحصار المضروب حولها. وقد يكون علينا أن نذكر شهداء قرطبة عندما نحار فى فهم نزعة العداء والغضب فى بعض الجاليات الإسلامية فى الغرب، وفى المناطق الأخرى التى تشكل فيها الثقافة الغربية تهديدا للقيم التقليدية. كانت حركة الشهداء التى قادها الفارو ويولوجيو تعارض المستعربين المسيحيين بنفس المرارة التى تعارض بها المسلمين، إذ اتهمتهم بأنهم خونة لثقافتهم.

وقام يولوجيو بزيارة إلى بامبلونا فى البلدة المسيحية المجاورة، وعاد يحمل كتبًا غربية: نصوصًا باللاتينية كتبها آباء الكنيسة ومؤلفات رومانية كلاسيكية من تأليف فيرچيل وجوفينال. كان يطمح فى مقاومة استعراب مواطنيه الإسبان، وإبداع نهضة لاتينية تتوقد حنينًا وشوقًا إلى الماضى الرومانى لبلده، فذلك من سبل إحباط تأثير الثقافة الإسلامية السائدة، ولكن الحركة خبت وتدهورت عندما أصدر القاضى حكمه بإعدام يولوجيو. وقد طلب القاضى إليه أن ينجو بأن يعلن اسميا قبوله الإسلام - إذ لن يتحقق أحد من سلوكه الدينى بعد ذلك - وألا يستسلم «لتلك التصرفات المؤسفة الانتحارية المهلكة» مثل غيره من «المغفلين والبلهاء»(٤) ولكنَّ ردَّ يولوجيو اقتصر على أن طلب منه شحذ السيف.

لم تكن هذه الحادثة الغريبة من الحوادث التى تميزت بها الحياة فى إسبانيا المسلمة، إذ ظل أبناء أديان التوحيد التاريخية الثلاثة، يعيشون فى سلام. ووئام نسبيين على مدى الأعوام الستمائة التالية، فكان اليهود ـ الذين كانوا

يتعرضـون للملاحقة والقـتل فى سائر أنحاء أوربا - يتمتـعون بنهضة ثقـافية حافلة خاصة بهم. ولكـن قصة شهداء قرطبة تكشف عن مـوقف سرعان ما تفشى فى الغرب، فـفى ذلك الوقت كان الإسلام قوة عالمية كـبرى، وكانت أوربا التى اكتسحتـها القبائل الهمجية، قد أصبـحت بِرْكَةً ثقافية آسنة. وعلى مر الأيام بدا أن العالم كله قد أصبح إسلامياً مـثلما يبدو لنا اليوم وقد اكتسى الطابع الغربى، وظل الإسلام يمثل تحديا لا يتوقف للغرب حتى القرن الثامن عشر، أما الآن فيبدو أن حربًا باردةً ضد الإسلام توشك أن تحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى.

كان يولوجيو وألفـارو يعتقـدان أن سطوع نجم الإسلام يبشر بقدوم المسيخ الدجال، وهو الدجال العظيم الذى ورد وصفه فى العهد القديم، والذى ينذر حكمه بحلول الأيام الأخيـرة للبشرية. وقد أوضح مؤلف الرسـالة الثانية إلى أهل تسالونيكى أن المـسيح لن يعود إلى الأرض حـتى تقع «الرِّدة الكبرى» إذ يأتى «أثيم» ويقيم ملكه فى هيكل أورشليم ليُضلَّ كثـيرًا من المسيحيين «بآيات وعجـائب كاذبة»[٥]. وقـد ورد فى سفـر «رؤيا يوحنا اللاهوتى» أيضا ذكـر وحش عظيم، «سمـتُه عجيـبة» وهى العدد ٦٦٦، يخرج من الهـاوية ويتوج نفسه على عرش جبل المعبد، ويحكم العالم[٦]. وكان يبدو أن الإسلام يتفق اتفاقـا تامًا مع هذه الرؤى القديمـة، إذ فتح المسلمون بيت المقـدس فى عالم ٦٣٨، وبنوا مسـجدين عظيمين على جـبل المعبد، وبدا أنهم حقـا يحكمون العالم، وقيل أيضا إن مـحمدًا قد أتى بعد المسيح، حـيث انتفت الحاجة إلى تنزيل جديد، ولكنه نَصَّب نفسه نبياً وارتدّ كثـير من المسيحيين واعتنقوا الدين الجديد. وكانت بحوزة يولوجيو والفارو سيرة مـختصرة لحياة محمد تقول إنه توفى فى عام ٦٦٦ من التـاريخ الإسبانى، وبذلك تسـبق الحساب التـقليدى بثمانية وثلاثين عاماً. وكانت تلك السـيرة النبوية التى كتبت فى أواخر القرن الثامن من وجهة نظر غربية، قد قام بإعدادها أحد الأديرة، ويدعى «دير لير»

بالقرب من بامبلونا فى براغيل العالم المسيحى الذى كان يرتعد فرقا أمام العملاق الإسلامى الجبار. كان نجاح الإسلام يثير سؤالاً يتجاوز التهديد السياسىّ الذى يمثله، وهو سؤال لاهوتى يبعث على القلق: كيف سمح الله لهذه العقيدة «الكاذبة» بالظهور والانتشار؟ ترى هل تخلى الله عن مناصرة شعبه وأهله؟

كانت صيحات التهجم التى أطلقها شهداء قرطبة ضد نبى الإسلام تستند إلى تلك السيرة القائمة على «الرؤيا». وصوّر الوهم للأذهان التى سيطر عليها الرعب أن محمدًا دجال كاذب، نصّب نفسه نبيا ليخدع العالم، وصور لها الوهم أنه فاسق يستمرئ الفسق البذىء ويدفع أتباعه إلى محاكاته، وصور لها الوهم أنه كان يُجْبر الناس على اعتناق عقيدته بحد السيف. وانتهت هذه الأوهام إلى القول بأن الإسلام ليس ديناً مستقلاً منزّلاً، بل بدعة، أو صورة مشوهة من صور المسيحية، وأنه دين عنف يؤمن بالسيف ويمجد الحرب والقتل. وقد سمع البعض أنباء شهداء قرطبة فى مناطق أخرى من أوربا، بعد أن انطفأت شعلة الحركة، ولكن هذه الأنباء لم تُحدث صدىً يذكر. ولكن الأساطير المسيحية عادت بعد نحو ٢٥٠ سنة، وأوربا توشك على العودة إلى الساحة الدولية، وهى الأساطير التى أعادت رسم هذه الصورة الوهمية لنبىّ الإسلام بدقة غريبة. ولا شك أن بعض الباحثين المتعمقين قد حاولوا وضع تصور موضوعى صادق لنبى الإسلام وللدين الذى أتى به، ولكن الصورة الخيالية للنبى الذى حُرّف اسمه إلى «ماهاوند» استمرت قائمة على المستوى الشعبى. ومن ثم أصبح العدو الأكبر للهوية الغربية الناشئة، وأصبح يرمز لكل ما «نتمنى» أن ننفيه عن ذواتنا. وما تزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا. إذ ما يزال من الشائع عند أبناء الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمدًا ليس سوى رجل «استغل» الدين فى تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم من وجود

دراسات علمية وموضوعية كثيرة عن الإسلام ونبى الإسلام تثبت خطل هذه الأسطورة المرتبطة «بماهاوند».

كان القرن الحادى عشر يطوى صفحته عندما شرعت أوربا فى النهوض من جديد بزعامة البابا، والاستيلاء على بعض أراضى المسلمين. ففى عام ١٠٦١ كان النورمانديون قد بدءوا الهجوم على المسلمين فى جنوبىّ إيطاليا وصقلية، وتمكنوا من فتح المنطقة عام ١٠٩١، كما شرع المسيحيون فى شمالىّ إسبانيا فى شن حروبهم ضد مسلمى الأندلس، ففتحوا طليطلة عام ١٠٨٥، وفى عام ١٠٩٥ قام البابا أوربان الثانى باستدعاء فرسان أوربا لتحرير قبر المسيح فى أورشليم فى حملة كتب لها أن تعرف باسم الحملة الصليبية الأولى. وبعد سنوات من الشدائد والأهوال تمكن الصليبيونَ فى عام ١٠٩٩ من فتح أورشليم وإنشاء أول مستعمرات غربية فى الشرق الأدنى. وقد اتخذ هذا النجاح الغربى الجديد صورة الحرب التى لا هوادة فيها ضد الإسلام، وإن لم يكن أحد فى أوربا، فى البداية، يُكنُّ كراهية خاصة للدين الإسلامى أو لنبىّ الإسلام، إذ كان ما يشغل الناس هو تحقيق أحلامهم الخاصة بالمجد وتوسيع رقعة أوربا البابوية. وتفصح ملحمة أنشودة رولان التى أُلّفت فى زمن الحملة الصليبية الأولى عن جهل فاضح بالطبيعة الأساسية للعقيدة الإسلامية، إذ تُصَوِّرُ المسلمين من أعداء شارلمان ورولان فى صور عابدى الأصنام، وهم يركعون أمام ثلاثة آلهة هى «أبولّو» و «تيرفاجان» ومحمد، وإن كانوا، على ذلك، جنودًا شجعاناً، يسعد المقاتل بمنابذتهم.. وعندما تلاقت جيوش الحملة الصليبية الأولى فى آسيا الصغرى للمرة الأولى مع الأتراك، أحست بالاحترام البالغ لهم والإعجاب بشجاعتهم:

> من ذا الذى يستطيع، مهما تكن خبرته وعلمه، أن يجرؤ على الكتابة عن مهارة الأتراك وبسالتهم وشجاعتهم؟ كانوا يظنون أنهم سيقذفون الرعب فى قلوب الفرنجة مثلما ألقوا الرعب فى قلوب

العرب وأبناء الصحراء وأبناء أرمينيا وسوريا واليونان، بالخشية من سهامهم! ومع ذلك فالله شاهد على أن رجالهم لم يتفوقوا أبدًا على رجالنا. وهم يقولون إنهم من سلالة الفرنجة نفسها، وإنهم مفطورون على الفروسية. وهذا صحيح ولا يمكن أن ينكره أحد، فإذا كانوا قد ثبتوا على العقيدة المسيحية وأبدوا استعدادهم لقبول الإيمان بإله واحد يحلُّ فى ثلاثة أشخاص... فلن تجد أقوى ولا أشجع ولا أمهر من هؤلاء الجنود. ومع ذلك فقد منّ الله على رجالنا فقهروهم(٧).

لقد أحس الفرنجة بالوشائج التى تربطهم بجنود المسلمين فى موقعة دوريليوم عام ١٠٩٧، ولكن الصليبيين فتحوا أورشليم بعد ذلك بسنتين وبدا عندها أنهم لا يستطيعون اعتبار المسلمين بشرًا مثلهم، إذ قاموا بارتكاب مذبحة بين سكان المدينة عامدين، وهى المذبحة التى صَدَمَتْ مشاعر الجميع حتى من معاصريهم. وأصبحوا بعد ذلك يعتبرون المسلمين وباءً لا بد من تطهير الأماكن المقدسة منه، وكانت الصفة الرسمية التى أطلقت عليهم فى مصطلح الحملات الصليبية هى «القذارة».

كان اهتمام أوربا بالنبى محمد يكاد يكون معدومًا قبل عام ١١٠٠، ولكن الجميع، أصبحوا يعرفونه فى عام ١١٢٠، ففى نفس الوقت الذى كانت فيه أساطير شارلمان والملك آرثر وروبين هود قد بدأت تشيع فى الغرب، أصبحت «أسطورة ماهاوند» عدو الممالك المسيحية وقرينها، راسخة فى مخيلة أبناء الغرب. وقد أوضح الباحث ر. و. ساذرن فى دراسة بعنوان «صور الإسلام فى الغرب إبان العصور الوسطى» ذلك قائلا:

لا شك أنهم عندما وضعوا هذه الأساطير والأوهام، كانوا يرون أنها تمثل الصورة الحقيقية، إلى حد ما، للواقع الذى تصفه، ولكنها اتخذت بعد كتابتها طابعًا أدبيًا وهبها حياتها الخاصة. ولم تتغير كثيرًا صورة محمد وأتباعه من أبناء الصحراء، على مستوى الشعر الشعبى،

من جيل إلى جيل، وكان هؤلاء يشبهون الشخصيات الخيالية المحبوبة، التى يتوقع القارئ أن تتسم بخصائص معينة، ومن ثم حقق المؤلفون غاية القراء فطفقوا يصفون تلك الخصائص على امتداد مئات السنين(٨).

وربما أدى الطابع «الخيالى» لشخصية «ماهاوند» فى الغرب، إلى زيادة الصعوبة التى يواجهها الناس اليوم إذا حاولوا النظر إليه باعتباره شخصية تاريخية جديرة بالدراسة الجادة التى يولونها لنابليون أو للإسكندر الأكبر. والصورة الخيالية لشخصية «ماهاوند» فى رواية **آيات شيطانية** تتفق على أعمق مستوى مع هذه الأوهام الغربية الراسخة.

فلقد لجأت الأساطير، فى محاولة لتفسير سر نجاح محمد، إلى الزعم بأنه كان ساحراً دبّر «معجزات» زائفة، حتى يخدع العرب السُّذَّج، ويدمر الكنيسة فى إفريقيا والشرق الأوسط. وتتحدث إحدى الحكايات عن ثور أبيض نشر الذعر بين السكان ثم ظهر آخر الأمر، وكان القرآن وهو الكتاب الذى أتى به محمد إلى العرب، يتراقص فى الهواء بين قرنيه باعتبار ذلك من المعجزات. وقيل أيضاً إن محمدًا قام بتدريب حمامة على التقاط حبات البازلاء من أذنيه، حتى يبدو للرائى كأن روح القدس تتنزل عليه وتهمس له بالوحى، أما تجاربه الدينية الحقيقية فقد فسرها هؤلاء بأنه كان يعانى من مرض الصّرع، وكان معنى ذلك فى تلك الأيام أنه رجل تسكنه الجان، كما أفاضوا فى الحديث عن حياته الجنسية فاتهموه بأقذع ضروب الشذوذ، وقالوا عنه إنه أغرى الناس بالانضمام إلى دينه بتشجيعهم على إرضاء غرائزهم الدنيا. وقالوا إن مزاعم النبى محمد كانت جميعها كاذبة، وإنه كان دجالاً عامداً تمكن من خداع معظم أبناء شعبه، وأما بعض أتباعه الذين تكشفت لهم حقيقة أفكاره السخيفة فالتزموا الصمت بسبب أطماعهم الدنيئة. والواقع أن المسيحيين الغربيين لم يجدوا سبيلا إلى تفسير الرؤية الدينية الرائعة والمقنعة التى أتى بها

محمد، وإلى تفسير سر نجاحها، إلا بإنكار الوحى ومن ثم نفى وجود مصدر مستقل لها، مما يعنى أن الإسلام كان فى نظرهم فرقة خارجة على المسيحية، وهى بهذا تمثل بدعة البدع، وغاية المروق. وزُعم فيما زعم أن رجلا يدعى سيرجيوس كان راهباً ثم أصبح مارقا ومن ثم أُرغم على الفرار من بلدان المسيحية، وكان ذلك ما ينبغى له أن يفعل، ومن ثم ذهب إلى بلاد العرب وقابل محمداً ولقنه أصول الصورة المشوهة للمسيحية التى أتى بها. وكان الغربيون يقولون إن دين محمد (المحمدية) ما كان ليظهر على الدين كله إلا بحد السيف، وإن المسلمين لم يكن مسموحا لهم بمناقشة الدين مناقشة حرة فى الإمبراطورية الإسلامية، وإن محمداً قد انتهى نهاية تعتبر جزاء وفاقاً، إذ هجم عليه قطيع من الخنازير أثناء إحدى نوبات اتصاله بالجن فمزقوه إرْباً.

وبعض تفاصيل هذا الوهم تعكس بواعث قلق المسيحيين على هويتهم التى كانت قد بدأت تظهر، فالوصمة التى ألحقوها بالإسلام باعتباره «دين السيف» نشأت فى إبان الحملات الصليبية، وهى فترة لابد أن المسيحيين فيها أحسوا بقلق دفين إزاء الصورة العدوانية التى اتخذتها عقيدتهم، وهى صورة لا علاقة لها برسالة الدعوة إلى السلم التى جاء بها المسيح. وفى الوقت الذى كانت الكنيسة تفرض على رجال الدين الامتناع عن الزواج، على رغبتهم فيه وحرصهم عليه، كانت الرواية المدهشة الغريبة عن الحياة الجنسية للنبى محمد تنم على ألوان الكبت التى يكابدها المسيحيون أكثر مما تتعلق بأية حقائق عن حياة النبى الشخصية. ولا شك أن الصورة التى رسموها للإسلام كانت تتضمن حسداً ظاهراً، إذ كانوا يصورونه فى صورة دين المتعة والتيسير. أما التهمة الأخيرة فهى مردودة عليهم، إذ إن الغرب لا الإسلام هو الذى حظر حرية مناقشة المسائل الدينية. ففى زمن الحملات الصليبية كانت «الوحدة الفكرية» غاية تتحرق أوربا شوقاً إلى تحقيقها، حتى بدت من قبيل «النزعة المسيطرة»، وكانت أوربا تعاقب من يخرج عليها بحماس فريد فى تاريخ

الدين. وكانت مطاردة رجال محاكم التفتيش «للساحرات» أو من بهنّ مسّ من الشيطان وحركة اضطهاد البروتستانت والكاثوليك بعضهم البعض، تقومان على آراء لاهوتية عميقة ومعقدة، وكانت اليهودية والإسلام يعتبران فى هذا الإطار من العقائد الفردية الثانوية، فلم تكن اليهودية تشارك المسيحية نظرتها إلى «البدعة»، ولم يكن الإسلام يشاركها تلك النظرة هو الآخر، فنظرة المسيحية للبدعة ترفع من قيمة الآراء البشرية فى القداسة إلى حد غير مقبول، بل إنها تصل إلى صورة تقترب من عبادة الأوثان، والواقع أن عصر الحملات الصليبية الذى شهد ترسيخ الصورة الخيالية لماهاوند، كان عصر توتر بالغ، بلغ فيه المروق من الدين أشده فى أوربا، وما الخوف المرضى من الإسلام إلا التعبير الساطع عن تلك الظاهرة.

وبدأ يتضح أن المسيحيين الغربيين لن يستطيعوا تقبل وجود جاليات دينية مختلفة أو عقائد متباينة فى إطار النظم التى أقاموها، أو يحرزوا فى ذلك من النجاح ما أحرزه المسلمون أو البيزنطيون. ولما كانت اليهودية هى الدين الأجنبى الوحيد القائم آنذاك على الأرض الأوربية، فقد استهل رجال الحملة الصليبية الأولى رحلتهم إلى الشرق الأوسط بمذابح للجاليات اليهودية المقيمة فى وادى نهر الراين، وكانت تلك أولى المذابح الجماعية فى أوربا. وكُتب للعداء للسامية أن يصبح مرضاً أوربيا عضالاً أثناء الحملات الصليبية. وبينما كان المسيحيون يلفقون أساطيرهم عن «ماهاوند» وأبناء الصحراء، كانت أوهامهم المرعبة عن اليهود تنسج روايات مماثلة، فقالوا إن اليهود يقتلون الأطفال الصغار ويمزجون الدم بخبز عيد الفصح العبرانى، وإنهم يدنسون القربان المقدس، وإنهم يدبرون مؤامرة دولية واسعة النطاق للإطاحة بالمسيحية. ولم توضع فى العالم الإسلامى أمثال هذه الأساطير المعادية لليهودية، التى تنم على وجود اضطرابات وأمراض فى نفوس الغربيين، أما بعد فتوحاتهم فى إسبانيا وجنوبىّ إيطاليا وصقلية، فقد أصبح العشرات من

الآلاف من المسلمين يعيشون داخل حدود الممالك المسيحية، وبدا للمؤسسة الحاكمة أن الأسلوب الوحيد الكفيل بإنجاح التعامل مع هؤلاء الأجانب يتمثل فى فرض سيادة فصل عنصرى رسمية، تقضى بمنع المسيحيين من إقامة أية صلات مع جيرانهم من المسلمين واليهود. وصدرت تشريعات كنسية خاصة تربط المسلمين باليهود باعتبارهم العدو المشترك فى المجلسين البابويين اللذين عقدا عامى ١١٧٩ و١٢١٥، إذ قضت تلك التشريعات بفرض عقوبات تتمثل فى الطرد من الكنيسة، وما يترتب على ذلك من مصادرة الممتلكات، على كل مسيحى يقبل الخدمة فى منازل المسلمين أو اليهود، أو رعاية أطفالهم أو الاتجار معهم أو حتى مشاركتهم طعامهم. وفى عام ١٢٢٧ أضاف البابا غريغوريوس التاسع المراسيم التالية: يجب على المسلمين واليهود أن يرتدوا ملابس مميزة لهم، ويجب ألا يظهروا فى الشوارع أثناء الأعياد المسيحية أو أن يتولوا مناصب حكومية فى البلدان المسيحية، كما مُنع المؤذن من إيذاء أسماع المسيحيين بدعوة المسلمين إلى إقامة الصلاة بالأسلوب المعهود.

وأعلن البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) أن وجود مسلم على الأرض المسيحية يعتبر إهانة لله، وكان المسيحيون قد شرعوا قبل ذلك فى التصدى لتلك الظاهرة التى اعتبروها مخزية، فقام ملك فرنسا شارل آنشو عام ١٣٠١ بإبادة من بقى من المسلمين الصقليين ومن أبناء جنوب إيطاليا فى «محمية» لوسيرا، وكان وصفها بأنها «وكر الوباء... متوهجة التلوث... مصدر الطاعون العضال والجراثيم القذرة فى أبوليا» (٩). وفى عام ١٩٤٢ سقطت آخر قلعة إسلامية فى أوربا، عندما قام فرديناند وإيزابيلا بفتح غرناطة، إذ دقت أجراس الكنائس فى شتى أرجاء أوربا ابتهاجاً بالنصر المسيحى على الكفار. ولم تمض سنوات معدودة حتى كان مسلمو إسبانيا يواجهون الاختيار بين الترحيل أو التحول إلى اعتناق المسيحية، ولم تلبث محاكم التفتيش أن قامت باضطهادهم هم وذريتهم على مدى ٣٠٠ سنة أخرى. وهكذا حلت روح شهداء قرطبة محل التسامح القديم، وبدا أن

المسيحيين فى إسبانيا قد تملكهم الخوف من المسلمين المتخفين، الذين يعيشون بين ظهرانيهم، باعتبارهم العدو السرى للمجتمع.

وكثيراً ما كان الموقف الغربى الفاسد تجاه الإسلام يتجلى فى ردود أفعال تنبئ عن انفصام نفسى، إذ كان الإمبراطور «الرومانى المقدس» فريدريك الثانى محباً للإسلام، وكان يجد من الانتماء النفسى الحقيقى فى العالم الإسلامى أكثر مما يجده فى أوروبا المسيحية، ولكنه كان، على ذلك، لايكف عن قتل المسلمين وترحيلهم من بلده صقلية. والغريب أنه فى الوقت الذى انقض فيه المسيحيون على المسلمين يذبحونهم فى الشرق الأدنى، كان آخرون يجلسون لتلقى العلم عند أقدام علماء المسلمين فى إسبانيا. وكان العلماء من المسيحيين واليهود والمستعربين يتعاونون فى مشروع ترجمة جبار لنقل معارف العالم الإسلامى إلى الغرب واستعادة الحكمة الكلاسيكية القديمة التى فقدتها أوربا فى العصور المظلمة. كان الفيلسوفان المسلمان ابن سينا وابن رشد يحظيان بالتبجيل باعتبارهما من نجوم الفكر الساطعة، ولو أن الجمهور كان يواجه صعوبة متزايدة فى تقبل كونهما من المسلمين. وقد وجدت المشكلة أبلغ تعبير عنها فى ملحمة **الكوميديا الإلهية** لدانتى، التى تصورهما فى البرزخ (أى فى الأعراف) مع فضلاء الوثنيين الذين أرسوا أسس الثقافة الفكرية وأعانوا الغرب على اكتسابها، مثل إقليدس وبطليموس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو. ولكن دانتى يصور محمداً فى الفلك الثامن للجحيم، مع أرباب الفتنة التى أحدثت الانشقاق الدينى، ويصوره فى عذاب مهين(*):

(*) تورد المولفة هنا أبياتاً قبيحة لا يليق نشرها بالعربية عن رسول الإسلام، وقد سبق للأستاذ حسن عثمان أن أشار إليها فى ترجمته قائلاً: «ولقد حذفت من الأنشودة (رقم ٢٨) أبياتاً وجدتها غير جديرة بالترجمة، وردت عن النبى محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد أخطأ فى ذلك دانتى خطأ جسيماً تأثر فيه بما كان سائداً فى عصره، فى المؤلفات أو بين العامة، بحيث لم يستطع أهل الغرب وقتئذ تقدير رسالة الإسلام الحقة وفهم حكمته الإلهية» (ص ٣٦٥ من الترجمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩).

ولا يعتقد المترجمان أن حذف الأبيات ينتقص من الهدف الذى تسعى المؤلفة إلى إبرازه، فهى أبيات قبيحة لا تليق بشاعر كبير، وإن كان التراث العربى فى الهجاء حافلاً بأمثالها.

أى إن دانتى لم يكن يستطيع أن يسمح حتى ذلك الوقت بأن تكون للنبى محمد رؤيته الدينية المستقلة. فهو يصفه بأنه منشق لا أكثر، خرج عن العقيدة الأصلية. والصور البذيئة التى يرسمها دانتى تفصح عن مدى الاشمئزاز الذى كان الإسلام يبعث عليه فى صدور المسيحيين ولكنها تبين أيضاً مدى الانفصام فى النفس الغربية، إذ ترى فى الإسلام صورة لكل ما لا تستطيع هضمه فى ذاتها، وكان المزيج من الخوف والكراهية الذى يعتبر مناقضا بل وإنكاراً تاماً لرسالة المحبة التى أتى بها المسيح، يمثل كذلك جُرحاً عميقاً فى وحدة المسيحية الغربية وسلامتها.

ومع ذلك فقد حاول البعض الآخر التوصل إلى رؤية تتسم بالمزيد من الموضوعية. ومن الطريف، فى الوقت الذى كانت المخيلة المسيحية تصهر اليهود والمسلمين فى بوتقة واحدة باعتبارهما العدو المشترك للحضارة، أن تكون صورة من أوائل الصور الإيجابية لمحمد فى الغرب صورة رسمها له بيتر ألفونسى، وهو يهودى إسبانى اعتنق المسيحية عام ١١٠٦ ثم قضى بقية حياته فى إنجلترا، طبيباً للملك هنرى الأول، كان على عدائه للإسلام يصوره فى صورة الدين الذى يقبله ويرضاه من لم يسبق له الالتزام بالعقيدة «الحقة». وفى عام ١١٢٠ أو نحو ذلك التاريخ الذى بلغ فيه العداء للإسلام ذروته، كتب وليم مامزبرى دراسة يفرق فيها بين الإسلام والوثنية، فكان أول أوربى يفعل ذلك، إذ جاء فيها «إن أبناء الشرق والأتراك يعبدون الله، الخالق، ويبجلون محمداً لا باعتباره رباً بل باعتباره نبياً لهم» (١١). وكانت تلك نظرة نافذة مايزال الكثيرون من أبناء الغرب يرفضون قبولها، ومايزال بيننا بعض من يدهش دهشة حقيقية حين يسمع أن المسلمين يعبدون الإله الذى يعبده اليهود والمسيحيون نفسه: فهم يعتقدون أن «الله» إله يختلف اختلافا كاملاً، كأنما هو جوبيتر فى مجمع الآلهة الرومانى، ويميل البعض الآخر إلى افتراض أن «المحمديين» يبجلون نبيهم تبجيلاً من نفس اللون الذى يكنه المسيحيون للمسيح.

وتتجلى صعوبة فصل الحقيقة عن الوهم فى قصة **تاريخ شارلمان** التى تنسب إلى توربين، وكتبت فى وقت ماقبل عام ١١٥٠، وهى تصور الشرقيين أو أبناء الصحراء «الوثنيين»، إذ يعبدون محمداً مع «أبوللو» و«تيرفاجانت»، على نحو ما كان متبعاً فى قصص المغامرات وأناشيد البطولات الفرنسية. ومع ذلك، ففى خضم هذه الصور تدور مناظرة عقلانية بين رولان وعملاق مسلم يدعى فيراكتوس يتجلي فيها الوعى بأن المسلمين يعبدون الله الواحد الصمد. وفى نحو ذلك الوقت أيضاً كتب المؤرخ أوتو فرايزنج بحثاً ينكر فيه أن المسلمين يعبدون الأصنام.

> من المعروف أن جميع أبناء الشرق يعبدون الله وحده، ويعترفون بشريعة العهد القديم، وشعيرة الطهارة. بل إنهم لا يهاجمون المسيح ولا الرسل. ولا يقصيهم عن الخلاص إلا شىء واحد، ألا وهو إنكارهم أن المسيح عيسى هو الله أو ابن الله، وتبجيلهم الغاوى محمداً باعتباره نبياً عظيماً للرب الأعلى.(١٢).

وهكذا، فما إن حل منتصف القرن الثانى عشر، حتى بدأ انتشار نظرة أدق للإسلام، وإن كان ازدياد الموضوعية لم يبلغ القوة الكفيلة بتبديد الأساطير المعادية للإسلام، بل استمرت الحقائق والأوهام فى امتزاجها وتوافقها، بحيث ظلت الأحقاد القديمة تطل برأسها فى بعض الأحيان، حتى أثناء المحاولات الصادقة التى بذلها البعض لتوخى العدل والإنصاف، إذ ظلت صورة محمد صورة دجال منشق، مهما يكن من أمر المؤرخ أوتو الذى وضع تصوراً أقرب إلى العقل لدين النبى محمد.

وكانت أهم محاولات وضع تصور موضوعى للإسلام فى القرن الثانى عشر هى المحاولة التى قام بها «بيتر المبجل» الذى كان يشغل منصب رئيس دير «كلونى» وعرف بمشاعره الإنسانية الرقيقة. إذ قام فى عام ١١٤١ بجولة فى أديرة القديس بنيدكت فى إسبانيا المسيحية، وتكليف فريق من العلماء

المسيحـيين والمسلمين، برئاسة رجل إنجليـزى يدعى روبرت كيتون، بتـرجمة بعض النصوص الإسـلامية، ومن ثـم اكتمل ذلك المشـروع فى عام ١١٤٣. وكـان من ثماره أول ترجـمـة لاتينية لـلقرآن، ومـجمـوعـة من الأساطيـر الإسلامـية، وتاريخ إسـلامى للعالم، وشـرح للتعاليم الإسـلاميـة، ورسالة حوارية عنوانها «دفاع الكندى». وكان ذلك إنجازاً رائعاً، إذ أتاح لأبناء الغرب أول فرصـة لدراسة الإسلام دراسة جـادة. ولكن نتائجه كانت مـحدودة، إذ كان المسيحـيون فى تلك الآونة قد بدءوا يتعرضون لهـزائم عسكرية كبرى فى الدول الصليبية فى الشرق الأدنى، وارتفعت مـوجة جديدة من مشاعر العداء للإسلام، يعـمل على تنظيمهـا الأسقف برنارد، رئيس دير كليـرفوكس، مما جعل الوقت غير مناسب للشروع فى دراسة موضوعية للقرآن. وكان الأسقف بيتر قد كتب دراسة خاصة يتـوجه فيها بالخطاب إلى العالم الإسلامى بنبرات رقيقـة يعمرها الحب، فكتب يقول: «إننى أتوجه إليكـم بالكلمة، لا بالسيف كما يتوجه غيـرى من الرجال، فى معظم الأحوال: وها أنا أتوسل بالعقل لا بالقوة، وبالحـب لا بالكراهية. . . إننى أحبـكم، ويدفعنى حبى إلـى الكتابة إليكم، وكتابتـى تدعوكم إلى الخلاص» (١٣). ولكن عنوان هذه الدراسة كان **«ملخص البدعة الكاملة التى أتت بها طائفة الشرقيين الشيطانية»**. ومن ثم لم يكن من المحتمل أن يجد الكثير من المسـلمين الصادقين أى لون من التعاطف فى مثل هذا المنهج، حتى لو تمكنوا من قراءة النص اللاتينى الذى كتبه رئيس دير كلونى. بل إن هذا الأسقـف الطيب الذى أظهر معـارضته لتـعصب أبناء زمانه فى مناسـبات أخرى، يدل فى كتـاباته على الانفصام الذى كـان العقل الأوربى يعانى منه فى نظرته للإسلام. وعندما قام الملك لويس السابع، ملك فرنسا، بقيـادة الحملة الصليبية الثانيـة إلى الشرق الأوسط عام ١١٤٧، كتب الأسقف بيـتر إليه يقول إنـه يتمنى أن يقتل عدداً كـبيراً من المسلمـين، عدداً يوازى من قـلتـهم مـوسـى (هكذا) ويوشع (يـشـوع) من **الأمـوريين** والكنعانيين. (١٤)

وفى أوائل القرن الثالث عشر، حاول مسيحى آخر يتصف بالقداسة أن يخاطب العالم الإسلامى فى سياق حملة عسكرية صليبية، إذ حدث أثناء القتال فى الحملة الصليبية الخامسة التى باءت بالفشل (١٢١٨ ـ ١٢١٩) أن جاء «القديس» فرانسيس أسيسى إلى المعسكر المسيحى فى دلتا نهر النيل، ثم عبر خطوط الأعداء وطلب السماح له بمقابلة السلطان الكامل. وقيل إنه قضى ثلاثة أيام مع السلطان، يشرح رسالة الإنجيل، ويحث السلطان على التحول إلى المسيحية، وقد حرص فرانسيس على عدم المساس بذكرى النبى محمد، مما شجع المسلمين على الاستماع إليه، ويبدو أنهم أعجبوا بذلك الأشعث الأغبر. وعندما آن له أن يرحل قال السلطان الكامل: «ادع الله لى، وابتهل إليه أن يهدينى إلى ما يحبه ويرضاه من شرع وإيمان». ومن ثم أعاد فرانسيس إلى المعسكر المسيحى «معززاً مكرماً سالماً آمناً» (١٥).

وكان فرانسيس قد أرسل ـ قبل رحيله إلى الشرق ـ فريقاً من صغار القسس للدعوة بين المسلمين فى إسبانيا وإفريقيا، ولكن المنهج الذى اتبعوه فى مخاطبة العالم الإسلامى كان يختلف فى روحه اختلافاً شاسعاً. فعندما وصلوا إلى إشبيلية لجئوا إلى أساليب شهداء قرطبة، فحاولوا أولاً اقتحام المسجد أثناء صلاة الجمعة، وعندما قام المصلون بتفريقهم، اتجهوا إلى قصر الأمير، وشرعوا يسبون النبى محمداً بصوت عالٍ خارج القصر. وهكذا كانت هذه البعثة التبشيرية، وهى أول بعثة كبرى إلى أبناء الشرق، لا تتسم بأى تعاطف أو حب، لأن أتباع فرانسيس (الفرنسيسكان) لم يكونوا يرمون إلى «هداية» المسلمين إلى المسيحية، بل كانوا يحاولون استغلال الموقف للظفر بإكليل الشهادة. ولما علت أصواتهم وازدادت جلبتهم اضطرت السلطات إلى حبسهم، إذ تسببت الحادثة فى حرج شديد لهم، كما حاولت السلطات تجنب ذيوع أمرهم فدأبت على نقلهم من سجن إلى سجن. ورفضت الحكم عليهم بالإعدام، ولكن المسيحيين المستعربين فى إشبيلية كانوا يخشون أن يتسبب

هؤلاء المتعصبون فى تعريض موقفهم للخطر، وطلبوا من السلطات التخلص منهم. وانتهى الأمر بترحيل الفرنسيسكان إلى مدينة «سبته» فى المغرب، ولكنهم ما إن وصلوها حتى اتجهوا إلى المسجد أثناء صلاة الجمعة، وشرعوا من جديد فى سبّ النبى محمد. ولم تجد السلطات بداً، آخر الأمر، من إعدامهم. وعندما وصلت الأنباء إلى «القديس» فرانسيس، قيل إنه صاح فى ابتهاج «أعلم الآن أننى ظفرت بخمسة قسس صغار يخلصون لى» [١٦].

ويبدو أن تلك النزعة قد غلبت على بعثات التبشير الفرنسيسكانية التالية، ففى عام ١٢٢٧ أعدم فريق آخر من القسس فى سبته، وكانوا قد أرسلوا خطابات إلى بلدهم يقولون فيها إن هدف البعثة هو «الموت والهلاك للكفار» [١٧]، واتجه فريق آخر إلى الأراضى المقدسة، ولكن أساليبهم لم يرض عنها جيمس فيترى، أسقف عكا، فكتب يقول:

إن المسلمين لايترددون فى الإصغاء للقسس الصغار عندما يتحدثون عن إيمان المسيح وتعاليم الأناجيل. ولكنهم عندما يتعرضون فى حديثهم إلى إنكار ما جاء به محمد، إذ يصورونه فى خطبهم الدينية فى صورة الكاذب الخائن، فإن المسلمين يضربونهم دون احترام لبعثتهم، ولولا لطف الله الذى يحفظهم بما يشبه المعجزة، لكان مصيرهم القتل أو الطرد من مدن المسلمين» [١٨].

وهكذا كان الحال إبان العصور الوسطى. فحتى عندما كان البعض يحاول التزام الإنصاف والموضوعية، أو الدعوة لرسالة المسيحية بين المسلمين، كان العداء يتفجر، وكان أحياناً ما يتخذ طابع العنف الشديد. ففى نهاية القرن الثالث عشر، قام العلامة الدومينيكى «ريكولدو دا مونتى كروتشى» بجولة فى البلدان الإسلامية، وأعرب عن انبهاره بمستوى التقوى والورع الذى صادفه، فكتب يقول: «إن على المسيحيين أن يخجلوا من ورع المسلمين». ولكنه عندما عاد إلى وطنه ليكتب عن «إقامة الحجة على المسلمين والقرآن» لم يزد

على تكرار الأساطير القديمة. كانت الصورة الغربية للإسلام قد بدأت تتخذ من القوة ما يكفل دحض آثار أى احتكاك مع المسلمين الحقيقيين، مهما تكن الآثار إيجابية، إذ وجد الغرب روحه فى أيام الحروب الصليبية، ويستطيع الباحث أن يُرجع معظم ما نتميز به عن غيرنا من المشاعر الفياضة وضروب الحماس إلى تلك الفترة، وهذا هو ما ألمح إليه «أومبرتو إيكو» فى مقال عنوانه: «أحلام القرون الوسطى»، إذ يقول:

> الواقع أن الأمريكيين والأوربيين قد ورثوا التركة الغربية، فمعظم مشاكل العالم الغربى قد ظهرت فى القرون الوسطى، لأن المجتمع القروسطى هو الذى ابتدع اللغات الحديثة، والمدن التجارية، والاقتصاد الرأسمالى (إلى جانب البنوك والشيكات، وأسعار الفائدة على الودائع). ونحن نشهد فى القرون الوسطى نشأة الجيوش الحديثة، والمفهوم الحديث للدولة القومية، وكذلك فكرة الاتحاد الإلهى (تحت راية إمبراطور ألمانى يختاره مجلس نيابى يقوم بمهمة المؤتمر الانتخابى)، والصراع بين الأغنياء والفقراء، ومفهوم البدعة أو الانحراف الأيديولوجى، بل حتى فكرتنا المعاصرة عن الحب باعتباره سعادة مدمرة تجلب الشقاء. ويمكننى أن أضيف إلى القائمة الصراع بين الكنيسة والدولة، والنقابات العمالية، (وإن كانت فى صورة الشركات) والتحولات التكنولوجية لعمل العمال.(١٩)

وكان يمكنه أن يضيف أيضا مشكلة الإسلام. فانتهاء القرون الوسطى لم يؤذن بانتهاء الأساطير القروسطية القديمة. فعلى كثرة المحاولات التى بذلت لوضع منظور يتميز بالمزيد من الموضوعية والإيجابية، وعلى تنامى الاتفاق فى آراء العلماء على أن الإسلام وبنى الإسلام لا يمثلان الظواهر المخيفة التى توهمها الناس، ظل التعصب القديم قائماً.

وقد استمرت صورة الإسلام الموهومة التى روجها شهداء قرطبة إبان فترة الحملات الصليبية، وإن لم تكن تمثل موضوعاً من الموضوعات الرئيسية، إذ

حدث فى عام ١١٩١، أثناء رحلة الملك ريتشارد قلب الأسد إلى الأرض المقدسة، فى إطار الحملة الصليبية الثالثة، أن التقى بأحد المتصوفة الإيطاليين المشهورين فى مدينة ميسينا، فى جزيرة صقلية، وهو يواقيم فيورى، الذى أخبره أنه سوف ينتصر حتماً على صلاح الدين الأيوبى. وإذا كان يواقيم قد أخطأ فى ذلك، فإنه أبدى بعض الملاحظات الطريفة، والجديرة بالذكر، إذ قال إن نهاية العالم وشيكة، وإن نشأة الإسلام تمثل إحدى الوسائل الرئيسية التى يستعين بها المسيخ الدجال، أما المسيخ الدجال نفسه فهو حىّ يرزق فى روما، وقد كتب له أن يشغل كرسى البابوية فى روما. والواقع أن زيادة انتقاد الأوربيين لمجتمعهم ووعيهم بنقائصه جعلتهم يربطون بين الإسلام وبين العدو الذين يعيش بين ظهرانيهم. وهكذا كان المصلحون كذلك يوازون بين البابوية التى تفتقر إلى الإخلاص (عدوهم اللدود) وبين الإسلام، فنجد أن المصلح الإنجليزى ابن القرن الرابع عشر، جون ويكليف، يرمى الإسلام فى كتاباته الأخيرة بالنقائص الكبرى التى كان يراها فى الكنيسة الغربية المعاصرة له وهى الكبرياء، والجشع والعنف، وشهوة السلطة والامتلاك. فكتب يقول «إننا نحن المحمديين الغربيين» وكان يعنى بذلك الكنيسة الغربية بصفة عامة، «على قلة عددنا بين أبناء الكنيسة كلهم، نتصور أن العالم بأسره سوف يبنى نظمه على أساس أحكامنا ويرتعد فرقاً من أوامرنا»(٢٠).

ومضى يقول إنه لو لم تعد الكنيسة إلى الروح الحقيقية للأناجيل، وللزهد الذى يدعو الدين إليه، فإن هذه الرّوح «الإسلامية» سوف تستفحل فى الغرب مثلما استفحلت فى الشرق. وكانت أقواله تدل على تحول دقيق فى الفكرة التى اعتادها من سبقه وهى اعتبار الإسلام ونبى الإسلام نقيضا لكل شىء «نتمنى» أن نكونه أو نخشى أن نصير إليه.

لم يكن أمام ويكليف إلا الاستناد إلى معلومات غير موثوق بها إلى حد بعيد، ولكنه قرأ ترجمة القرآن وظن أنه عثر على نقاط مهمة تسمح بالموازنة

بين محمد وكنيسة روما. وكانت حجته تقول إن محمداً كان يشبه الكنيسة فى عدم المبالاة بالكتاب المقدس، فكان يأخذ منه ما يناسب دعواه ويطرح سائره، وإن محمداً كان يشبه أصحاب الطوائف الدينية فى ابتداع تجديدات تثقل كواهل المؤمنين بأعباء جديدة، وأهم من ذلك كله، أن محمداً يحذو حذو الكنيسة فى حظر المناقشة الحرة للدين. والواقع أن ويكليف فسر بعض الآيات القرآنية تفسيرا يشى بالتعصب القروسطى القديم، ولكن هذه الفقرات لا تحظر المناقشة الدينية فى ذاتها، بل هى تقول إن بعض ضروب الجدل الدينى قد أدت إلى الانشقاق فى أديان التوحيد القديمة، ونشوء الشيع والطوائف المتناحرة. فبعض الأفكار المتعلقة بالذات الإلهية من المحال أن تتعدى الحدس والتخمين، فلا يمكن لأحد، على سبيل المثال، أن يثبت صحة مبدأ التجسد، وهو الذى يقول محمد إنه من المبادئ التى أضافها بعض المسيحيين فيما يبدو إلى الرسالة الأصلية للنبى عيسى. ومع ذلك فإن ويكليف عقد مقارنة بين هذا التعصب الإسلامى المزعوم وبين موقف الكنيسة إزاء بعض المبادئ التى تكتنفها المشاكل مثل مبدأ القربان المقدس، إذ تأمُر المسيحيين بالإيمان الأعمى بالأشياء التى لا يستطيعون فهمها.

ولم يقلع لوثر وغيره من المصلحين البروتستانت عن هذه العادة، ففى أواخر أيامه، وجد أنه يواجه الغزوات المخيفة التى كان الأتراك العثمانيون يشنونها على أوربا، ومن ثم تملكه كابوس شهداء قرطبة، وأصبح يعتقد أن الإسلام قد يكتسح الممالك المسيحية اكتساحاً كاملاً، وفى عام ١٥٤٢ نشر ترجمته الخاصة للدراسة التى كتبها ريكولدو دامونتى كروتشى بعنوان **إقامة الحجة** (المشار إليها آنفاً) وقال فى التصدير إنه كان قرأها قبل ذلك بسنوات ووجد من المحال عليه أن يقبل أن الناس يمكن أن يؤمنوا بمثل تلك الأكاذيب الواضحة الجلية، وإنه كان يريد قراءة القرآن ولكنه لم يعثر على ترجمة لاتينية له ـ وذلك، كما يبين ر. و. ساذرن، دليل ساطع على التخلف الشديد للدراسات الإسلامية فى القرن السادس عشر ـ وقال إنه استطاع أن يحصل

أخيراً على نسـخة منه وعندها أدرك أن ريكولدو لم يكن كاذباً بل كان مـحقاً فيما قاله. وتساءل عما إذا كـان محمد والمسلمون يمثلون المسيخ الدجال، ثم أجاب على التـساؤل قائلاً إن «الإسـلام» دين ساذج لا يقـدر على أن يهوى بالبشـرية إلى ذلك المصير الرهيب، أمـا العدو الحقيـقى فهو البابا والكنيـسة الكاثوليكية، ومادامت أوربا تتمسك بهذا العدو الداخلى فسوف تعرض نفسها لخطر الهزيمة على أيدى «المحمـديين». وقد طرح زوينجلى وبعض المصلحين الآخـرين أفكاراً مماثلة، إذ كـانوا يعـتـبـرون رومـا «رأس» المسـيخ الدجـال و«المحـمدية» جسـده. ويدل هذا التطور فى تفكيـر البروتـستـانت على أن الكثيـرين قد أضفوا على الإسـلام صورة من داخل أوربا بحيث أصـبح رمزاً للشر المطلق فى حـياتهم الشعـورية. وقد كتب نورمان دانيـيل دراسة عميـقة عنوانها **العرب وأوربا فى العـصور الوسطى** يقول فـيها إن الإسـلام لم يعد حقيقة تاريخية خارجية يمكن للناقد أن يفحصها مثل سواها من الحقائق، بل إن المصلحين قد «دسّوا فكرة الإسلام باعتبـارها حالة داخلية، يمكن إلصاقها بأعداء العقـيدة الخالصة (مـهما يكن تعريف الكاتب لهـا). وعلى هذا النحو كانوا يقومـون فى الواقع بتحويل الإسـلام إلى كيان داخلى باعتـباره «العدو» (دون تمييز) وهو العدو الذى ظل يكمن زمناً طويلاً فى المخيلة الأوربية»[٢١].

ويضرب دانـييل أمثلة مـن الكاثوليك والبروتسـتانت، ويعـقد مقـارنات بين معـارضيهم المسـيحيـين و«الإسلام» دون أن يدرك فى الواقع مـا تنطوى عليه تلك المقارنات. فكان المبشـر الكاثوليكى، ابن القرن السابع عشر، م. ليـفيير يرى أن المسلمين بمثابة «بروتستانت محمديين» يـعتقدون أن الإيمان يبرر فعال الإنسان، إذ «يـرجون غفـران كل خطاياهم بشرط إيـمانهم بمحمـد»، ولكن كاتب أدب الرحلات البـروتستانتى ابن القرن الثامن عـشر، ل. راوولف كان يعـتبـر المسلمـين «كاثوليك مـحـمديين» إذ إنهم «يقـومـون بالأعمـال التى اخترعوها، وتفـانوا فى الإخلاص لها، مثل الزكاة والصـلاة والصوم وافتداء الأسرى ومـا إلى ذلك، ابتـغاء مـرضاة الله»[٢٢]. ولم يكن المسـيحـيون فى

العصور الوسطى قادرين على النظر إلى الإسلام إلا باعتباره صورة ناقصة من صور المسيحية، كما اختلقوا الأساطير التى تبين أن محمداً تلقى تعليمه على أيدى أحد أصحاب البدع. واستمر أبناء الغرب، فيما بعد، على ضوء الانقسامات الداخلية الجديدة فى العالم المسيحى، ينظرون إلى محمد ودينه من منظور مسيحى فى جوهره، وكانوا، فيما يبدو، لا يكترثون للحقيقة التاريخية الموضوعية، ولم يخطر على بالهم، فيما يبدو، أن للمسلمين بواعث حماس مستقلة لا يمكن تحديدها فى إطار الممارسة المسيحية.

ولكن عصر النهضة شهد محاولات جديدة من جانب بعض أبناء الغرب للتوصل إلى تفهم يتسم بالمزيد من الموضوعية للعالم الإسلامى، وكانوا فى ذلك يتبعون التقاليد والطموحات التى أرساها «بيتر المبجل» وهى التى أبقى بعض علماء القرن الخامس عشر على شعلتها موقدة، مثل جون سيجوفيا ونيكولاس كوسا. ففى عام ١٤٥٣، بُعيد الفتح التركى لإمبراطورية بيزنطة المسيحية، الذى أتى بالإسلام إلى عتبة باب أوربا، ألح جون سيجوفيا إلى ضرورة العثور على أسلوب جديد لمواجهة الخطر الإسلامى، قائلاً إنه من المحال أن يلقى الهزيمة فى ميدان القتال أو عن طريق أنشطة التبشير التقليدية. ومن ثم بدأ يعمل على وضع ترجمة جديدة للقرآن، بالتعاون مع أحد فقهاء المسلمين من سلمانكا، كما اقترح عقد مؤتمر دولى، يجرى فيه تبادل الآراء العلمية بين المسلمين والمسيحيين. ولكن المنية وافته عام ١٤٥٨ قبل أن يؤتى أىٌّ من هذين المشروعين أُكُله، ومن ثم تولى صديقه نيكولاس كوسا العمل على إنجاح هذا المنهج الجديد. ففى عام ١٤٦٠ كتب كتاباً عنوانه «منخل القرآن» لم يتبع فيه السبل الجدلية المألوفة بل حاول فيه إجراء دراسة أدبية وتاريخية ولغوية منهجية للنص الذى كان جون سيجوفيا يعتبره نصاً جوهرياً ومن ثم وضعت أسس الدراسات العربية فى عصر النهضة، وكان المنهج الموسوعى الذى لا يقف عند حدود دولة أوربية دافعاً لبعض العلماء إلى وضع تقييم يتسم بالمزيد من الواقعية للعالم الإسلامى، وإلى نبذ الاتجاهات الصليبية

الفجة. ومع ذلك لم تختلف الحال كثيراً عما كانت عليه فى العصور الوسطى، فزيادة إدراك الحقائق لم تستطع طمس صور الكراهية القديمة التى كانت تسيطر سيطرة قوية على المخيلة الغربية.

وقد برز ذلك بوضوح وجلاء فى عام ١٦٩٧، الذى شهد أولى بوادر التنوير، بنشر عملين كان لهما تأثيرهما الكبير. أما الأول فكان اسمه **المكتبة الشرقية**، وكان المؤلف «بارتلمى ديربيلو» قد اجتهد حتى جعله أهم وأصدق مرجع للدراسات الإسلامية والشرقية فى إنجلترا وأوربا حتى مطلع القرن التاسع عشر. وقد وُصف بأنه **دائرة المعارف الإسلامية الأولى**، وكان «ديربيلو» قد استعان بمصادر عربية وتركية وفارسية، وبذل جهداً صادقاً لإزالة الغشاوة التى أعمت أبصار أصحاب المنهج المسيحى القديم، فقدم، على سبيل المثال، صوراً مختلفة لأساطير خلق الكون الشائعة فى الشرق، وكان من المحتوم أن يتسم هذا المنهج بالإيجابية، وكان دليلاً على وجود روح أقرب إلى الصحة قليلاً. ومع ذلك، ففى الباب الذى يتحدث فيه عن «محمد» نجد مايبعث على الأسى، إذ يردد الأقوال المألوفة مثل:

> هذا هو الدجال الشهير محمد، صاحب ومؤلف بدعة اكتسبت اسم الدين، ونسميها «المذهب المحمدى». انظر باب الإسلام.
>
> وقد نسب مفسِّرو القرآن وغيرهم من فقهاء الشريعة الإسلامية أو المحمدية إلى هذا النبى الكاذب جميع الفضائل التى ينسبها الآريون، أو البولسيون [أتباع القديس بولس] أو المتشبهون بهم، وغيرهم من دعاة البدع، إلى يسوع المسيح، وإن كانوا ينزعون عنه صفة القداسة... (٢٣)

وإدراك «ديربيلو» للاسم الصحيح للدين لم يمنعه من مواصلة الإشارة إليه باسم «المحمدية»، وذلك لأنه الاسم الذى نطلقه «نحن» عليه، وعلى نفس المنوال، استمر العالم المسيحى فى النظر إلى النبى نظرة شائهة باعتباره صورة «لنا» وإن كانت أدنى وأحط شأناً.

وفى نفس العام نشر مستشرق إنجليزى يدعى «همفرى بريدو» كتاباً مهماً عنوانه «**محمد: طبيعة الدجل الحقيقية**»، ويكفى العنوان وحده لإيضاح مدى استغراقه فى التعصب القروسطى القديم ـ والواقع أنه يستشهد بأقوال ريكولدو دامونتى كروتشى باعتبارها مصدره الأساسى ـ وذلك رغم زعمه أنه قد توصل إلى نظرة إلى الدين تتميز بالمزيد من العقلانية والتنوير عما كان يمكن تحقيقه فى كنف ظلام العصور الوسطى وخزعبلاتها. وهكذا فإن بريدو، باعتباره من أنصار العقل، يقول إن الإسلام لا يقتصر على كونه محاكاة للمسيحية فحسب، بل هو نموذج واضح لمستوى البلاهة الذى يمكن أن ينحط إليه أى دين، وليست المسيحية باستثناء من ذلك، ما لم تكن للدين أسس راسخة على صخرة العقل الصلبة. إننا نفترض أن عصر العقل قد حرّر الأذهان من التعصب الدينى المعوّق الذى اتسمت به فترة الحملات الصليبية، ولكن بريدو يكرر جميع الأفكار غير العقلانية التى تسلطت على الأذهان فى الماضى، إذ كتب يقول عن محمد:

> كان الشطر الأول من حياته يتسم بالإباحية الشَديدة والآثام البالغة، إذ كان يجد متعة كبيرة فى السلب والنهب وإهراق الدم، وفقاً لما جرت عليه عادات العرب الذين كان يميل معظمهم إلى سلوك هذا السبيل، فكانوا على الدوام تقريباً فى تناحر، إذ تتقاتل القبائل ليغنم بعضها من الآخر كل ما يستطيع أن يغنمه...
>
> كانت النزعتان اللتان تملكان لُبّه هما الطموح والشهوة، وكان السبيل الذى سلكه لبناء الإمبراطورية دليلاً ساطعاً على النزعة الأولى، وكانت زوجاته الكثيرات دليلاً قاطعاً على النزعة الثانية. والواقع أن النزعتين تسيطران على إطار دينه برمته، فلا يكاد فصل من فصول القرآن يخلو من ذكر قانون من قوانين الحرب وإراقة الدماء تحقيقاً للنزعة الأولى، أو ينص على حرية معاشرة النساء فى هذه الدنيا، أو الوعد بالاستمتاع بهن فى الدار الآخرة، تحقيقاً للنزعة الأخرى.(٢٤)

ولكن القرن الثامن عشر شهد بعض الجهود الرامية إلى وضع تفهم أكثر دقة للإسلام. ففى عام ١٧٠٨ أصدر سايمون أوكلى المجلد الأول من كتابه **تاريخ المسلمين** الذى أغضب كثيراً من القراء لأنه لم يُصوّر الإسلام على أنه دين السيف (أى أن يُسقط عليه مشاعر القراء تجاه أنفسهم) ولكنه حاول أن ينظر إلى الجهاد فى القرن السابع من وجهة نظر المسلمين. وفى عام ١٧٣٤ نشر چورچ سيل ترجمة رائعة للقرآن ما تزال تعتبر دقيقة رغم افتقار أسلوبها إلى البريق. وفى عام ١٧٥١ نشر فرانسو فولتير كتاباً بعنوان «**أخلاق الأمم وروحها**» دافع فيه عن محمد باعتباره مفكراً سياسياً عميق الفكر، ومؤسس دين عقلانى حكيم، ومشيراً إلى أن الدولة الإسلامية كانت تتمتع دائماً بالتسامح الذى يزيد عما تتسم به التقاليد المسيحية. وكان المستشرق الهولندى يوهان يعقوب رايسكى (ت ١٧٧٤) دارساً لا يُجَارَى للّغة العربية، استطاع أن يستشف المسحة الربانية فى حياة محمد ونزول الإسلام (ولكن بعض زملائه اضطهدوه بسبب هذه الجهود).

ونمتْ إبان القرن الثامن عشر أسطورة أخرى تُصوّر محمداً على أنه رجل حكيم من رجال التشريع العقلانى فى إطار حركة التنوير الأوربية. وقد نشر الكونت هنرى دى بولانييه كتابه **حياة محمد** (فى باريس عام ١٧٣٠ ولندن عام ١٧٣١) الذى يُصوّر النبى فى صورة المبشر بعصر العقل. وكان بولانفييه يتفق مع القروسطيين فى أن محمداً قد ابتدع دينه حتى يسود العالم، ولو أنه قلب التقاليد كلها رأساً على عقب. وقال إن الإسلام يختلف عن المسيحية فى أنه تراث «طبيعى» أى غير منزّل، وإن ذلك مصدر روعته. ويضيف أن محمداً كان بطلاً عسكرياً مثل يوليوس قيصر والإسكندر الأكبر، وذلك بطبيعة الحال وهم من الأوهام، لم يكن محمد، قطعاً، ممن اهتدوا بالعقل وحده إلى وجود الله، ومع ذلك فكان الكتاب يمثل محاولة للنظر إلى النبى فى ضوء إيجابى. وفى نهاية القرن، أثنى إدوارد جيبون فى الفصل الخمسين من كتابه «**تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**» على عقيدة التوحيد

السامية فى الإسلام، وبيّن أن الجهود الإسلامية جديرة بمكانة مرموقة فى تاريخ الحضارة العالمية.

ولكن التعصب القديم كان راسخاً إلى الحد الذى جعل الكثير من الكتاب يعجزون عن مقاومة التعريض، دون مبرر، بالنبى من حين لآخر، مما يدل على أن الصورة التقليدية لم تَمُتْ. وهكذا نجد سايمون أوكلى يصف محمداً بأنه «رجل بارع الدهاء واسع الحيلة، إذ كان يتظاهر فحسب بالصفات الحميدة المنسوبة إليه، أما دوافعه النفسية فهى الطموح والشهوة»(٢٥). ويقول چورج سيل فى مقدمة ترجمته للقرآن: «إن أحد الأدلة المقنعة على أن العقيدة المحمدية لم تكن قطعاً سوى ابتكار بشرى هو أنها تدين بنشوئها وتطورها إلى السيف وحده تقريبا»(٢٦). وينتهى فولتير فى آخر مقاله عن **أخلاق الأمم** المذكور آنفاً، والذى يصف فيه الإسلام وصفاً إيجابياً، إلى القول بأن محمداً كان «يعتبر رجلاً عظيماً، ولم يختلف على ذلك من كانوا يعرفون أنه دجال، كما كان سائر الناس يبجلونه باعتباره نبياً»(٢٧).

وفى عام ١٧٤١ كتب فولتير مسرحية عنوانها **محمد أو التعصب**، وفيها يستعين بالكراهية الشائعة لمحمد فى جعله نموذجاً لجميع الدجالين الذين أحالوا شعوبهم إلى عبيد للدين متوسلين بالتحايل والأكاذيب. وعندما وجد أن بعض الأساطير القديمة لم تكن فاحشة إلى الحد الذى يرضيه، عمد إلى ابتداع أساطير جديدة أفعمت قلبه فرحاً. بل إن جيبون لم يشغل نفسه طويلاً بشخصية محمد، فزعم أنه قد دفع العرب على اتباعه من خلال إغرائهم بالغنائم والجنس. أما عن اعتقاد المسلمين بأن القرآن قد أملاه الوحى المنزّل على النبى، فقد اصطنع جيبون نبرة تعالٍ وترفّع قائلاً إن الإنسان المتحضر حقاً يرى ذلك من قبيل المحال:

إن تلك الحجة تخاطب، بكل قوة، العربى المخلص الذى يقبل عقله منطق الإيمان والنشوة الدينية، والذى تلتذُّ أذنُه بموسيقى الأصوات، والذى يعجز

جهله عن عقد المقارنات بين ثمار قرائح العبقرية البشرية، فتناغم الأسلوب وجزالته لا يستطيعان التأثير، بعد الترجمة، فى الكافر الأوربى، الذى سوف يضيق ذرعاً بمتابعة المعزوفة التى لا تنتهى، والتى تتسم بالنشاز، والحافلة بالأساطير والمفاهيم المجردة والنبرات الخطابية، والتى نادراً ما تُثير إحساساً أو توحى بفكرة، والتى أحياناً ما تزحف فى التراب، وأحياناً ما تضيع فى ثنايا السحاب»(٢٨). وينم ذلك على أن الغرب قد اكتسب الثقة فى ذاته، إذ لم يعد الأوربيون يجفلون فرقاً من الخطر الإسلامى، بل أصبحوا ينظرون إلى الدين الإسلامى نظرة المترفع الذى يجد فيه بعض التسلية والترفيه، وأصبحوا يفترضون أننا إذا «نحن» لم نفهم القرآن، فلابد أنه ليس على شىء. وهكذا فعل توماس كارلايل عام ١٨٤١ فى محاضرته عن النبى محمد والتى كان عنوانها «البطل باعتباره نبياً» إذ أعلن رفضه وازدراءه للقرآن. ومع ذلك فقد كانت تلك المحاضرة دفاعاً مشبوباً عن محمد وإنكاراً للوهم القروسطى القديم. لقد كان كارلايل، ولأول مرة تقريباً فى أوربا، يحاول أن يرى محمداً باعتباره صاحب دين حقيقى، حتى فى غضون استهانته بالقرآن واعتباره أكثر كتاب يبعث على الملل فى العالم، إذ يقول إنه «خليط غير مترابط، يرهق القارئ، غليظ النسج ركيك التركيب، غاصّ بالتكرار، وبالإسهاب والمعاظلات التى لا تنتهى، وباختصار، فهو بالغ الغلظة والركاكة والغباء الذى لا يطاق»(٢٩).

وقد وقعت حادثة فى آخر القرن الثامن عشر، كان لها مغزاها، إذ بينت السبيل الذى بدأت الثقة الأوربية الجديدة تسير فيه. ففى عام ١٧٩٨ أبحر نابليون قاصداً مصر، بصحبة العشرات من المستشرقين العاملين فى معهد الدراسات المصرية الذى كان قد أنشأه. وكان قد بيّت العزم على الانتفاع بالتقدم العلمى الذى أحرزوه، وقدرتهم على تفهم الشرق، فى إخضاع العالم الإسلامى وتحدى السيطرة البريطانية على الهند. وما إن رست السفن حتى

أرسل نابليون هؤلاء العلماء فى مهمة محددة، مما نطلق عليه اليوم «بعثة لتقصى الحقائق»، وأصدر الأوامر الصارمة إلى جنوده بألا يعصوا أوامر العلماء. والواضح أن هؤلاء العلماء قد درسوا الموضوع دراسة مستفيضة. وكان نابليون قد استهل خطابه إلى جماهير المصريين فى الإسكندرية قائلاً «إننا نحن المسلمون حقاً» على ما فى هذا القول من سخرية مريرة، ثم استدعى ستين شيخاً من شيوخ الأزهر، وهو المسجد العظيم فى القاهرة، فجاءوه تحفّهم أسمى مراسم التكريم العسكرية، ومن ثم انطلق فى الحديث فامتدح النبى بعبارات توَخَّى فيها الحرص الشديد، وناقش معهم كتاب محمد الذى وضعه فولتير، ويبدو أنه نجح فى حواره مع كبار العلماء. والواقع أن الناس لم تصدق زعم نابليون، أنه مسلم، ولكن فهمه وتعاطفه للإسلام خفف من حدة عداء السكان تخفيفاً كبيراً. ولم تتمخض حملة نابليون عن أى شىء، إذ كان مآلها الهزيمة على أيدى الجيوش البريطانية والتركية، ومن ثم أبحر عائداً إلى أوربا.

أما القرن التاسع عشر، فقد اتسم بالروح الاستعمارية التى أوحت للأوربيين بعقيدة سقيمة هى تفوّقهم على الأجناس الأخرى وشعورهم بأن من واجبهم إنقاذ العالم الهمجى فى إفريقيا وآسيا، والقيام فى هذا الطريق بحمل رسالة الحضارة إليهم. وقد أدّى ذلك حتماً إلى التأثير فى النظرة الغربية إلى الإسلام، خصوصاً بسبب أطماع الفرنسيين والبريطانيين فى الإمبراطورية العثمانية المضمحلة. وهكذا نجد فى كتابات أحد أنصار المسيحية فى فرنسا وهو «فرانسوا رينيه دى شاتوبريان»، على سبيل المثال، إحياءً للمثل الصليبى الأعلى، مع تطويعه لمواءمة الأحوال الجديدة، بعد أن بهرته حملة نابليون، ورأى فيه سمات الحُجاج الصليبيين. فكتب يقول إن الصليبيين حاولوا نشر المسيحية فى الشرق، وهى أقرب الأديان إلى «إذكاء روح الحرية»، ولكنهم اصطدموا فى جهودهم الصليبية بالإسلام، وهو «عقيدة

معادية للحضارة، وهى تشجع بانتظام على انتشار الجهل والاستبداد والرق»[٣٠]. وهكذا أصبح الإسلام من جديد، إبان التهور الذى أعقب الثورة الفرنسية، نقيضاً لما «نحن» عليه. وكان بعض نقاد الإسلام، أيام الفكر الطبقى الذى ساد العصور الوسطى، يهاجمون محمداً لأنه منح الطبقات الدنيا سلطات أكثر مما ينبغى - مثل العبيد والنساء. وقد انعكس بعد الثورة الفرنسية هذا الوضع، لا بسبب زيادة معرفة الناس بالإسلام، بل لأنه أصبح ملائماً لما نحتاج «نحن» إليه، ولأنه أصبح «الآخر» الذى يمكن أن نحكم على إنجازاتنا بالقياس إليه.

وفى عامى ١٨١٠ و١٨١١ نشر شاتوبريان كتاباً لاقى نجاحاً ساحقا عنوانه **الرحلة من باريس إلى أورشليم ومن أورشليم إلى باريس** أطلق فيه العنان لخياله الصليبى فى وصف الأحوال فى فلسطين، فكتب يقول إن مظهر العرب «يوحى بأنهم جنود بلا قائد، ومواطنون بلا مشرّعين، وأسرة بلا أب»، وهم نموذج «للإنسان المتحضر الذى سقط من جديد فى هوة الهمجية والوحشية»[٣١] ومن ثم فإن حالهم يستدعى سيطرة الغرب، لأنه من المحال أن يتولوا بأنفسهم إدارة شئونهم. أما القرآن فيقول إنه لا يتضمن «مبدأ واحداً من مبادئ الحضارة، ولا فرضاً يسمو بأخلاق الإنسان»، فالإسلام يختلف عن المسيحية فى أنه «لا يحضّ على كراهية الطغيان أو على حب الحرية»[٣٢].

وحاول إرنست رينان، عالم اللغة الفرنسى الذائع الصيت، أن يقدم تفسيراً علمياً لهذه الأساطير العنصرية والإمبريالية الجديدة، فقال إن العبرية والعربية من اللغات المنحطة، وهما تمثلان انحرافاً عن التقاليد الآرية، ومن ثم أصبحت عيوبهما تستعصى على العلاج. وقال إنه لا ينبغى دراسة هاتين اللغتين الساميتين إلا باعتبارهما نموذجاً للتطور الذى توقف عند مرحلة معينة، وإنهما تفتقران إلى الطبيعة المتقدمة والمتطورة للنظم اللغوية لدينا «نحن»، ولذلك فإن كلا من اليهود والعرب يمثلون «مجموعة متدنية من عناصر الطبيعة البشرية». ويضيف قائلاً:

«يشهد المرء دلائل فى كل شىء على أن العنصر السامى، فيما يبدو لنا، عنصر ناقص بسبب بساطته. وإذا كان لى أن أضرب لذلك مثلاً، قلت إن مقارنته بالأسرة الهندية الأوربية تشبه مقارنة رسم بالقلم الرصاص بلوحة زيتية، فهو يفتقر إلى التنوع والثراء والجفول بالحياة، وهى شروط الكمال. إن الأمم السامية تشبه الأفراد الذين لا يتمتعون إلا بأدنى قسط من الخصوبة، فإذا انتهت طفولتهم السعيدة، لم يصلوا إلا إلى أقل حد من الفحولة، فلقد شهدت هذه الأمم عصر ازدهارها الكامل فى مطلع حياتها، ولكنها لم تستطع مطلقاً أن تبلغ النضج الحقيقى»(٣٣).

وهكذا يصهر الكاتب اليهود والعرب فى بوتقة واحدة، ليُخرج صورة موحدة تُعلى من شأن شمائلنا «نحن» وتؤكد تفوقها. ولقد كان لهذه النزعة العنصرية الجديدة عواقبها الوخيمة، بطبيعة الحال، على اليهود فى أوربا. إذ استقى هتلر ما يلزمه من أنماط الكراهية المسيحية القديمة فى حملته العلمانية الصليبية على اليهود، فلم يكن يطيق وجود عنصر أجنبى على التربة الأوربية الآرية النقية.

لم يكن قد بقى أحد من المسلمين فى أوربا، ولكن البريطانيين والفرنسيين شرعوا إبان القرن التاسع عشر فى غزو أراضى المسلمين. ففى عام ١٨٣٠ قام الفرنسيون باحتلال الجزائر، وقام البريطانيون عام ١٨٣٩ باحتلال عدن، وتقاسموا استعمار تونس (١٨٨١) ومصر (١٨٨٢) والسودان (١٨٩٨) وليبيا والمغرب (١٩١٢). ورغم ما تعهدوا به من منح البلدان العربية استقلالها بعد هزيمة الإمبراطورية التركية، قام البريطانيون والفرنسيون عام ١٩٢٠ بتقسيم الشرق الأوسط إلى مناطق تحت الانتداب أو تحت الحماية لكل من الجانبين.

والعالم الإسلامى اليوم يقرن الإمبريالية الغربية وجهود التبشير المسيحية بالحملات الصليبية. وهو لا يخطئ فى ذلك. فعندما وصل الجنرال أللنبى إلى القدس فى عام ١٩١٧ أعلن أن الحملات الصليبية قد اكتملت، وعندما

وصل الفرنسيون إلى دمشق، اتجه قائدهم إلى ضريح صلاح الدين فى المسجد الكبير وصاح قائلا «لقد عدنا يا صلاح الدين!» وكانت جهود التبشير المسيحية تؤازر المستعمرين، وتحاول تقويض الثقافة الإسلامية التقليدية فى البلدان المفتوحة، كما حظيت الطوائف المسيحية المحلية، مثل المارونيين فى لبنان، بدور كبير لا يتناسب مع حجمها فى إدارة البلد الخاضع للحماية. وقد يحتج المستعمرون بأنهم كانوا يأتون بالتقدم والتنوير، ولكن جهودهم كانت تستند إلى العنف والاحتقار. وقد استغرق فرض السلام فى الجزائر مثلاً سنوات عديدة، وكان المستعمرون ينقضُّون بوحشية على كل من يحاول المقاومة، ويشنون الغارات الانتقامية لهذا الغرض. ويصور لنا المؤرخ الفرنسى المعاصر م. بودريكور إحدى هذه الغارات قائلا:

> وحتى جنودنا الذين عادوا من الغارة كانوا يشعرون بالخجل... إذ أحرقوا نحو ١٨٠٠٠ شجرة، وقتلوا النساء والأطفال والشيوخ. وكانت النساء أسوأ الجميع حظاً إذ كُنَّ يتزينَّ بالأقراط والخلاخيل والأساور الفضية فأثرن الطمع فيها، ولم تكن لها مفاتيح مثل مفاتيح الأساور الفرنسية بل كانت توضع حول المعاصم والكواحل فى الطفولة، فإذا كبرت الفتاة ونمت أعضاؤها لم تتمكن من نزعها، ولم يستطع جنودنا أن يحصلوا عليها إلا بقطع أطراف النساء وتركهن فى قيد الحياة وقد تشوهت أجسامهن(٣٤).

وقد أظهر المستعمرون ازدراءهم الراسخ للإسلام، فانتقد اللورد كرومر فى مصر محاولة الشيخ محمد عبده، المفكر المتحرر، (ت ١٩٠٥) لإعادة صياغة بعض الأفكار الإسلامية التقليدية. وأعلن أن الإسلام عاجز عن إصلاح نفسه، وأن العرب عاجزون عن بث حياة جديدة فى مجتمعهم. وقد فسر ذلك فى كتابه الأساسى الذى يقع فى مجلدين وعنوانه **مصر الحديثة** بقوله إن «الشرقى» يتسم بنزعة طفولية لا رَجَاءَ فى تغييرها، ويعتبر النقيض الكامل لما «نحن» عليه:

قال لى السير ألفريد ليال ذات يوم: «الدقـة بغيضة للعقل الشرقى. وعلى كل إنجليزى هندى أن يذكر تلك الحقيقة دائماً» والواقع أن الافتقار إلى الدقة، وهو الذى يتفاقم بسهولة فيتخذ صورة الكذب، هو الخصيصة الرئيسية للعقل الشرقى.

إن الأوربى يعتمد اعتماداً كـبيراً على عقله وهو يذكر الحقائق بأسلوب لا لبس ولا غموض فيه، فـهو منطقى بالفطرة حتى ولو لم يدرس المنطق، وهو بطبيعته ينزع إلى الشك ويطلب الدليل قبـل أن يقبل صدق مقولة ما، وذكاؤه المدرب يشبـه الآلة فى عمله. أمـا العقل الشـرقى فهـو يفتقـر مثل شـوارعه الجميلة إلى الاتسـاق والتنظيم. وأما قواعد الاستدلال التى يرتكن إلـيها فهى غير محكمة إلى أبعد حد. ومع أن العـرب القدماء قد أحكموا إلى حد بعيد علم الجدل والقيـاس، فإن أحفادهم يفـتقرون افتقـاراً بالغاً إلى ملكة المنطق. وكثيـراً ما يعجزون عن التـوصل إلى أوضح النتائج استناداً إلى أى مـقدمات بسيطة يُقرّون بأنها صحيحة»(٣٥).

وهكذا، ومع أن علماء الغـرب لم يتوقفوا عن محـاولة رسم صورة تتسم بالمزيد من الموضـوعيـة عن العالم العـربى والعالم الإسـلامى، فإن التـفوق الاستعمـارى جعل الكثيرين يرون أن «الإسلام» غير جـدير بأن يُولُوه اهتماماً جاداً.

ولاشك أن هذا الموقف الغربى الجارح للمشاعر قد نجح فى إغضاب العالم الإسلامى. ومشاعـر العداء للغرب قد تبدو اليوم شـائعة بين المسلمين ولكن ذلك من التطورات الجديدة كل الجدة. وإذا كان الغرب قد استند إلى الأوهام فى اعتباره أن محـمداً هو العدو. فإن معظم المسلمين كانوا لا يعـرفون شيئاً عن الغرب إلا منذ نيف ومائتى عام. كان للحملات الصليبية دور أساسى فى تاريخ أوربا وأثرت تأثيراً لا ينكر فى تكوين الهوية الغـربية على نحو ما سبق لى أن أوضحت فى كتاب آخر(٣٦). ولكن الحملات الصليبـية، على تأثيرها

الواضح والعميق فى حياة المسلمين فى الشرق الأدنى، لم تؤثر إلا تأثيراً طفيفاً فى سائر العالم الإسلامى، إذ لم تكن تعتبر إلا أحداثاً بعيدة على حدود البلدان الإسلامية الأخرى، ولم يتأثر قلب الإمبراطورية الإسلامية فى العراق وإيران على الإطلاق بذلك العدوان الغربى القروسطى. ومن ثم لم ينظر المسلمون هناك إلى الغرب باعتباره العدو. وعندما كان المسلمون يتحدثون عن العالم المسيحى، لم يكونوا يقصدون الغرب بل كانوا يقصدون بيزنطة، فأوربا الغربية كانت تبدو لهم آنذاك بريّة همجية وثنية، ولاشك أنها كانت متخلفة بأشواط طويلة عن سائر العالم المتحضر.

ولكن أوربا نهضت وانطلقت لتلحق بالركب، دون أن يدرك العالم الإسلامى ـ الذى كانت همومه الخاصة تشغله ـ ما حدث. وكانت حملة نابليون على مصر الحدث الذى فتح عيون الكثيرين من ذوى البصر فى الشرق الأدنى، وما أكثر ما بهرهم سلوك الجنود الفرنسيين الذى ينم على البساطة والثقة معاً فى الجيش الذى تكوّن بعد الثورة. ودائماً ما كان المسلمون يستجيبون للأفكار التى تأتى بها الثقافات الأخرى، وسرعان ما استجاب الكثيرون للأفكار الغربية الأساسية الخاصة بالتحول إلى العالم الحديث. وفى مطلع القرن العشرين كان جميع المفكرين الكبار فى العالم الإسلامى تقريباً قد أصبحوا من دعاة التحرر والأخذ بالنظم الغربية. وربما كان هؤلاء المتحررون يكرهون الإمبريالية الغربية، ولكنهم كانوا يتصورون أن المتحررين فى أوربا سوف يقفون فى صفهم ويعارضون أمثال اللورد كرومر. كانوا معجبين بأسلوب الحياة الغربية، إذ بدا لهم أنه يقوم على كثير من المثل العليا التى تمثل صُلب التقاليد الإسلامية. ومع ذلك فلقد فقدنا فى السنوات الخمسين الأخيرة تلك النوايا الطيبة. وكان من أحد أسباب غضب العالم الإسلامى أنه اكتشف تدريجيا مدى العداء والازدراء لنبى الإسلام، وللدين الإسلامى، وهى من المشاعر التى تضرب بجذورها فى الثقافة الغربية، والتى يرى المسلمون أنها

ماتزال تؤثر فى سياسة الغرب إزاء البلدان الإسلامية حتى فى الفترة التى أعقبت الاستعمار.

وتقول الكاتبة السورية رنا قبانى فى كتابها **رسالة إلى العالم المسيحى**:

أليس الضمير الغربى ضميراً انتقائياً؟ إن الغرب يتعاطف مع المجاهدين الأفغان، الذين يساندهم جهاز الاستخبارات الأمريكية، شأنهم فى ذلك شأن جماعات الكونترا فى نيكاراغوا، ولكنه لايشعر بأى تعاطف مع المناضلين المسلمين الذين لايحاربون من أجل معارك الحرب الباردة، بل لهم شواغلهم السياسية الخاصة. وفى الوقت الذى أكتب فيه هذا الكلام يموت الفلسطينيون كل يوم فى الأراضى المحتلة - وقد بلغ عدد القتلى فى آخر إحصاء ٦٠٠ قتيل تقريباً، وجرح مايربو على ٣٠٠٠٠ إلى جانب الذين زج بهم فى المعتقلات دون محاكمة ووصل عددهم إلى ٢٠٠٠٠ شخص... ومع ذلك فمازالت عيون الغرب ترى أن إسرائيل بلد ديمقراطى، وحصن أمامى من حصون الحضارة الغربية. ماذا عسانا أن نظن بأمثال هذه المعايير المزدوجة؟[٣٧]

قد يكون الغرب مسئولا إلى حد ما عن نشوء الصيغة الأصولية الجديدة للإسلام، وهى التى تقترب من زاوية معينة - وهى زاوية كريهة - من أوهامنا القديمة، إذ نجد الكثيرين فى العالم الإسلامى اليوم يرفضون الغرب باعتباره كافراً وظالماً ومنحلاً. ويحاول بعض علماء الغرب مثل ماكسيم رودانسون، وروى متحدة، ونيكى كيدى، وجيل كيبيل، إدراك معنى هذه النزعة الإسلامية الجديدة. ولكن محاولاتهم، كالعادة، للتوصل إلى تفهم أكثر موضوعية وتعاطفاً للأزمة الراهنة فى العالم الإسلامى لا يأبه لها إلا الأقلية. وهناك أصوات أخرى ذات طابع عدوانى فهى لا تريد الفهم بل تريد إذكاء تقاليد الكراهية القديمة.

ولكن الصيغة الأصولية الجديدة للإسلام لم تنشأ نتيجة لكراهية الغرب فحسب، بل ولا تعتبر حركة متسقة بأى معنى من المعانى، فما يشغل

الأصوليين فى المقام الأول هو تنظيم أوضاعهم الداخلية والقضاء على التمزق الثقافى الذى تعرض له الكثيرون فى الآونة الأخيرة. والحق أنه من المتعذر إصدار أحكام عامة عن نشأة الصورة المتطرفة لهذا الدين، فهى لا تقتصر على الاختلاف من بلد إلى بلد، بل تختلف كذلك من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية. إذ يشعر الأشخاص أنهم قد انفصلوا عن جذورهم، بعد أن تغلغلت الثقافة الغربية فى نسيج حياتهم. بل إن أثاث منازلهم نفسه قد تعرض لتغيير كبير حتى أصبح من الشواهد المقلقة على السيطرة، وعلى الخسارة الثقافية. واللجوء إلى الدين عند الكثيرين معناه محاولة العودة إلى الجذور واستعادة هوية تتعرض لخطر داهم. وكل منطقة تشهد نمطاً مختلفاً تمام الاختلاف من أنماط الإسلام، وهو نمط يميز طابعها الخاص ويتأثر تأثراً عميقاً بالتقاليد والظروف المحلية، وهى التى لا ترتبط بصورة خاصة بالدين. ويقول مايكل جيلسينان فى كتاب أصبح من أمهات الكتب وعنوانه **التعرف على الإسلام والدين والمجتمع فى الشرق الأوسط**: إن الاختلافات فيما بين المناطق الشاسعة إلى الحد الذى لا يجدى معه استخدام مصطلح «الإسلام» أو «الأصولية» فى تعريف المحاولة الراهنة للإفصاح عما يمر به أبناء الشرق الأوسط فى فترة ما بعد الاستعمار. ولاشك أن الظاهرة أشد تعقيداً بمراحل ممّا توحى به أجهزة الإعلام. ومن المحتمل أن الكثيرين من المسلمين فى تلك المنطقة يخامرهم نفس الشعور بالخوف وفقدان الهوية الذى تعرض له شهداء قرطبة الذين كانوا يحسون أن قوة أجنبية كانت تنخر ثقافتهم وقيمهم التقليدية.

لقد دأبنا على وضع أنماط وقوالب جديدة للتعبير عن كراهيتنا «للإسلام» التى يبدو أنها أصبحت راسخة فى وجداننا، ففى السبعينيات تملكتنا صور أثرياء النفط، وفى الثمانينيات كانت الصورة صورة «آية الله» المتعصب، أما منذ مسألة سلمان رشدى فقد أصبحت صورة «الإسلام» هى صورة الدين

الذى يهدر دم الإبداع وحرية الفنان. ولكن الواقع لا تمثله أى صورة من هذه الصور، بل يتضمن عناصر أخرى لا حصر لها. ولكن ذلك لا يمنع الناس من إصدار الأحكام العامة التى تفتقر إلى الدقة. وتستشهد رنا قبانى ببعض الأقوال العدائية التى وردت على لسان فاى ويلدون، وكونور كروز أوبريان. ففى كتاب بعنوان «**الأبقار المقدسة**»، وهو الذى أصدرته فاى ويلدون لإبداء وجهة نظرها فى مسألة سلمان رشدى، كتبت تقول:

> يعمل القرآن على قمع التفكير، وهو ليس قصيدة يمكن أن يُبنى عليها المجتمع بناء سالماً أو عاقلاً، بل إنه يضع الأسلحة والقوة فى أيدى شرطة مصادرة الفكر، وما أيسر أن ندفع أفراد هذه الشرطة على الانطلاق، وهم يقذفون الرعب فى القلوب... وأرى أنه نص محدود، بل ويفرض الحدود والقيود من حيث تفهم التعريف الذى أضعه لله[٣٨].

وينحصر تعليقى على هذه الأقوال فى أنها لاتتفق مع خبرتى فى دراسة القرآن وتاريخ الإسلام، ولو أن كلامى هذا سيجلب لى تهمة النفاق من وجهة نظر كونور كروز أوبريان، الذى يحيى التقاليد التى تعتبر أى احترام للإسلام بمثابة خيانة ثقافية. إذ كتب يقول إن المجتمع الإسلامى

> يبدو باعثاً على النفور العميق... هو يبدو منفّرا لأنه منفّر...
> فإذا قال أحد أبناء الغرب إنه معجب بالمجتمع الإسلامى مع مواصلة التمسك بالقيم الغربية فهو إما منافق أو جهول، أو ربما كان يجمع بين بعض عناصر النفاق والجهل معاً.

ويختتم أوبريان كلامه قائلاً «إن المجتمع العربى مريض، ولقد ظل فى مرضه ردحاً طويلاً من الزمن. ففى القرن الماضى كتب المفكر العربى [هكذا] جمال الدين الأفغانى يقول (إن كل مسلم مريض، وعلاجه الوحيد فى القرآن). ولكن المرض يتفاقم، للأسف، كلما ازدادت جرعة الدواء»[٣٩].

ولكن هذا الاتجاه الصليبى لا يسير فيه جميع النقاد، بل إن كثيراً من العلماء فى هذا القرن قد حاولوا توسيع تفهم الغرب للإسلام، مثل لويس ماسينيون، و هـ. أ. ر. جيب، وهنرى كوربان، وآن مارى شيمل، ومارشال ح. س. هودجسون، و ويلفريد كانتويل سميث. إذ حذوا حذو بيتر المبجل وجون سيجوفيا، ولجئوا إلى البحث العلمى لدحض تعصب زمانهن. ولقد نجح الدين، على امتداد قرون طويلة، فى إذكاء التفاهم الجاد بين أفراد مجتمع من المجتمعات. وقد يفشل الناس أحيانا فى التعبير عن مثلهم الدينية العليا بالصورة التى يبغونها، ولكنهم قد ساعدوا على إقامة أفكار العدالة والخير والاحترام والتعاطف مع الآخرين، بحيث أصبحت تمثل المعيار الذى نستطيع أن نقيس به ضروب سلوكنا. وتثبت الدراسة الجادة للإسلام أن المثل القرآنية العليا قد ساهمت مساهمة كبرى، على امتداد ١٤٠٠ سنة، فى انتعاش الحياة الروحية للمسلمين. بل إن بعض العلماء، مثل الباحث الكندى المبرز «ويلفريد كانتويل سميث»، يقول «إن الشريحة المسلمة من المجتمع الإسلامى لا تزدهر إلا إذا كان الإسلام قوياً وحيوياً، ونقياً وخلاقاً وسليماً»(٤٠) ويرجع جانب من المشكلة الغربية إلى أن الغرب ظل، على امتداد قرون طويلة، ينظر إلى محمد باعتباره نقيض الروح الدينية وعدواً للحضارة المهذبة. وربما يكون علينا إذن، أن نحاول أن ننظر إليه

الفصل الثانى
محمد رجل الله

خلال شـهر رمضـان من عام ٦١٠م، تعرض رجل عـربى من مدينة مكة بالحجاز يعمل بالتجارة، لتـجربة قُدر لها أن تغـير تاريخ العالم. فقـد اعتاد محمد بن عبد الله وزوجتـه وعائلته الانتجاع فى غار حراء فى وادى مكة فى خلوة روحانية. وكانت تلك الخلوة من الممارسات الشائعة فى بلاد العرب فى ذلك الوقت، وكان محـمد يقضى الشهر فى الصلاة والزكـاة وإطعام الفقراء الذين كـانوا يأتون لزيارته فى تلـك الأيام المقدسـة. ومن أعلى تلك الـقمـة الجبلية المـثلمة، كان بالإمكان رؤية مدينة مكة المزدهرة بوضـوح فى السهل. وكـان محـمد ـ كـغيـره من أهل تلك المدينة ـ شـديد الاعـتزاز بمكة، وقـد أصبحت مركـزاً للمال، وأقوى مستوطنة فى بلاد العـرب. وأصبح تجار مكة أكثر ثـراء من كل الأعراب فى الحجاز، وكـانوا يتمتعـون بقدر من الأمن لم يكن متصورا قبل جيلين حين كانوا يحيون حياة بداوة وترحال فى شعاب بلاد العرب القاحلة. وفوق كل ذلك، فقـد كان أهل مكة شديدى الزهو بالكعبة، ذلك الصرح المكعب الشكل الذى يتوسط المدينة، والذى اعـتقد الكثيرون أنه بيت الله، الإله الأعظم عند الـعرب فى ذلك الوقـت. وكانت الكعـبـة أهم مكان مقدس فى بلاد العرب حيث كان الحـجاج يتوافدون إليها من كل أنحاء البلاد لتأدية شعـائر الحج. وكانت قبيلة قريش، والتى ينتسب إليهـا محمد، مسئولة عن نجـاح التجارة فى مكة. وكان أفرادها يعلمون أن قـدراً كبيراً من مكانتهم المتمـيزة بين الأعراب الآخرين، يعود إلى تمتعهم بـامتياز عظيم، ألا وهو حماية البناء الجـرانيتى المقدس الضخم، والعمل على التـأكد من الحفاظ على قدسيته.

وكـان بعض الأعراب يـعتـقـدون أن الله ـ واللفظ يعنى الإله God ـ هو نفس الإله الذى يعبده اليهود والمسيحيون.[1] ولكن، وخلافا «لأهل الكتاب»ـ كما كان العرب يدعون أتباع الديانتين المبجلتين ـ كان العرب على وعى مؤلم أن الله لم ينزِّل لهم ديناً أو كتـاباً خاصاً بهم رغم وجود بيـته بينهم منذ زمن مـوغل فى القـدم. ومن هنا كـان هؤلاء العـرب الـذين لهم صلة باليـهـود والمسيـحيين ينتـابهم شعور بالنقـص فلقد بدا لهم وكأن الله قـد ترك العرب خارج نطاق قضائه. لكن قـدر لذلك أن يتغير حينما انتُزع محـمد من سُباته فى كهفه الجبلى ووجـد نفسه مشدوها بحضور سماوى مـذهل. وفيما بعد، شرح محمد تلك التجـربة التى تتحدى الوصف بقوله: إن ملكاً أحاط به فى عناق رهيب حـتى كـأنه تنتـزع أنفاســه من بدنه. ثم ألقى إليـه الملك بأمـر مقتضب «اقرأ». ودون جدوى حاول محمد أن يعترض قائلاً إنه ليس بمستطيع القراءة، فما هو بكاهن، أى أحد هؤلاء المتـنبئين المجذوبين فى بلاد العرب. ثم قال إن الملك عانقـه مرة أخرى، حتى إذا ما ظن محمـد أن تحمله قد بلغ مداه، وجد الكلمات السماوية الموحاة لكتاب سماوى جديد، تتدفق من فمه. وهكذا نطقت «كـلمـة» الله لأول مـرة فى بلاد العـرب وأوحى الله للعـرب بكلماته بلغتهم لأول مرة أيضا. أما ذلك الكتاب المقدس، فكان هو القرآن.

كانت نتائج تلك التـجربة الغريبة مهـولة. فحينما بدأ محـمد دعوته إلى كلمة الله فى مكة، كـانت تسود بلاد العـرب حالة من التفكك المزمن. فـقد كان لكل قـبيلة من قبائل البـدو العديدة قانون قائم بذاته، وكـانت أيضاً كل قبيلة فى حالة من الحـرب الدائمة مع التجمعات القبليـة الأخرى. وكان يبدو مسـتحيلاً للعـرب أن يتجمعـوا، مما عنى عدم إمكانهم إقامـة مدينة أو نظام للحكم يمكنهم من احتلال مـركز لهم فى العالم. أما الحجـاز فقد بدا وكأن من المقدر له أن يبقى فى حالة بربرية متوحـشة خارج نطاق الحضارة، ثم بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً، أى عند وفاة محمد فى ٨ يونيو عام ٦٣٢م، كان

محمد قد تمكن من لمّ شمل القبائل جميعها وجعلها تلحق بمجتمعه المسلم. ورغم أنه من الصحة القول إن الأمر لم يكن مستقراً تماماً، إذ كان محمد يعلم أن بدواً كثيرين كانوا متمسكين بالوثنية. لكن، وعلى العكس من كل الاحتمالات، استمرت وحدة العرب التى أنجزها محمد. وكان محمد يتمتع بموهبة سياسية رفيعة القدر إذ تمكن من تغيير أحوال أمته تغييرا شاملا، وأنقذهم من العنف غير المجدى، ومن التحلل، ومنحهم هوية جديدة يزهون بها. وبهذا أصبحوا على استعداد لتأسيس حضارتهم المتفردة. ولقد أطْلقت تعاليم محمد مخزون قوة العرب لدرجة أنهم، وفى خلال مائة عام، امتدت إمبراطوريتهم من جبل طارق إلى الهيمالايا.

وعلى هذا، فإن كان ذلك النصر السياسى هو الإنجاز الوحيد لمحمد فمن حقه علينا أن يحوز إعجابنا. لكن نجـ ـ ـ ـد على الرؤية الدينية التى نقلها للعرب، والتى اعتنقتها بدورها الرعية من شعوب الإمبراطورية، وذلك لأنها لبّتْ حاجة روحانية لديهم. غير أن محمداً والمسلمين الأوائل لم يحققوا انتصاراتهم بسهولة كما يحلو للبعض أن يتخيل. ولكنهم اشتبكوا فى معارك شرسة يائسة. ولولا أن الاعتبار الأول للنبى ورفاقه المقربين كان للدين، ما كتب لهم البقاء. وخلال تلك السنوات الخطرة، كان محمد مؤمناً بالوحى المباشر الآتى من الله. لكنه كان عليه أيضاً أن يوظف كل ملكاته الط ـية. أما المسلمون فقد كانوا يدركون القدرات غير العادية لمحمد، ويعون ـاً أنه قد غير مجرى التاريخ. ولهذا، ففى الزمن الإسلامى الأول أرّخ لمسيرته أربعة مؤرخين مرموقين هم محمد بن إسحق (ت. ٧٦٧م) ومحمد بن سعد (ت. ٨٥٤) وأبو جعفر الطبرى (ت. ٩٢٣) ومحمد بن عمر الواقدى (ت. ٨٢٠م) وقد ركز هؤلاء المؤرخون على غزواته. وتعتبر كتاباتهم مصادر حيوية لأى سيرة لمحمد، وعلى ذلك ستجرى الإشارة إليها كثيراً فى هذا الكتاب. وهؤلاء المؤرخون لم يعتمدوا ببساطة على أفكارهم الخاصة، بل إنهم حاولوا

أن يعيدوا كتابة التاريخ من جديد إعادة جدية. فنجدهم يُضمّنون سردهم للأحداث وثائق مبكرة، ويتتبعون الروايات الشفاهية إلى مصادرها الأصلية. ورغم تبجيلهم لمحمد فإن كتاباتهم ليست سيراً من سير القديسين غير النقدية. فنجد أن الطبرى مثلاً، يورد تلك الحادثة التى أوردها كتاب «آيات شيطانية» سيئ السمعة، والتى تبين أن محمداً كان يخطئ أحياناً. وكذلك، نجد ابن سعد وابن إسحق يُوردان أحداثاً غير مداهنة للرسول، وخاصة أنهم قد سجلوا كل ما قالته عائشة، التى كانت تمتاز بالصراحة والجرأة، بأمانة. ومن تلك السيرة - والتى تتميز بثقتها فى طبيعة الشخصية التى يؤرخ لها، بالقدر الذى لا يحتاج كاتبوها معها للإغراق فى عمليات «لتبييضها» - يخرج القارئ بصورة واقعية مفحمة عن ذلك الإنسان غير العادى.

ومن الطبيعى القول بأن هؤلاء المؤرخين لم يكتبوا بنفس الأسلوب الذى يتبعه المؤرخون الغربيون المحدثون. فقد كانوا رجال عصرهم، وهكذا نراهم كثيراً ما يوردون أقصوصات يُضفون عليها طابع الإعجاز، والتى يمكن لنا اليوم تفسيرها تفسيراً مختلفاً. لكن هؤلاء المؤرخين نجدهم يعون طبيعة مادتهم المعقدة، وأيضاً، يعون الطبيعة المراوغة للحقيقة. لكن المساواة بين البشر - وكما سنرى - سمة ذات جذور عميقة فى الإسلام. ومثلاً، ففى الفن الإسلامى - والذى يعرف بالأرابيسك ذى الموتيفات المتكررة - نلاحظ عدم طغيان بعض الجزئيات على الأخرى نتيجة استخدام منظور معين، أو وضع جزئيات بعينها فى الصدارة. أما الأثر فينتج من النموذج الكلى، نتيجة للصلات المعقدة المتداخلة التى توحد بين الأجزاء المتساوية. ونجد نفس الروح فى كتابات هؤلاء المؤرخين الذين لا يُعلون من قدر نظرية ما، أو تأويلات معينة للأحداث على حساب الأخرى. وأحياناً نجدهم يضعون روايتين مختلفتين تماماً عن نفس الحادث جنباً إلى جنب دون محاولة منهم لشرح وجه التناقض بينهما. فمثلاً يورد الطبرى روايتين مختلفتين للقصة التى

يوظفـها كـاتب «آيات شيطانيـة»، وأيضـاً فإن ابن إسـحق يسجل تقـريرين مختلفـين لقصة إسلام عمـر جنباً إلى جنب دون تعليق على التناقض. وفى كل حال يقـوم المؤرخ بتسجـيل مصادره بدقـة، وحتى إذا مـا قيل إن سلسلة المصادر لا تتـفق مع المتطلبات الحـديثة (للتـأريخ) فالمؤرخون فى حـالتنا هذه يبذلون جهدهم كى تتسـاوى أهمية كل رواية للأحداث. وهم إذ يُوردون كل الروايات لا يوافقـون عليها جـميعـها. وهذا فى حـد ذاته، لبرهان على أن هؤلاء المؤرخين القـدماء، ورغم تبجـيلهم الواضح للرسول، كـانوا يُضمِّنون سيرهم كل الروايات بكل ما يملكون من أمانة وصدق.

ورغم هذا فهناك فجوات فى رواياتهم. فنحن لا نعلم تـقريباً أى تفاصيل عن حياة مـحمد قبل تلقـيه الوحى فى سن الأربعين. فقـد تنامت بالضرورة قصص عن ميلاده وطفولته وشبـابه وكلها مسجلة فى السير، لكن ليس هناك مصادر أكثر ثـقة يمكن الرجوع إليها. كما أن المادة عن حيـاة محمد فى مكة إبان سنوات نبـوته الأولى قليلة. ففى ذلك الوقت، وحـينما كان شـخصـية مغـمورة نسبـياً، لم يَرَ أحد أهمـية تسجـيل وقائع دعوته هناك. أمـا خلال السنوات العشر الأخيـرة من حياته بعد هجرته للمدينة، فـقد أصبح المسلمون على وعى أن التـاريخ يتم صنعه أمـام أعينهم المشـدوهة، ولهذا تم تسـجيل الأحداث بتفصيل أكثر.

واعتـمد المؤرخون على الأحـاديث الشفاهيـة التى نقلها صحـ ة الرسول الأوائل إلى الأجيال التالية. ففى القرن التاسع قام العلماء من أمثال محمد بن إسماعيل البـخارى ومسلم بن الحجاج القشيـرى، بفحص متون وروايات كل حديث فحصاً دقيقاً للتأكد من مصداقيته. وكانت الأحاديث التى لا يوثق فى مصداقيـة سلسلة رواتها ـ إما بسبب وجود فجوات أو للشكوك حـول سمعة المصادر الدينية ـ تسـتبعد بلا هوادة من مجمـوعة الأحاديث الضخمة، مـهما كانت القيمة التعليميـة لتلك الأحاديث، أو جاذبيتها إن هى نسبت للرسول،

أو للمسلمين الأوائل. وكما سنرى، فقد أصبحت الأحاديث مصدراً رئيسياً من مصادر الشريعة. ويبرهن تحقيق الأحاديث على أن المسلمين تبنوا موقفاً نقدياً من تاريخهم المبكر. وتلك الموضوعية تتضح فى أعمال المؤرخين الأوائل أيضاً. ولا ينظر المؤرخون، أو الأجيال اللاحقة لجميع الأحاديث التى تم حفظها وتحقيقها على أنها بنفس الدرجة من الأهمية والثقة.

أما مصدر معلوماتنا الأساسى فهو القرآن. والقرآن بالطبع ليس سرداً لحياة محمد، فإنه كشف عن الخالق أكثر من كونه كشفاً عن رسوله. وهو أيضا يمدنا بمادة قيمة عن تاريخ المجتمع الإسلامى الأول. ويجد الغربيون القرآن كتابا صعبا، وسأناقش ذلك بتفصيل أكثر فى الفصول القادمة. لكن ربما كان من الأهمية بمكان أن نوضح فى البداية ماهية ذلك الكتاب المنزل وكيف يجب علينا أن ننظر إليه. فإن محمداً قد قال إنه، ولمدة ثلاثة وعشرين عاماً، قد تلقى رسالات مباشرة من الله، وقد جمعت تلك الرسالات لتكون القرآن. وعلى ذلك، فإن القرآن لم يهبط من السماء دفعة واحدة مثل التوراة أو (الوصايا) كما تخبرنا المصادر الإنجيلية عن تنزيل التوراة على موسى فى جبل سيناء. فقد نزل القرآن على محمد سطراً سطراً، وآية آية، وسورة سورة. وكانت تلك الرسالات أحياناً تعالج موقفاً محدداً فى مكة. وأحياناً، يبدو القرآن وكأنه يقدم الإجابات على بعض نقاد محمد، أو يشرح الأهمية الكثيرة العمق لمعركة، أو لصراعات معينة فى المجتمع. وبعد إنزال كل رسالة على محمد (الذى قيل عنه إنه كان، مثل كثير من عرب الحجاز، أمياً) كان يتلوها بصوت مرتفع ويحفظها المسلمون عن ظهر قلب، بينما كان أولئك الذين يستطيعون الكتابة، يقومون بتسجيلها كتابة. أما العرب، فقد وجدوا القرآن مدهشاً. فلم يكن كأى من تلك الأدبيات التى عرفوها من قبل. ولذلك، فقد اعتنق بعضهم الإسلام فوراً لاعتقادهم أن ذلك الأسلوب غير العادى لابد وأن يكون منزلاً. أما أولئك الذين رفضوا الدعوة، فقد أصيبوا بالذهول ولم

يجدوا تفسيراً لذلك التنزيل المحير. وحتى يومنا هذا، فعند تلاوة القرآن، تهتز مشاعر المسلمين بعمق، كما أنهم يقولون إنهم حين الإنصات إليه يشعرون أن بعداً صوتياً سماوياً يحيط بهم، إنها تجربة مشابهة لتجربة محمد فى غار حراء عندما أحاطه عناق الملك، أو حينما أبصر بعد ذلك، هذا الكائن الغيبى يملأ كل بقعة فى السماء يدير إليها بصره.

ويرى الغربيون صعوبة فهم ذلك. فقد رأينا كتاباً مثل جيبون وكارلايل، وكانوا متعاطفين إلى حد معقول مع الإسلام، يتحيرون إزاء القرآن، وذلك، فى حد ذاته ليس بالأمر المستغرب، إذ إنه من الصعوبة بمكان تذوق الكتب المقدسة للحضارات الأخرى. ومن ذلك، تلك القصة المعروفة التى تروى عن بعض السياح اليابانيين الذين كانوا يزورون الغرب لأول مرة، وكانوا ذوى إلمام معقول بالإنجليزية. ولأنهم كانوا يودون معرفة شىء عن ديانات البلاد التى يزورونها، فقد بدءوا يقرءون الإنجيل، وشعروا بالحيرة الكلية إزاءه. وحين وصولهم إلى الولايات المتحدة فاتحوا أحد المثقفين المرموقين فيما حيرهم: فقد حاولوا عن صدق، المثابرة فى قراءة ذلك الكتاب، لكنهم ـ كما قالوا ـ لم يجدوا أثراً للدين فيه. فأوضح لهم المثقف الأمر قائلاً إنه إن لم تقرأ تلك الكتابات الإنجيلية من خلال إطار عقلى محدد، فإن من الصعب أن يجد المرء فيها أى شىء سماوى أو دينى فى سردها لتاريخ اليهود القدماء.

أما فى حالة القرآن، فهناك بالإضافة صعوبة الترجمة. فإن أجمل أشعار شيكسبير مثلاً، غالباً ما تبدو تافهة فى ترجمتها إلى لغات أخرى، إذ إنه من الصعب نقل الشعرية الخاصة بها إلى تعبيرات أجنبية. أما العربية، فهى لغة من الصعب ترجمتها. وفى هذا الصدد، يقول العرب إنهم يجدون قصائد وقصصاً فى لغتهم الأصلية أمتعتهم، غير مستوعبة فى ترجمتها إلى لغات أخرى. فإن فى العربية شيئاً ما لا يمكن نقله إلى الاستعمالات اللغوية الأخرى. وهكذا مثلاً، تبدو الخطب السياسية للساسة العرب متكلفة وغريبة

فى ترجماتها الإنجليـزية. فإن كان ذلك صحيحاً بالنسبة للغـة العربية العادية وللأقوال الدنيوية والآداب التقليدية فإن صحة ذلك تتضاعف فى حالة القرآن حيث اللغة مركبة بقدر عال، وهى أيضـاً مكثفة ومحملة بالإيماءات. ويقول العرب الذين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة إنهم حينما يقرءون القرآن فى ترجمته الإنجليزية، يشعرون أنهم يقرءون كتاباً مختلفاً اختلافاً كلياً. ورغم أننى سأكثر من الاستشـهـاد بآيات القـرآن، فـعلى القارئ ألا يـتوقع أن يعتـريه نفس الإحساس الغامر بتلك الكلمات، الذى اعترى المسلمين الأوائل.

لكن ذلك لا يعنى أن نكون صلفين ونتـجاهل القرآن. فإن القـرآن لا يُقرأ مثل غيره مـن الكتب. ويقول المؤمنون إن القرآن إذا قرئ بالطريقة الصـحيحة فإنه يترك حسـاً بحضور سماوى ومن الصعب على شخص نشـأ فى التقاليد المسيحـية فهم ذلك، لأنه ليس لدى المسيحيـين لغة مقدسة مـثل السنسكريتية والعبرية والـعربية، والتى هى مقدسـة لدى الهندوسيين واليهـود والمسلمين. والمسيح نفسه ـ وليست النصـوص المقدسة ـ هو المعنى بالتنزيل المسيحى، ولا يرتبط شىء مقدس بالعهد الجديد المكتوب بالإغـريقية. أما اليهود، فبإمكانهم تفهـم تلك الروحانيـة الإسلامـية بسهـولة أكثـر لأنهم يبجلـون التوراة، أى الأسفار الخـمسة التى يُطلق عليـها المسيحـيون العهد القـديم، بطريقة مماثلة، فحينمـا يدرس اليهود التوراة، فـهم لا يمرون بأعينهم فقط على الصـفحات استقاء للمعلومات. لكنهم يقرءون الكلمات بصوت مرتفع لكى يتذوقوا تلك اللغة التى استعملها الإله نفسـه حينما أفصح لموسى عن ذاته، حتى يحفظوها عن ظهر قلب (لاحظ دلالة التعـبير)، وعادة ما يتـمايلون إلى الأمام والخلف أثناء التـلاوة، وكأنما تدفعـهم الروح الإلهيـة. ومن الواضح أنه حينمـا يتلو اليهود التوراة بهذا الأسلوب، فهم يخبـرون كتاباً آخر مختلفاً عن ذلك الذى يقرؤه المسيـحيون الذين غالباً ما يجـدون تلك الأسفار مجموعـة غامضة من القوانين شـديدة الرتابة. ويخبر المسلمون أيضـا إحساسا بالبركـة فى كلمات

القرآن. وكمثـال: الأيقونات والقربان المقدس فى المسيحـية، حيث تمثل هذه الكلمات حضوراً حقيقياً لكلمة الله بيننا، فإن الله من خلالها قد عبر عن ذاته فى شكل إنسانى. ويمكن ملاحظة قوة القرآن من خلال تغـيير شعوب كثيرة فى الإمبراطورية الإسلامية للغاتها واستبدالها باللغة المقدسة للكتاب المقدس.

وطبقاً لشكله الحالى، فسور القرآن غير مرتبة بنفس التتابع الذى تلاها بها الرسول. فحين تم الجمع الرسـمى الأول للقرآن فى حوالى عام ٦٥٠م، أى بعد ما يقرب من عشرين سنة من وفاة محمد، وضع المحققون السور الطويلة فى البداية، وأقصر السور، التى بدأ بها الوحى، فى النهاية(*) وليس فى ذلك اعتبـاط كما يتبـادر للبعض، لأن القرآن لا يقدم سـرداً قصصيـاً أو مناقشات تسـتوجب التـرتيب التتـابعى. وبدلاً من ذلك، فـهناك أقوال وتأمـلات فى مواضيع شتى، مثل حضور الله فى الطبيـعة، وحياة الأنبياء، ويوم الحساب. ويميل بعض الغربيين للرأى القائل بأن فى القرآن تكراراً يبعث على الملل لأنه يبدو كأنه يعالج ذات المواضيع مرات عدة. لكن الكتاب لم يقصد به الدراسة الانعزالية، بل التلاوة الجهرية. فحـينما يسمع المسلمون تلاوة سورة قرآنية فى المسجد، فـإن تلاوة واحدة كتلك تستدعى مـعها كل مبادئ عـقيدتهم. وإلى جانب ذلك، فإن غير المسلمين قد يجدون القرآن مصدراً هاماً للمعلومات عن محمد. ورغم أنه لم يتم جمعه رسميـا إلا بعد وفاة محمد فالقرآن لا تنقصه المصداقـية. فالدارسون المحـدثون المختلفون، والذين أمكنهم تأريخ مـختلف السور بدرجة معـقولة من الدقة، يوضحون مثلاً أن الـسور المبكرة جداً تعالج مشكلات خاصة قابلها محمد والدين بعدُ فى مراحل الصراع الأولى، أما بعد ذلك فقـد أصبح بالإمكان طرح تلك الصعـوبات جانباً بعد أن قـويت دعائم الدين وانتـصـر. ومن هنا، نجـد فى القرآن تـأملاً، وتعلـيقـا على الرسـالة

(*) هذا مخالف لما رُوِى عن جمع القرآن وترتيبه من خلال الوحى. (المحرر)

المحمدية، الأمر الذى يعتبر فريداً فى تاريخ الأديان. وبذلك، أصبح بالإمكان معرفة الصعوبات المحددة التى كان عليه مواجـهتها، ثم تطوير رؤيته وتعمقها لدرجة أصبحت معها عالمية النطاق.

وبالمقابل، فنحن لا نعرف سوى أقل الـقليل عن المسيح. فإن أول الكتاب المسيحيـين هو القديس بولس، وقد بعث برسالته الأولى بعـد حوالى عشرين عاماً من وفاة المسيح. ولم يكن لبولس، على أية حـال، اهتمام بحياة المسيح على الأرض، لكنه ركز كلية عـلى المعنى الروحانى لموته وبعثه. وفيـما بعد، اعتمد كـتّاب الأسفار على الإرث الشفاهى الذى تركـز فى المقام الأول حول حياة المسيح فى فلسطين، وسجل هؤلاء الكتـاب أقواله أكثر ممّا فعل بولس. وكان مرقس هو أول من كتب، وذلك بعد وفاة المسيح بأربعين عاماً، أى فى السبعيـنيات الميلادية. أما متّى ولوقا فـقد كتبا فى الثمـانينيات، وكتب يوحنا حوالى عـام ١٠٠م. لكن ذلك السرد الإنجيلى يـختلف تماماً عن السـير التى كتبها المؤرخون العرب. فقـد عُنى كتاب الأناجيل بالمغزى الدينى لحياة المسيح أكثـر من عنايتهم بسـرد الوقائع التاريخـية. وتعبـر تلك الكتابات غـالباً عن احتياجـات واهتمامات وعقائد الكنائس الأولى، أكثـر من تركيزها على سرد وقائع الأحداث الأصلية.

فمـثلاً، يشيـر الدارسون المحدثون للعـهد الجديد إلى أن السـرد الإنجيلى لوقائع عذابات المسـيح وموته مشوش تشويشاً تامـاً، وأن تلك الوقائع قد تم تغيـيرها. وربما حـدث ذلك لأن مسـيحـيى ذلك العصـر كانوا يرغـبون فى الانفصال التام عن اليهود، لذا نراهم يُلقون مسئولية موت المسيح على اليهود وليس على الرومان. أما أقوال المسيح فلم يسجل منها إلا أقل القليل. ولكن لا يعنى هذا أن تلك الأناجيل ليست ذات مصداقية فهى تعبر عن حقيقة دينية هامة. فقد وعد المسيح حوارييـه أن يرسل إليهم روحه. ولذا، فيمكن القول إن أكثر ما ألهموا به عمقاً يمكن إرجاعه إلى المسيح نفسه.

أما شخص مـحمد (كما تظهـره الكتابات)، فيخـتلف كل الاختلاف عن

شخصـية المسيح المثاليـة الخارقة للطبيـعة كما يظهرها الإنجـيل. ورغم أنه قد تطورت عند المسلمين تبـعية رمـزية لمحمد، فلم يدعوا قط أنه مـقدس. وفى الواقع ـ وكما تقـدمه السير الأولى ـ فهـو شخصية شـديدة الإنسانية، وليس هناك تشابه بينه وبين شخـوص القديسين المسيحيين. رغم أننا حـينما نخترق حـجب الكتابات عن القـديسين، نتـبين أنهم كـانوا مجـرد آدميـين. وتماثل شخصـية محمـد أكثر شخـصيات التوراة اليهـودية النابضة بالحيـاة من أمثال موسى وداود وسليـمان وإلياس وإسـحق الذين لم يكونوا قديسـين بل كانوا مفعمين بالحيوية. إن تجسيد الحقيقة العليا، أى الإله، والتى هى أقدس من أن توصف بكلمات، من خلال أطر الحيـاة الإنسانية المأساوية المغلوطة، لنوع من الصراع الأليم. فمحمد لم يكن قديسا مـقولباً. فقد عاش فى مجتمع عنيف خطر، ولذا كان عليه أحيانا أن يتبنى أساليب، يجدها من يحظى منا بالعيش فى عالم أكـثر أمنا، مقلقـة. لكن إذا نحن تركنا توقعاتنا المسـيحية للقـداسة جانباً، فسنجد مـحمداً شخصية قوية المشاعر وذات أبعـاد مركبة. وكان لدى محمد مواهب روحانية وسيـاسية عظيمة ـ رغم عدم توافق الجانبين فى أغلب الأحوال ـ ، كمـا أنه كان مقتنعاً أن على كل الأفـراد المتدينين مسئوليـة إقامة مجتمع خير عادل. وبينما كان يتملك محمداً أحيانا الغضب القاتم، فإنه كان أيضاً رءوفاً شديد التأثر وعلى قدر هائل من التعاطف. لم نقرأ أبداً أن المسيح قد ضحك، لكننا كثيراً ما نجد محمداً يبتسم ويداعب المقربين منه، نراه أيضاً يلاعب الأطفال، ويختلف مـع زوجاته، ويبكى بحرقة لوفاة أحـد أصحابه، ويعرض ابنه الوليد مزهوا كأى أب ولع. فنحـن إن استطعنا النظر إلى محمد كما ننظر إلى الشخصيات التاريخـية العظيمة الأخرى، فمن المؤكد أننا سنراه أحد أعظم العبـاقرة الذين عرفهم التاريخ. فـلأن يأتى برائعة أدبية، ويؤسس ديانة عظمى وقـوة عاليـة جديدة، فـتلك إنجازات غـير عـادية. ولكى نوفى عبقريته حقها، فإن علينا دراسة المجتمع الذى ولد فيه والقوى التى صارعها.

فحين هبط محمد من غار حراء حاملاً كلمة الله للعرب، كان يحاول المستحيل، فقد كان هناك قليلون من بين العرب فى الجزيرة يقتربون من التوحيد، لكنهم لم يكونوا قد تفحصوا المعانى التى تتضمنها العقيدة فى الإله الواحد. وليس ذلك بمستغرب. فقد استغرق اليهود قرونا ليؤمنوا أن يهوه هو الإله الواحد. وقد يكون الإسرائيليون قد مارسوا الأحادية فى العبادة، أى أنهم قد وافقوا على عبادة يهوه وحده، لكنهم كانوا يعتقدون وجود آلهة أخرى. وحتى الوصايا العشر التى أتى بها موسى قومه (كما تذكرها توراة بنى إسرائيل) تعترف ضمناً بوجود آلهة أخرى يعبدونها، فإنها تنص قائلة: «لا يكن لك آلهة أخرى أمامى». ولقد مر حوالى سبعمائة عام بين خروج الإسرائيليين من مصر تحت قيادة موسى (١٢٥٠ ق.م) وبين تحقيق الوحدانية التى لا هوادة فيها على يد نبى اليهود الذى يعرف بإشعيا ISIAH الثانى، والذى كان ضمن المنفيين من اليهود فى بابل عام ٥٥٠ ق. م أما محمد فقد انطلق ليجعل العرب يحققون ذلك الإنجاز الأكبر فى فترة لا تتعدى ثلاثة وعشرين عاماً. وسنرى كيف أن بعض الأعراب ترجّوا محمداً أن يتبنوا حل الأحادية فى العبادة، أى أن يعبدوا الله مع بقائهم على عقيدتهم فى وجود آلهة أخرى، بينما يعبد هو وأتباعه الله وحده، لكن محمداً رفض أى توفيقية وبشكل قطعى.

ولم تكن الدعوة إلى الاعتقاد فى الوحدانية مجرد موافقة مفهومية عقلانية. بل كانت تتطلب تغيير الوعى الإنسانى نفسه. فكما يوضح الإنجيل أن الإسرائيليين وجدوا إغراء الوثنية أمراً لا يقاوم، فكذلك وجد العرب إمكانية فقدانهم لآلهة أسلافهم أمراً شديد الإيلام. وإنه لمن غير المستغرب أن اليهود لم يهجروا الوثنية إلى الأبد إلا أثناء منفاهم فى الإمبراطورية البابلية. فالواحدانية - كغيرها من الديانات العالمية العظمى - هى نتاج المدينة. ففى عالم الإمبراطورية، (صار لدى اليهود) منظور أوسع ونظرة مختلفة للعالم

بدت معـها الآلهة المحليـة مزدراة وغيـر كافية. فـقد وفرت الإمـبراطوريات القديمة نظامـاً عاماً وأمناً ضروريين لازدهار الحـضارة. وقد حث هذا الناس على أن ينظروا للكون نفسـه على أنه يسوده النظام، ومن هنا سهل الاعـتقاد أنه يخضع لسيطرة موحدة. كما أنه حينما يُدرك الأفراد أن أفعالهم ستؤثر فى الأجيال القادمـة، فإن وعيهم الحضارى يتسارع ويتـوالد كما يحدث فى المدن الكبرى. أما فى المجتمعات الأكثر بدائية، مثل ماكانت بلاد العرب فى القرن السابع، فإن وجود مثل هذا المنظور شبه محـال. فقد كان من قبيل المستحيل والحيـاة تحفهـا المخاطر، والقدر يبـدو عبـثياً - الاعـتقاد فى إله واحـد رحيم وخاصة أن المجتمعية communalism لا الفردية كانت هى السائدة، كما أنه لم يكن هناك سوى القدر القليل من الأمن الاجتـماعى. وتمثل الآلهة الوثنية المتنوعة فـى المجتمع البـدائى مصدراً لـلقوة والتأثيـر. لذا فقـد بدت للعرب الدعوة لنبذ مـصدر محتمل للعـون واختيار إله واحد أمـراً خاطئاً. ورغم أن بعض الأعـراب، كأهل مكة، كـانوا يعيـشون فى المدن، فـقد كانـت ذكرى الصحراء مازالت حديثة العهد. وهكذا استمرت سيادة المعتقدات القبلية.

ولعل عزلة محمد كانت من السمات البارزة لإنجازاته. ورغم أنه كان يعلم عن اليهودية والمسـيحية، إلا أن معرفتـه بهما كانت محدودة للـغاية. كما أن محـمداً لم يعمل على إحـلال الحل التوحـيدى الصعب من خـلال موروث مؤسسى ذى زخم ورؤية خاصة، موروث بمقدوره إمداد الناس بإرشاد أخلاقى ظل يغرس فيهم على مدى قرون. فمثلاً، كان لدعوة المسيح والقديس بولس جذورها فى اليهودية، كما أن المسيحيين الأوائل كانوا من اليهود ومن آزروهم من المرابطين فى المعابد اليهودية. وفيما بعد، أخذت المسيحية فى الانتشار فى الإمبراطورية الرومانية حيث كانت المجتمـعات اليهودية قد مهدت لها الطريق وأعدت عقول الوثنيين لتلقيها. أما محمد، فقد كان عليه أن يبدأ من لاشىء تقريباً، وأن يشق طريقه وحده نحو روحانية توحيدية خالصة. ولم يكن لأى

مراقب حـيادى أن يرى أن لدى مـحمـد أدنى فرصة فـى النجاح حينـما بدأ دعوته. وكان مثل ذلك المراقب سيعترض قائلاً إن العرب لم يكونوا على أى درجة من الرقى تؤهلهم لاستيعاب رؤية كرؤيته. وفى الواقع، كان الاحتمال الأقوى لمحـاولة محمـد التعـريف برؤيته على نطاق واسع فى ذلك المجـتمع العنيف الرهيب، هو عظم خـطورة تلك المحاولة، وأنه مـجرد نجـاة محـمد بحياته إثر تلك المحاولة ستكون من حسن الحظ.

وفى الواقع، واجه مـحمد أخطاراً كانت نجـاته منها شبه إعـجاز. ولكنه نجح، فبنهاية حياته كـان قد قضى على جذور دورة العنف القبلى المزمنة التى كانت المنطقة مبـتلاة بها. أما الوثنية فقد أصبـحت أمراً لا يحظى بأى اهتمام وكان العرب أيضاً قد استـعدوا لأن يبدءوا مرحلة جديدة فى تاريخهم. ولابد لنا من استـيعاب الأحوال فى بلاد العـرب قبل مجىء الإسلام، تلك الـفترة التى يدعـوها المسلمون الجـاهليـة، أو زمن الجهـالة، كى نقدر ذلك الإنجـاز الفريد.

الفصل الثالث

الجـــاهلية

تعتبر بلاد العرب اليوم من أغنى مناطق العالم، وتحرص دول العالم الكبرى على حماية مصالحها النفطية فيها. أما حين ولد محمد، فى مدينة مكة، فى عام ٥٧٠ تقريباً، فلم تكن الدولتان العظميان فى المنطقة تكترثان لبلاد العرب، إذ كانت دولتا فارس وبيزنطة تتناحران تناحراً هدَّ قواهما، ولم يتوقف التناحر إلا قُبيل وفاة النبى محمد. كانت كل منهما حريصة على صداقة العرب فى جنوب شبه الجزيرة، فى منطقة اليمن الحالية. وكانت مملكة بلاد العرب الجنوبية تختلف كثيراً عن سائر المنطقة، فكانت لها مزية الأمطار الموسمية، مما أكسبها الغنى والخصب، كما كانت تتمتع بثقافة عريقة متقدمة. أما شعاب بلاد العرب وحزونها فكانت برية تبعث الخوف، يسكنها شعب غير مستأنس أطلق عليه اليونان لفظ «ساراكينوى» أى من يعيشون فى الخيام. ولم تنظر فارس أو بيزنطة فى غزو تلك المنطقة الموحشة، ولم يدر بخلد أحد أنها قد أوشكت على إنجاب دين عالمى جديد، فلم تلبث حتى أصبحت دولة عالمية كبرى.

والواقع أن بلاد العرب كانت تُعتبر منطقة لا ربّ لها، ولم ينجح أى من الأديان المتقدمة، التى ارتبطت بالحداثة والتقدم، فى النفاذ إلى تلك المنطقة. صحيح أنه كانت هناك بعض القبائل اليهودية، ذات الأصول المشكوك فيها، فى المستوطنات الزراعية فى يثرب (التى أصبحت المدينة المنورة فيما بعد) وفى خيبر وفدك، ولكنه كان من الصعب التمييز بين هؤلاء اليهود وبين جيرانهم من العرب الوثنيين، كما كان دينهم يتسم إلى حد ما بالسذاجة. أما فى المناطق المتحضرة، فقد اعتنق كثير من العرب الدين المسيحى، وما إن حل

القرن الرابع حتى كانوا قد أقاموا كنيستهم السريانية المتميزة. ولكن الأعراب من بدو الصحراء العربية كانوا يستريبون، بصفة عامة، باليهودية والمسيحية جميعاً، حتى مع إدراكهم أن هاتين الديانتين أكثر تقدماً من دينهم. كانوا يعلمون أن فارس وبيزنطة، وهما الدولتان العظميان، قد تجهزتا لاستعمال الديانتين فى السيطرة الإمبريالية. وكان ذلك قد تجلى فى كارثة احتلال مملكة بلاد العرب الجنوبية، إذ فقدت استقلالها إلى الأبد فى عام ٥٧٠، وهو العام الذى شهد مولد النبى محمد. وكانت إمبراطورية بيزنطة المسيحية قد حولت الحبشة، وهى إثيوبيا حالياً، إلى دولة عميلة، عندما تحولت إلى اعتناق صورة مارقة من صور المسيحية، تعرف باسم «المونوفستية» أى التى تقول بأن المسيح ذو طبيعة إلهية واحدة. وإذا كانت بيزنطة قد اضطهدت المارقين داخل حدودها، فإنها لم تتردد فى استغلالهم لتحقيق المزيد من أطماعها الإمبريالية فى الخارج، وبعد أن جعلت الحبشة تابعة لها، شجعت حاكمها، النجاشى، على التغلغل فى اليمن بغية إخضاعها لسلطان القسطنطينية. ولكن عرب الجنوب لم يعتمدوا على أنفسهم بل طلبوا العون من فارس على التصدى للخطر القادم من الحبشة، ولبّى الساسانيون من حكام فارس ذلك الطلب بكل سرور. وكان الفرس يستخدمون الدين أيضا كسلاح فكرى فى هذا الصراع لبناء الإمبراطورية، إذ ساندوا الدين اليهودى ضد المسيحية البيزنطية. وفى عام ٥١٠ تحول يوسف أسعاى، ملك بلاد العرب الجنوبية، إلى اعتناق اليهودية، وأصبح يعرف باسم جديد هو «ذو نواس» ومعناها من تتدلى ناصية شعره على جبينه. ولكن محاولة الاستعانة بالفرس كان مآلها الفشل عندما سقطت المملكة اليهودية فى أيدى الحبشة عام ٥٢٥، وقيل إن الملك الشاب الوسيم امتطى صهوة جواده وانطلق إلى ساحل البحر فى يأسه حتى ابتلعت الأمواج الحصان وراكبه. ومن ثم أصبحت المملكة العربية الجنوبية مجرد مقاطعة من مقاطعات الحبشة، ودأب أهلها على طلب العون من الفرس.

وأخيرا قـام الملك خُسْرُوا(*) بغزو المنطقة عام ٥٧٠ فـأصبحت مملكة الجنوب ذات العزة مجرد مستعمرة فارسية. وهكذا أصبح الدين الرسمى صورة مارقة أخرى من صور المسـيحية، والتى تسمى النسطورية الـتى تقول بأن المسيح له طبيعتـان، طبيعة بشرية (الناسوت) وطبيـعة ربانية (اللاهوت)، وهى الصورة التى تُحبذُها فارس. وكـان الأعراب من بدو الحجاز ونجد يتفـاخرون تفاخراً شديداً بجيرانهم العرب فى الجنوب، ومن ثم اعتبروا أن سقوط دولتهم كارثة كبرى. وانتهى الأمر إلى النظر بريبة إلى كل من اليهودية والمسيحية.

وزاد من تعمـيق الريبة بهـذين الدينين المتقـدمين مـا وقع من أحداث فى الشمال، إذ كانت كل دولة من الدولتين العظميين تحرص على تأمين حدودها مع منافستها، وكذلك حماية حدودها من غارات أبناء الصحراء الرُّعَنَاء الذين كانوا يقومـون بين الحين والآخر بغزو مناطق الاسـتقرار المأهولة، فى سنوات القحط الشديد. واستعانت كل منهما بالقبائل العربية فى الشمال التى تحولت إلى اعتناق الصور المارقة من المسـيحية، فقامت بيزنطة بتشـجيع عرب الحدود على التحول إلى الدين الصحيح عن طريق بناء أديرة وأماكن للعبادة فى تلك المناطق. وانتهى الأمر بأن تحولت قبيلة غـسان التى كانت تقضى فصل الشتاء على الحدود البيزنطيـة إلى اعتناق المسيحية المونوفستيـة، وأصبحت من حلفاء البـيـزنطيـين، وقـامت ببناء مـخيـم الشتـاء الجنوبى خـارج الرصـافـة فى سـيرجـيوبوليـس. وكان المخـيم يضم قـاعة كـبرى لرئيس الـقبـيلة، بُنيت بالأسلوب البـيزنطى، ومـاتزال آثارها قـائمة حـتى اليوم. وهكذا فـإن دولة الغساسنة كانت تمثل حاجزاً من المفتـرض أن يحمى الإمبراطورية المسيحية من الإمبراطورية الفارسية التى تدين بالزرادشتية[١]. ولكن فارس استطاعت الرد على ذلك. إذ تحـولت قـبائل لخم العـربيـة فى شرقـى سوريا إلى الإيمـان

(*) لعله الملك كسرى. (المحرر)

بالنسطورية، وهى العقيدة التى يفضلها العرب المقيمون فى منطقة ما بين النهرين التابعة للإمبراطورية الفارسية. ومن ثم قام الساسانيون بتعيين عرب لخم حكاماً على دولة تمثل حاجزاً يحمى حدودهم، عاصمتها الحيرة. ولكن فارس وبيزنطة انسحبتا من هاتين الدولتين العربيتين، وامتنع هرقل، الإمبراطور البيزنطى، عن دفع المعونات إلى الغساسنة من باب الاقتصاد فى النفقات إبان الحرب مع الفرس فى عام ٥٨٤ تقريباً، كما قضى الملك خُسْرُوَ على نظام الحكم اللخمى فى نحو عام ٦٠٢ وعين حكاماً من الفرس مكان العرب. وعندما قامت الجيوش العربية بغزو تلك المناطق بعد وفاة النبى محمد، أى بعد ذلك التاريخ بنحو ثلاثين عاماً، وجدوا أن العرب فيها يسخطون سخطاً شديداً على الدولتين العظميين، وأنهم على استعداد للانضواء تحت لواء الإسلام.

ولكن ذلك هو ما حدث فى المستقبل. أما فى مطلع القرن السابع، فقد كانت صور المسيحية المحرفة تحاصر أعراب وسط الجزيرة العربية: كانت الكنيسة المسيحية المهيبة فى نجران تبهر عيون البدو، وإن كانوا مايزالون على ريبتهم بتلك النظم الدينية، وعقدوا العزم على مواصلة استقلالهم عن الدولتين العظميين. وساد فى نفس الوقت لون من ألوان الاستياء النابع من إحساس العرب بأنهم دون غيرهم دينياً وسياسياً. فكانوا يرون أنهم ما لم يتمكنوا من تكوين دولة بدوية موحدة، والإمساك بزمام أقدارهم بأيديهم، فسوف يظلون عرضة للاستغلال بل وقد يضيع استقلالهم مثلما حدث لعرب الجنوب. ولكن فرصة تكوين دولة بدوية موحدة كانت بعيدة المنال. إذ كان عرب الحجاز ونجد قد عاشوا حياة الرُّحّل فى مجموعات قبلية قروناً طويلة، وكانوا دائماً يحاربون بعضهم بعضاً. وعلى مر السنين نشأ لديهم أسلوب حياة بالغ الخصوصية، وأصبح ذلك الأسلوب هو القاعدة بحلول القرن السادس الميلادى. بل إن العرب الذين كانوا يعيشون فى المدن والمستوطنات،

جنحوا لتنظيم حياتهم وفقاً للمبادئ الرعوية القديمة، فكانوا يمتلكون الجمال ويرون أنهم من أبناء الصحراء.

كانت شرعة الأخلاق القـبلية تتطلب مهارات فنية واجتمـاعية معينة، إلى جانب بعض الصفـات الشخصية التى حرص الآباء على غـرسها فى الأبناء. وكان عرب شبه الجـزيرة من الرُّحّل على الدوام. ولم يكن الجمل الذى تقوم عليه حياتهم قد استؤنس إلا قبل وقتنا هذا بنحو ألفى سنة، وهو يتمتع بطاقة فذة على اخـتزان الماء، وقطع مسافات طـويلة فى الصحراء بسرعـة خارقة، وكان العـرب أول الأمر مزارعين فى أراضـى الهلال الخصيب ذات الحـضارة العريقـة، ولكنهم بعد أن اكتسـبوا خبـرة طويلة فى تربية الحيوانات الصـالحة للنقل والسفـر، اتجه بعضهـم من ذوى الجرأة والجسارة إلى الحـياة فى المناطق الوعـرة القـاحلة أثناء فـترات الجـفـاف والعطش التى كانت تقع من حـين لآخر.(٢) وكانت مـحاولة اكتسـاب الرزق والحياة فى هذه الظروف الصعبة دليلاً على التحدى والتمرد على الأقدار القاسية، وربما أظهرت كذلك تصميم العـرب على إثبات قـدرتهم على البقـاء فى ظروف تكاد تكون مـستحـيلة. وانتقلوا بالتدريج إلى الحـياة فى المناطق الصحراوية، فابتـعدوا بذلك إلى حد ما عن مـراكز الحـضارة القائمـة. وكانوا يأخـذون جمالهم فـى الصيف كى تعـتلف فى مناطق الرعى المجـاورة للآبار التى كـانت كل قبـيلة قـد ملكت إحداها، وكـانوا يتجولون فى الشـتاء فى التلال التى كـانت الأمطار تكسـ بالنباتات الكثـيرة، وكانت بمثـابة الجنة لحيـواناتهم. كانوا يعيـشون على الجمال ولحوم الحيوانات التى يصـيدها الصيادون. ولكنه كان من المحال على الرُّحّل أن يعيشوا فى عـزلة، إذ كان بقاؤهم يتطلب الدعم من أهل الزراعة، للحصـول على القمح والبلح، وهى أغذية أساسـية لازمة لاستكمـال طعام الكفاف الذى درجـوا عليه. وتغلغل الرُّحّل تدريجـياً فى المناطق الصـحراوية لأرض الهلال الخصـيب وشبه الجزيرة العربيـة، ومن ورائهم المزارعون الرواد

الذين استقروا فى الواحات، ثم شرعوا فى ريّ الأراضى المحيطة بها، ونجحوا إلى حد كبير فى استزراع الصحراء. وكان المزارعون يعتمدون بدورهم على قدرة الرُّحّل الفائقة على التنقل من مكان إلى مكان، وبفضلها استطاعوا الحصول على البضائع والسلع من الخارج. ولما كان الرُّحّل ذوى مهارات قتالية كبيرة، فقد قدموا الحماية لأهل الاستقرار من العرب فى مقابل جزء من المحصول.

كانت الحياة فى القفار محفوفة بأخطار داهمة، فكان الجوع لا يكاد يفارق الرُّحّل، وكانوا يعانون من سوء التغذية، كما كانوا يتنافسون منافسة ضارية للحصول على ضرورات الحياة. وكان السبيل الأوحد للبقاء هو التماسك فى إطار مجموعة وثيقة الصلات، فالفرد وحده مقضى عليه. وهكذا قام الرُّحّل بتشكيل أنفسهم فى مجموعات مستقلة على أساس صلة الدم والقرابة. ووحّدت بينهم أواصر السلالة الواحدة، حقيقية كانت أو خيالية، فأطلقوا على أنفسهم بعض الأسماء الدالة على ذلك مثل بنى كلب أو بنى أسد (أى من سلالة كلب أو أسد). ومن ثم تحالفت هذه المجموعات مع غيرها لتشكل تآلفات أكبر، وإن كانت الصلات فى داخلها أضعف. ونحن نطلق فى الغرب على المجموعة الصغيرة لفظ «العشيرة» (clan) وعلى المجموعة الكبيرة لفظ القبيلة (tribe) ولكن العرب لم يكونوا يراعون هذا التمييز دائماً وكانوا يطلقون تعبير «القوم» (ومعناها الشعب أو الناس) على المجموعات الصغيرة والكبيرة جميعاً. وحتى لا تتضخم القبائل إلى الحد الذى يتعذر معه تدبير شئونها، كانت المجموعات تعيد تشكيل تآلفاتها وتحالفاتها بصفة مستمرة. وكان من الأمور الجوهرية غرس مبدأ الولاء الشديد والمطلق «للقوم» وكل من يحالفه. فالقبيلة هى وحدها القادرة على ضمان البقاء لكل فرد من أفرادها، وإن كان ذلك يعنى أن «الفردية» بالمعنى الذى نعرفه لم يكن لها مكان بينهم، ويصدق ذلك على ما يرتبط بالفردية من حقوق الفرد وواجباته. كان كل

شيء يعتبـر ثانوياً بالقياس إلى مصلحـة الجماعة. وابتـغاء غرس هذه الروح الجماعية أرسى العرب فكرة المروءة، التى تبلغ مبلغ العـقيدة، والتى يترجمها الباحثون فى الغـرب عادة بكلمة «manliness» (أى الرجولية) ولكن معناها أوسع ويتـركب من عناصر لا توحى بهـا الكلمـة الإنجليزية، فـالمروءة تعنى البـسالة فى القـتال، وتعـنى الصبـر والجلد على الشـدائد، وتعنى التمـسك بأخلاق الفرسان وواجب الثأر من أى إساءة تلحق بالقـبيلة، وحماية الضعفاء والتصدى للأقوياء. وكانت كل قبيلة تعتز بلون المروءة الخاص الذى تتميز به، وكان المعتقـد أن الخلف يرثه عن السلف. وتحقيقاً لمروءة الجـماعة، كان على كل فرد أن يهبّ للدفاع عن إخوته فى القبيلة وأن يطيع الرئيس دون مناقشة. أمـا خارج القـبيلة فلم يكن هناك أى الـتزام، ولم تكن هناك فكرة القـانون الطبيعى العام فى هذه المرحلة من مراحل التطور العربى.

وكانت المروءة تفى بالكثير من مهام الدين، إذ زودت العرب بعقيدة فكرية ورؤية خاصة، مما وهب وجودهم الذى تكتنفه المخاطر معنى له وزنه. ولكن المروءة كـانت ديناً يرتكز على الأرض ارتكازاً كامـلاً، فالقـبيلة هـى القيـمة المقدسـة له، إذ لم تكن لدى العرب أية فكرة عن الحيـاة الأخرى، ولم يكن للفرد قَدَرُهُ المتفرد أو مصيره الخالد. وكان لون الخلود الوحيد المتاح للرجل أو المرأة هو خلود القبيلة واسـتمرار روحها. فـواجب كل فرد هو غرس المروءة لضمان بقاء القـبيلة. وهكذا كانت القبيلة ترعى ذاتها فـحسب. فالمنتظر من رئيسها أن يرعى الضـعفاء من أعضاء مجموعـته، وأن يتولى تـ ـع ممتلكاتها وبضائعـها بالتساوى بـينهم. وكانت الأريحية مـن الفضائل المهـ ـة، إذ كان رئيس القبيلة يدلل على قـوته وثقته بنفسه (ومن ثم على قوة قـبيلته) بالكرم الفـياض والسـخاء البـالغ، سـواء لأفراد قـبيلتـه أو لحلفـائه وأصدقـائه فى الجماعات القبلية الأخرى.

ومازال كرم الضيافة والسخـاء من الفضائل العربية الكبرى، وكان لذلك، بطبيعة الحال، جانبه العملى، فالقبيلة التى تنعم بالثراء اليوم قد تكابد البؤس

غداً، وإذا أَمْسَكْتَ يَدَكَ فى يوم سَعْدِكَ فمن ذا الذى سيأخذ بيدك وقت الشدة؟ ولكن غرس روح الأريحية أعان العرب أيضاً على تجاوز تجهم الكفاح من أجل البقاء، إذ جعلهم لا يكترثون للغد، وشجعهم على عدم المبالاة بالأشياء المادية، ولذلك أهميته الجوهرية فى منطقة تفتقر إلى ما يكفى من ضروريات الحياة الأساسية. وكانت هذه النظرة أيضا من العوامل التى أدت إلى الإحساس العميق بالقدر وتقبله، وهو الذى تتميز به صفة المروءة، فالدهر (الزمن أو القدر) من حقائق الحياة الشاقة ولابد من تقبله بعزة نفس وكرامة. بل إن الحياة لتستحيل إذا لم يتقبل الناس بعض المصائب باعتبارها نوازل محتومة. ومن ثم فقد كان العرب يؤمنون إيماناً راسخاً بأنه من المحال إطالة «الأجل» أى إطالة عمر المرء أو ضمان ما يكفى من «الرزق» أى من الطعام والقوت.

وكان على رئيس القبيلة الذى يتولى حمايتها وحماية كل فرد فيها أن يكون على استعداد للثأر من كل إساءة تلحق بها مهما تكن. فافتقار المجتمع إلى قانون عام وإلى سلطة مركزية تتولى تطبيقه معناه أن السبيل الوحيد لضمان الحد الأدنى من الأمن الاجتماعى هو الانتقام أو الأخذ بالثأر. كانت حياة الفرد رخيصة، ولم يكن القتل فى ذاته معيباً من الناحية الأخلاقية، فالمعيب فقط هو قتل أفراد قبيلتك أو حلفائهم. وكان على كل قبيلة أن تثأر لمقتل أى فرد من أفرادها بقتل شخص آخر من قبيلة القاتل. ولم يكن أمام رئيس القبيلة سوى أن ينتقم حتى يوفر الحماية لأفراد قبيلته، فإذا لم يفعل، لم يعد أحد يُكنّ احتراماً لقومه، بل قد يشعر الآخرون أن لهم أن يقتلوا من شاءوا من أفراد قبيلته بمنجى من العقاب. ولما كان من اليسير على الفرد أن يختفى فى جزيرة العرب فلا يُعْثَرُ له على أثر، لم يكن من الواجب إيقاع العقاب بالقاتل نفسه. وكان العقاب البديل هو إضعاف القبيلة المعتدية بحرمانها من عدد من أفرادها مماثل لعدد من قتلته. ويتبدى فى هذا النظام

معنى الروح الجماعـية بوضوح وجلاء، ففى سبيل تحقـيق هذه الغاية يتساوى جميع أفـراد القبيلة. ولما كنا قـد تخطينا بل وتجاوزنا كثيـراً هذا الضرب من التنظيم الاجتماعى فـإننا لا نقبل اليوم مبدأ الأخذ بالثـأر، لكن الافتقار إلى قوات الشـرطة الحديثة كان يفـرض الأخذ به لضمـان الحد الأدنى من النظام العام. وكان النظام المذكور يضمن كـذلك توازناً فى القوى إلى حد معقول، إذ كان فقدان فرد ما يؤدى إلى إضعاف القبيلة المعتدية بنفس النسبة. وإذا كان ذلك يعنى أنه لن تتمكن جماعة ما من التفـوق بسهولة على جماعة أخرى، فقـد كان يعنى أيضاً أنه كـان من المحال على العـرب أن يتحدوا. لم يعـمد العرب إلـى تجميع مـواردهم الهزيـلة نشداناً للقـوة بل كانوا، فـيمـا يبدو، يدورون فى حلقة مفـرغة من أعمال العنف، إذ كان الأخـذ بثأر واحد يؤدى إلى ثأر مضاد، إذا رأت القبيلة أن نطاق الثأر كان أكبر مما ينبغى.

وكان من الأساليب العـريقة الراسخة للحفـاظ على توازن القوى أسلوب الغزوات، وكان ذلك بمثابة عمل دائم بل يكاد يكون رياضة قومية. ففى زمن الشدة كان أفراد القبيلة يقومون بالإغارة على أرض إحدى القبائل المعادية أملاً فى الحصـول على الغنائم من جـمال أو ماشـية أو غـير ذلك من البـضائع. وكـانوا يتجنبـون إراقة الدمـاء قـدر الطاقة، لأن من شـأن ذلك الأخذ بثـأر القتلى. وكـذلك لم يكن السطو يعتبر منافـياً للأخلاق، إلا إذا قمت بـسرقة بضائع أقربائك أو حلفائك. وكانت الغزوات تضمن قدراً معقولاً من الثراء، وكـان معناها أن الأغـذية والبضـائع المتاحـة، مهـمـا تكن قليلة، يمكن أن تتقـاسمـها الجمـاعات التى تتنافس للحـصول عليـها، ولو كان ذلـك يتسم بالفظاظة وبالحصول عليها دون مجهود.

وعلى ما كـان فى المروءة من سمات الوحـشية، وذلك لاشك فيـه، كان المبدأ يتمـيز بنقاط قوة كثيـرة أصبح بعضها من القيم المهـمة فى الإسلام. لم يكن النبى محمد يعرف سـوى ذلك من وسائل التنظيم الاجتماعى، ومن ثم

قام بتنظيم المجتمع الإسلامى على أسس قبلية. وبالرغم من النزعة الفردية الجديدة التى عمل الإسلام على غرسها فى نفوس المسلمين، ظل المثل الأعلى للمشاركة الاجتماعية والأخوة من المثل الجوهرية فى الإسلام. وكان من العناصر ذات الأهمية الحيوية للرؤية الإسلامية للإنسان عنصر المساواة، لأن النظام القبلى لم يكن يسمح بقيام صفوة تتمتع بامتيازات خاصة. لم يكن ثَمّ ما يماثل الأرستقراطية أو المناصب المتوارثة. ولم يكن رئيس القبيلة يسلم رئاستها إلى ابنه مثلاً، بسبب حاجة القبيلة إلى أفضل الرجال القادرين على النهوض بالعمل، بغض النظر عن نسبه أو امتيازاته. وكان من شأن نزعة المساواة العميقة والقوية التى سادت آنذاك أن تصطبغ بها روح الإسلام، وأن تتسم بها مؤسساته الدينية والسياسية، بل ومؤسساته الفنية والأدبية أيضاً.

ولكن أخلاق الجاهلية كانت، على ذلك كله، تمثل شرعة وحشية. فلم يكن يستطيع البقاء غير الأقوياء، وكان ذلك يعنى استبعاد الضعفاء واستغلالهم. وكان قتل الأطفال هو الوسيلة المعتادة للحد من عدد السكان، وكانت وفيات الإناث فى الطفولة أقل من وفيات الذكور، ولكنه لما كانت القبائل لا تستطيع الإنفاق إلا على عدد محدود من النساء، كانت الفتيات يُقتلن فى طفولتهن دون رحمة أو شفقة. والواقع أن النساء، شأنهن فى ذلك شأن العبيد، لم يكن لهن حقوق إنسانية أو قانونية، ولكن يُعتبرن مجرد متاع وحسب. وكن يلقين معاملة قاسية دون أمل فى تحسين أحوالهن. وكان من حق الرجل أن يتزوج بأى عدد من النساء يشاء، ولما كان النسب غالباً ما يثبت عن طريق الأم، كانت النساء يرثن الأملاك رسمياً، ولو أن ذلك لم يكن مصدر قوة أو نفوذ لهن، وكان الرجل أحياناً يقترن بامرأة كى يستولى على ميراثها الذى آل قانوناً إليها.

ولا غرو إذن ألا يأبه العرب للدين بالمعنى المتعارف عليه للكلمة. فلم يكونوا يملكون ما ينفقونه على طائفة من القسس أو العرافين المسئولين عن

وضع تقـاليد قـبلية أسطورية. وبـدلاً من ذلك كان الشـاعر يتـغنى بأمجـاد القبيلة، وهى القيمة العربية العليا، وكان يخلدها فى أشعاره. لم يتجه شعراء العـرب إلى حكـاية قـصص الأرباب وضـروب الصـراع الكونـى بينهم، أو اسـتكشـاف الدروب المعقـدة للروح فى أسـاطيـرهم وحكاياتهم، بل كـانوا يصفون معارك القبيلة وإنجازاتها، ويبكون ما حلّ بها من كوارث، ويساعدون أفرادها على تقـدير المروءة حق قدرها والاحتـفال بشمـائلها الخاصـة. وكان قرض الشعر من المهارات ذات الأهمية الفائقـة التى يعلى العرب من قيمتها. ولما كانت الأمية سائدة فى شبه الجزيرة، كان الشعراء يقومون بإلقاء أشعارهم شفاهة. وكـانوا يشعرون أن جنّياً يسكنهم، وهو من الجـان التى كانوا يظنون أنها تسكن البـيداء، والواقع أن العرب كانوا يعـتقدون أن الشعـر نشاط فوق مـستـوى البشـر، بل كانوا يرون أيضـاً أن له طاقـات سحـرية. و«اللعنات» الصادرة من فم شاعر ملهم قد تكون لها عواقبها الوخيمة على العدو. وكان الإحـسـاس بأن الشـاعر تـتملكه قوة «أجنـبيـة» شائعـاً فى كل زيارة للوحى الشعرى، وكان الشعراء فى بلاد العـرب يقومون بكثير من المهام التى يضطلع بها القـسيس أو النبى فـى المجتمـعات الأخـرى، فكان الشاعر «يـفتح» ذاته للتعبـير عن الآمال والرغبات اللاشـعورية لقبيلته، وكـان الناس لذلك عندما يسمعون كلماته يدركون على الفور أنها تعبر عما يدور فى أعماقهم. ولذلك اكتـسب الشعـراء أهميـة جوهرية فى الحيـاة السياسيـة والاجتماعـية فى بلاد العرب. وقـد قيل إنهم كانوا يؤدون وظيفـة الصحافة المسـئولة فى مجتـمعنا الحالى، فكانوا ينشـرون المعلومات ويقدمون إلى القـبائل الأخرى تفسـيرهم للأحداث، مما قد يكون له تأثيره القوى فى الحرب الدعائية.

ولكن العصر الذى عاش فـيه النبى محمد، شهـد طائفة أخرى من الأفراد الذين «يسكنهم الجان» دون أن يحظوا بالاحترام الذى يتمتع به الشعراء، وهم طائفـة الكهان. كان الـكهان يشبـهون العـرافين أو المتنبـئين الجـوالين الذين

تصورهم الأشعار الأولى للكتاب المقدس. لم يكونوا أنبياء بالمعنى الرفيع الذى اكتسبه تعريف النبى فيما بعد، ولكنهم كانوا أقرب ما يكونون إلى العرافين، إذ كان الناس يلجئون إليهم إذا ضاع من أحدهم جمل، أو إذا أراد أحد معرفة الطالع. وكان الكاهن يضطر غالباً إلى التمويه، كى يخفى جهله بعبارات غامضة تحتمل التأويل، ولذلك كانت «نبوءاته» عادة ما تكتسى ألفاظاً غير محددة أو متسقة بل غير مفهومة. ولم يأبه محمد، كما سوف نرى، للكهان على الإطلاق، إذ كان يرى أن «نبوءاتهم» تافهة، وخبيثة ولا معنى لها.

ولكن العرب كانت لهم بالتأكيد حياة روحية، وكانت لها قيمتها الكبرى لهم، وكانوا يرون أن بعض البقاع ذات قداسة، وكانت بها أماكن ومزارات مقدسة لها طقوسها القديمة التى ترتكز على رب معين من الأرباب، وكان أهمها على الإطلاق الكعبة، التى تقع قريباً من بئر زمزم المقدسة فى مكة. ويبدو أن ذلك المبنى المكعب، الذى بنى من صخور الجرانيت، موغل فى القدم، وكان يشبه الأماكن والمزارات المقدسة الأخرى التى بادت. وفى ركن الكعبة الشرقى يوجد الحجر الأسود المقدس، وربما كان نيزكا انقض وهاجاً من السماء ذات يوم ليصل ما بين السماء والأرض. وفى عصر النبى محمد كانت الكعبة مخصصة رسمياً للإله هُبل، وهو إله استوردته جزيرة العرب من المملكة النبطية، فيما أصبح يعرف الآن بالأردن. ولكن المكانة الرفيعة للحرم، إلى جانب العقيدة الشائعة فى مكة، تشير إلى أنه كان، فيما يبدو، البيت الذى بنى فى أول الأمر للّه، وهو الرب الأعلى للعرب. وكانت حول الكعبة منطقة دائرية كان الحجاج يقومون فيها بشعيرة الطواف، أى أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة فى اتجاه حركة الشمس. وكان حول الكعبة كذلك ٣٦٠ صنماً، أو تماثيل للأرباب، وربما كانت رموزاً طوطمية لشتى القبائل التى كانت تحج البيت فى الشهر المحدد لذلك. وكانت المنطقة المحيطة بمكة (وهى دائرة نصف قطرها عشرون ميلاً ومركزها الكعبة) أرضاً حراماً، أى أنها كانت حرماً لا يسمح فيه بارتكاب أعمال العنف أو القتال.

وقد يبـدو ذلك غريباً للذين نشئـوا فى مجتمع علمـانى مثل مجتـمعنا، ولكن الكعبـة والطقوس المرتبطة بهـا كانت فيـما يبـدو تفى بحاجة روحـية ونفسية فى بلاد العرب، وسوف نرى أن محمـداً كان يشعر بالجاذبية الغامضة للكعبـة طوال حياته، وأن شـعيرة الطواف التى تبدو للـغريب توقيفـية ومملة كانت لها أهمـية بالغة فى حياة الناس فى مكة. لم تكن واجبـاً مضنياً يؤديه الناس مرغمين أو دون تفكير، بل يبدو أنهم كانوا يستمتعون به وجعلوه جزءاً من حياتهم اليومـية. كانوا يحبون أن يختتموا رحلة صـيد ممتعة بأداء الطواف قبل العودة إلى بيوتهم، وربما كانوا يـريدون أن يعرجوا على حانوت بالسوق القريبة لاحتـساء النبيذ مع بعض الندماء، ثم فضلوا قـضاء المساء فى الطواف بدلاً من ذلك، بسـبب تخلّف ندمـائهم عن الحـضـور. تُرى أى دافع كـان يحفـزهم حفزاً على أداء هذه الشعـيرة؟ وما الذى كانوا يرون أنهـا ستحقـقه لهم؟

يبدو أن الحرم نفـسه كان يتمتع بقـداسة مشتركـة بين أبناء الجنس السامى كلهم، ويبـدو أن الدين السومـرى القديم هو الذى نبـعت منه فكرة الدائرة، والأركان الأربعـة (التى تمثل أركان الأرض الأربعـة) والرموز المقـامة حـولها وعددها ٣٦٠، فـالسنة السومـرية كانت تتكون من ٣٦٠ يومـاً، إلى جانب خمـسة أيام مـقدسـة يقضـيها الإنـسان «خارج حـدود الزمن» إن صح هذا التعبيـر، للقيام بشعائر خاصة تربط بين السـماء والأرض. ومن وجهة النظر العربية، من المحتمل أن تكون شعـيرة الحج تمثل تلك الأيام الخمسة، إذ كان الحج يؤدى مرة واحـدة فى العام، ويشارك فيـه العرب من شتى أرجاء شـبه الجزيرة. كانت شعائر الحج تبدأ بالكعبة ثم ينطلق الحجاج بعد ذلك إلى شتى المزارات المقدسة خارج مكة، ويبدو أنها كانت جـميعاً مكرسة لآلهة أخرى. وكان الحج فى منشـئه يقع فى فـصل الخريف، وذكر بعض الـعلماء أن تلك الشعـائر المختلفـة قد يكون القـصد منها تمثـيل تعسف الشـمس المحتـضرة،

استـدراراً لأمطار الشتاء، إذ يندفع الحـجاج جمـيعاً إلى قـاع وادى المزدلفة، حيث يسكن إلـه الرعد، ثم يسهـرون طوال الليل على السهل المحـيط بجبل عرفات، الذى كان يبعد عن مكة بنحو ستة عشر ميلاً، ثم يرجمون بالحصباء الأعمدة المقدسة الثلاثة فى منىً، وأخيراً ينحـرون ذبيحة يقدمونها أُضحيةً أو قرباناً. ولا يفهم أحد اليوم حقاً ما كانت تلك الشعائر تعنيه آنذاك، والأرجح أن العرب أنفسـهم كانوا قد نسوا، فى عـصر النبى محمـد، الدلالة الأصلية لها، ولكنهم ظلوا على ارتباطهم الوثيق والعميق بالكعبة وغيرها من المزارات المقدسة فى بلاد العرب، ولم يتوقفوا بل استمروا فى أداء الشعائر الخاصة بها بتفانٍ وإخلاص.

كلٌ فـرد منا يحتـاج إلى مكان خاص فـى حيـاته يستطيع أن يأوى إليـه ويقتطع لنفسه فيه وقتاً خارج الزمن، فهو يساعد على التركيز وزيادة الإبداع. أما فى بلاد العـرب حيث كانت الحياة كـلها كفاحاً مـريراً، فلا بد أن المكان المقدس كان يمثل ضرورة لا مراء فيهـا، فقد كان يتيح للعرب أن يتلاقوا فى ظل استرخاء نفسى، مدركين أن قواعـد الثأر القبلى قد تعطلت طيلة مقامهم فيه. ومن الناحـية العملية كان مـعنى ذلك أن بإمكانهم ممارسة التجارة فـيما بينهم، دون خوف من هجـوم قبيلة معـادية، وكانت الأماكن المقدسـة، مثل مكة، من الأسواق المهمة فى العادة، وكانت تعـقد فيها سوق سنوية. ولكن الحرم بشعائره كان يوفر للحجـاج فترة راحة روحية. ويبدو أن الطواف كانت له وظيفة ترويحية، إذ كان يساعد العرب على التركيز، وعلى أن يكتشفوا فى الحركة الرمزية أحد الأبعاد الأزلية لحياتهم.

كان الحرم نفسه، على الأرجح يمـثل العالم، أى الأرض بأركانها الأربعة المنبثقة مـن مركز معين. ويبدو أن الدائرة من النمـاذج الفطرية القديمة، التى نجدها فى جميع الثقافات تقريباً رمزاً للخلود، وللعالم وللنفس. وهى تمثل، مكانيـاً وزمنياً، كُـلاً كاملاً، ومن ثم فـالسيـر فى محـيط الدائرة أو الطواف

حولها ـ وهو من الممارسات الدينية المشركة بين أديان كثيرة ـ يعنى أنك دائماً ما ترجع إلى النقطة التى انطلقت منها: إنك تكـتشف أن فى النهاية البداية. وفى منتصف الدائرة، فى النقطة الثابتة المحددة فى مركز العالم الدوّار، يوجد الخلود، وهو المعنى النهائى الذى من المحـال التعبيـر عنه. والحاج الذى يدور مرات حـوله يتعلم كيف يُعـدّل من مسـاره وكيف يكتشف مـركز ذاته بإزاء العالم من حوله. ومن ثم أصبحت شعيرة الطواف شكلاً من أشكال التأمل، ويبدو أن الحجـاج كانوا «يهرولون» أثناءها، والهـرولة لا تختلف كثيـراً عما نسمـيه اليوم «المشى السـريع». كان ذلك يتطلب تركـيزاً جسـدياً، وربما كان مملاً، ولكنه كان لهـذا السبب يُعين الذهن على الانطلاق. ومـعظم الأماكن المقدسة، فى شتى الثقافات التـقليدية، يرى الناس أنها تقع فى مركز العالم، وأنها كـانت أولى الأماكن التى خـلقتهـا الآلهة. وكـان الحاج يرى أنهـا قد اكتست بهـاء البدايات ورواءها، وكان يحس أنه يقترب بصورة مـا من مركز القوة فى الوجود.

إننا نحتاج جميعاً إلى الطقـوس فى حياتنا حتى تعيننا على تكوين موقف داخلى: فطقـوس المجاملة، على سـبيل المثـال، تساعـدنا على غـرس عادة احترام الآخرين. وفى مـجتمعنا الذى يميل إلى العلمانيـة، توقف الكثيرون عن المشـاركة فـى هذا اللون من النشـاط الرمزى، ومن ثم أصـبح يبـدو لنا تعسـفياً أو مـختلاً. ولكن الـفنان هو المنوط فى عالمنا بإبداع الرمـوز الحافلة بالدلالة، وهو يقدمها إلينا لمساعدتنا على اكـتشاف أبعاد جديدة لحياتنا. وفى طقوس الطواف أو شعائر الحج، كان العـرب يبدعون لونا من الفن العملى، تمكنوا من خلاله من اكتشاف معنى أو دلالة لا يسـهل التعبير عنها بالألفاظ. والأرجح أنهم كانوا يـدركون، على مسـتوى عمـيق ولو لم يفصـحوا عنه، الطابع الرمزى أو المجازى لما كانوا يفعلونه، وهى حالة نفسية فقدها الكثيرون منا، نحن أبناء العرب. وربما كان من بالغ الصعوبة على الذين نشئوا فى ظل

التقاليد البروتستانتية أن يقدروها حق قدرها، لأن بعض صور البروتستانتية تنظر إلى الطقوس بريبة عميقة وبعداء يكاد يوازى بينها وبين الخرافات.

كانت الكعبة أهم حرم، ولكن العرب كانت لهم أماكن مقدسة أخرى. فكان الطواف والتعبد أثناء الوقوف على جبل عرفات فى سياق الحج قبل الإسلام من عناصر العبادة الأساسية فى كل مكان فى شبه الجزيرة. وكذلك كان ما يسمى بالحمى، وهو الأرض التى يحظر استخدامها للأغراض الدنيوية وتتمتع جميع الكائنات الحية بحق اللجوء إليها والاحتماء بها. وقد امتدت يد البلى إلى المزارات المقدسة الأخرى، ولكننا نعرف أن هياكل أخرى مثل الكعبة كانت قائمة فى نجران باليمن، وفى الأبالات، جنوبى مكة، وإن كان أهم ما يتعلق بقصتنا هنا هو الأنصاب الثلاثة القريبة من مكة، والتى كانت مكرسة لبنات الله الثلاث. ففى مدينة الطائف التى كان يحيط بها سور كبير، كان يوجد نصب «اللات»، ولم يكن ذلك الاسم يعنى سوى «الإلهة»، وكانت ترعاه قبيلة ثقيف. وكانوا يحبون أن يطلقوا عليها أيضاً لقب «الربة» بمعنى الملكة أو السيدة الحاكمة. وكان يقوم فى منطقة النخلة نصب «العُزّى»، وكانت أقرب الثلاثة إلى القلوب، وكان اسمها يعنى «الجبارة» أو القوية، وكان يقوم نصب «مناة» إلهة القدر، فى مزار مقدس على شاطئ البحر عند قُدَيْد. ولم تكن هذه الربات الثلاث تُشبه ربات مجمع الآلهة فى التراث اليونانى والرومانى، فلم تكُنْ شخصيات مثل «جونو» أو «بالاس أثينا»، بحيث تكون لكل منها قصتها الخاصة وأساطيرها وشخصيتها المتفردة، ولم يكن لأى منها «مجال نفوذ» خاص، كالحب أو الحرب. ولم يلجأ العرب إلى ابتكار الأساطير اللازمة لتفسير الأهمية الرمزية لهذه الكائنات المقدسة، فمع أنها كانت تسمى بنات الله، لم تكن تمثل شطراً من مجمع للآلهة مكتمل التفاصيل. وكثيراً ما كان العرب يستخدمون ألفاظ القرابة للدلالة على علاقة مجردة، فكان تعبير بنات الدهر مثلاً لا يعنى أكثر من المصائب أو تقلبات

الزمن أو القدر. ويحتمل حقاً أن بنات الله كن يعتبرن من الكائنات المقدسة. وكانت النصب التى تمثلهن فى المزارات قطعاً ضخـمة من الحجر، أى أنها لم تكن تماثيل فردية أو لوحات مـرسومة تمثل أشخاصاً، وكانت الأحـجار تشبه رموز الإخصاب التى كان الـكنعانيون يستخدمونها وكـثرت الإشارة إليها فى الكتاب المقدس. وتبـجيل العرب لهذه الأحجار لم يكن يعنى أنهم يـعبدونها بأى مـعنى سـاذج غليظ، بل كـان يعنى أنهم كـانوا يرونهـا رمزاً أو رمـوزاً للقداسة. وقد ذكر بعض العلماء أن هذه الربات الثلاث ترتبط بربات الخصب الساميّة، مـثل عناة وعشتار، ومـن ثم فالمحتمـل أن يكون تقديسهن قد بدأ قبل أن يعيش العرب حيـاة الارتحـال، أى عندما كـانوا مزارعين يعيشون من فلاحة الأرض.(٣)

وإذا كان العـرب لم يعبـدوا اللات والعزى ومناة بـاعتبـارهن ربات لهنّ ذواتُهن الخاصة، فقد كانوا يتحمسـون لهن حماساً بالغاً، على نحو ما سوف نرى. وكـان تقديسـهن مـقصـوراً على مـزاراتهن، أى أن الناس لم يكونوا يصلّون لهن فى منازلهم على نحو ما كـان اليونان والرومان يصلون لأربابهم ورباتهم.(٤) ولكنهن كُنَّ جزءاً أساسياً من الحيـاة الروحية للبدو فى الحجاز، الذى كانـوا جميـعاً يعـتبـرون النخلة والطائف وقُدَيْـد من الأماكن المقـدسة والمزارات التى تهيئ للعرب «نقطة ارتكاز» نفسى. وكانت عراقة الربات، أى البعد الزمنى الهـائل الذى يفصلهن عن العرب، من أسبـاب تأليههن. فكان العرب إذا صلّوا لهن فى الهيكل يشعرون أنهم يتواصلون مع أجدادهم الذين كانوا يبـجلونهن فى ذلك المكان نفـسه، وكان الإحـساس بالتـواصل ذا طاقة على رأب صدع الزمن. لم تكن هياكل هذه الربات تعتبر مهمة مثل الكعبة، ولكنهـا كانت تماثل الأمـاكن المقدسـة الأخرى فى بلاد العـرب فى إيحائـها بوسيلة لتأكيد ملكية المكان، وإضفاء مـغزى روحى على قفار الفيافى العربية وحزونهـا. كانت الربات قد أقيـمت لتعبر عن الهـوية الأساسية للكثـير من

العرب، ولذلك فأى مساس بهذه العبادة القديمة يؤدى إلى إحساسهم بتهديد هذه الهوية على أعمق المستويات.

ولكن طائفة أخرى من العرب بدأت تبدى عدم رضاها بالدين القديم، ويبدو أن بلاد العرب شهدت فى المرحلة الأخيرة من الجاهلية لوناً من القلق الروحى أو ما يمكن وصفه بالملال، فبعد أن كان البدوى يجد فى النظام القبلى والوثنية القديمة ما يفى بحاجته قروناً طويلة، بدأت الحياة تتغير فى القرن السادس. كانت معظم مناطق شبه الجزيرة العربية تعيش خارج التيار الرئيسى للحضارة، ولكن العرب بدءوا يدركون بعض أفكارها ودوافعها. ويبدو أن بعضهم قد سمع بالفكرة الدينية التى تقول بالحياة الآخرة، على سبيل المثال، وهى التى تؤكد خلود الفرد وتضع ذلك فى مصاف القيم العليا. فكيف يتفق ذلك مع المثل الأعلى الجماعى القديم وهو فكرة القبلية؟ كان بعض العرب قد بدءوا تعاملهم التجارى مع البلدان المتحضرة، وعادوا بقصص باهرة عنها، ووصف الشعراء أعاجيب سوريا وبلاد فارس. ولكن العرب، فيما يبدو، لم يكونوا يطمحون فى التمتع بمثل تلك القوة والإنجازات الرائعة، إذ كان النظام القبلى يحول دون تجميع مواردهم الضئيلة ومواجهة العالم باعتبارهم قوة موحدة، وكانوا يدركون إدراكاً مبهماً بأنهم أصبحوا تلك القوة، وكانت القبائل قد وقعت، فيما يبدو، فى شَرَك الحلقة المفرغة من الحروب وأعمال الأخذ بالثأر، فكان كل ثأر يؤدى حتماً إلى ثأر آخر، فى الوقت الذى كان الإحساس الجديد بالفردية يقرض فى الخفاء حبال الروح الجماعية القديمة.

وكان أكثر من أحس بتقطع السبل بين العرب أولئك الذين انتهوا إلى حياة الاستقرار. ففى القرن السادس، هاجرت إحدى القبائل من منطقة القلاقل فى جنوب الجزيرة العربية، واستقرت فى واحة يثرب، إلى جوار القبائل اليهودية المقيمة هناك. ونجح المهاجرون فى ممارسة الزراعة، ولكنهم اكتشفوا

أن النظام القبلى لم يعد صـالحاً بعد أن أقلع العرب عن الترحـال فى الفيافى الشاسعة وأصـبحوا يعيشون جنباً إلى جنب. ومـا إن حل القرن السابع حتى كانت الواحة كلها، فـيما يبدو، قد وقعت فى الحلقة المفـرغة القديمة، وهى أعمال العنف والحروب. وكانت قبيلة قريش فى مكة، التى ينتمى إليها النبى محمـد، وكان مولده فى عام ٥٧٠ تقـريباً، والتى أصبحت أقـوى قبيلة فى بلاد العرب، تعانى من نوع غـامض من الملال، إذ وجدت أن النظام الفكرى القديم لم يؤهلها لحياة المدينة.

كانت قريش قد استقـرت فى مكة فى أواخر القرن الخامس. وكان جَدُّها الأول قُصَىّ، وأخـوه زُهرة، وعمه تَيْم، قـد استقـروا فى وادى مكة بجوار الحرم. كمـا أقام مخزوم، وهو ابن عم آخر، وابنا عمـه جُمح، وسهم، مع قُصَى، وأصبـحوا هم والعشائر التى حـملت أسماءهم يعرفـون باسم قريش الجوف. واستقـر أقارب قريش الأبعدون فى المنطقة المحيطـة بمكة، وأصبحوا يعرفون باسم قريش الأطراف. ويُروى أن قُصياً سافر إلى سوريا وأحضر معه الربات الثـلاث، اللات والعزى ومناة إلى الحـجاز، كمـا وضع الإله النبطى هبل على عرشه فى الكعبة، ونجحت قريش، فى حملة استعانت فيها بالحيلة والقوة، فى حكم مكة وطرد خـزامة، القبـيلة التى كانت موكـولة بالوصاية عليهـا ولكنها فـشلت، فى نظر الناس، فى أداء الأمانة المقـدسة المعهـود بها إليها. ويبـدو أن صراعاً نشب بين عبد الدار وعبـد مناف، ابنى قُصىّ، بعد وفاة والدهما، واستمرت عواقب ذلك الصراع بين أبنائهم وأحفادهم، مما كان له تأثيره فى مجرى السياسة الداخليـة فى مكة حتى عهد النبى محمد. وكان عبـد الدار هو الابن القـريب من قلب قُصىّ، وكـان يحظى بتـأييد مـخزوم وسهم، وجُـمح، وعمـهم عَدىّ وأبناء أسـراتهم. وأصبـحوا يعرفـون باسم الأحلاف. وأثار عبد مناف بن قصى قضية ميراثه، وكان يؤيده فيها ابن أخيه أسد، وزهرة، وتيم، ورجل يتـمتع بمهابة كـبرى هو الحارث بن فهـر. وقد

ختموا العهد الذى قطعـوه على أنفسهم بأن غسلوا أيديهم فى إناء من الطيب عند الكعـبة، وأصبـحوا يعـرفون باسم خـاص هو المُطَيِّبـون. ولكن أيا من الجانبـين لم يكن يريد الدخول فى صراع كـبير، ومن ثم توصـلا إلى اتفاق يقضى بأن يحتـفظ عبد الدار والأحلاف بمزايا اسمـية، فى حين تظل السلطة الحقـيقيـة فى أيدى عبـد مناف والمطيبـين. وكان أبناؤهم فى العـشائر، ممن يحملون أسماءهم، يميلون إلى الإبقاء على ذلك الحلف.

وبدأت قريش تعمل بالتـجارة، وكانت تمزج بين أنشطتهـا التجارية وبين أنشطتها التـقليدية فى تربية الحيـوان، وكان موقع مكة مثالـياً لمن يريد مزاولة الأعمال التـجارية الطويلة الأجل. إذ كان صيـت الكعبة الذائع وهيبـتها من العوامل التى تجتذب الكثير من العرب للحج فى المدينة كل سنة، وكان الحرم قد أوجـد المناخ الصالح للتـجارة. وكانت مكة تقع فى مـكان متمـيز، عند مفترق الطرق أو قل عند ملتقى الطريقين الرئيـسيين للتجارة فى بلاد العرب، وهما طريق الحجاز الـذى يمتد بحذاء الساحل الشرقى للبـحر الأحمر ويربط اليـمن بسـوريـا وفلسطين وشـرق الأردن، وطريق نجـد الذى يـربط اليـمن بالعراق. ونجحت قريش نجاحاً عظيماً. وعملت قريش على كفالة أمن المدينة بإنشاء أحلاف مع البـدو فى المنطقة. ولما كان العرب الرُحَّلَ يفـضلون قريشاً فى مهاراتهم الحربية، فقد قدمـوا مساعدتهم فى القتال ونالوا فى مقابل ذلك أسهماً فى شتى الشركات التجارية بمكة. وعـمدت قريش إلى استثمار فضيلة نادرة تسمى «الحِلْم»، وهى الـتى مكنت القبيلة من الإدارة السـياسيـة العاقلة البـالغة البـراعة، فـأصبـحت بذلك أعظم قـوة فى بلاد العرب إبان القـرن السادس.

وكانت قريش تدرك ضرورة عدم السماح للدولتـين العظميين باستغلالها، ولذلك التزمت التزامـاً صارماً بالحياد فى الصـراع الدائر بين فارس وبيزنطة، حتى تتجنب المصير الذى انتـهت إليه مملكة الجنوب. ومع ذلك فقد تدهورت

علاقاتها مع البيزنطيين تدهوراً شديداً فى عام ٥٦٠ تقريباً[٦]، فى حين كانت مملكة العرب الجنوبيــة لاتزال ولاية من ولايات الحبشة، وهى الدولة العـميلة لبيزنطة. ويبدو أن أبرهة، الحاكم الحبشى للمملكة الجنوبية، تملكته الغيرة من النجاح التـجارى الذى أصـابته مكة فحـاول غزو المدينة. وعلى مـا اكتسـته الحادثة من زركشة أسطورية، فيبدو أن أبـرهة قد أدرك أن الكعبة كانت عاملاً أساسياً من عوامل نجاح قريش، فـقرر تحويل الحجاج إلى مملكة الجنوب حتى يجتذب المزيد من التـجارة، ومن ثم قام ببناء معبد مسـيحى رائع فى صنعاء من الرخام المُعَـرَّق، وقيل إن هدفه المعلن عندمـا ضرب خيام عـسكره خارج مكة كان تدمير الـكعبة. ولكن يبدو أن الطاعون قد أصــاب جيشه وهو على أبواب المدينة مما أرغمه على الانسحـاب فى ذلة ومهانة. واتخذ هذا الخلاص الرائع صورة المعجـزة فى أعين قريش، وكان الأحـباش قد اصطحبـوا معهم فيـلاً فى هذه الغزوة، وانبهـر أهل مكة بمرأى هذا الحيوان الضـخم الغريب، وذكر فيما بـعد أن الفيل عندما وصل إلى البقعة المقدسـة خارج المدينة، جثا على ركبـتيه ورفض أن يتحـرك. وبعد ذلك أرسل الله حشـداً من الطير من ناحية ساحل البحـر، فألقت الطيور حصى وحصباء مسـمومة على الأحباش فأحـدثت بهم القروح البشعـة. وأصبح عام الفـيل ذا أهمية كبـرى لقريش. ويقول محمد بن إسحق، أول من كتب سيرة النبى محمد (ت ـ ٧٦٧ تقريباً) إن البدو باتوا يحـترمون قريشـاً بعد هذه المعجزة، «فـهم أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مئـونة عدوهم» (ابن هشام/ ٦٢)[٧]. وقد أثارت قصة الفيل مشاعر النبى محمد نفسه، كما أشار إليها القرآن فى سورة الفيل.

وقد حرصت قريش بعد ذلك حرصاً شديداً على استقلالها، وما إن حلّت بداية القرن السابع حتى كانت قـد حققت قدراً من الثراء لم يخطر على قلب بشر فى أيام العرب الرّحّل القـديمة. وبطبيعة الحـال كانوا يرون الخلاص فى الثراء والرأسمالية، وهى التى أنقذتهم، فيما يبدو، من حياة الفقر والأخطار،

ومنحتـهم درعاً من الأمن يكاد يكتـسى صفة القـداسة. لم يعودوا يعـرفون الجوع، ولم تعد تنابذهم القبائل المعاديـة. وبات المال يكتسى فى أعينهم قيمة شبه دينية، على نحو ما سوف نرى. ولكن الرأسمالية القوية المغامرة لم تكن تتمـشى فى الواقع مع شرعة الأخلاق الجـماعيـة القبلية القديمـة، إذ كانت تُشجع، بطبـيعة الحـال، على تفشى الجشـع والنزعة الفردية. وكـانت شتى العشائر تتنافس فيـما بينها منافسة ضارية، وفى الوقت الذى ولد فيـه محمد كانت قد انقسمت إلى ثلاثة أحزاب رئيسيـة. كانت بعض العشائر الضعيفة، ومنها عشيرة هاشم التى ينتمى إليها محمد، لم تكن قد حققت النجاح الذى أصابته العشائر الأخرى، وكانت تحس بأنها تتعرض لضغوط لا قبل لها بها، إذ كان الناس قد نبذوا الشرعة القبلية القديمة التى تقضى بالمشاركة فى الثروة على قدم المساواة، واتجه الأفراد إلى تكديس ثروات شخصية، وغدوا يفتئتون على حقـوق اليتامى والأرامل، فـيُضيفـون تراثهم إلى ثروتهم، ولم يكونوا يرعون الضـعفاء والفـقراء من أبناء القبـيلة، وفقاً لما كـانت الشرعة القـديمة تقضى به. أى إن هذا الازدهار الجـديد قد مزّق الوشـائج التى كانت تربطهم بالقيم التقليدية، وكـان الكثيرون ممن لم يصيبوا من النجاح مـا أصابه غيرهم من أبناء قريش، يشعرون شعوراً مبهماً بأن السبل قد تقطعت بهم فوقعوا فى حيرة وضياع. ولكن النظام الجديد كان، بطبيعة الحال، موضع الترحيب لدى أنجح التـجار ورجـال المصـارف ورجال المال، إذ نشطـوا لتكديس المزيد من رءوس الأموال بحـماس يكاد يشـبه الحمـاس الدينى. لم يكونوا قد ابتـعدوا بأكثر من جيلين اثنين عن فقر حـياة الرّحل، ولكنهم صاروا يعتقدون أن المال والبـضائع المادية تـستطيع إنقـاذهم، وكـانوا يريدون الحـصول على كل مـا يستطيعون الحـصول عليه من هذه الأشياء. ولكن بعض أفـراد الجيل الصاعد لم يكونوا راضـين عن ذلك، وكانوا فـيمـا يبدو يبـحثون عن حـل جديد، روحى وسياسى معاً، للملال والسخط فى المدينة.

كثيراً ما يقال إن الإسلام دين الصحراء، ولكن ذلك غير صحيح. لا شك أن الشرعية القبلية القديمة كان لها تأثيرها فـى الرسالة القرآنية، ولكن الدين الجديد قد تلقاه عرب مكة أول الأمر فى جو من الرأسمالية القائمة على التناحر الفتاك فى دنيا المال والأعمال. كان الإسلام نتاجاً للمدينة، شأنه فى ذلك شأن جميع الأديان «الاعترافية» العظيمة، والعقلانية الفلسفية اليونانية. وقد يبدو ذلك غريباً لنا لأننا درجنا على اعتبار عزوف عيسى الناصرى عن العالم هو خلاصة الروح الدينية. ونحن لا نتوقع ظهور نبى فى حى المال والتجارة فى مدينة لندن أو فى مدينة نيويورك! ولكن الديانات الهندوسية والبوذية والْجَيْنِيّة والكنفوشية ظهرت جميعاً فى الأسواق التجارية. وكان فلاسفة اليونان يعلّمون الناس فى السوق، وكان أنبياء إسرائيل الكبار يُلقون مواعظهم فى المدن، فـى الوقت الذى كان بنو إسرائيل قد بدءوا يتخلون عن حياة الترحال. لقد نشأت هذه الأديان العالمية كلها فى المناخ التجارى لحياة المدينة، فى الوقت الذى كان التجار فيه قد بدءوا فى انتزاع بعض السلطة التى كانت قاصرة فى يوم من الأيام على الملوك والطبقات الأرستقراطية والكهنوتية. وكان الازدهار الجديد قد بدأ يلفت أنظار الناس إلى التفاوت بين الأغنياء والفقراء، ويثير قلقهم العميق إزاء مشكلات العدالة الاجتماعية. كان جميع كبار القادة الدينيين والأنبياء قد تصدوا لهذه القضايا وقدم كل منهم حلاً يميزه عن سواه. وفى مطلع القرن السابع، عندما ت قريش وغيرها من أبناء العرب بسبيلهم إلى التخلى عن حياة التر-ـال القديمة، والوعى بالمشكلات الاجتماعية لحياة الاستقرار، أتى نبى الإسلام برسالة دينية جديدة إلى العرب.

كان الناس قد بدءوا من قبل يتحسسون طريقهم نحو دين التوحيد، وكان البعض على استعداد للإصغاء إلى رسالة محمد من أنه لا يوجد سوى إله واحد، وفى الوقت الذى بدأ فيه دعوته فى مكة، يبدو أن الناس كانوا يُقرّون

بوجه عام بأن الكعبة مكرسة لعبادة الله، وهو الرب الأعلى للعرب الوثنيين، رغم وجــود صنم هُبل وسـيــادته على باقى الأصــنام. وبحلول بداية القــرن السابع، كان الله قد ازدادت أهميته فى الحياة الدينية لكثير من العرب. وكثير من الأديان البدائية ترسى الإيمان برب أعلى يطلق عليـه أحياناً رب السماء. وكان من المعتـقد أنه خلق السماوات والأرض ثم تقـاعد، فيمـا يبدو، كأنما أرهقه الجهد الذى بذله. وكان الناس قد فقدوا الاهتمام بهذا الكيان المتعالى، والذى لا تدركـه الأبصار، ووضـعـوا مكانه أرباباً أكثـر جـاذبية وأيسـر فى الوصول إليهـا. كانت ربات الإخصاب بصـفة خاصة تؤثر فى حـياة الرجال والنساء بصورة مـباشرة بعد حـياة الاستقرار والشـروع فى استزراع الأرض. ونحن نشـهد ذلك فى الكتب الدينيـة اليهـودية، إذ بدأ بنو إسرائيل القـدماء يعبدون «بعل» و«عناة» و«عـشتروت» بعد أن استقـروا فى كنعان، إلى جانب ربهم الأكبر «يهوه»، وبدا لهم من الغباء تجاهل هذه الآلهة القديمة التى كانت تعرف الأرض خيـراً منهم، أما فى وقت الشدة، فكانوا يضـرعون من جديد إلى اسم «يهوه».

والأرجح أن العـرب كانوا قـد نسوا مـهـام الإخصــاب القديمـة للربات العربـيات فى سنوات التـرحال والتنقل، ومن ثم أصـبح الله، الرب أعلى، يكتسى أهمية أكبر. ويبين القـرآن بوضوح وجلاء أن قريشاً كلها كانت تؤمن بأن الله قـد خلق السمــاوات والأرض. وكانت تلك من الحـقائق المسلم بـهـا آنذاك: **﴿ولئن سـألتـهـم [أى قريش] من خلق السـمـوات والأرض وسـخـر الشـمـس والقـمـر ليـقـولن الله﴾** (العنكبوت: ٦١)[٨] ولكنهم استـمـروا فى عبادتهم للآلهـة الأخرى ولم يفقدوا اهتمــامهم العميق بها. ومـثلما كان بنو إسرائيل القدمـاء يفعلون، كان العرب يتوجهـون بالصلاة إلى اللات والعزى ومناة فى أيام الرخاء، أما فى الأزمات فكانوا يتـوجهون بالغريزة إلى الله، إذ كان وحده يملك القدرة على غوثهم إذا حاقت بهم الأخطار المدلهمة. ويقول

القرآن إنهــم إذا كانوا فى الفلك، وكان الـعرب فيـما يبـدو يرون فى ركوب البحـر مخاطـرة حقيـقية، كـانوا يدعون الله حتـى إذا نجاهم، وزال الخطر، ورسوا على اليابسة، بغوا فى الأرض فتوجهوا إلى الآلهة الأخرى.(٩)

ولكن يبدو أن البـعض كان على استعـداد لما يتجاوز ذلك، ففى مـستهل القرن السـابع كان معظم العـرب قد آمنوا بأن الله، ربهم الأعلى، هو نفـسه الإله الذى يعبـده اليهود والمسيـحيون. وكان العرب الـذين اعتنقوا المسيـحية يطلقون لفظ الجـلالة نفسه على ربهم، ويبدو أنهم كانـوا يقومون بالحج إلى بيته الحرام مع الوثنيين. ولكن وعى العرب كان يزداد بأن الله لم ينزل عليهم كـتاباً خـاصاً بهم. ونحن نرى من الـسيـر الأولى للنبى محـمد أن العـرب الوثنيين كانوا يكنّون احـتراماً كبيرا «لأهـل الكتاب» الذين أوتوا من العلم ما لم يُوْتَ العرب. وقرر بعضـهم أن يبحث عن دين أصيل لا يرتبط بالدولتين العظمـيين ولا يصطبغ بما يربطه بالإمـبرياليـة والتحكم الأجنبى. ويقـول لنا سوزومينوس، المؤرخ الفلسـطينى المسيحى، إن بعض العرب أعادوا اكـتشاف دين إبراهيم القـديم وظلوا يدينون به فى زمنه، وهو زمن سحـيق يرجع إلى القرن الخـامس. وإن شئنا الدقـة العلميـة، فإن إبراهيم لم يكن يـهودياً ولا مسيحـياً، إذ كان يعيش فى وقت سابق على التـوراة التى أتى بها موسى إلى بنى إسرائيل. وسوف نجد أن بعض العرب كانوا يحاولون ممارسة دين إبراهيم فى بلاد العرب فى الوقت الذى كان النبى محمد يتلقى فيه التنزيل.

ويقص علينا ابن إسحق فى الـسيـرة النبوية قصـة وقعت قبيل بعـثة النبى محـمد، إذ حاول أربـعة رجال من قـريش الخروج على عـبادة الأصنام فى الكعبـة والبحث عن الدين الصـحيح. ومن ثم عقـدوا حلفاً سرياً واتهـموا زملاءهم فى القبـيلة بأنهم قد أفسدوا دين أبيـهم إبراهيم، وبأن الحجر الذى يطوفون حوله لا قيمة له، فهو لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وقالوا لهم فلتـبحـثوا لكم عن دين، فليـس لكم والله من دين تدينون به، ومن ثم

جعلوا يضربون فى الأرض، سعياً وراء الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام.(١٠) (ابن هشام/ ١٤٣).

ويذهب بعض العلماء فى الغرب إلى أن القول بوجود طائفة حنيفية صغيرة لا يزيد عن كونه أسطورة ابتدعها الأتقياء، إذ ترمز للقلق الروحى الذى اتسمت به المرحلة الأخيرة من الجاهلية، وليس من الحقائق التاريخية. ولكن هذا القول لابد أن يكون قد بُنى على أسس واقعية. إذ إن ثلاثة من أعضاء الطائفة الأربعة كان لهم شأن فى حياة محمد وأصحابه الأوائل، كما كان الرابع، وهو عثمان بن الحويرث، من الشخصيات المهمة فى مكة عندما كان محمد فى العشرينيات من عمره. فكان من تجار قريش، ثم اعتنق المسيحية وحاول إقناع زملائه فى القبيلة أن يبايعوه ملكاً عليهم، ووعدهم بأن يُحقق لهم شروطاً تجارية أفضل مع البيزنطيين، وربما كانوا يطمحون فى تحويل مدينة مكة إلى دولة عميلة، ولكنهم رفضوا اقتراحه على الفور، إذ كانت قريش، شأنها فى ذلك شأن جميع العرب، تُعارض فكرة اتخاذ ملك عليها معارضة شديدة.

أما الحنفاء الثلاثة الآخرون فقد اشتهروا بين أوائل المسلمين، فكان عبيد الله بن جحش هو ابن عم النبى محمد، وقد اعتنق الإسلام ثم تحول آخر الأمر إلى المسيحية. وسوف نعرف فى الفصل التالى أن ورقة بن نوفل، الذى تحول هو الآخر إلى النصرانية، كان من أبناء عمومة زوجة الرسول الأولى، وأنه شجعه وآزره مؤازرة مهمة عندما بدأ محمد يتلقى الوحى، وكان يعتقد أنه تنزيل من عند الله. أما ثالث هذه الطائفة التى وصفت بأنها أسطورية، فقد ظل يبحث طوال عمره ولم يكتب له أن يعتنق ديناً رسمياً راسخاً، إذ لم يكتف زيد بن عمرو بالخروج على عبادة الكعبة بل كان، فيما قيل، ينتقد عبادة الأوثان علناً وصراحة. وكان أخوه غير الشقيق خطّاب بن نفيل من المخلصين لعبادة الأوثان، وساءه ما كان زيد يفعله، بل غضب من ارتداده

واستهانته بالربات إلى الحد الذى جعله يطرده آخر الأمر من البلدة. وقيل إنه شكل فريقاً من شـباب المتحمسـين لعبادة الأوثان وجعلهم رقـباء على التلال المحـيطة بمكة حيث كـان زيد يختـفى عن الأنظار، بهـدف منعه من دخـول الكعبة. وهكذا ترك زيد الحجاز ورحل إلى البلدان المتحضرة سعياً وراء الدين الصحيح وبلغ الموصل فى العراق ثم ارتحل إلى سوريا، وهو يسأل كل راهب أو حاخام يصـادفه عن الدين النقى الذى جاء به إبراهيم. وأخيـراً قابل راهباً أخبره أن الوقت قد حان لظهـور نبى فى مكة يبشر بالدين الذى يبحث عنه. وهكذا عـاد زيد أدراجه ولكنه تعـرض لحـادث اعتـداء عند الحدود الجنوبيـة لسوريا، ولفظ أنفاسـه الأخيرة قبل أن يقدر له أن يقابل مـحمداً. ولكن ابنه سعيداً أصبح من أخلص صحابة النبى محمد.

والقصة حافلة بالدروس، فهى تعبر تعبيراً بليغاً عن روح التساؤل والبحث التى عرفها بعض العرب آنذاك، وهى تبـين كذلك مدى المعارضة التى كانت تنتظر كل من يهدد الديانة الوثنية فى ذلك الوقت. وكـان بين القرشيين عدو كبيـر من أمثال خطاب بن نفيل، الذين كانـوا يُخلصون كل الإخلاص لدين آبائهم، ولا يُطيـقون سمـاع كلمة واحدة تمس أربابهم ورباتـهم القدامى. لم يكونوا يرون أن ثمة حاجة إلى التغيير، فدين الكعبة دين معقول فى نظرهم، وكـان عامـلاً من عوامـل وحدة قـريش فى مديـنتهم. وسـوف نرى أن ابن خطاب، واسمه عمر، كان يشارك أباه عشقه المشبوب للعقيدة القديمة. ولكن الشوق لدين بديل ظل قـائماً. وتقول إحدى الروايات إن زيداً، قـبل إرغامه على مغـادرة مكة، وقف بجوار الكعـبة، واتكأ على البيت الحـرام ثم صاح قائـلاً لقريش أثناء الطواف «يا مـعشـر قريش، والذى نفس زيد بيـده، ليس فيكم من يتبع دين إبراهيم سـواى». ثم أضاف قائلاً: «إلهى! لو أننى أعرف كيف تريدنى أن أعبدك لعبدتك العـبادة التى ترضاها، ولكننى أجهلها».(١١) ولم يلبث دعاء هذا العربى أن أصبح من الدعاء المستجاب.

الفصل الرابع

الـوحـــى

لا نعرف عن حياة محمد المبكرة سوى النذر القليل، ويمدنا القرآن بأكثر الأوصاف ثقة عن حالة النبى قبل تلقيه عبء الرسالة فى سن الأربعين، يأتى ذلك فى سورة الضحى:

«**ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى..**»
(الضحى: ٥ و٦)

أما فيما بعد فقد أضاف الموروث الإسلامى بعض التفاصيل ـ والتى قد يكون منها المتخيل ـ إلى تلك الحقائق العارية. وبالمثل، نجد أن أناجيل متى ولوقا قد أضافت بعض القصص الأسطورية عن ميلاد المسيح وطفولته، والتى هى روايات متخيلة للحقائق اللاهوتية. وتتأمل تلك القصص طبيعة مهمة المسيح على الأرض، وتوضح أنه ومنذ كان فى رحم أمه كانت له سمات العظماء. ومثل تلك القصص أضفت على كل من محمد وعيسى صفات الأبطال بالمعنى الكلاسيكى للفظ. فقيل إن كليهما خاض آفاقا غير مسبوقة من التجربة، وواجه مواقف عظيمة الخطورة، ثم آب إلى قومه حاملا معه هبة غيرت من حياتهم. ففى تلك الروايات يصبح الأنبياء مثلهم مثل البطل الإغريقى يرومثيوس الذى سرق النار من الآلهة وهبط بها على الأرض لتضىء حياة البشر، وتبين القصص عن طفولة هؤلاء الأبطال كيف يتم إعدادهم لأقدارهم الاستثنائية بواسطة قوى خارج نطاق المعرفة، فمنح عيسى مقدرة خارقة على شفاء الأمراض، وكانت المعجزة عنصراً هاماً فى مراحل الرشد من عمر عيسى. غير أن محمداً لم يكن صانع معجزات، وكان دائم القول إن تنزيل القرآن هو معجزة فى حد ذاته وبرهان كاف على مصدره

السماوى. وكثيراً ما كان محمد يصر على أنه «رجل مثل كل الرجال»، وهذا أمر أكده القرآن فى الآية السابقة المستشهد بها والتى تنص على أنه كان «ضالا» حينما أوحى إليه الله[٢]. أما القصص التى تروى عن المعجزات المتعلقة بحمل أمه به، وبطفولته فهى غير ممثلة لبقية حياته.

وعلى ذلك فبالإمكان النظر إلى بعضها على أنها ردود أفعال تخيلية من قبل الناس لطبيعة نبوته، كما أنها تأكيد ليقين المسلمين أنه هو من تاقت إليه الأمم، وترقب الجميع من اليهود والمسيحيين مقدمه، وقيل إن راهباً مسيحياً تنبأ لزيد بن عمرو الحنيف بمقدم نبى عربى. وقد أصبحت تلك النبوءة موتيفة متكررة عن حياة محمد المبكرة فى المجتمع الإسلامى، وفى الواقع، فإن عرب الحجاز لم يكن لهم سوى صلات قليلة بالمسيحيين، وكانوا لا يكادون يعرفون شيئا عن المسيحية. ولم يكن حتى وفاة محمد أن تعرف العرب على الكنائس المزدهرة والتى كانت فى أوج نشاطها فى سوريا وفلسطين. ولا يعرض القرآن إلا للقليل عن الديانة المسيحية(*)، غير أنه لم يكن عدائيا إزاء ديانة عيسى، فقد بيّن أن رسالة محمد هى استمرار وتأكيد للعقيدة السابقة، وكان بعض المسيحيين العرب فى الكنيسة السريانية قد ترجموا جزءا من الإنجيل بطريقة تبين أنهم كانوا يتوقعون رسالة محمد. فقد ذكر أن المسيح قال إنه سيرسل بعد وفاته إلى أتباعه «روح قدس» «Paraclete» يقوم بتذكرتهم بكل ما علمهم إياه ويساعدهم على فهمه[٣]. وترجم اللفظ Paraclete فى ذلك الجزء من الكتاب المقدس السريانى إلى الكلمة «Munahhema» والتى بدت، بعد الحدث، قريبة جداً من محمد. وكان اللفظ الذى ظهر لدى بعض المسيحيين العرب الآخرين هو Periklytos،

(*) عرض القرآن إلى لب الديانة المسيحية على لسان عيسى وهو فى المهد، كما ذكر عقيدة النصارى، وتحدث عنهم بهذا اللفظ، وبلفظ «أهل الكتاب»، كما تحدث عن مواطن الخلاف معهم. (المحرر)

والتى تتـرجم إلى اللفظ العـربى «أحمـد»، وهو اسم كـان شائعـا فى بلاد العرب. ولابد أن محمـداً قد أُعلم بتلك الترجمة، كمـا أن القرآن يشير إلى المعـتقد بأن المـسيح قـد بشّر برسـول يأتى من بعده اسـمه «أحـمد» ليـؤكد رسالته(٤). ويُعتقد أيضاً أن يهود المستـوطنات الزراعية فى شمال بلاد العرب كانوا يتوقـعون مقدم رسـول فى شبه الجزيرة. ويحتـمل أنه كان هناك تزايد مفـاجئ لعقيـدة مسيانيـة عكست حالة القلق فى بلاد العـرب فى نهاية زمن الجاهـلية من خـلال منظورات يهودية تقليـدية. وقد حـدث أيضاً أن هـاجر حاخـام يهودى شديد الورع من سـوريا إلى يثرب، وحينمـا سأله الناس عن السبب الذى من أجله ترك ذلك البلد الخصـيب اللطيف إلى «أرض الصعاب والجـوع» ـ أجـاب بأنه يرغب أن يكون مـوجوداً فـى الحجـاز عند وصـول «النبى»، ثم قال لقبائل يثرب اليهودية: «لا تتركوا أحداً يصل إليه قبلكم أيها اليهود. إنه سيبعث ليسـيل دماء ويأسر نساء وأطفال الذين يعارضونه. لكن، لا تدعوا ذلك يثنيكم عنه»(٥). وكان أن ترك ذلك المناخ المسـيانى أثراً كبـيراً على عرب يثـرب الذين شعـروا أن دينهم أقل شأناً وكفـاءة مقـارنة بالرسالة المنزلة التى يملكها اليهود فى كتابهم المقدس. وفيما بعد، تذكر أحدهم حالة التوتر التى سادت بين القبائل اليهودية والعربية فى الواحة (يثرب) فقال:

لما كنا نسمع من رجـال يهود، كنا أهل شرك أصحـاب أوثان وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لاتزال بيننا وبيننا شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبى يبـعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك.(٦)

وسنرى فى الفصل السـابع كيف أن هذا هيأ عـرب يثرب لمقدم محـمد. ولذا، فـإنهم حينمـا قابـلوه تعرّفـوا عليه فى الـتو على أنه ذلك الشـخص المنتظر. وبالمثل، فـإن الكتـاب المقدس يتـحـدث عن وجود إحـساس عـال بتوقعات فى فلسطين، حيث ساد، على ما يبدو، جو مسيانى مماثل. فحينما

يتكلم نبى باسم الله، فهو أيضا ـ وبمعنى أعمق ـ يتحدث باسم الناس، إذ إنه ينطق بآمالهم ومخاوفهم ويشاركهم حالة القلق السائدة، لكن باستطاعته أن يخاطبهم على مستوى أكثر عمقاً. وتلك القصص، عن توقعات اليهود والمسيحيين فى بلاد العرب تعكس حالة عدم ارتياح روحى هناك فى مطلع القرن السابع، لكنها أيضاً تبرهن على الأثر القوى للأبطال الأنبياء مثل عيسى ومحمد على أجيالهم والأجيال اللاحقة أيضاً، أى أنها تقول إن إنجازاتهم كانت مرموقة ومتوافقة تماماً مع حاجة زمان كل منهم، حتى إنها بدت، بشكل مبهم، مقدّرة، وإنها أيضا قد حققت الطموحات الدينية السابقة عليها.

أما محمد فقد كان على وعى حادّ بالأمراض التى أصابت مجتمع مكة، رغم النجاحات المبهرة الأخيرة، وكان قد ولد فى عشيرة بنى هاشم حوالى عام ٥٧٠م، وكانت العشيرة قد ذوت قوتها وساء مركزها. أما هاشم بن عبد مناف حفيد قصى، فكان شخصية هامة إبان حياته. فإنه أول من قام بإعداد القافلتين اللتين كانتا تسيران كل عام من مكة إلى الشام واليمن. وقيل أيضاً إنه كان على علاقة طيبة بنجاشى الحبشة وإمبراطور بيزنطة. وفى البداية، أخذت العشيرة التى أسسها طريقها إلى الازدهار، أما عبد المطلب بن هاشم، فكان شخصية كاريزمية ويعتقد أنه أعاد اكتشاف بئر زمزم المقدس وكان أسلاف قريش من الكفار قد ردموه. ولذلك كان لعشيرة هاشم تميز إمداد الحجاج بالمياه من زمزم لدى حضورهم لتأدية الشعائر. وكان عبد المطلب تاجراً كبيراً، أما قطيعه من البعير فكان شاهداً على استمراره فى مزاولة نشاطات البدو الرحل. وكان لديه عشرة من الأبناء وست من البنات يفوقون بعضهم البعض فى الجمال وحسن المنظر. وقد ذكر المؤرخ محمد بن سعد الأثر الذى كان يتركه أبناء عبد المطلب فى القوم فقال ما معناه: لم يكن بين العرب من هم أشد تميزاً ومهابة منهم، ولا أنبل وجها منهم. وكانت أنوفهم

من الطـول حتـى أنهـا كانت تستقى قـبل شفاههم.[٧] وكان الابن الأصغر عبد الله حبيباً إلى قلب عبد المطلب بصفة خاصة، وقيل إنه كان أكثر وسامة من إخوته. وعبد الله هو والد محمد. كـانت تلك السنوات حاسمة بالنسبة لقريش التى أخذت أقدار عـشائرها تتغير بصفة مسـتمرة. ووقع أثناء طفولة محمـد حادث له دلالته فـقد أُحيى النزاع بين «الأحلاف» والمطيـبين وبرهن على مدى تدهور أقـدار بنى هاشم حين كـان عبد المطلب فى أرذل العـمر. فقد بـاع تاجر يمنى بضائع لأحد أهم رجـال عشيرة «سـهم» التى كانت من «الأحلاف». لكنه رفض دفع ثمنها. والتجأ اليـمنى إلى قبيلة قريش لإحقاق العدالة، ودعا رئيس عشيرة تيم أى شخص يـهمه العدالة والمعاملة الحقة إلى الحضور واستجابت عـشائر بنى هاشم وعبد المطلب، وأسد، وزهرة، وكلهم من المطيبـين، وعقدوا عـهداً عرف فيـما بعد بحلف الفـضول[٨]. ثم ذهب الجميـع إلى الكعبة وأقسـموا أن يساندوا المظلوم والمضطهد دائمـاً. وقيل إن الصبى محمداً كان حاضراً تلك المـراسم وإنه تحدث بحماس واستحسان عن ذلك التجـمع الذى اتسم بالشـهامة. فـقد كـانت العشائر التـى لحقت ذلك الحلف فى مركز أضـعف من عشائر «الأحلاف» الذين كـانوا يحتكرون تجارة مكة ويضيّقون على الآخرين. ويبدو أن ذلك الحلف تكون لمجابهة المحتكرين من أجل حماية مصالحهم.

وتوضح ظروف طفولة محمد أن عائلته كـانت تمر بأوقات صعبة. فحينما حان الوقت كى يتزوج عبد الله قرر عبد المطلب أن يتزوج هو الآخر كى يُقيم تحالفاً مع عـشيرة زهرة. وهكذا خطب لنفـسه هالة بنت أهيب، وخطب آمنة بنت وهب، والدة محـمد، لولده عبـد الله، وكانت كلتـاهما قريبـتى تاجر مرموق من زهرة. وتمثل القصة المتداولة عن حمل آمنة بمحمد تناقضاً ملحوظاً لقصة حـمل مريم بعيسى. فبخـلاف الحمل العذرى فى حالة عيـسى، وكما يروى، كان عـبد المطلب وولده عبد اللـه يسيران فى شوارع مكة مـعا لزيارة

زوجتيهما حديثتى العهـد حينما اندفعت امرأة من منزلها ودعت عبد الله إلى فراشها. وفيما يبدو أنه كان باستطاعة العرب قبل الإسلام أن ينكحوا أى عدد من النساء. ويبدو أيضاً أن عبدالله لم يجد غضاضة فى العرض رغم أنه كان فى طريقه إلى زفافه، فقد أجاب المرأة ببساطة قائلاً: إن عليه أن يكون مع والده، لكنه عزم على أن يزور المرأة وهو فى طريق عودته فى الصباح. وحينما وصل إلى منزل والد آمنة، نكح زوجته التى حملت من فورها فى محمد، وفى الصباح، حينما ذهب ليفتش عن المرأة التى دعته إليها لم تُبد اهتماما وقالت له إنه فى الليلة البارحة كان هناك ضوء ساطع يشع من بين عينيه، الأمر الذى دلّ على أنه كان على وشك أن يكون أباً لنبى، أما فى هذا الصباح فإن ذلك الضوء قد اختفى، وحملت امرأة أخرى فى رسول الله.

وتوفى عبد الله أثناء حمل زوجته، وكانت الأسرة تعانى من الضيق قدراً لم يستطع معه أن يترك لها سوى خمسة من البعير وأمة صغيرة اسمها بركة(*). ويقال إن آمنة لم تشعر بأية متاعب أثناء حملها. وبدلاً من ذلك فقد سمعت صوتاً ينبئها بأنها تحمل سيد العرب، ورأت نوراً يخرج من بطنها وأبصرت من خلاله قلاع البصرة وسوريا التى تلقت نور الإسلام فيما بعد. وولد محمد فى الثانى عشر من ربيع الأول وأرسلت آمنة فوراً إلى عبدالمطلب قائلة له إن الوليد سيصبح رجلاً عظيماً يوماً ما. وفى غمرة الفرحة والامتنان حمل الشيخ حفيده إلى الكعبة. وقيل أيضاً إن عبد المطلب كان قد أنبئ بالمستقبل العظيم الذى ينتظر حفيده. فقد تنبأ كاهن أن أحد سلالة عبد المطلب سيحكم العالم، كما أنه رأى حلماً ذات ليلة رأى فيه شجرة تخرج من ظهر الطفل تصل قمتها إلى السماء وتمتد فروعها شرقاً وغرباً، وخرج منها ضوء عبده العرب والفرس (الذين قبلوا الإسلام فيما بعد).

(*) فى الأصل الإنجليزى (Bahira)، والصواب أنها بركة الحبشية، أو أم أيمن، وسيأتى ذكرها فى الفصل القادم. (المحرر)

وكان الأطفال غالباً يُسلمون إلى مرضـعات فى الصحراء يتبنونهم، حيث كان الاعتـقاد أن الصحراء أكـثر فائدة للصحة من المدينـة. وكانت البدويات على اسـتعداد لأخـذ أطفال قـريش لإرضاعـهم، وذلك لأنهن كن يتـوقعن الهدايا والمعونة من العـائلة. ولكن ـ ولأن آمنة كانت فقيـرة ـ لم تهتم النساء بمحمـد. وكانت تلك السنـة سنة جدباء عانـت فيهـا كثـير من القـبائل من المجاعات القاسية. ولما كانت قبيلة بنـى سعد معدمة، قررت حليمة بنت أبى ذؤيب، والتى كانت تنتمى إلى تلك القبيلة، أن تـأخذ محمداً، وذلك لأنها لم تجد رضيعاً غيره. ولكن حليمة كان قد بلغ بها الجوع لدرجة أنها لم يكن لديها حليب لترضـعه وليدها، أما شارفُهـا (ناقتها) فكان ضرْعاهـا قد جفا، كما تهالكت أتانها، التى كانت قد ركبتها إلى مكة. لكنها بمجرد أن تسلمت محمـداً حدثت أمور أخرى. فتـقول حليمة: «فلمـا أخذته، رجعت به إلى رحلى فلما وضعته فى حجرى أقـبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك وقام زوجى إلى شارفنا تلك، مـاذا إنها لحافل! فـحلب منها ما شـرب، وشربت معـه حتى انتهـينا ريا وشبعـا فبتنا بـخير ليلة. قـالت: يقول صاحـبى حين أصبحنا: تعلـمى والله يا حليمة لقد أخذت نسـمة مباركـة، قالت: فقلت: والله إنى لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها من شىء من حمرهم حتى إن صواحبى قُلن لى: با ابنة أبى ذؤيب، ويـحك! أربعى علينا، أليـست هذه أتانك التى خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى، فيقلن والله إن لها لشأنا. قالت: ثم قـدمنا منازلنا من بلاد بنى سـعد، وما أعلم أرضـاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لنا، فنحلب ونشـرب. وما يـحلب إنسان قطـرة لبن، ولا يجدها فى ضـرع، حـتى كَلّ الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانها: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت

أبى ذؤيب فتروح أغنامـهم جياعاً ما تنبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شـباعا لبنا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً». [٩]

فمن غير المستغرب إذاً أن نرى حليمة غير مرحبة بفقدان محمد وتوسلت إلى آمنة أن تتركـه معهـا لحين من الزمن، لكن وقعت حـادثة مخيـفة منذرة جعلتها تعدل عن رأيها.

تقول القـصة إنه ذات يوم اندفع إخوة محـمد فى الرضاعـة نحو والديهم وهم يصيحون فى رعب قائلين إن رجلين يرتديان البـياض قد أمسكا بمحمد ويبدو أنهما شقا بطنه. واندفعت حليمة إلى الموقع لترى الطفل يرقد فى وهن على الأرض، ثم قال فيمـا بعد إن الرجلين قد انتزعا قلبـه من صدره وقاما بغلسه بالثـلج. وبعد ذلك وضعـاه على ميزان ثم أعلمـها أنه أكثـر ثقلا من العرب مجتمعين. وفى النهاية قبله أحدهم على جبهته وخاطبه برفق قائلاً له إنه حـبيب الـله حقـا ولن يخـاف أبداً. ولو علم مـا أعده الله لـه لغمـرته السعادة[١٠].

ولتلك القصـة مثيـلاتها فى أقصـوصات الحضـارات الأخرى التى تصف شعائر الإعداد intiation، وهى ترمز إلى النقاء الضرورى للشاب المُعدّ لكى يتلقى تجـربة سمـاوية دون تلويث الرسالة المقـدسة. وقـد قال بعض كـتاب المسلمين إن تلك الحـادثة وقعت قبل الإسراء، الأمـر الذى يدل على إلمامهم بمغزاها الحقيقى.

لكن حليـمة المسكينة وزوجهـا الحارث لم يكونا يعلمـان شيـئاً عن هذا، ولذلك كان بديهياً أن يتملكهما الرعب. وهكذا اعتقدا أن محمداً تملكته نوبة مرضيـة فذعرا وعادا به من فورهمـا إلى مكة قبل أن تشتد أعـراض مرضه. لكن آمنة طمأنتهمـا وطلبت منهما إخبارها بالقصة، ثم هدأت من روعـيهما مخبرة إياهمـا أن طفلها غير عادى وأنه قد تُنبئ له بمسـتقبل عظيم. وقررت

استبقاء محمد معها فى مكة. لكنه حينما بلغ السادسة توفيت آمنة وتيتم مرة أخرى. وذهب بعد ذلك ليعيش فى منزل جده عبدالمطلب الذى يبدو أنه أصبح المفضل. وكان لدى جده ولدان من زواجه الأخير. وهكذا نشأ محمد مع عميْه: العباس، وحمزة ذى الشخصية المرحة، وكانا تقريباً فى مثل عمره. وكان عبد المطلب قد بلغ من العمر أرذله ويقترب من الموت، وفى هذه الأثناء، كان يحب أن يُحمل فراشه إلى الكعبة حيث يرقد محاطاً بأولاده الكبار. وكان محمد مولعاً بالتقافز إلى جانبه على الفراش حيث يرقبه جده بحب ويربت على ظهره. ثم توفى عبد المطلب ومحمد فى الثامنة، وانتقل للعيش فى منزل عمه أبى طالب الذى كان قد أصبح رئيساً لبنى هاشم. وهناك تمتع برفقة ولدى عمه طالب وعقيل.

كان أبوطالب إنساناً طيباً يتمتع باحترام كـ... مكة رغم ذواء قدر عشيرته. ورغم تزايد سوء حالته المادية، كان عطوفاً على ابن أخيه اليتيم. وفى إحدى السنوات قرر أن يرافقه محمد فى إحدى رحلاته التجارية إلى الشام ولدهشة قريش أنهم حينما وصلوا إلى بُصْرَى (*) اندفع راهب محلى يدعى بحيرا خارج صومعته ودعاهم إلى الغداء. وكان الراهب عادة يتجاهل القافلة، لكنه رآها فى تلك السنة تظلها غمامة وضاءة علم بمقتضاها أن النبى الذى طال انتظاره كان حاضراً. ومن الملاحظ أن هذه القصة الإسلامية توازى القصة الإنجيلية عن الطفل عيسى الذى كان مفقوداً فى المعبد. لكن التـ...ير المبكرة عن القصة توضح أن المصادر الأولية للقصة كانت تجهل المسيحية. ربما أنه قد حدث خلط بين اسم ذلك الراهب «بحيرا» واللفظ السريانى Bhira ويعنى المبجل - سيدعى الأعداء المسيحيون أن بحيرا ذلك هو من علم محمداً ما أسموه الهرطقة المحمدية Muhammadanism.

(*) من أعمال دمشق. (المحرر)

وبما أن محمـداً كان أصغر الموجـودين سناً فقد تُرك فى الخـارج ليحرس البضاعـة بينما لبّت قريش دعـوة بحيرا. وأثناء الطعام تأمل الراهـب التجار بتمـعن لكن لم يجد أحـداً منهم تُطابق أوصافه أوصـاف النبى التى يعرفـها الراهب من كتبـه. وهنا سألهم عما إذا كـان فى معيتهـم شخص آخر. عند ذلك شعرت قريش بالحرج لتركهم حفـيد عبد المطلب العظيم جالساً بالخارج كالعبيد، فأحضروه، وأخذ الراهب يرقبه بتمعن. وعقب انتهاء الطعام انتحى به جانباً وطلب منه أن يقسم باللات والعزى - آلهة قومه - أن يجيبه بصدق. وهنا اعترض محمد قائلاً:

«لا تسألنى باللات والعزى شـيئاً فوالله ما أبغـضت شيئا قط بغضـهما»، وبدلاً عن ذلك أقـسم بالله وحـده وأجاب أسـئلة الراهب عـن حيـاته. ثم فحص الراهب جسده ووجد خاتم النبوة بين كـتفيه، وحينئذٍ نصح أبا طالب فقال له: فـارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه من اليـهود. فوالله لئن رأوه، وعرفـوا منه ماعرفت ليـبغينه شـراً، فإنه كائن لابن أخـيك هذا شأن عظيم، فأسـرع به إلى بلاده[١١]. ولكن، وحـتى بلوغ مـحمـد الخـامسـة والعـشرين، لم تـكن هناك علامـة على تلك العظمـة رغم أنه يفع شـاباً ذا مقدرات عظيمة. وعرف فى مكة باسم الأمـين، وكان طوال حياته ذا مقدرة على كسب ثقـة الآخرين. وشب مـحمد ليـصبح وسيـما، ذا جـسد مكتنز متوسط الطول. وكان كث اللحية والشعر المتـموج. أما وجهه فكان ذا تعبير مضىء مميز مدهش ذكـرته جميع المصادر. وتميزت شخصـيته بالدفء الشديد حتى إنه كـان يهتم اهتمـاماً تاماً بكل مـا يفعله. وعبـرت لغته الجسدية فى مشيتـه ووقوفه وجلوسه عن تلك السمات. ومن سـماته أيضاً أنه لم يحدث أن نظر خلفه حتى ولو اشتبكت عباءته فى شجيرة شائكة. وبناء على ذلك، أصبح باستطاعة أصحابه أن يتـحدثوا ويتضاحكوا بحرية وهم واثقون أنه لن يستـدير ليراهم. ولم يحـدث أنه حين كـان يستـدير لمحادثة شـخص ما أن

استدار إليه جـزئيا، بل كان يتجه إلى من يحادثه بكل جسـده ويحادثه وجهاً لوجه. وإن هو صافح أحداً، فلم يكن ليسحب يده أولاً. أمـا أعمامه، فقد راعوا أن يتلقى محمـد تدريبات عسكرية جيدة فصـار رامى سهام ماهراً، ذا كفاءة فى استعمال السيف والمصارعة. لكن محمداً لم يصبح مبهراً فى ميدان القتـال مثل عمـه الأصغر حـمزة الذى كبر ليُـصبح مارداً ذا قـوة جسمـانية خارقة. واشتغل عمه العباس فى سوق المال، أما محمد فأصبح تاجراً مهمته قيـادة القوافل إلى الشـام وبلاد ما بين النهرين. وهذا مـا حدا بالغـربيين أن يلقبوه بسـائق الإبل، ذلك الوصف الذى قصد به الحط من شأن مهـمته التى تطلبت قدراً كـبيراً من المسـئولية وحُسن الإدارة. كـما أبدى بعض الباحـثين تشككهم فى أن محمداً مارس التجارة، إذ ادّعوا أنه لا يوجد بالقرآن ما يدل على معـرفة وثيـقة بالشام والبـلاد الأخرى المتمـدينة، كمـا أنه لم يشر إلى المسيرات والمواكب والممارسات المسيحية السُّريانية المبهمة والتى ألهمت شعراء مـعاصـرين لمحمـد فى شـبه الجـزيرة[١٢]. لكن تلك التـشككات فى الآراء الموروثة عن امتهان محمد للتجارة هـى أقوال مبعثها الكراهية إذ إنه لا يوجد سبب يجعل أحداً يخترع أمراً كهذا.

لكن، وعلى الرغم من قـدرات محمد، فـإن منزلته كيـتيم كانت حـجر عثرة، مما لابد وأنها تسبـبت له فى الألم، وهكذا سنرى أنه طوال حياته كان مهـمومـاً بمأزق الأيتام ومعـاملتهم. وبالإضـافة، فـإن منزلته الاجتـماعية المتواضعة جعلت من الصعب عليه أن يجـد لنفسه زوجة. فقد حدث أن أراد الزواج من فاختـة إحدى بنات أبى طالب، وكانت فى مثل عـمره. وكان أن نبهه أبوطالب أن مركزه لا يسمح له بـعد بالزواج، ثم اختار أبوها لها زوجاً مناسباً من عشيرة مخزوم الأرستقراطية. ورغم ما كان عليه أبوطالب من رقة المشاعر واللباقة، فلابد وأن ذلك قـد تسبب فى إيلام محمد الذى كان يحب النســاء ويشعـر بالحاجـة إليهن، وهو فى ذلك كـان يختلف عن كـثيـر من

معـاصريه. ولقد رأينا كيف أنه لم تكن لـلنساء مكانة فى الجاهلية، كـما أن كثيراً من المسلمـين البارزين كانوا يعاملون زوجاتهم وبناتهم معـاملة قاسية. ولكن كان محمد يحب صحبة النساء ويحـتاج إلى التعاطف والحميمية حتى إنه فيما بعد حيرت رقته وتسامحه مع النساء بعض أصحابه المقربين فلم يكن محمد ذلك الفاسق المنحرف الذى تصوره الأساطير الغربية بل كان يحتاج من النساء الصداقة والحب.

على أية حال، تغير حظُّ محمد فى حـوالى عام ٥٩٥م تغيراً دراميًا. فقد طلبت منه خديجـة بنت خويلد، التى تمتّ له بصلة قرابة بعـيدة. أن يذهب ببضـاعة لها إلى الشام. وكـانت بعض المدن تتيح الفرصة لبـعض النساء أن يزدهرن فى مجـال الأعمال والتـجارة، فقـد حققت بعض النسـاء فى القرن الثانى عـشر نجاحاً مـرموقاً فى التعـاملات المالية والتجـارة وإدارة المحلات، ويبدو أنه كـان هناك وضع ماثل فى مكة فى القرن السابع المـيلادى، وكانت خديجة قـد تزوجت مرتين وأنجبت عدداً من الأطفال. وتنتـمى خديجة إلى عشـيرة بنى أسـد، التى أصبـحت فى بداية القرن السـابع أكثر قـوة من بنى هاشم، كما أنها كانت تحقق دخلاً جيداً مـن التجارة. وقبل محمد التفويض وذهب فى رحلة تجارية برهـنت على أنها رحلة حاسـمة. ورافقـه فى رحلته تلك شخص يدعى مـيسرة رأى أموراً غـريبة تحدث فى أثناء الرحلة أنبـأ بها خديجة، فقال لها إن راهباً انتـحى به وأخبره أن محمداً هو النبى الذى تنتظر بلاد العرب مجيئه بشغف، وأضاف قائلاً إنه حدث بعد ذلك، ولدهشته، أن رأى ملكين يظللان مـحمداً من الشمس المحـرقة، وحينمـا سمعت خـديجة تلك الأخبار ذهبت من فـورها لاستشارة ابن عمـها ورقة بن نوفل الحنيف، والذى كان قد اعتـنق المسيحية ودرس الإنجيل وظل ينتظر مـقدم النبى العربى باشتيـاق. وهكذا، فحينما سمـع أخبار خديجة صـاح قائلاً: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة فإن محمداً لنبى هذه الأمة»(١٣).

وعرضت خديجة الزواج على محمـد. ولم يكن حماسُ ورقة هو دافعها

الوحيد، لـكنها كانت معـجبة بصفـات قريبها الشـخصية. وكانت خـديجة بحاجة لزوج جـديد، ورغم فرق العمر بيـنهما فقد كـان زواجهما مـوفقاً. وقالت خديجة لمحمـد: «يا ابن عم، إنى رغبت فيك قرابتك، ووسطتك فى قومك، وأمانتك، وحـسن خلقك، وصدق حديثك»(١٤). وتذهب الروايات إلى أن خديجة كانت فى الأربعـين فى ذلك الوقت. لكن، وبما أنها حملت فى ستة أطفـال من محمد على الأقل، فـمن المحتمل أنها كـانت أصغر من ذلك. وعلى أية حال فـقد كانت تكبـره بدرجة ملحـوظة. ومن الشائع فى الغرب أن يكون الزواج مـن أرملة ثرية وأكبر سناً من الـزوج موضع تهكم. وكان من المفهوم ضمناً (فى الغرب) أن محمداً وافق على الزواج من خديجة لتلك الأسباب التى تستدعى السخريـة، حتى إننا نجد ماكسيم رودينسون فى سيـرته المتعـاطفة مع الرسـول يلمح إلى أن مـحمداً لابد وأنـه وجد الزواج محبطاً جنسيـاً وعاطفياً. غير أن العكس يبدو صحيـحاً تماماً. ففى السنوات الأولى لرسالته، لم يكن لمحمد أن ينجح فى مهمته دون مساندتها ومشورتها الروحيـة. فخديجة كـانت امرأة فذة. ويصـفها ابن إسحق بأنهـا امرأة ذات تصميـم ونبل وذكاء. وكان محمـد يلتجئ إلى خديجـة حينما كان يهـاجمه أعداؤه، أو حينمـا كان يعتريه الخـوف من تجربته الروحية، طـلباً للمؤازرة، وطوال حياتها ظـلت خديجة أول إنسان يتعرف على قـدرات زوجها الفذة، وما فتئت تمده بالقوة وتخفف عنه عبأه، كما أنها أشهرت دعوته.

ورغم أن محمداً كـان إنساناً متقد العاطفة فلم يتـزوج بأخرى أصغر سناً من خـديجة طوال سنوات زواجـه بها، وتلك حـقيـقة أولَى لهـؤلاء الذين ينتقدونه لتـعدد زوجاته فى السنوات الأخيرة من حـياته أن يبرروها. والواقع أنه بعـد وفاتهـا كـان مدح مـحمـد الدائم لخـديجة يُغـضب النسـاء اللاتى تزوجهن، كما أنه فى إحدى المناسبـات شحب وجهه من الأسى لاعتقاده أنه سمع صوتها. ليس هذا إذاً زواج مصلحة. كمـا أن محمداً كان يُخرج الجزء

الأكبر من دخل أسرته للفقـراء مما نجم عنه أن يعيش هو وأسرته فى تقشف. لكن على الرغم مما ساد داره من تقشف، فقد كانت أسرته سعيدة، وحملت خديجـة من محمـد فى ستة أطفـال على الأقل. وقد توفى ابناهمـا القاسم وعبد الله فى طفولتهما، وبقـيت لهما أربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وأحب محمد الأطفال دائماً، وظل طوال حياته يحتضنهم ويُقبلهم ويشاركهم ألعابهم. كمـا أنه تفانى فى حب بناته، وكان من عادة العرب أن يتخذوا كنية شرفية لدى ميلاد أول أبنائهم، وهكذا كنى محمد بأبى القاسم، الأمر الذى كان مصدر بهجة له. وكان من الممكن أيضاً لخديجة أن تكنى بأم القاسم(١٦). غير أنه أمكن لمحـمد تعويض فقدانه لأبنائه، إلى حد مـا. فقد أهدت إليـه خديجة عـبدا حـديث السن من قبـيلة كلب العـربية فى شـمال الجزيرة. وتعلق ذلك العـبد، واسمه زيد بن حـارثة بسيده، حتى أن عـائلته حينما عثـرت عليه وأتت إلى مكة لدفع النقود اللازمة لعتـقه توسل إليهم أن يبقى مع مـحمد. وفى المقابل، منحـه محمد حـريته وأصبح أبا متـبنِّياً له. وحينما بلغت ابنته فاطمة الرابعـة بعد ذلك بسنوات قليلة لحق بالعائلة عضو جديد. فقـد لحق بأبى طالب ضيق مالى، وحدثت مجـاعة شديدة فى تلك السنة أدت إلى تدهور أحواله أكثر. ولكى يتخفف من عبئه ضم العباس أخاه الأصغر إلى عـائلته وانضم علىّ الذى كان يبلغ الخـامسة إلى عائلة مـحمد. ونظراً إلى أن محـمداً نشأ يتيـماً فقد كـانت نظرته جدية إلى علاقـة التبنى. فحينما كان والدا محمد فى الرضاع يحضران لزيارته كان يهدى إليهما طعاماً أو شاة. وازدهرت أحوال زيد وعـلى فى ظل رعايته وأصبحـا من القادة فى المجتمع الإسلامى الأول. وكان على يمتلك ذلك النوع من القوة الذى يبعث على الولاء فى قلوب الأصدقاء.

وقد تحـسن مركز مكة خلال السنـوات الخالية من الأحداث التى سـبقت دعوته. وعُرف عنه بوجه خاص رفقه بالفـقراء والعبيد. ووقعت حادثة تظهر دلالتهـا حينمـا تتأمل فى سـياق الأحـداث المتأخـرة عنها. فـفى عام ٦٠٥

ميــلادية، وحينما كان مــحمد فى حوالى الخــامسة والثلاثين، قــررت قريش إعادة بناء الكعــبة حيث إن بعض حــجارتها كــانت قد تقلقلت، كمــا كانت بحاجة إلى ســقف جديد بدلاً من ذلك الذى خربه اللصوص. لكن قــدسية المكان جعلــت من المهمة عــملية حــساسة مــحفوفــة بالمخاطر. فــفى معظم المجتمعات المحافظة ينظر للأشياء المقــدسة على أنها محرمات ويكون التعامل معهــا بقدر كبيــر من الحذر. وقلقت قريش أشــد القلق من تهدم ذلك الأثر العظيم، ورغم ذلك فقد ثابرت لتنفيذ الخطة. واقترب الوليد بن المغيرة وكان من أكثــر الشخــصيــات تأثيراً بمكة، وضــرب الكعبــة بفأسه قــائلاً «يا الله، لاتخش شيــئاً، فنحن لا نعتزم إلا مــا هو خير يا إلهى». وسُــمح للعمل أن يبدأ، وتولت كل عشــيرة مسئوليــة ركن معين للتأكــيد على جماعيــة جهد القبــيلة، وحينما وصلوا إلى الأساســات، تخيل أن المدينة اهتزت بأكــملها. ولذلك قــررت قريش تركــها كــما هــى. ثم أخذت الحــوائط ترتفع، ولكن معركة حامية نشبت حــينما حان الوقت لإعادة الحجر الأسود إلى مكانه لأن كل عشــيرة أرادت الاستئــثار بذلك الشرف. وبعــد مرور خمســة أيام كانت المعركــة مازالت مشتعلة، وإن دل ذلك على شىء، فــإنما يدل على التنافس الشرس الذى كاد ينخــر فى عظام وحدة القبائل فى مكة. وحينمــا يئسوا من إيجاد حل توفيقى مقبول، قــررت العشائر قبول حكم أول شخص يظهر فى الموقع. وحدث أن كان ذلك الشخص محــمداً، وكان قد عاد لتوه من رحلة عمل، وتوجه كعادته إلى الكعبة ليؤدى الطواف. ورحبت به العشائر بارتياح وصاح الجميع «هذا الأمين، رضينا، هذا محمد»(١٧).

وهنا طلب منهم محمد أن يأتوا بعباءة وأن يضعوا الحجر وسطها على أن يمسك ممثلون لكل عــشيرة بطرف الثوب، وبذلك يعيــدون الحجر إلى مكانه جماعة. وكــان لمحمد أن أعاد بناء الكعبة لاحقــاً بشكل جذرى أكثر، وذلك حينما جعل منهــا مركز العالم الإسلامى، كما قُدر له أيضــاً أن يعيد توحيد قريش حول بيت الله المقدَّس.

وكما رأينا، فقد كان محمد فى الأربعين حينما بدأ خلواته الروحية. وقد قالت زوجته عائشة فيما بعد إنه حينذاك كان قد بدأ يقضى وقتاً أطول فى الخلوة مكرساً نفسه لعبادة الله. كما بدأ يتلقى أحلاماً بدت مضيئة بالوعد والأمل مثل «فلق الصُّبح»، وخلال فترات الخلوة كان محمد يمارس تدريبات روحانية يدعوها العرب تحنُّثاً، كما كان يقوم بتوزيع الطعام على الفقراء. وفيما بعد أصبحت الصلاة والزكاة ممارسات أساسية فى الإسلام. ولعله أيضا كان يقضى وقتاً طويلاً متفكراً قلقاً. فنحن نعلم من ممارساته اللاحقة أنه كان قد شخص علة الحياة فى مكة تشخيصا دقيقاً. ولابد أيضاً أنه كان قد شعر بإحباط عميق لأنه لا يمكن أن يأخذ أحد أفكاره حينئذ بجدية، هذا بالاضافة إلى أن مركز عشيرته المتدنى فى تلك المدينة لم يكن ليتيح له أن يقوم بدور قيادى فيها. غير أنه لابد من كونه على وعى بأنه يمتلك سمات فذة غير مستغلة. وفى هذا الصدد يذكر القرآن أن الله لم يرسل من قبل نبيّاً إلى قريش، رغم أنه أرسل أنبياء إلى جميع أمم الأرض، ويبدو أن محمداً، ونظراً لما كانت قد وصلت إليه الأحوال فى مكة من سوء، اعتقد أنه لن يتسنى إلا لرسول من عند الله أن يصلح مشاكل مدينته. لكننا أيضا نعلم من القرآن أنه لم يتخيل قط للحظة واحدة أنه سيكون ذلك الرسول.[١٨]، وفى كل الأحوال فمثله مثل موسى، فقد تسلق جبله، وعلى قمة ذلك الجبل، التقى بالله فى الليلة السابعة عشرة من رمضان عام ٦١٠م.

ونحن لا نعرف الكثير عن التحنث. غير أنه على ما يبدو كان عبارة عن تدريبات منظمة ظهرت فى أغلبية التقاليد الدينية لمساعدة الأفراد الأكفاء على السمو فوق حدود خبراتهم العادية. وسيعبر محمد فيما بعد عما حدث له فى خبرته الخاصة بالعالم الماورائى بقوله إن ملكاً زاره، وظهر إلى جانبه فى الكهف آمراً إياه أن «يقرأ». ومثل أنبياء عبريين قبله ترددوا كثيراً قبل أن ينطقوا بلفظ «الله»، أجاب محمد «ما أنا بقارئ» معتقداً أن الملك قد ظنه

أحد الكهنة سيِّئى السمعة الذين كانوا يقرءون الطالع فى مكة ـ وروى محمد قائلاً ما معناه أن الملك طوقه فى عناق حتى بلغ منه الجهد[١٩]. وأخيراً وجد محــمد نَـفْسَـهُ ينطق بالكلمات الأولى من الـقرآن ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم**﴾.[٢٠] (سورة العلق: ١ ـ ٥)

وأفاق مـحمد وهو فى حـالة من الذعر والنفور، إذ سـيطرت عليه فكرة احتمال تحوله إلى أحد الكهنة المجانين وأصيب باليأس حتى إنه ـ وكما يقول الطبرى ـ «فقد رغبته فـى الحياة. واندفع خارجاً من الكهف وبدأ يتسلق إلى قمة الجبل ليلـقى نفسه إلى حتفه من أعلاه. ولكن، وهـو على قمة الجبل، شاهد رؤيا لمخلوق تعرف عليه على أنه جبريل. ويروى محمد ذلك قائلاً:

«فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محـمد أنت رسول الله. وأنا جـبريل، قـال: فرفعت رأسى إلى السـماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدمـيه فى السماء يقول: يامحمد، أنت رسول الله وأنا جبـريل. قال: فوقفت أنظر إليه فمـا أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجـهى عنه فى آفاق السماء، قال: فلا أنظر فى ناحـية منها إلا رأيته كذلك، فمازلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى[٢١]. غير أن هذا الملاك لم يكن ذلك المخلوق الجميل الإنسانى الهـيئة والذى يصوره الفن المسيحى أحياناً. فإن جبريل هو روح الحق، أى الواسطة التى يكشف الله بها عن ذاته للإنسان. وكانت تلك التـجربة ساحقة عنيفـة لحضور ملأ كل الأفق حتى أصبح لا مفر هناك مـنه. وانتاب محمداً إحساس طاغ بحقيـقة مقدسة كـانت قد انسـحق على إثر إدراكـها حـضـورا الرسل والأنبـياء فى مـعظم النواميس. وفى المسيحية، وصفت بأنها رهيبـة غامضة ومبهرة، وسميت فى اليهودية بالمقدس، أى الحضور «الآخر» الرهيب للإله.

وتعرض السـير المخـتلفة روايات متـعارضـة عن الرؤية الأصلية لمحـمد. فيذهب البعض إلى أن التجربة انحصرت فى الرؤيا داخل الكهف فقط، بينما

يقتصر آخرون على ذكر رؤيا الملك فى الأفق. لكن يؤكد الجميع على الرعب والرهبة اللذين تملكا محمداً. وقد ورد عن صياح الأنبياء العبريين لدى خبرتهم للمقدس خوفاً من أن يكونوا على شفا الموت. فقد صاح إشعيا لدى رؤياه للمقدس فى المعبد «ويل لى إنى هلكت». فقد حجبت الملائكة أنفسها بأجنحتها وقاية لها من الحضور الإلهى، أما إشعيا فقد نظر إلى سيد الملوك بعينين نجستين[٢٥] {اشعيا ١٦/٩} وخبر إرميا للحضور الإلهى ألماً شديداً سرى فى أوصاله، ومثله مثل محمد فى عناق الملك، فقد خبر التنزيل كنوع من الاغتصاب المقدس.

«لقد أقنعتنى يا رب فاقتنعت وألححت علىّ فغلبت... لأنى كلما تكلمت صرخت. ناديت ظلم واغتصاب»[٢٣]. {إرميا ٢٠ ـ ٩٧}.

فشعر بقوة رهيبة تغزو كيانه انتهكت ذاته الإنسانية التى لم تُعدّ لمثل ذلك الاتصال المقدس. وكل ما خبره هؤلاء الأنبياء هو سمو، حقيقة تتواجد خارج نطاق المفاهيم، وتدعوها عقائد التوحيد «الإله» وترجع طبيعة التجربة الرهيبة إلى كونها قد نقلت كلا من أولئك الأنبياء إلى عوالم مجهولة، نائية عن سلوان ما هو طبيعى من الأمور، كل ما فيها صادم، لكنها أيضا مبهرة وتمارس جاذبية لا تقاوم، ذلك لأنها، وبطريقة ما، تحمل معها ذكر شىء مألوف يرتبط ارتباطاً معقداً بأعماق النفس. لكن، وبخلاف إشعيا وإرميا، لم تكن لدى محمد سلوى وجود دين قائم يؤازره ويساعده فى تأويل التجربة. ويبدو أنها قد اعترته دون أدنى سعى لها وتركته بإحساس انتحارى يائس. فقد دفع به فى فضاء لم يتخيله قط، وكان عليه أن يحاول فهم التجربة بطريقة ما. وهكذا، وبينما هو فى خضم وحدته ووعيه، التجأ بعفوية إلى زوجته.

ألقى محمد بنفسه فى حجرها وهو يزحف على يديه ورجليه، بينما يرتعد الجزء الأعلى من جسده متشنجا، وصاح «دثرينى، دثرينى» قالها

متوسلاً إليــها أن تحميه من ذلك الحضور. ورغم احتــقاره للكهنة الذين كانوا يتدثرون بعبــاءات وهم يُلقون بالنبوءات اتخذ محمــد نفس وضعهم، وانتظر وهو يرتعد أن يخفت الرعب. وأخذته خديجة بين ذراعيها وهى تخفف عنه وتحاول أن تبــعد عنه الخوف. وأكــدت جميــع المصادر اعتــماد محــمد على خديجــة فى تلك الأزمة. وفيمــا بعد، كان يتلقى الرؤى فى جــانب الجبل، وكان أيضا فى كل مــرة يسرع إلى خديجة راجيــاً إياها أن تحتضنه وتدثره فى عبــاءته. لكن خديجــة لم تكن بالنســبة لمحمــد مجــرد شخــصية أم تــبعث الطمأنينة. لكنها أيضاً كانت مســتشاره الروحى، ظلت تمنحه الاستشارة التى وجدها الرسل والأنبــياء الآخرون فى الديانات القائمــة. وسألها محــمد فى المناسبة الأولى بعد أن بدأ خــوفه يتراجع إن كان قد أصبح كــاهنا. فقد كان ذلك هو شكل الوحى الوحيد الذى يعرفه، ورغم قدسية تجربته الرهيبة، فقد كــان هناك نوع من التــماثل المربــك بينها وبيــن تلك التى يتــعرض لهــا من يتلبــسهم الجان فى بــلاد العرب. وفى هذا الصــدد يقول حســان بن ثابت، شاعر يثرب، والذى سيسلم فيما بعد، إنه حين تلقى نداءه الشعرى، ظهر له جنه، وطرحــه أرضاً، وأجــبره على النــطق بما أوحى إليه من كلمــات(٢٤). وكان مــحمد لا يــعير الجن اهتــماماً لأنهــم كانوا هوائيين خطائــين. وتخيل محمد، إن كان ذلك هو إثابة الله له على إخلاصــه فى عبادته، فقد فقد هو الرغبة فى الحياة. ويبين القرآن كيف أن محــمداً كان شديد الحساسية لدعوى كونه مجنوناً، أى يتملكه جنّ. كما كان دائمــاً يميز بين القرآن وبين ما عرفه العرب من شعــر. وأسرعت خديجة تطمــئنه، فإن الله لم يكن ليفعل شــيئا بتلك القســوة والعفوية، فــقد حاول مــحمد صــادقا أن يحيــا بالطريقة التى يتطلبــها الله، وفى المقــابل لن يسمح الله له بالفــشل. وقالت له خــديجة: «أبشــر، فــوالله لا يخــزيك الله أبداً، والــله إنك لتــصل الرحم، وتصــدق الحديث، وتؤدى الأمــانة، وتحمل الكلَّ وتقــرى الضيف وتعــين على نوائب الحق»(٢٥).

ومن أجل أن تنزل به الطمأنينة أكثر، اقترحت أن يستشيرا ابن عمها ورقة ابن نوفل الذى كان ملماً بالكتب المقدسة وباستطاعته أن يمدهما بنصيحة من هو متخصص. ولم يكن لدى ورقة أدنى شك إذ صاح من فوره «قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتِنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له: فليثبت»(٢٦).

وحينما أبصر ورقة محمداً فى الكعبة ثانية أسرع إلى نبى الإله الواحد وقبله على جبينه.

لابد لنا الآن من وقفة لنتأمل طبيعة التجربة. فالعالم الآن لا يحكم على كل تلك الرؤى أو الإيحاءات بأنها هستيريا أو عقائد فاسدة. ففى كل الحضارات كان الوحى يُعتبر شكلاً من أشكال التلبس possession الحميد سواء بالتعبير الفنى أو الدينى، فالقصيدة والرسالة تلح على صاحبها أو مبدعها بقوة طاغية أو آمرة، وتبدو أيضاً وكأنها تعلن عن نفسها. وغالباً ما يشعر المفكر المبدع أنه قد أوحى إليه بنفس الطريقة. وبمعنى آخر فقد لمس أو أماط اللثام عن حقيقة غير مختلقة، لها وجودها الخاص. والمثال الشهير على ذلك هو أرشميدس الذى قفز من حمامه حينما اكتشف مبدأه الشهير صائحاً «يوريكا: (وجدتها)..». فحينما كان أرشميدس مستلقيا كان فى حالة تلقٍّ عقلى وبدا الحل وكأنه قد دخله دون أن يستدعيه، وكأن الحل كان له وجود مستقل عن عقله. وبشكل ما، فإن كل الأفكار الخلاقة التلقائية موحاة، وتتطلب قفزة إلى الأمام فى عالم الحقيقة غير المختلقة. وإذا نحن نظرنا إليها من تلك الزاوية، فالوحى لا يعنى تراجع العقل، لكنه العقل وقد تزايدت سرعته، وقد تكبسل أو تم تكثيف محتوياته encapsulated، بحيث يظهر الحل دون معاناة الإعداد المنطقى. وعلى هذا، يعود العبقرى المبدع من تلك الممالك التى لم يسبق اكتشافها كأحد الأبطال وقد أخذ شيئاً من الآلهة وعاد به إلى البشر. وربما كان بالإمكان النظر للإيحاء الدينى بطريقة مماثلة.

إن الشاعر الذى يستـمع إلى العقيدة التى تبدو خارج ذاته ليـستمع بالطبع إلى اللاوعى. فقد أصبح حاملاً لرسالة أو منحة ممن كان يطلق عليهم مصادر الإيحاء الإلهى.

أما فى مجتمع صغير كمجتمع مكة، فكان هناك الكثير مما هو مشترك بين لاوعى القوم. وبلغـة علمانيـة محضـة، فإن محـمداً قد وصل إلى أعـماق المشكلة التى كـانت تواجه معـاصريه. ثم جـاءهم بما لم يكن إلا لدى القلة منهم الاستعداد للاستمـاع له. وكما سنرى، فلقد خرج القرآن إلى النور آية آية وسورة سورة، وتلاه محمد على قومه، فخـاطب مستوى العمق فى كثير منهم، الذين تعـرفـوا عليـه، وأمكن للقـرآن أن ينفـذ من خلال تحـيـزاتهم وأهوائهم ومصـادر قلقهم ومعارضـتهم الأيديولوجية لحل تصـورى روحانى اجـتـمـاعى لم يطرأ على تفكـيرهم مـن قبـل، لكنه لبى أعـمق أمـانيـهم وطموحاتهم. ففكرة الإله، أو الحقيقـة المطلقة، فى جميع الديانات مشروطة حضارياً conditioned. وكـان عرب الحجاز على ما يبدو يبـحثون عن حل دينى يوائم احتـياجاتهم المحـددة. ولم توائمهم فكرة الإله المسـيحية مـثلاً، والتى كانت قد لونتها الفلسفة والمثل العقلانية الإغريقية. أما دين محمد فهو عودة فطرية إلى التجربة الدينية السامية، ولأنبياء العبرية العظام، ولذلك كان أكثر ملاءمة لشعوب الشرق الأوسط. وإنه لمن الإغراء بمكان أن نحاول تفسير شعبية الإسلام بين شعوب الشـام وبلاد ما بين النهرين وإيران وشمال إفريقيا برفض تلك الشعوب لفـكرة الإله المستوحاة من الإغريق والتى كـانت غريبة عليهم، وبعودة أقرب إلى الرؤية الساميـة. لكن محمداً لم تكن لديه حينذاك أى فكرة أنه يؤسس دينا عالمًا جديداً. فقـد كان ذلك دينا للعرب الذين كانوا - كما بدا لهم - قد تركـوا خارج خطة السماء، فلقد أرسل الله كتـبه لليهود والمسيحـيين - الذين يدعوهم القرآن أهـل الكتاب - لكن لم يكن هناك تنزيل خاص بالعرب، وكان التنزيل الذى بدأ مـحمد تلاوته بوحى إلهى على جبل

حراء قرآناً عربياً. ولبّت تلك الرسالة أعمق احتياجات العرب، فقد كان لمحمد أن يخترق بشكل ما مستوى جديداً من الوعى، يعالج ما أصاب مجتمعه من سوء. وكان يمد العرب رويداً رويداً بحلولهم الخاصة.

ونحن غالباً نستعمل كلمة «وحى» أو «كشف» لنتحدث عن فكرة أو رؤية جديدة كلية. لكن دراسة أصل اللفظ Revelation توضح وجود شيء تم إماطة اللثام عنه، وبطبيعة الأمر، لا يمكن لرؤية أو مفهوم دينى أن يكون مبتكراً، حيث إنه يوضح الحقيقة الجوهرية سابقة الوجود. وقد فهم محمد تلك الحقيقة وعبر عنها أكثر من كثير من القادة الدينيين. ولم يكن هناك ما هو جديد بخصوص الوحى على جبل حراء. فقد كان هذا دين الله الجديد الذى أوحى به مرات ومرات، والذى أوكل محمداً كى يأتى به إلى العرب. إن دين (الإله) الذى كان لمحمد أن يبشر به بعد وقت وجيز فى مكة، لم يبدأ على جبل حراء، بل فى يوم الخليقة. فقد جعل الله آدم خليفته فى الأرض، وبعد ذلك أرسل الرسول بعد الآخر لكل أمم الأرض(٢٧). وعلى هذا، فجميع الأديان بشكل جوهرى ديانة واحدة. ولم ينص القرآن قط على إلغاء التنزيلات السابقة، ولكن، ومن حيث الجوهر، تتساوى جميع العبادات والموروثات والكتب المنزلة(٢٨)، لكن المهم فى الأمر هو طبيعة استسلام المرء لله، وليس لأى تعبير إنسانى عن إرادة الله. فليس للبشر أن يبتغوا «دينا غير دين الله»(٢٩)، وقد أكد الأنبياء جميعاً ذلك وواصلوا الرسالة التى تبين إفصاح الله عن ذاته. وهكذا يقول القرآن إشارة إلى الاعتقاد بأن عيسى قد بشر بمقدم الـ Paraclete والتى، كما رأينا، قد ترجمت إلى لفظ أحمد الذى هو تنويع على اسم محمد:

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدىّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾(٣٠) (سورة الصف: ٥)

أما الــشىء الفريد الذى تميــز به وحى محــمد، فــهــو أن الله ـ وللمــرة الأولى ـ قد أرسل رســولاً إلى قريش، وأنزل كــتاباً بلغــتهم. ولهــذا، فإنه يوجد توجه عفوى بخصوص الأشكال التاريخية للوحى. ومن الجدير بالذكر هنا التأكيد على هذه النقطة، إذ إن التــسامح شىء قد لا يرتبط بالإسلام فى ذهن شعوب الغرب. لكن، وكما سنشير فى الفصل القادم، فإن عدم تسامح الإسلام ليس نتيجــة لخلافات عقائدية كتلك التى قسمت المســيحيين. إن له مصدراً آخــر مختلفاً تماماً. فبــعد وفاة محمــد، لم يُطلب أبداً من اليهود أو المسيحيــين أن يعتنقوا الإسلام، لكن سمح لهم بممارســة دياناتهم بحرية تامة فى أنحاء الإمبراطورية الإســلامية. وفيما بعد، كــان الزرادشتيون والهندوس والبوذيون والســيخ يُعدون من أهل الكتاب. فلم يجد المسلمــون قط مشكلة فى أن يتعــايشوا مع أهل الكتاب. وقــد استضافــت الإمبراطورية الإسلامــية المسيحيين واليهود لقرون عدّة. لكنهــا أوربا الغربية المسيحية هى التى وجدت أنه من شبه المحال أن تتقبل المسلمين واليهود فى أراضٍ مسيحية.

ومن الواضح أن الوحى على جــبل حراء عــام ٦١٠ كان حدثاً هــاماً فى التاريخ الإســلامى. لكنه كان فــقط البداية. إن معــجزة القرآن، وكــما يرى العديد من المسلمين اليوم، ليــست فى الأسلوب الأصلى لتنزيله على محمد على جبل حــراء بمكة، ثم فى المدينة بعد ذلك، لكن فى إمكانيــته المستــمرة على منح الملايين من الرجال والنساء فى جمــيع أنحاء العالم الإيمان بالمعنى الجوهرى للحياة وبــقيمتها. وكان على دين الإســلام أن يواصل التجديد فى تطبيقه للرؤية الأصلية على متغيرات العالم، وكان عليه، كغيره من الأديان، أن يستجيب مع كل جيل للمستحدثات.

وكثيراً ما يُدعى محمد فى القرآن النبى الأمىّ، أى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ويؤكد الاعتــقاد فى أميته على الطبيعة الإعــجازية للتنزيل. غير أن بعض الدارسين الغربيين المحدثين يذهبون إلى أن لقب «أمى» لا يجب أن

يفسر على أنه جهل بالقراءة والكتابة، إذ إن النبى كتاجر قد يكون ألمّ بمبادئ الكتابة. أما المعنى الذى يذهبون إليه فهو أنه كان نبيا «للأميين» الذين لم يتلقوا كتاباً سماويا من الله. وبمعنى آخر يفسر لفظ الأمى على أنه يعنى غير اليهودى (النبى المرسل لغير اليهود) Gentiles. وواصل البعض من هذا المنطلق تأكيدهم أن لفظ أمى متصل بلفظ أمة، ويعنى فى هذا السياق نبى القوم. وفى الواقع، فإنه ليست هناك صلة بين أمى وأمة. كما أن المسلمين يجدون هذا التفسير مهيناً. ولقد رأينا كيف أن الغربيين، ولمدة ألف عام تقريباً، لم يستطيعوا الاعتقاد أنه كانت لمحمد رسالة نبوية حقاً. ويبدو أن تفسيرهم للفظ «أمى» محاولة منهم لشرح ما حدث. غير أنه من الحماقة أن نتحدى التفسير الموروث للمسلمين للفظ «أمى». كما أنه لا يوجد فى المصادر الأولى أى ذكر عن قدرة محمد على الكتابة والقراءة. وحينما كان يحتاج لإرسال خطاب يمليه على أشخاص مثل علىّ الذى كان ملماً بالقراءة والكتابة. . ولو كان صحيحاً أن محمداً قد أخفى مقدرته على الكتابة والقراءة طيلة حياته لكانت تلك خُدْعة كبرى. وخلافاً لكون ذلك منافياً لطبيعته، فإنه من الصعب جداً الإبقاء على مثل تلك الخدعة إذا نحن أخذنا فى الاعتبار حميمية الصلة بين محمد وقومه، إن التأويل الشائع للفظ أمى هو تأويل مبكر جداً، وهو أيضا من الأهمية بمكان لدى المسلمين، فإن له نفس أهمية الميلاد العذرى فى المسيحية، والتى تؤكد على النقاء اللازم للرجل أو المرأة كى يأتى بكلمة إلى الناس، لأن التنزيل لا يجب أن يشوبه أو تتدخل فيه إضافة إنسانية خالصة.

وفى نفس الوقت، فإنه من الخطأ تصور قيام محمد بمهمته بأسلوب سلبى كآلة هاتف بين الله والبشر. فقد كان عليه، كغيره من الأنبياء، أن يناضل كى يتعقل الوحى، الذى لم يكن يأتيه دائماً فى شكل شفاهى واضح. فأحياناً كانت التنزيلات تأتيه فى شكل رؤى أكثر منها كلمات[٣١]. وكما

رأينا، فإن زوجة محمد اللاحقـة عائشة قد قالت بأن التنزيلات المبكرة كانت بصرية وتلك التنزيلات كانت تتكون من إيحاءات أكـثر غموضاً وثراء، ذات معـان مذهلة overwhelming فارقـة: «إن أول ما بدئ به رسـول الله من النبوة، حـين أراد كرامته ورحمـة العباد به: الرؤيا الصـادقة، لا يرى رسول الله رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح»(٣٢).

وتوحى عبارة «فلق الصـبح» بالتغيير الـفجائى الذى يجتاح العـالم حينما تخترق الشـمس الظلام فى أراضى المشرق حيث لا يوجد غسق. فـما خبره محمـد فى تلك الرؤى هو رؤية مبهـرة للأمل أكثر من كونه رسـالة واضحة النص.

ويوضح المأثور الإسلامى أن التعبـير عن تلك الرسائل بالكلمات لم يكن قط أمراً سهلاً. وقد قال مـحمد ذات مرة: «أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مـرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض»(٣٣) (السيوطى - الإتقان فى علوم القرآن).

فقد كانت تلك عملية تخليق أليمة. غـير أنه أحياناً كان يقول إن المحتوى الشفـاهى كان واضحاً بدرجـة كافيـة، وكان يبدو له أنه يرى ملكاً فى هيـئة رجل ويسمع حديثه. أما فى أحيان أخرى فـقد كان الوحى أكثر إيلاماً وغير واضح، وقيل إن الرسول قال إن الوحى كان أحـيانا يأتيه على شكل صلصلة جرس وكـان ذلك أشد حالات الوحى عليـه وكانت الصلصلة تنتهى حـين يدرك فحوى الرسالة(٣٤).

وسنرى كيف أن محمداً كان يلتجئ إلى داخل نفسه، باحثاً فى روحه عن حل للمشكلة، مثل الشاعر الذى يستمـع إلى القصيدة التى يأتى بها تدريجياً إلى النور، وحينذاك لا يـجب عليه أن يسرع ويصـوغها فى كلمـات قبل أن تشكل تلك الكلمات نفسها فى الوقت المناسب. فيأمر الله محمداً قائلاً:

﴿لا تحرك به لسـانك لتـعجل به. إن علينـا جمعـه وقرآنه فـإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه﴾. (القيامة: ١٥/١٨)

فإن الصوت السماوى لم يكن رسالة مدوية من السماء، كما أن الله ليس بحقيقة يمكن تعريفها بالنظر إلى هناك. فما كان ليتاح إلا بالنظر فى الداخل. وسيطور الصوفيون فيما بعدُ ذلك المفهوم عن الله كأساس لوجودنا. وسيسمع بعضهم صوتاً سماوياً يخبرهم أنه «لا إله إلا الله».

ومرة أخرى، فنحن على غير علم بعدد التنزيلات التى تلقاها محمد فى تلك الأيام الأولى. لكننا نعلم أن محمداً وخديجة وورقة آثروا الصمت إزاءها، فإن محمداً لم يكن أبداً ذلك الفرد الذى يشتاق للترويج لنفسه كما يصفه أعداؤه الغربيون. وعلى أية حال، فبعد الإيحاءات القليلة الأولى مرّ محمد بفترة عامين صمت إبانها الوحى. وكانت تلك فترة أسى عظيم. وقد أرجع بعض الكتاب المسلمين حالة اليأس الانتحارى التى انتابته إلى تلك الفترة. فهل كان ذلك وهماً؟ أم أن الله قد وجده لا يصلح لحمْل الرسالة وهجره؟ فقد كان ذلك الصمت فاجعاً. ثم نزلت سورة الضحى حاملة معها نفحة من الطمأنينة النورانية:

﴿ والضحى والليل إذا سجى. ما ودّعك ربك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعُطيك ربك فترضى. ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر. وأما بنعمة ربك فحدِّث ﴾.(٣٦)

والآن، أصبح محمد على وشك بدء رسالته. فقد تعلم الثقة بتجاربه، وأيقن أن الموحى إليه هو الله، وأنه ليس بكاهن واهم. أما ذلك الفعل العقائدى فكان يتطلب الشجاعة، لكنه كان قد قرر أن يتخذ خطوة تتطلب قدراً أعظم من العزم. فقد قرر أن يتقبل تفسير ورقة بن نوفل لتجربته، أى أنه تم اختياره وتكليفه بأن يصبح نبى قريش. وأصبح عليه الآن أن يقدم نفسه لقومه، الأمر الذى حذره من صعوبته ورقةُ الذى قال له إنه شيخ عجوز ومن غير المحتمل أن يعيش طويلاً، لكنه تمنى أن يعيش كى يأخذ بيد محمد

حينما ينبذه قــومه. وتملك محمداً الرعب لدى سماع ذلك. وتســاءل باستياء عما إذا كانوا سينبذونه جميعاً. وأخبره ورقة بأسى أنه لا كرامة لنبى فى قومه (أرضه). وكما سنرى، فقد كان محمد شديد الحذر حينما بدأ فى نشر كلمة الله. وكان يعلم أن القوم قــد يسخرون من دعوته، وأنهم قد يظنون عــمالته للبيــزنطيين، مــثل المسيحى الحنيف عــثمان بن الحــويرث، أو أنهم يتهــمونه بالخيانة والكفر بالدين المتوارث. وبالرغم من ذلك، فقد اســتعد محمد لتقبل تلك المهمة الخطرة، وتلك الرسالة التى ستقوده فى اتجاه لم يتخيله قط.

الفصل الخامس

النـــذيـــر

كان محمد قد تعرض لتجـربة رهيبة على جبل حراء وإن كانت قد أنارت الطريق أمامـه آخر الأمر، وكـانت تشبه إلى حـد ما تجربة يعـقوب مع الملك الذى أنزل عليه. وكـان عليه الآن أن يأتى إلى قومه بالرسـالة التى تلقاها من ملكوت الله. كانت سورة الضـحى تتضمن أمراً اجتماعـياً واضحاً، وهو أن على الرجال والنساء أن يرعوا الضعفـاء والمساكين من أبناء القبيلة، ولم يكن فى ذلك ما يُعتبر جديداً، فهو عنصر من العناصر الأساسية فى المروءة، ذلك المثل الأعلى القديم، ولو أن قريشاً كانت، فيما يبدو، قد غفلت عنه. ويقول القرآن إن هذه الـرسالة كانت تمثل عنـصراً جوهرياً فى كل مـا أنزل على من سبق محمداً من الأنبياء فى كل مكان فى العالم. ويذكر التراث الإسلامى أن عـدد هؤلاء الأنبيـاء قـد وصل إلى ١٢٤٠٠٠ نبى، وهو رقم رمـزى يوحى باللانهائية. فالله لم يترك البشـر دون إطلاعهم على أسلوب الحياة الصحيح، ولو أنهم كانوا يُـصرون عادة على تجـاهل الرسالة القـدسية. أمـا الآن فلقد أرسل الله أخيـراً رسولاً إلى قريش، ولم يكن قـد جاءهم مبعـوث مثله من قبل. وفى عام ٦١٢، وهو بداية البـعثة، كان مفهوم مـحمد للدور المنوط به متواضـعاً، إذ لم يكن مُخلِّصاً أو مـسيحاً، ولم يدرك أنه مـبعوث إلى الناس كافة، بل لم يكن فى ذلك الوقت يرى أن عليه أن يدعو العرب الآخرين فى شبـه الجزيرة إلى دينه، بل يتصور أن يقـتصر على إبلاغ رسـالة إلى مكة وما حولها، باعتباره خاتم سلسلة طويلة من الأنبياء[١]. ولم يكن يرى أنه مكلف بمهمة سياسية[٢]. بل كان النذير فحسب. وقـد تغير مفهوم محـمد لرسالته فيما بعد، ولكنـه كان يعتقد فى البداية أنه مرسل حتى ينذر قـريشاً من مغبة

وأخطار الطريق الذى بدءوا السير فيه من عهد قريب: ﴿ **يأيها المُدثّر، قُم فأنْذرْ، وربك فكبرْ، وثيابك فطهر، والرُّجْزَ فاهجر** ﴾[٣]

ولكن ذلك لم يكن يعنى أن محمداً بدأ برسالة القارعة، فلم تكن الآيات أو السور الأولى من القرآن تشير إلى يوم الحساب إلا إشارات موجزة، وكانت الرسالة الأولى تحمل الفرح فى جوهرها، إذ كان الغرض هو أن يدرك كل رجل وامرأة فى مكة ما أنعم الله به من خير، وهو ما كانوا يستطيعون أن يشهدوه بوضوح وجلاء فى الطبيعة من حولهم. إذ خلقهم الله وهداهم، وسخر لهم الكون كله بنظامه المحكم. فإذا تأملوا آيات (أى علامات) قدرة الله فى العالم، وهو ما كانت قريش كلها تقر بأنه قد خلقه، تمكنوا من إدراك نعمه الفياضة عليهم ومدى نكودهم ونكرانهم: ﴿ **قُتل الإنسان ما أكفره، من أى شىء خلقه، من نطفة خلقه فقدره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره، كلا لما يقض ما أمره، فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صبّاً، ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غُلباً، وفاكهة وأبا، متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾[٤] ومع ذلك كان الإنسان يرفض أن يعيش وفقاً للنهج الذى وضعه الله.

ولكن محمداً لم يُصدرْ قائمة طويلة بالواجبات، بل كان قانعاً، بصفة رئيسية، بإصلاح ميثاق الشرف العربى القديم الذى كانت قريش تعرفه. وكل ما يتطلبه القرآن، هو أن يسعى الرجال والنساء إلى إيجاد مجتمع العدل الذى يلقى فيه الضعفاء معاملة كريمة. كان ذلك هو جوهر أو صلب الرسالة القرآنية. فإذا بدا لنا اليوم أن المسلمين غير متسامحين، يجب أن ندرك أنهم لم يكونوا على الدوام غير متسامحين إزاء الصور الأخرى للحقيقة، على نحو ما كانت عليه المسيحية الغربية من عدم تسامح. والواقع أنهم لا يتسامحون إزاء الظلم، سواء كان الذى يرتكبه أحد حكامهم، مثل شاه إيران محمد رضا

بهلوى، والرئيس المصـرى أنور السادات، أم إحـدى البلدان الغربيـة القوية. فـالرسـالـة الأولى للقـرآن بسـيـطة: من الخطأ تكديس الأمـــوال لبناء ثروة شخصية، ومن الخير إعطاء الصدقات وتوزيع الثروة فى المجتمع.

ويقول علماء الغـرب إننا نخطئ إذا نظرنا إلى محمـد باعتباره اشتـراكياً، مشيرين إلى أنه لم ينتقد الرأسمالية فى يوم من الأيام، فالرأسمالية، رغم كل شىء، قد عادت بفـوائد جمة على قريش، وإلى أنه لم يحـاول أن يستأصل شأفة الفقر تماماً، وهو هدف كان من المحال تحقيقه فى بلاد العرب إبان القرن السابع. وقد لا يكون مـحمد متفقاً مع جـميع المفاهيم الحديثة للاشـتـراكية، بالصورة التى نشأت وتطورت عليها فى الغرب، ولكنه كان اشتراكياً بالتأكيد، بالمعنى الأعمق للمصطلح، وقد خَلف طابعـاً لا ينمحى على شرعة الأخلاق الإسلامية. والواقع والصحيح أنـه لم يجنح إلى إدانة الثروة والممتلكات مثلما فعل المسيح، إذ لم يُؤمر المسلمون بأن يتخلوا عن جميع ممتلكاتهم بل أن ينفق كل منهم بســخــاء وأن يؤدوا إلى الفـقراء نـسبـة منتظمـة من دخلهم. وقـد أصبحت الـزكاة ركناً من أركان الإسلام الخـمسة[٥]. وكان التـصدق بالمال، بصورة ما، منصوصاً عليه فى أولى الشـرائع الأخلاقية الإسلامية[٦]. إذ أُمر المسلمون بألا يكنزوا المال أو أن يستسلموا لنوازع التنافس على اكتساب مايزيد عما فى أيدى الآخرين[٧]. كما أمروا برعاية الفقراء وبألا يأكلوا أموال اليتامى ظُلماً حـين يتولون الوصاية عليهم، وهو مـا كان الكثيرون من أفـراد قريش يفعلونه[٨]. وقد سادت هذه الشـرعة الأخلاقية حتى عندمـا أصبح المسلمون يمثلون قـوة عالمية كبـرى وعندما أصبح الكثـيرون ينعمون بثـراء بالغ. وكان معنى نزعة المساواة فى الإسلام هو أن القانـون السماوى أخذ يسلب الخليفة، تدريجياً، كل سلطة سياسـية حقيقية، فأصبح، بصفـة أساسية، رمزاً للوحدة فحسب. وإذا كان رجال القصر يتمتعون بالثراء، فإن الأتقياء من المسلمين فى جمـيع مجـالات الحياة الدينيـة فى الإمبـراطورية الإسلاميـة ـ الفقـهاء منهم

والمتصوفة - كانوا يقولون إن ذلك الثراء الظاهرى غير إسلامى. فإذا أراد حاكم محلىّ إثبات صفته الإسلامية، كان من أول واجباته أن يدلل على تقشفه وعلى أنه يطبق المثل الأعلى للمساواة. وهكذا فإن نور الدين وصلاح الدين، اللذين نظَّما الرد الإسلامى على الصليبيين، تبرعا بمعظم ممتلكاتهما إلى الفقراء وعاشا مع رفقائهما حياة تتسم بالبساطة والتقشف. وهكذا تمكنا من استمالة الناس، إذ أثبتا أنهما أقرب إلى الإسلام من أى حاكم آخر فى الشرق الأدنى. وقد شادا إمبراطوريتهما على أساس ذلك التأييد الشعبى، وشهد الناس بصدقهما لأن حياتهما كانت شديدة الشبه بحياة النبى.

كان محمد نفسه يعيش دائماً حياة بساطة وتقشف، حتى عندما أصبح أقوى سيد فى بلاد العرب. فكان يكره الترف، وكان منزله كثيراً ما يخلو من الطعام، ولم يكن لديه فى يوم من الأيام أكثر من مجموعة واحدة من الملابس، وعندما كان بعض الصحابة يحثونه على ارتداء ملابس رسمية فاخرة، كان دائماً ما يرفض، وكان يفضل القماش الخشن الغليظ الذى يرتديه معظم أفراد أمته. وكان عندما تأتيه الهدايا والغنائم يتصدق بها على الفقراء وكان يقول للمسلمين ما كان المسيح يقوله من أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء. ولم يكن من قبيل المصادفة أن الكثيرين ممن سبقوا بالإيمان برسالته كانوا من بين المحرومين والضعفاء فى مكة: كان العبيد والنساء يدركون أن هذا الدين يحمل إليهم رسالة الأمل. وعلى نحو ما سوف نبين، نجح النبى فى هداية عدد من أبناء الطبقات الغنية، ولكن معظم أفراد قريش من الأقوياء وأبناء الأرستقراطية لم يستجيبوا له، وعندما كانوا يشاهدون المسلمين مجتمعين فى الكعبة، كانوا يسخرون من الطغام الذين كان حفيد عبدالمطلب العظيم يجد السرور فى صحبتهم. وعندما اشتد ساعد الإسلام، لم يكن أقرب صحابة النبى إليه من بين أغنياء المسلمين وأبناء الطبقة الرفيعة، بل كان أقربهم إليه من البسطاء الذين آمنوا من بين عشائر قريش الفقيرة. ولم يكن

السبب فى ذلك يرجع إلى أى ميول شخصية، إذ كان محمد يعرف أنه يجب أن يكون قدوة للمسلمين الأوائل وأن الله لا يحب الظلـم والاستغلال. فعلى المجتـمع الكريم الذى يطيع ماأمـر الله به أن يرسى أسس أسلوب حيـاة قائم على المساواة الصارمة.

وقد يتساءل علمـانى محدث عما حدا بمحـمد، إذا كان ذلك هدفه، إلى السعى إلى الله، وعن السبب الذى جعله يتكبـد كل تلك المعاناة النفسية على جبل حراء، وكـان يمكنه الشروع فى حملة للإصلاح الاجتـماعى وحسب، وقـد يقـول إنه كـان يعـرف أن للمـشكـلة مـصـدراً أعـمق وأن مـثل تلك الإصلاحات ستـقتصر على الظاهر فحـسب، ولن تؤتى أكلها إلا إذا وضعت قريش «قيـمة» عُلوية أخرى فى قلب حـياة أبنائها. كان يدرك على مـستوى أعمق مما وصل إليه أى واحد من أقرانه أن جذور المرض فى مكة كانت تكمن فى الموقف السقيم وغـير الواقعى ـ وهو موقف الطغـيان (إن الإنسان ليطغى) والاستغناء (أن رآه استغنى)[٩]. ففى سالف الأيام، عندمـا كان على الأفراد أن يولوا القبيلة الأولوية فى كـل شىء، لم يكن أمام العرب مناص من إدراك تكافل أفراد القـبيلة. كانوا دائماً يواجـهون الفناء فى الفيافى العـربية، وكان نجـاحهم المادى وثراؤهم يحـميـهم من الأخطار التى لم تكن سـوى سمـات للحيـاة العربية العادية. ومن ثم فـقد اتجهوا إلى ابتـداع دين جديد من المال، وهذا من التطورات المفهومـة، فأصبحوا يعتقـدون أنهم قادرون على التحكم فى أقدارهم، بل ويُلمح القرآن إلى أن بعضهم كان يحسب أن المال قادر على أن يكفل له لونا ما من الخلود[١٠]، وهو الذى كان من المحال تحـقيقه إلا عن طريق القبـيلة فى الأيام الخوالى. ومع ذلك فكان مجـتمعهم يقـوم على مثل أعلى جماعى، أمـا الآن فالعشائر تتقاتل فـيما بينها، وكان بعضـها يشعر أن بقاءه نفسه كان فى خطر. كان رباط الوحدة القـديم الذى يشد القبيلة بعضها إلى البـعض قد بدأ فى التـمزق، ومـعنى ذلك أن القبـيلة مآلهـا حتـماً إلى التفتت. ومن ينظر إلى سيرة النبـى محمد فلابد أن يخلص إلى هذه النظرة.

فلقد نجح آخر الأمـر فى هزيمة قريش، بعد عـشرين عاماً تقـريباً، لا بسبب براعتـه فحـسب، ولو أنها براعة لا يـستهـان بها، بل لأن رجـال قريش لم يستطيعوا الوقوف أمامه جبهة موحدة. والواقع أن نزعة فردية قاسية كانت قد بدأت فى بداية بعثة النبى محمد، تغتصب شرعة الأخلاق الجماعية القديمة، ويبين القرآن ذلك فـى المثل الصارخ الذى يضربه لمن يود لو يفتـدى نفسه من عذاب يوم الحساب بجميع أقربائه(١١) ، وهى ظاهرة كان من المحال تصورها يوماً ما، عندما كان العرب يعتبرون أن روابط الدم مقدسة.

لم يكن من الممكن تصـحيح هذه المثـالب إلا إذا نجحت قـريش فى إذكاء روح جديدة داخل نفوس أبنائها. وكانت معـظم الحلول السياسية الجديدة فى ذلك الوقت ذات طابع دينى. وعندما طلب محـمد آنذاك من قريش أن تنظر فيـما يتـرتب على إيمانهـا بالله خالق السمـوات والأرض من آثار، لم يكن يقترح عليهـا شيئاً غير مسـبوق، فالإلحاد بمعناه الحديث لدينا كان فـيما يبدو مستحيلاً من الناحـية النفسية، بل كان مستحيـلاً بهذا المعنى قبل القرن الثامن عشر، وفى الغـرب فقط. كانت قريش جمـيعاً على استعـداد للإيمان ضمناً بوجود ربهـا الأعلى. وكان كثـير من أفرادهـا قد آمن بأن الله هو الإله الذى يعبـده اليهود والنصارى. ولكن مـحمداً الآن يطلب منهم التـفكير فى الآثار المترتبة على ذلك الإيمان. لم يكن عليـه إثبات وجود الله، بل إنه كان يقول إنه إذا كانـت قريش تؤمن حـقاً بما تقول، فـلابد لها من التـفكير فى مـعنى ذلك. كـان اليهـود والنصارى يؤمنون بأن الله سـوف يبعث الناس فى الـيوم الآخر، وهى فكرة كانت النزعـة القدرية العربية القـديمة تنكرها، وإن كانت تترتب عليهـا آثار أساسية لكل نفس من نفوس الأفـراد، بل إن أضعف أفراد القبيلة يتمتع بروح مآلها الخلود، ومن ثم فله أهمية قدسية. فإذا كانت قريش جادة فى إيمـانها بأن الله قد خلق العالم، فـقد يكون عليهـا أن تنظر إلى ما خلق الله بعيون جديدة.

وكان محمــد فى السنوات الأولى من بعثته، يقتصــر فى دعوته على عدد مختــار بحرص شديد، وكان يذكر قــريشاً بالعقائد القديمــة الكثيرة، ويطلب منهم أن يعيــدوا النظر فيها بغــية تطبيــقها على الأحوال الراهنة. كــيف كان الشعور الجديد بالاستغناء (أن رآه استغنى) يتمشى مع ما يذكرونه باعتزاز عن عام الفــيل، عندما أنقذ الله المدينة من الدمــار بمعجزة رائعــة فرفع بذلك من مكانتهم وهيبتهم إلى حد يصعب وصفه؟ لقد كانت تلك من الآيات الأخرى التى دعاهم الله إلى تأملها بدقة:

﴿ **ألم تر كــيف فعل ربك بأصــحاب الفــيل، ألم يجــعل كــيــدهم فى تضــليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصــف مأكول** ﴾(١٢). كان اعتزاز قريش وتفاخرها بهذه الحادثة بمثابة إقرار من أفرادها بأنهم لم يبلغــوا ما بلغوه من قــوة ونجاح مادى بفضل جــهودهم البشرية فحسب.

لم يكن القــرآن يمــيط الــلثــام عن أى شىء جــديد، بل كــان يقــول إنه «تذكرة»(١٣) أى إنه يذكّر الناس بما كانوا جــميعاً يعرفونه. وكــان بمثابة «بيان» وحسب للحقائق القديــمة، فهو يُبرزها ويزيد من إيضاحها وشرحــها. وكثيراً مــا يقــدم القرآن المــوضوع الجــديد بكلمــات مــثل: «ألم تر كــيف...» أو «فلينظر...» أى إن كلمة الله لم تكن تتخذ صــورة الأمر التوقيفى المنزل من السمــاء راعداً مُــرْهباً بل كانت تــدعو قريشــاً إلى الشروع فى حــوار، وكان التحدى فيها لا يهدم الماضى بل يقوم على أسس من النظرات والتقاليد العربية العريقة. فعلى سبيل المثال نرى أن القرآن يذكّر قريشاً بأن الكعبة التى يعتزون بها أيما اعتزاز، إنما هى بيت الله، وأنهــا من الأسباب الأولى لنجاحهم. لقد كانت سبب قيام الحبشــة بغزو بلادهم فى عام الفيل، ولو لم يكن هذا البيت العتيق قــائماً، وهو الذى منحهم الله إياه، لما تمكنوا من إقــامة تلك الأسواق الناجحة، ولظلت مدينتهم تتــعرض لخطر عدوان القبائل الأخرى، ولما تمكنوا من قهر مرض الجوع والتحرر منه:

﴿ **لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.** ﴾(١٤).

لم يكن القرآن يحثهم على التواكل، أو إيكال كل شىء لله، بل على عكس ذلك تماماً، على نحو ما سوف نرى. والواقع أنه كان يطلب منهم إعادة النظر فى عدد من أُولى وأهم عقائدهم الأساسية، على ضوء أوضاعهم الحالية. كان أبناء قريش لايزالون يحبون الطواف حول بيت الله، ولكنهم بعد أن سمحوا لذواتهم ونجاحهم المادى باحتلال مركز الدائرة فى عالمهم، كانوا فيما يبدو قد نسوا معنى الشعائر القديمة. إن معنى «الإيلاف» هو وحدة قريش التى تدور حول هذا المكان المقدس، وقد تعرض «الإيلاف» للخطر بسبب قيامهم بتفتيت المثل الأعلى الجماعى القديم، وعدم رعايتهم للعشائر الضعيفة، ولليتامى والفقراء والمسنين والمحرومين. ولو أنهم استمروا فى فعل ما يفعلون لفقدوا الوعى بموقعهم الحقيقى فى العالم.

كان القرآن يحاول فى هذه المرحلة المبكرة أن يفتح عيون أهل مكة على الكثير مما يدينون به لله، رغم ما أحرزوه أخيراً من نجاح مادى وأمن ظاهرى. لقد طلب منهم أن يتأملوا آيات الخير الذى أنعم الله به عليهم، وأن يتأملوا قدرته التى تتبدى بوضوح وجلاء حيثما يمّموا وجوههم فى عالم الطبيعة من حولهم. فإذا أخفقوا فى تحقيق ذلك الخير داخل مجتمعهم كانوا بذلك يخرجون عن الطبيعة الحقة للوجود:

﴿ **الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا فى الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان، والأرض وضعها للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟** ﴾(١٥).

إن جميع الكائنات الأخرى تسبح بحمد الله وتسجد له، إذ تقر بأنه هو بارئها وهو فاطرها، وأنه أصل وجودها ولا تستطيع البقاء من دونه. الله هو

القوة أو الطاقة الأسـاسية التى تُلهم جمـيع الأشياء وتمنحها الحـركة والقوة. وهو الذى خلق الميزان الذى يحافظ على العلاقات الصحيحة فيما بينها، فإذا لم تنجح قـريش فى إقـامة الميـزان داخل المجـتمع، بحـيث تراعى التـوازن الصحيح والمعيار العادل فى كل تعامل فيما بين أفرادها، تكون قد أخفقت فى التوافق مع طـبيعـة الأشياء. وكـان محـمد يريد لأوائل المؤمنين برسـالته أن يتخذوا هذا الموقف، وهو موقف يتسم بإحسـاس بالمسئولية فى الإقرار بفضل الله. ولمساعدتهم على تنمية هذا الإحساس طلب منهم أن يركعوا لله فى إطار شعيرة الصلاة مرتين فى اليوم، مثل النجوم والأشجار. وقد أصبحت الصلاة ركناً من أركان الإسـلام الخمسة. ومن شـأن الحركة الخارجيـة فى الصلاة أن تساعد علـى غرس الحركة الداخلية وتعـيد توجيه مـسار الحياة على مـستوى عميق وجوهرى.

وانتهى الأمـر بدين الله الذى دعا إليه مـحمد إلى أن أصـبح يعرف باسم الإسلام، وهـو فعل التـسليم الوجودى الذى كـان ينبغى على كل مـؤمن أن يقوم به لله، فالمسلم كلمة تعنى «من يُسلم» كـيانه كله - رجلاً كان أو امرأة - إلى الخـالق. ولكن المؤمنين كانوا يطـلقون على دينهم صـفة «التـزكى» وهى كلمة أجدها غامضة وليس من اليسير أن أترجمها إلى الإنجليزية. ولكن غرس التزكى كان معناه أن يكتسب من آمنوا بمحـمد فضيلتى التراحم والكرم، وأن يستـعملوا ذكاءهم لغرس روح الرعـاية والمسئوليـة، وهى الروح التى تجعلهم يحدبون على الإنفاق مما لديهم على جميع مخلوقات الله. ومن خلال التفكر فى أسـرار الخلق وتأملها بذهن ثاقب يسـتطيع المسلمـون أن يتعلمـوا السلوك القائم على الرحـمة والعطف، ومعنى هذا السلوك الـكريم أنهم قد اكتسـبوا التهذيب الروحى. وكان لله المثل الأعـلى والأعظم، ولذلك فقد حث القرآن المسلمـين على تأمل آياته لتـقدير مـدى كرمـه وفضله على العـالم الطبيـعى بأسره. فمن ثمار العقل الكريم النظام والانضباط، بدلاً من الفوضى وهمجية

الأنانية. فإذا سلم المسلم بما أمر الله به، وجد أن حياته تشكلت وفقاً للرقى والتهذيب فى الكون.

إن كل المخلوقات الأخرى تدين بالإسلام بالفطرة، وهى لا تملك إلا طاعة مشيئة الله والتسليم بنظامه القدسى(١٦)، أما الإنسان فهو الوحيد الذى يتمتع بحرية اعتناق الإسلام طوعاً، وتطويع حياته لتتفق مع منبع وجوده والقوة التى ترعى هذا الوجود. أى إنه لا يُسلم نفسه إلى طاغية متعسف، بل إلى القوانين الأساسية التى تحكم الكون.

ولكن ما شأن قسوة الطبيعة، والكوارث الطبيعية التى نُرجعها فى لغة القانون إلى «المشيئة الإلهية»؟ إن القرآن لا يتجاهلها إذ يقول فى السورة التى أشرت إليها فى الفترة السابقة:

﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، وإن نشأ نُغْرِقْهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾ (يس).

لم يخبر أحد قسوة الطبيعة خيراً من العرب، وكانت الأرباب المتعددة أيام الوثنية وفى التقاليد الدينية الشرقية، لا تعدو أن تكون رموزاً لقوة أولية، هى طبيعة الأشياء، وكانت تعتبر عليا، وذات أسرار لا تُكْتنه، ولا تتسم بأى طابع شخصى. وكانت بعض هذه الأرباب ترمز إلى صفات الخير فى تلك القوة وتعتبر تجسيدا للحب أو الخصب أو القانون أو الحكمة ولكن كانت هناك آلهة أخرى تعبر عن الجوانب السيئة فى حياة الرجال والنساء. كانت هناك آلهة للحرب أو للعنف، وكانت لها أحياناً خصائص شريرة. كانت التقاليد الهندوسية تقول إن الشر يمثل أحد الأقنعة التى تخفى الحقيقة المتعالية وغير الشخصية للرب. وكانت الرؤية الوثنية التى تزخر بالحروب الدائرة بين الأرباب والربات بمثابة تعبير تراجيدى، وإن كان يتسم بشجاعة الصدق، عن الصراع الذى يراه كل إنسان دائراً فى العالم وفى أعمق كيانه. ولم

تكن الوثنيـة تتصور أى حـل لهذا الصراع. وكـانت الدلالة الرمزية الأصـلية للأرباب القدامى قـد فقدت فى بلاد العـرب إبان فترة الترحـال، كما يفتـقر الدين العربى إلى الأساطير التى تعبـر عن هذه المعانى الوثنية. ولكننا نستطيع أن نرى بعض عناصر هذا المـعنى فى القرآن، إذ إن آيات الله فى العالم تعـبر عن الأسـرار التى لا تكتنه عن الله، والتى كـان أصـحاب الأديان الـقديمـة يرمزون لها بالأرباب.

ويصور القرآن الله تصويراً يبتعد به عن الصفات الشخصية، وهو يزيد فى هذا الابتعاد كثيراً عن «يهـوه» فى الكتاب المقدس لليهود، وعن «الأب» الذى يتجسد عند النـصارى فى المسيح عيسى. ففى الدين القبلـى الأول للعبرانيين كان «يهـوه» يُنْزل المصائب أو يُنعم النعم على الرجـال والنساء وفقـاً لمشيئـته وحسب، وكان ذلك أحيـاناً بصورة تعسفية إلى حد مـا. أما حين يقضى الله بغرق إنسان مثلاً، فهو لا يفعل ذلك بسبب عداء شخصى. بل إن صورته هنا أقرب إلى سُنة الطبـيعة أو النامـوس الأعظم، وأقرب إلى الرب الأعلى الذى كان أنبـياء العبـرانيين المتـأخرين يدعون إليـه، إذ يتعالى فـى ذلك تماماً على جميع المفاهيم البشرية المحضة للخير والشر، وللصواب والخطأ:

«لأن أفكارى ليـست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقـول الرب. لأنه كمـا علت السـمـوات عـن الأرض هكذا علت طرقى عن طرقـكم وأفكارى عن أفكاركم» (أشعياء).

ولا يسع الإنسان إلا أن يدهش للعـبقرية الروحـية للنبى محـمد الذى لم تكن له أية صلة تقريباً باليهود أو بالنصارى الممارسين لدينهم وكانت معرفته بتلك الكتب السمـاوية الأولى، حتماً، مـعرفة بالغة الضآلـة، ومع ذلك فقد نجح فى النفاذ إلى قلب الخبرة بدين التوحيـد. ويؤكد القرآن أن الله يستعصى على أفكارنا البـشريـة، وأننا لا نستطيع أن نتـكلم عنه إلا من خلال الرمـوز والإشارات، وهى تفـصح نصف إفصاح عن طبـيعتـه التى لا يمكن التعبـير

عنها، وتخفيها كذلك نصف إخفاء. فطرائق الخطاب القرآنى كلها طرائق رمزية، فالقرآن دائماً ما يضرب «الأمثال» العظيمة حتى يتأملها المسلمون ويتدبروا معناها. وهو لا يقدم عقائد عن الله بمعنى تعريف طبيعته أو تحديدها، بل يقتصر على بيان «الآيات» التى تدلل على طبيعة قدسية تتيح للإنسان أن يخبر صفة من صفاته.

وكثيراً ما يسىء أبناء الغرب فهم الطابع الاستعارى للاهوت القرآنى، لأننا اعتدنا أن نقرأ ما نقرأ من كتب فى هذه الأيام للحصول على المعلومات. ولكن المسيحيين فى العصور الوسطى كانوا قد وضعوا منهجاً يتصف بالرمزية الخالصة لقراءة أسفارهم الدينية، وهو منهج لا يختلف عن منهج تناول المسلمين للقرآن. بل إن بعض الحوادث التى يرويها، عن حياة الأنبياء مثلاً أو يوم الحساب الذى يراه قريباً، تعتبر فى جوهرها تمثيلاً رمزياً لحقائق قدسية ويجب ألا نفهمها باعتبارها حقائق واقعية وحسب. ومثلما كان البوذيون ينظرون إلى شتى الأرباب والربات باعتبارها جوانب أو نوازع فى نفوسهم، كان المسلمون دائماً يتحدثون عن «موسى فى نفس الإنسان» أو عن «يوسف فى قلب المرء» أى إنهم كانوا ومايزالون ينظرون إلى الصراع بين الخير والشر الذى يُكثر القرآن من وصفه، باعتباره دراما روحية تقع أحداثها دون توقف وبلا نهاية فى داخل نفوسهم. ولذلك فعندما يقرأ المسلمون القرآن فإنهم يكتسبون الوعى بتاريخ وجودهم وكيانهم، لا برواية موضوعية عن الخلاص. وهم يبذلون جهداً فى مخيلتهم لإبداع خبرتهم الداخلية بالصراع حتى يعودوا إلى منبع الخلق ويقهروا الشر فى نفوسهم.

وقد حث القرآن منذ أيامه الأولى الرجال والنساء على اكتساب هذا الموقف الرمزى القائم على المخيلة القوية. ويظهر ذلك بوضوح وجلاء فى الكلمات العظيمة التى تصف «الآيات» فى الطبيعة. وإذا كانت المسيحية تتسم أحياناً برؤية تشاؤمية إلى حد ما للعالم الطبيعى، بسبب الاعتقاد بأنه انتكس وفقد

كمالــه الأول نتيجة لخطيـئة الإنسان، فإن الإســلام لا يؤمن ـ شأنه فى ذلك شأن اليهودية ـ بسقوط الإنسان والخطيـئة الأصلية بالمعنى المسيحى، ولا يقول بأن الموت والألم والأحـزان تمثل عقوبات لـلإنسان على سقــوطه الأول، بل بأنها دائماً تمثل جزءاً لا يتجزأ من نظام قدسى لا يمكن سبر أغواره. والعالم المادى ليس عالم ســقوط، بل هو مظهر إشراقــى يفصح عن الحقيـقة العلوية التى لا يمكن حـصرها فى اللغــة البشرية الـعادية أو طرائق الفكر المعـتادة. وقدرة الـبصيــرة على النفــاذ من خلال هذا العــالم الممزق إلى القــوة الكاملة للوجود الأول والأصيل كانت ومازال من مهام المخيلة والفن والدين. ويحث القرآن المسلمــين على بذل الجهــد فى مخيلتــهم وفى أذهانهم على النظر إلى العالم من حولهم نظرة رمزية:

﴿**إن فى خلق السـموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السـمـاء من ماء فأحيـا به الأرض بعـد مـوتهـا وبث فـيهـا من كل دابة وتصـريف الرياح والسـحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ (البقرة: ١٦٤).

وتؤكد التقاليد الإسلامية أهمية المخيلة، ويصف الفيلسوف الصوفى الكبير محـيى الدين بن عـربى (ت ـ ١٢٤٠) المخلية بأنهـا الملكة التى وهبـها الله للإنسان، وهى ملكة إدراك التجلى القــدسى للفرد، أى إدراك تجليات الله فى العالم من حولنا. وهذه الطاقة الإنسانية الفذة تمكن الرجال والنساء من الن[illegible]ة من الصدمات والمآسى التى تصيب البشر. ولكن القرآن لا يطلب من المسلمين أن يتخلوا عن العقل. فالآيات موجهــة إلى «قوم يعقلون» و«لقوم يعلمون»، والقرآن يحث المسلمين على أن «ينظروا» إلى الآيات فى الـعالم الطبيعى وأن يتدبروها بعناية[٢٠]. وقد ساعد هذا الاتجاه على تنمية عادة التأمل والاستطلاع الذكى التى مكنت المسلمين من إرساء وتطوير تراث رائع فى العلوم الـطبيعية والرياضـيــات. ولم ينشــأ فى يوم من الأيام أى صــراع بين البــحث العلمى

العـقلانى وبين الديـن فى التراث الإسـلامى على نحـو ما اتضح فى القـرن التاسع عـشر عندما أحس المسيـحيون أن مكتشـفات لايل وداروين تؤدى إلى تقويض الدين تقويضـاً لا قيام له بعده. بل إن بعض المتـصوفة من الطوائف الشيعية الثورية اتخذوا من العلم والرياضيات مقدمات للتأمل والتدبر.

وهكذا فعندمـا طلب محمـد من أبناء قريش أن يقبلوا أن مـا جاءه هو تنزيل من عند الله، لم يكن يطلب منـهم الموافقة على عـقيـدة لاهوتية أو مجمـوعة من الأفكار اللاهوتية، إذ لا يوجد فى الإسـلام - شأنه فى ذلك شأن اليـهودية - نص على أرثـوذكسيـة لاهوتية، بل إن الأفكار والمفـاهيم المتعلقة بالله هـى فـى جوهرها من الأمـور الموكولة إلى كل فرد على حدة. بل إن القرآن يعادى الجنوح إلى شطحات التأمل فى الذات الإلهية، ويصفها بأنها «إسـقاطات» بشـرية وضرب من تحـقيق الأمـانى وحسب. والتـفكير المذهبى لم يتجاوز «الظن» إذا امتد إلى الحقيقة المتعالية لله، وكانت تلك من عادات التخرص التى لا طائل من ورائهـا، ومحاولة التعبير عمـا يستعصى على التعبير، وهو مما أدى إلى وقوع الفتنة بين أهل الكتـاب فانقسموا شيعاً وأحزاباً(٢١).

ولا يدعـو الإسلام مثلـما لا تدعو الـيهودية إلـى الأرثوذكسيـة، أى إلى تعـاليم «صحـيحـة» عن الذات الإلهـية، بل يصـران، بدلاً من ذلك، على الممارسة الصحـيحة للدين أى إلى إقامة أركانه العامـة وشعائره. ومن ثم فإن القـرآن يقـول إن «المؤمن» ليس هو الفـرد الذى يوافق على مـجمـوعـة من الأفكار، مثل تلك التـى توجد فى المذاهب العقـدية المنوعة أو «المواد التسـعة والثلاثين»، بل إنه الفـرد الذى نجح فى اكتساب خـشية مبـاشرة من الحقيـقة القدسية التى سلم لها نفسه، وهو يرتعـد وَجَلاً عند ذكرها ويعبر عن إسلامه بشعيرتين متلازمتين هما الصلاة والصدقات:

﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكـر الله وجلت، قلوبهم، وإذا تليت عليـهم آياتـهُ زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتـوكلون، الذين يقـيـمـون الصـلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقا** ﴾[٢٢] (الأنفال ٢ ـ ٤).

وعلى العكس من ذلك يكون الكافـر (أى الكافر بنعـمة الله)، فـهو ليس شـخصـاً لا يؤمن بوجود الله، ولـيس شخـصا يعـتنق أفكاراً لاهوتيـة غيـر صحـيحة، وإنما هو من يجـحد فضل الله، والقـرآن يوضح باستعـمال أصل الفعل «كـفر» أن هذا الموقف هو موقف تعـمد اللجاجـة والعناد، فكفار مكة كانوا يعلمون فى قلوبهم معنى «الآيات»، ولكن الغطرسـة جعلتهم يعارضون الله بدلاً من إعادة تنظيم حياتهم[٢٣].

وعلى الرغم من جـهود النبى مـحمد فى السـنوات الأولى من بعثـته فى التركيز على أهمية المقدسات الأسـاسية التى كانت قريش تجلها كل الإجلال، مثل الكعبـة، فقد كان يدرك بالفطرة أن رسالتـه سوف تثير عداءً عمـيقاً له، ومن ثم التزم الحذر الشديد حقـاً فى اختيار من يدعوهم إلى الإيمان، فكانت الدعوة إبان السنوات الثلاث الأولى من البعثة تقتصر على أفراد دون غيرهم، وتتسم بالخصوصية المحـضة، بحيث انتشرت كلمة الإيمان من فم إلى فم ومن قلب إلى قلب.

ومع ذلك فقـد نجح فى تكوين مجـموعة صـغيرة من المـؤمنين الصادقين الذين أدركوا على الفـور أهميـة ما جاء على لسـانه. وكانت هذه المجـ عة تلتقى لأداء صلاة الجماعة مرة كل صباح، ومرة أخرى كل مساء، وكان يبدو أن الصلاة أثارت نفـوراً عميـقاً لدى أبناء قريش، إذ بدا لهم من البـغيض أن العرب الذين كـانوا يتمتعـون باستقـلالهم البدوى الصارم على امتـداد قرون طويلة، باتوا على استعداد للركوع والسجود على الأرض مثل العبيد.

وكان ذلك النفور الذى اتضـح على الفور دليلاً على أن دعوة محـمد قد مست نقطة حساسـة فأصابتها ولم تخطئها، إذ إن الطاعة العـميقة كانت تمثل

تحدياً لما نجحت قريش فى اكتسابه منذ عهد قريب من كبرياء، وترُّفع وما سبق وصفه بالاستغناء (أى الاكتفاء الذاتى) وبلغ من قوة ذلك النفور أن أصبح من المحال على المسلمين أداء الصلاة علناً فاضطروا إلى أدائها فى الشعاب المحيطة بمكة. ويبدو أنهم كانوا يمارسون كذلك لوناً من الإحسان وتقديم الصدقات الذى كانوا يرون أنه من عوامل التطهير الأخلاقى، وكانوا يقومون الليل للتهجد والتبتل، ويقرءون القرآن فى أثناء ذلك.

وربما كانت عادة قيام الليل ترجع إلى تهجدات الليل التى كان يؤديها الرهبان المسيحيون فى صحراء سوريا، إذ كانوا ينهضون فى الهزيع الثانى لترتيل المزامير، وقد أثرت تلك العادة فى مفهوم العرب للمقصود بالكتاب المقدس، إذ رأوْا أنه لم يكن كتاباً يقرؤه كل فرد على حدة بل هو نصٌ يرتلونه وينشدونه بصوت عالٍ فى الطقوس الدينية والعبادة. وإذا كان المسلمون - كما هو واضح - يقومون بدراسة القرآن اليوم، بحيث يقرؤه الفرد وحده ويتأمله بنفسه، فإنهم لا يزالون يقولون إن تأثيره الكامل لا يتحقق إلا عندما يقرؤه أحدهم بصوت عالٍ ويرتله ترتيلاً خاصاً. ولا شك أن للصوت معنى غامضاً وهو يجعل لغة القرآن تشبه أنغام الموسيقى، وهى الفن الذى يثير الإحساس بالبارئ المتعالى على هذا الكون بصورة أقوى وأكمل من أى فن آخر. ويرجع الفضل إلى القرآن فى الحيلولة دون اقتصار مفهوم الله، على الرب البعيد الموجود خارج نفس الإنسان، والواقع أن أوائل كُتاب السيرة كانوا دائماً ما يصفون اعتناق شخص ما للإسلام بقولهم إن الإسلام قد «دخل قلبه». وسوف أتحدث عن دور القرآن والخبرة التى اكتسبها المسلمون الأوائل الذين آمنوا بفضل القرآن بمزيد من التفصيل فى الفصل التالى. ولكن يبدو أن الجمال الفذ للغة العربية عند ترتيلها كان يمس المشاعر الدفينة على أعمق مستوى، وكانت ترن فيه أصداء الأشواق والآمال اللاشعورية للذين ينصتون إليه. ولقد مر كل منا بتجارب مماثلة، إذ كان يحس بأن قصيدة ما أو قطعة

موسيقية معينة قد رفـعته برهة من الزمن إلى مستوى أعلى من مستوى ذاته، وجعلته يحس بوجود حقيـقة أكبر منه ومن الوجود. لم يكن النطق بكلمات الله تجربة سهلة للنبى مـحمد، وكان القرآن يستمـر فى التنزل عليه حتى أثناء أنشطته العادية. فكان يُغشى عليه ويتصبب منه العرق الغزير، حتى فى الأيام الباردة. وقد ذكر بعض الثقات أنه كان يحس بهمٍّ عميق، وهو إحساس يشبه الحزن، وأنه كان يخفض رأسه ويضعها بين ركبتيه أثناء استماعه إلى الكلمات المقدسة.

من كان أول من أسلم؟ كـانت خديجة قد صـدقت بالتنزيل منذ البداية، وتبعـها أفـراد بيت محـمد، مثـل على، وزيد، وبنات النبى الأربع. ولكن محـمداً أحس بخيـبة أمل بالغة لأن أعـمامه أبـا طالب والعباس وحـمزة لم يظهروا اهتمـاماً باعتناق الإسلام، وقال له أبو طـالب إنه لا يقوى على هجر دين آبائه، وهو التحفظ الذى أبداه الكثيرون من أبناء قـريش فيما بعد. وكان محـمد يدرك أن ذلك التنزيل، على مـا فيه من مـعانٍ تضـرب بجذورها فى التقاليد الـوثنية القديمة، لابد أن يمثل أو يتضمن خطراً يتهـدد الآخذين بنزعة «المحـافظة» فى قـريش، وكـان ذلك مما حـدا به إلى الـتكتم والعـزوف عن المجاهرة فى السنوات الثلاث الأولى من بعثته. ولكن عمه أبا طالب كان يكنُّ احتراماً كبيـراً لشخص محمد واستمر يُجيره ويحمـيه علناً حتى عندما أصبح ذلك شاقاً وعـسيراً. وكانت حمـاية أبى طالب، باعتباره شيخ قـبيلة قريش، ذات أهمية حـاسمة لمحمـد، فإذا كانت شرعـة الأخلاق القَبَليّة بسبـيلها إلى التفتت، فالواقع أنه كان من المحال علـى الفرد أن يظل على قيد الحياة إذا لم تُجِره عشيرته.

ولكن أفـراداً آخرين من أسرة مـحمـد قبلوه نبـياً لهم، وكـان من بينهم جعفر، الابن الآخر لأبى طالب، وكذلك صـديقه المقرب وابن عمه عبد الله ابن جـحش وأخـته زينب بنـت جحش، وأخـوه عـبيـد الله الذى كـان من

الأحناف الذين كانوا يبحثون عن شكل بديل لدين التوحيد. أما زوجتا العباس وحمزة فلم تقبلا تردد زوجيهما وحذرهما، فاعتنقت أم فضل وسلمة الإسلام، وكذلك فعلت أسماء زوجة جعفر، وعمة محمد وهى صفية بنت عبد المطلب. وانضمت إلى المسلمين أم أيمن، الجارية التى أعتقها النبى، وكانت الجارية الصغرية التى تركها عبد الله، والد النبى، لآمنة مع الجمال الخمسة. وقال محمد عنها ذات يوم: «من يُرد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن»(٢٤)، وعندما بلغ زيداً ما قاله النبى بهره ما سمعه فطلب يدها من النبى، مع أنها كانت تكبره بسنوات كثيرة. ووافقت أم أيمن، فتزوجها وأنجب منها طفلاً اسمه أسامة، وهو أول أحفاد محمد، ومن أوائل من ولدوا فى الإسلام.

ولكن محمداً نجح فى أيام الإسلام الأولى فى إقناع رجل من غير أبناء أسرته برسالة الإسلام، وكان ذلك حدثاً له أهميته الحيوية، ألا وهو صديقه عتيق بن عثمان الذى عرف دائما بكنيته وهى أبو بكر. وقد نُسب إلى محمد أنه قال بعد ذلك بسنوات: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه»(٢٥) (ابن هشام ص ٢٥٣). لم يكن يتمتع كثير ممن دخلوا الإسلام بنفوذ فى مكة يماثل نفوذ أبى بكر، ولكن أبا بكر كان، فيما يرويه ابن إسحق:

«رجلاً مألفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه»(٢٦) (ابن هشام - ص ٢٥٢).

ونجح أبو بكر فى هداية الكثيرين من شباب مكة إلى دين الله، وكان بعضهم من العشائر القوية. وكان معروفاً ببراعته فى تفسير الأحلام، وحدث

ذات يوم أن جاءه خالد بن سعد، وهو ابن أحد كبار رجال المال من بنى عبد شمس، وقد أصــابه حزن عميق، إذ رأى فيمــا يرى النائم أنه كان يقف على شفــا حفرة شاســعة من النار، ورأى فى هلع أن أباه كــان يحاول أن يُلقىَ به فيــها، ثم شعر بذراعين أحــاطتا بوسطه وأنقذتاه من الســقوط. وفى اللحظة التى أفاق فــيها أو قُبَيْلَــها، التفت ليرى أن الذى خلصــه لم يكن سوى النبى محــمد. ويبين لنا هذا الحلم، فى الصــورة التى يُروى بها، مدى الإحــساس الغامض والعاجل بالخطر، لدى الكثير من الشبــاب آنذاك. كانت مشاق حياة الصــحراء قــد توارت وابتعــدت عن أعين الكثــيرين، ويبــدو أنهم لم يكونوا يشاركــون آباءهم ولعهم بالرأسمــالية الجديدة، بل إن صراعــاً عميقــاً قد بدأ يشوب علاقتــهم بآبائهم وإن لم يفصحوا عنه. كان محمد يمس مــشاعر دفينة لم تتبلور بعــد عند هؤلاء الشبــاب، الذين كانوا يُحســون بالملال الذى يسود مكة إحســاساً بالغ الحدة. واعــتنق خالد الإسلام، ولكنه تــكتم أمر دينه ولم يخبر أباه به أطول مدة ممكنة.

وقد رُوى حلم آخــر عن اعتناق الإسلام، يصور جــانباً أكثر إيجــابية من جوانب التأثير القرآنى، إذ كان التاجر الشــاب الأرستقراطى عثمان بن عفان، وكان أيضاً من بنى عبد شمس، عائداً من رحلة تجارية فى سوريا عندما سمع فى الحلم صوتاً يصيح فى البرية: «أيها النوام هبوا من سباتكم! فإن أحمد قد أتى إلى مكة!»(٢٧) وفرح عثــمان وإن كان قد حــار فى أمر هذا الصوت، إذ كان الصــوت يثير مكامن شيء ما فى أعــماقه، حتى دون أن يعــرف ما تعنى الكلمات التى سمعها: كانت تجـربة الإسلام تجعل المسلمين فى حالات كثيرة يشعرون بأنهم هبوا من رقاد وخمول طال أمده. وفى اليوم التالى لحق بعثمان وهو على ظهر الطريق تاجــر آخر من جيل الشــباب هو طلحة بن عبــيد الله التيمى، الذى كان من أبناء عمومــة أبى بكر. وكان طلحة عائداً من سوريا، وأخبر عثــمان أنه قابل راهباً حدثه عن النبى أحــمد الذى آن أوان ظهوره فى

الحجاز، ثم أطلعه على نبأ أدهشه وهو أن «أحمـد» هو فى الحقيقة محمد بن عبـد الله الهاشـمى. ومن ثم انطلق الرجلان عـائدين إلى مكة، بأقـصى ما يستطيعان من سرعة، وذهبا على الفور إلى أبى بكر.

ويقول المؤرخ المكى ابن شـهاب(*) الزهرى، الذى ولد بعد وفـاة الرسول بنحو أربعين عامـاً وكرس حياته للقيـام بالبحوث فى فترة فـجر الإسلام، إن محمداً سرعان ما نجح:

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو للإسلام سراً وعلانية، فدخل الإسلام من دخل من أحداث الرجال وضعفاء الناس، حتى كثر عدد من آمن به، ولم ينتقـد كفار قـريش ما كان يقوله. وكـان إذا مر بهم فى مجـالسهم يشيرون إليـه قائلين: «هذا هو الفتى من بنى عبد المطلب الذى يتـحدث عما أنزل من السماء إليه»(٢٨).

ويؤكد ابن إسحق أيضـاً هذا النجاح المبكر(٢٩)، ولكن الزهرى يوضح أن أول من آمن به كـانوا ينتـمـون إلى فـئـتين دون غـيرهـما وهمـا الشـبـاب و«الضعفاء». وقد انضم إلى الطائفـة الجديدة بعض الذين يعانون من الحرمان الشديد، وكان من الطبيعى أن ينجذبوا إلى التعاليم الاجتماعية التى أتت بها، ثم أصبحوا من الشخصيـات المهمة فى الإسلام. وكان من بينهم عبد الله بن مسـعود، وكـان يعمل بالرعى، ويتمـتع بموهبة كـبرى فى اسـتظهار الآيات القرآنية التى تنزل على محمد، ولذلك كان من أهم الثقات فى رواية أوائل ما نزل من القـرآن، وكـذلك خبّـاب بن الأرتّ، وكـان حداداً يعـمل بصناعـة السيـوف، وكذلك اثنان من الرقـيق الذين أعتقـوا، وهما صـهيب بن سنان وعـمار بن ياسـر، واللذان كـانت عشـيـرة مخـزوم ذات القـوة والمنعة قـد

(*) فى الأصل الإنجليزى: Ibn Shihan Al Zuhri وهو خطأ، فمن المعروف أنه محمد بن شـهاب الزهرى (ت ١٢٣هـ). (المحرر)

أجارتهما، إلى جانب طائفة من الرقيق، فيها الرجال وفيها النساء، وأشهرهم بلال الحبشى الذى أصبح أول مؤذن يدعو المؤمنين للصلاة.

ولكن تعبير «الضعفاء» لم يكن يعنى أن كلاً منهم كان فقيراً أو منبوذاً، فالتعبير من المصطلحات الفنية التى كانت القبائل تستعملها للإشارة إلى الأوضاع الاجتماعية لشتى العشائر. وعندما بدأ محمد بعثته كانت عشائر قريش تنقسم إلى جماعات رئيسية ثلاث وضعها «مونتجومرى واط» فى القائمة التالية:

(أ)	(ب)	(جـ)
هاشم	عبد شمس	مخزوم
عبد المطلب	نوفل	سهم
زهرة	أسد	جمح
تيم	عامر	عبد الدار
الحارث بن فهر		
عدى		

وكانت عشائر المجموعة الأولى (أ) تنتمى جميعاً إلى حلف الفضول، وكانت أضعف العشائر فى المدينة. وكانت تستثنى من ذلك عشيرة عدى التى تدهورت أحوالها فى الفترة الأخيرة، وعشيرة أسد (التى تنتمى إليها خديجة) إذ قويت شوكتها. وكان معظم أوائل من دخلوا الدين الجديد ينتمون إلى المجموعة الأولى. وكان أبو بكر وطلحة، على سبيل المثال، من عشيرة تيم، وكان التاجر الشاب ذو المستقبل المشرق عبد الكعبة (الذى تغير اسمه إلى عبد الرحمن) من بنى زهرة. وقد يكون بعض أفراد هذه العشائر «الضعيفة» ممن أحرزوا نجاحاً شخصياً مثل أبى بكر الذي كان ثَرِيّاً، ولكن تدهور سلطة عشائرهم جعلتهم يشغلون موقعاً هامشياً فى المدينة. وعلى نحو ما سوف

نرى، كان معظم ألد أعداء محمد ينتمون إلى العشائر القوية فى المجموعتين الثانيــة والثالثة، إذ كـانا أهنأ وأسعد حالاً بالحـالة الراهنة. ولكن بعض من آمنوا بمحمد ممن ينتمون إلى العشائر المهمة ـ مثل خالد وعثمان ـ قد يكونون قد شعـروا بأنهم لا مكان لهم على القمة، وأصـبحوا يدركون مـدى الهوة التى تفـغر فاها بين أشـد الناس نجاحـاً ومن يليهم فى المنزلـة. وكانت هذه الضروب من التـرتيب الهرمى والتـفاوتات والانقسـامات غـريبة عن الروح العربية، مما جعل رسالة محمد تلقى الترحيب. وهكذا فإن الإسلام كان فى بدايتـه حركـة للشبـاب وللذين كـانوا يشعـرون بأنهم يُدفع بهم إلى مـوقع هامشى فى مدينة مكة.

وكان معنى ذلك حتمية نشـوء الصراع، وسرعان ما اتضح أن الإسلام قد بدأ يُحـدث صدوعـاً أدت إلى الانقـسام داخل الأسـرة الواحدة. وكـان فى الظاهر لا يرأب الصدع بإعادة الوحدة إلى قريش بل يزيد الطين بلة، وهو ما تجلى بصورة صارخة عـندما بدأ محمد الجهر بدعـوته وإعلانها على الملأ، إذ أنزل عليه من القـرآن ما أمره، فى عام ٦١٥، أى بعـد نحو ثلاث سنين من بداية البـعثـة، بأن ينذر عشـيرته الأقـربين وأن يدعوها جـميـعاً إلـى دخول الإسلام(٣٠). وأحس فى البداية أن المهمة كانت أكبر من طاقته، ولكنه صدع بما أُمر ودعا أربعين رجلاً من بنى هاشم، وكانوا كـبارها والمقدمين فيها، إلى تناول وجبة مـتواضعة مـعه. كان الطعام المتـواضع نفسه يمثل رسالة مـوجهة إليهم، إذ كـان محـمد يبدى انـتقاده الشـديد لمظاهر الضيـافة البـاذخة التى أصبحت من تقاليد العرب باعتبـارها من وسائل إظهار القوة والثقة، لأنه كان يحس أنها تتضمن «مذاق» الطـغيان القديم (إن الإنسان ليطغى)(٣١). وعندما كـرت السنون وذكر علىّ مـا حدث فى تـلك المأدبة، وكان ممن تولوا تقـديم الطعام، كان حديثـه يوحى بأنها كانت معجزة الأرغـفة والسمكات الخمس، فمع أن الطعام لم يكن كافياً لإشبـاع المدعوين، فقد شبع الجميع وارووا وبقى ما يزيد عن حاجتهم.

وقام محمد بعد الانتهاء من الطعام فعرض مبادئ ما أنزل عليه، وفى هذه الأثناء عمد أبو لهب ـ وكان أخاً غير شقيق لأبى طالب ـ إلى مقاطعة حديث محمد بفظاظة ولم يلبث أن فض الاجتماع. واضطر محمد إلى دعوتهم جميعاً من جديد فى اليوم التالى، وقام من جديد فشرح لهم الإسلام ورجاهم فى النهاية أن يؤمنوا بما جاء به قائلاً:

«يا بنى عبد المطلب، إنى والله ما أعلم شاباً فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به؛ إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟» (الطبرى جـ٢ ـ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١).

وساد صمت يشوبه التوتر، فلم ينبس أحد ببنت شفة، لا أبو طالب ولا العباس أو حمزة اللذان كانا فى سن النبى نفسها تقريباً. ولم يعد علىٌّ يطيق صبراً على ذلك، فأنشأ يتحدث أمام الجميع، على حداثة سنه وغلظة طبعه:

«وقلت، وإنى لأحدثهم سناً، وأَرْمَصُهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأحمشهم ساقاً، أنا يا نبى الله، أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتى ثم قال: إن هذا أخى ووصيِّ وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا». (المرجع نفسه).

وكان ذلك أكثر مما يحتمل، فنهض الرجال للانصراف، وهم يقولون ضاحكين لأبى طالب: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع!»(٣٢).

كان الناس بصفة عامة راضين عن محمد، ولكن دعوته كانت تفصم عرى الأسرات، وكان ابن أخت خديجة واسمه أبو العاص بن ربيع، من عشيرة بنى عبد شمس، قد تزوج زينب ابنة محمد الكبرى، دون أن يعتنق الإسلام، وكانت عشيرته تحاول إقناعه بتطليقها. ولكن الحب كان يربط بين قلبيهما، فقال أبو العاص لعشيرته فى حزم إنه لا ينتوى أن يتخلى عنها ولو أنه لا

يستطيع أن يحذو حذوها فيؤمن بالدين الجـديد. وكان الإسلام قد بدأ يتسبب فى انقســامات مريرة أخـرى داخل أسرة خديجة، فكان أخـوها غير الشـقيق نوفل بن خويلد، يعارض الإسلام فيما يبـدو معارضة مريرة، وإن كان أخوه واسمه الأسود قد دخل فى الإسلام، وكان ابن أخيها حكيم بن حزام لا يزال على حبـه لخديجـة ولو أنه رفض اعتناق الإسلام، رغم اعـتناق أخيـه خالد للدين الجـديد. وكان أبو بكر يواجـه مشكلات مماثلـة، إذ اتبعـته زوجـته أم رُومان فى اعـتناق دين الله، مع ابنيه عبـد الله وأسماء، فى حين ظل ابنهـما عبد الكعبة يعارضه معارضة شديدة. كان محمد، فيما يبدو، يشبه المسيح فى تأليب الأب على ابنه، والأخ على أخـيه، وفى تقويض الـعناصر الأساسـية لحياة الأسرة من روابط وواجبات ودرجـات كل فرد من أفرادها. وسرعان ما أصبحت هذه المشكلة أكثر حدة وشدة.

ما الذى وجـده الناس مثار اعتـراض فى رسالة محـمد فى هذه السنوات الأولى؟ لا يبدو أن أحـداً وجّه أى انتقاد لتـعليماته الاجـتماعيـة، حتى رغم معارضة العشائر الناجحة لـرسالته، فكان أفرادها على أنانيتهم وحدبهم على المال لا يستطيـعون الدفاع عن الأنانيـة والمادية. ويتضح من القـرآن أن معظم الانتقادات الأولى كانت تتركز حول فكرة يوم الحساب، وهى التى كان محمد يتفق فيها مع التراث اليهـودى والمسيحى، إذ كانت هذه الفكرة قد بدأت تحتل مكاناً أساسياً، وازدادت أهـميتها بالتدريج فى بعض ماأُنـزل على محمد من الآيات، وكانت تؤكـد خلود الفرد الذى تحمل أعـماله دلالات حاسـمة على مصيره. وكانت الدلالة الرمزية للحساب تدعم فكرة المسئولية الفردية بدلاً من المسئولية الجماعية وحسب، مما هيأ الدافع والحافز للعرب على اكتساب وتنمية الروح الجديدة. ويُنذر القـرآن قريشاً بأن ثراء العشـيرة وقوتها ـ وهـو ما كان الكثيرون يعتـمدون عليه ـ لن يُجدى فتيـلاً فى اليوم الآخر. وبدلاً من ذلك سوف يُسأل كل واحد منهم عما إذا كان قد قام برعاية اليتامى وتلبية حاجات

الفقــراء. لماذا حرص كل منهم على اكتناز الثــروات الشخصيــة بروح الأنانية ولـم يشرك الضــعفاء والمحرومين من أفــراد القبيلة فى ثروته؟ لقــد كانت تلك الفكرة تمثل تهديداً واضحاً لقريش الغنية، ولم يكن أفرادها على استعداد لأن يأخذوا هذه الـفكرة الداعية إلى المســاواة مأخــذ الجد، حتى وإن كــان القلق يساورهم لإحســاسهم على مستــوى الوعى الباطن بأن سلوكهم يمثل انتــهاكاً لتقاليد أسلافهم. كان من الأيسر لهــم أن يسخروا من فكرة الحساب برمتها، وأن يصمــوها بأنها «أســاطير الأولين»(٣٣) أو بأنها «ســحر مبين»(٣٤). كيف يمكن للأجساد التــى بليت وأصبحت عظاماً نخرة أن تُـبعث من جديد؟ وهل يعنى مــحــمد بذلك حــقــاً أن آباءهم الأولين ســوف يُنشرون مــن قبــورهم أيضاً؟(٣٥) كانوا يستمسكون بالعقيــدة العربية القديمة التى تُنكر الحياة الآخرة، ولكن القرآن يُشير إلى أنهم لا يستطيعون إثبات ذلك، إن هم إلا يظنون(٣٦).

ويشيــر القرآن أيضاً إلى أن هذه الاعــتراضات مــصدرها الشــعور بالذنب وبالنزعــة المادية، وهى التى أصــابت مدارك الناس بالــغلظة. والذين ينكرون حقيقة الحســاب هم من يعلمون أن سلوكهم هو سلوك الخاطئين(٣٧). ويبدو أن كثيــراً من الفقرات التى تصف «الآيات» يقصــد منها الرد على بعض هذه الاعتراضات: فإذا كان الله قادراً على أن يخلق إنساناً من نطفة ـ وهى معجزة يشيــر إليها الــقرآن مراراً ـ وأن يُبــدع كل ما تشهــده العين من روائع فى هذه الدنيا، فلماذا يعجز عن إحياء الموتى؟

﴿أو لم ير الإنسـان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضـرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييهـا الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكـم من الشجر الأخضر ناراً فـإذا أنتم منه توقـدون، أو ليس الذى خلق الســمـوات والأرض بقـادر على أن يخلق مـثلهم بلى وهو الخـلاق العليم، إنما أمره إذا أراد شـيـئـاً أن يقـول لـه كن فـيكـون، فـسـبـحـان الذى بيـده ملكوت كل شـىء وإليـه ترجعون﴾(٣٨) (يس ٧٧ ـ ٨٣).

وقد أصبح يوم الحساب نفسه صورة قوية للرجوع الأخير، أى رجوع جميع الكائنات آخر الأمر إلى الله، خالقها ورازقها ومصدر حياتها.

ورغم هذه الاعتراضات، يبدو أن محمداً قد حقق نجاحاً كبيراً فى السنوات الأولى من بعثته. وبدا فى وقت من الأوقات أنه يوشك على هداية جميع أبناء قبيلته إلى دين الله الحنيف. ولكن أزمة معينة نشأت فى عام ٦١٦، إذ كان محمد حتى تلك اللحظة قد تحاشى أى ذكر رسمى للآلهة العربية الأخرى. ويبدو أن عدداً كبيراً من أبناء قريش كانوا يتصورون أن بإمكانهم مواصلة تبجيل اللات والعزى ومناة بالأسلوب التقليدى. ويبدو أن محمداً لم يكن قد أكد عنصر التوحيد فيما أنزل إليه، ولكنه اضطر آخر الأمر إلى الإفصاح. وعندما منع من آمن برسالته من عبادة «بنات الله» اكتشف أنه فقد معظم مناصريه بين عشية وضحاها، وأن القرآن يوشك أن يحدث صدعاً وانقساماً فى قبيلة قريش.

الفصل السادس

افتـــراق الطـــرق

انفجرت أولى دلائل المتـاعب على نحو غير متوقع. فـقد تبع بعض أفراد قريـش جماعـة من المسلمين إلى شـعاب مكة وهاجـموهم فى أثناء تأديتـهم الصلاة هـناك، ودافع المسلمون عن أنفـسهم، وسـالت أولى دماء فى سـبيل الإسلام حينما جـرح قريبُ النبى سعد بن أبى وقاص أحد مهاجـميه، بعظمة بعيـر. ويبدو أن الحـادث صدم جمـيع أهل مكة. فقـد تسامحـت قريش مع محمد بشكل عام، لكن حدثت فـجوة من الشك والكراهية بين أغلبية قريش وجمع المسلمـين بمجرد أن نهى محـمد عن عبـادة الآلهة القـديمة، يقول ابن إسحق:

«فلما بادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومـه بالإسلام وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه ـ فـيما بلغنى ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكـروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون».

لكن، لماذا انزعجـت قريش هكذا؟ فقـد كان هناك من يقـتربون من رؤية التوحيد ورأوا اليهودية والمسيحية ديانات أسمى من الوثنية العربية القديمة. كما أن عبادة «بنات الله» كانت محصورة بصـفة رئيسية فى أضرحة الطائف ونخلة وقُدَيْد، ولابد أنها كانت هامشية بالنسـبة للحياة الدينية فى مكة. غير أنه من الصحيح أيـضاً أن بعض قريش كانوا يخـشون إغضاب قبـائل البدو، والذين كانوا قـد قاومـوا بعض القبائل التى تحـمى الكعبـة من مكة لما اعتـقدوه عن ضلالهم، لكن المشكلة كانت أكثر عـمقاً من ذلك. ويوضح القرآن أن جميع الأفراد الذين كانوا مهيمنين فى مكة، تجمعوا تلقائياً ضد محمد وأعلنوه عدوا

لقومــه. وذلك لأنهم استغربوا فـكرة عدم وجود إله سوى الله، وقــالوا إنها بدعة غريبة، وإن عبادة بنات الله واجب مقدس يجمع الأعراب جميعا(٢).

وحينما دعــا محمد أبا طالب للإســلام أجابه أنه لا يمكنه ترك دين آبائه. وإنه من الصعب بالنسبة لنا فهم وتقدير مثل ذلك التكريس العميق للماضى، وذلك لأن مجتمـعنا الحديث قد قام على أسس التغييــر، ومن هنا فإننا نتوقع دائماً التقدم المســتمر ونحن نعتز بالابتكار، ولا نقلق، كما فـعل محمد، إذا اتهمنا بالتجديد(٣). لكن استمرار الماضى فى المجتمعــات الأكثر تقليدية قيمة مقـدسة. إن التغـييــر الذى نقبله نحن على أنه أمــر بديهى يتطلب مراجــعة مستــمرة للبنية الأساســية، الأمر الذى لم يستطـعه أى مجتمع قــبلنا. واتخذ الدين فى بعض المجتمعات قبل الحديثة طبيعة إلزام المعاهدات. فقد كان يُنظر للدين والحضــارة فى تلك المجتمعات عــلى أنها منجزات تحقّــها المخاطر، لذا يجب ألا تُهدد عن طريق إهانة الآلهــة الراعية لتلك الحضــارة. وهكذا، ففى مثل تلك الأحــوال ينحصــر التغيــير بين القلة من الصــفوة. ويوضح مصــير سقــراط الذى حُكم عليــه بالموت فى أثينا عام (٣٣٩ ق. م.) مــدى خطورة إطلاق روح المغامرة بين الناس، فقد اتُّهم بسبّ الآلهة وإفساد الشباب. وكان لمحمد أن يواجه نفس الاتهامات وينجو من الموت بأعجوبة.

فإن محمداً حينما طلب من أهل مكة أن يعــبدوا الله وحده ويتركوا عبادة الآلهة الأخرى، طلب منــهم أن يتبنّوا اتجاهاً دينياً جديداً لم يــكن الكثير من أهل قبيلته مستعدين لقــبوله، فقد رأينا كيف أن المذهب التوحيدى لا يتطلب الموافقة العــقلية فقط، بل أيضاً تغييــر الوعى. وقد أدَّى طلب النبى إلى إذكاء مشاعر الخوف العميق ،لأنه كان يهدد مقدسات اعتقد القوم أن بقاء مجتمعهم يعتمد على بقــائها. وبالمثل، فقد خاض المسيحــيون الأوائل نفس التجربة فى عهد الإمبراطورية الرومانية، حيث لم يُنظر للتقدم على أنه مسيرة شجاعة فى آفاق المســتقــبل، ولكن كان يعنى الــعودة إلى الماضى المثــالى. أما آلهــة روما

فكانت تعتبر حامية الدولة التى إن هى أهملت عبادتها فستُرفع عنها تلك الحماية. ولا يعنى هذا أن الوثنية الرومانية كانت بالضرورة غير متسامحة، فإن لم تكن هناك مطالبة بأن تحل آلهة جديدة محل آلهة الأسلاف فقد كانت الحرية الدينية التامة تُمنح لعابدى تلك الآلهة الجديدة. فقد وجد دائماً مكان لعبادة جديدة، كما انتمى الناس غالباً لمذاهب مختلفة. ولم يحدث أن سمعنا عن تحول جذرى إلى ديانة جديدة ورفض جميع الديانات الأخرى. فمن الصحيح أن اليهود كانوا يعبدون إلهاً واحداً، لكنهم حينما أعلنوا أنهم لا يتبعون سوى القانون اليهودى القديم اتهموا بالكفر وعدم احترام الديانة الأم والإلحاد لأنهم رفضوا عبادة آلهة روما. وحينما رفض المسيحيون القيام بتقديس تلك الآلهة الوثنية نظر إليهم على أنهم انتهكوا المحرمات، واعتقد الناس أن ذلك قد يتسبب فى كارثة، وتجنباً لتلك الكارثة، فقد قام الأباطرة المتعاقبون باضطهاد المسيحيين. وتُبرهن المعاناة الرهيبة التى تعرض لها الشهداء على مدى تهديدهم للإمبراطورية الرومانية. وكانت أجسادهم التى مُثِّل بها قرباناً للآلهة كى يبرهنوا لها على أن الناس ككل لا تتقبل ذلك الإلحاد.

فمن السهل إذاً، والحال كانت كذلك فى الإمبراطورية الرومانية القوية، أن نفهم قلق قريش العميق من «إلحاد» محمد! وذلك عندما رفض الاعتراف بالآلهة القديمة. فالحياة البدوية كانت محافظة لأنها كانت محفوفة بالمخاطر. فمثلاً، لم يتطرق إلى ذهن أحد حتى أن يحلم بإلغاء طرق الآبار التقليدية ويكتشف طرقاً جديدة لتلك الآبار الموجودة منذ القدم. وبما أن قريشاً لم يكن يفصلها عن حياة الرعى سوى جيلين، فلابد أنهم كانوا يرون منجزاتهم هشة بالرغم من مباهاتهم بالاكتفاء الذاتى، وكانوا ـ مثلهم مثل الرومان ـ يقدرون استمراريتهم مع الماضى حق قدرها ويعتقدون أن نجاحهم يقوم على الاحترام الورع لتقاليد آبائهم. ولذلك نجد أن فى القرآن، وفى المصادر المبكرة، كثيراً ما يتهم محمد من قبل أعدائه بأنه خطر على المجتمع، وأيضا بإهماله دين

آبائه والإلحـاد. وتلك هى نفس عـواطف الحنق والرعب المركـبة التى كـانت تجيش بها الحشود فى ملاعب روما.

وقد حـاول بعض المدافـعين المسيـحيين الأوائل أن يتـواصلوا مع الوثنيين ليوضحـوا أن دينهم ليس بدعة تكفيـرية: فقد كتب جسـتين، عالم اللاهوت الفلسطينى الشـهير الشهـير فى عامى ١٥٠ و١٥٥م، دفـاعين مقتضـاهما أن المسيحيين يتـبعون خطوات أفلاطون وغيره من الفلاسـفة المبجلين الذين آمنوا بإله واحد. ويشير القرآن أيضاً إلى لحظة يبدو أن مـحمداً حاول فيها الوصول إلى قريش لتهـدئة روعهم أملاً فى إعادة العلاقات الودية. فـيُذكر الله تعالى محمداً قائلاً:

﴿ وإن كادوا ليـفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غـيره وإذاً لاتَخذوك خليـلا. ولولا أنْ ثبَّتْناك لقد كدت تركن إليـهم شيـئا قليـلا. إذاً لأذقْنـاك ضـــعف الحـيـــاة وضـــعف الممـــات ثم لا تجــد لك علينـا نصير ﴾[٤]. (الإسراء: ٧٢ـ٧٥)

ويفتـرض الدارسون فى الغـرب أن تلك الآية تشـير إلى حادثة مـا يدعى «آيات شيطانية» السـيئة السمعة، كـما يدّعون أن محمداً قدّم تـنازلات مؤقتة للمشركين.

والقصة ـ كـما تظهر فى طبقات ابن سعـد وتاريخ الطبرى ـ تقول إنه فى إحدى المناسـبات تدخل الشـيطان فى تلقى محمـد لكلمة الله. فكمـا تقول المأثورات، إن محـمداً أثناء تلقـيه سورة الـنجم شعر بإيحـاء أن ينطق بآيتين تقولان بأن الآلهة الثلاث اللات والعُزّى ومناة من الممكن تبجيلهن كوسيطات بين الله والبشر. وبما أن قريشاً كانت تعتقد أن «بنات الله» مقدسات فقد ظنوا خطأ أن القـرآن قد وضـعهن فى منـزلة واحدة مع الإله. واعـتقـاداً منهم أن محمداً قد تقبّل آلهتهم، فقد سجدتْ قريش لتُؤدى الصلاة مع المسلمين، وبدا وكأن الخلاف الحاد قد انتهى .ولأنهم ظنوا أن القرآن يكرس لعبادات آبائهم، وأنَّ محمداً تخلى عن الرسالة التوحـيدية، فلم تجد قريش فى الإسلام تهديداً

ينتهك ديانتهم ويُنزل النوازل بقوم مكة. وتتابع القـصة لتبين أن محمداً تلقى وحياً إلهـياً يُبين أن قبوله الظاهرى لـعبادة بنات الله كان وحيـاً من الشيطان، وبناء على ذلك حذفت الآيتان من القرآن واستُـبدلتا بآيات أخرى تلعن الآلهة الثلاث كتلفيقات من وحى خيال العرب غير جديرة بالعبادة.

أما ما يجب توضيـحه هنا هو أن مسلمين كثيرين يعتـقدون أن هذه القصة مشكوك فى صحـتها، كما يشـيرون إلى أنه لا توجد إشارة واضحـة إليها فى القرآن وأن ابـن إسحق لم يذكرهـا فى التقاريـر الأولى الموثوق بها من سـيرة محمد. كما أنها لم تذكر فى مجـموعات الأحاديث الكبيرة عن محمد والتى جمعها البـخارى ومسلم فى القرن التاسع. وحينما يرفض المسلـمون شيئاً من التراث فـإنهم لا يفعلون ذلك بدافع احتـمال التأويلات النقدية لما يرفـضون، لكن لعدم كفاية الأدلة، لكن الأعداء من الإسلام رأوا فى القصة مناسبة كى يشككوا فى محمد ويبرهنوا على عدم إخـلاصه. فكيف لرجل قام بتغيير الكلمات السماوية طبقاً لما ارتآه أن يكون نبيّاً حقاً؟ فالنبى الحق ـ هكذا يقولون ـ لابد أن يكون قادراً على التمييز بين الإيحاء السماوى والشيطانى. ولا يتأتى لرجل أن يُغيـر ما أنزل عليه لمجـرد اجتذاب تابعين. ورغم ذلك، فقـد حاول باحثون مثل: ماكسيم رودينسون ومنتجومرى مؤخراً أن يبرهنوا على أن القصة حتى فى صياغتـها الحالية، ومع افتراض صحتهـا، لا تحتمل بالضرورة تأويلاً سلبيّاً. وعلى أية حال، فقد بقيت القصة على قدر كبير من الأهمية في الغرب أكثر منها فى العالم الإسلامى، على الأقل حتى عام ١٩٨٨.

ومنذ الصراع الناجم عن رواية سلمان رشدى «آيات شيطانية» والتى نشرت فى ذلك العام، اتخـذت القصة أهمية جـديدة. فقد اعتـرض المسلمون نظراً لأنهم يرون القصة تقدم محاكاة ساخرة لحياة محمد، وتكرر الأساطير الغربية القديمة عن محـمد، وتقدمه على أنه مُدَّع، ذو طمـوحات سياسيـة خالصة، وأيضا كمنغمس فى شهواته استغل إيحـاءاته ترخيصاً له فى أن يأخذ لشخصه

من النساء ما أراد، وتُبيّن الرواية أيضاً صحابته الأوائل أشخاصاً تافهين قساة. أما ما هو أكثر إيلاماً - كما يقول المسلمون - فهو أن الكتاب يُشوه صدق القرآن، ويشعرون أن ما يُدْعى بحادثة الآيات الشيطانية، والتى يتخذ منها الكتاب عنواناً ، قد وُظّفتْ لتبرهن على أن الكتاب المقدس للمسلمين لا يستطيع التمييز بين الطيب والخبيث، وأن ما يُقال عن مشيئة الله ما هو إلا إيحاءات إنسانية محضة - إن لم تكن شريرة - كما يدّعى النقاد الغربيون دائماً.

وهكذا أعلن كثيرون ممن أيّدوا رشدى تأييداً بليغاً أن الإسلام ينفى البحث والحرية الإبداعية (هكذا!) رغم أن المسلمين الأوائل أسسوا حضارة عظمى ذات جمالٍ رائع، كما أنهم أرسوا دعائم تقليد فلسفى عقلانى كان مصدر إلهام المفكرين فى أوربا فى العصور الوسطى. ورشدى لم يعرض فى كتابه لشخصيات الرسول وصحابته كشخوص من الواقع بالطبع، لكن تلك الشخصيات هى جزء من رؤية حلم لشخصية مصابة بانهيار نفسى. وتلك الشخصية هى جبريل فاريشتا النجم السينمائى فى تلك الرواية والذى قام باستبطان وخلق صور الكراهية والاحتقار التى تبناها الغرب لمدة تقرب من ألف عام، وحاول عن طريق ذلك أن يُوجد حلاً توفيقياً لمشكلته مع الغرب.

ونظراً لأن الصراع الحديث المترتب على ذلك بين الغرب والعالم الإسلامى قد فتح جراحاً عميقة، فمن المهم أن نوضح الأمور المرتبطة بحادثة تلك الآيات، هذا إن كانت قد حدثت بالفعل: هل كان محمد على استعداد لتقديم تنازلات بشأن رسالته التوحيدية فى سبيل جذب عدد من الأتباع؟ وهل كان للقرآن أن يُلوّث ولو لوهلة تحت أثر للشر المطلق؟ وفى هذا السياق قدّم رودينسون وواط أطروحاتهما أن القصة لا تُبرر أن يرى أحد محمداً على أنه مُدّع ساحر. فبالرجوع إلى الطبرى الذى يُقدم روايتين للحادث فى سيرته وتعليقه على القرآن، نجده يقدم دراسة عن ظروف القطيعة النهائية بين محمد

وقريش. وهو يقول، كما يقول ابن إسحق، إن قريشاً فى البداية كانت على استعداد لقبول رسالة محمد، ويستشهد بحديث لعروة بن الزبير الذى يمتّ للرسول بقرابة بعيدة، والذى كتب بعد حوالى سبعين عاماً من وفاة الرسول. ويؤكد الحديث نجاح محمد المبدئى. ويقول عروة إن قريشاً لم تعتزل محمداً فى البداية ولكنها كادت توليه أذناً صاغية. فقد كان الجميع على استعداد لتقديم عبادتهم للإله الأعلى الأزلى، مادام محمد يبشر بعبادة الله، والاهتمام بالفقراء والمحتاجين، لكنهم بمجرد تأكيده على أن عبادة الله تستوجب استبعاد جميع آلهة أسلافهم، فكما يقول عروة إن «قريشاً» ردت على الحق بالعنف، ولم توافق على ما قاله، وحركت ضده الذين اتبعوه، ما عدا من حماهم الله وكانوا قلة. وأصبح الإسلام أقلية محتقرة بين عشية وضحاها. ويُضيف عروة أيضاً أحد التفاصيل المهمة فيقول إن أوائل من أثاروا الناس ضد محمد كانوا ممن لديهم أملاك فى الطائف، مدينة اللات(٥).

واعتاد الكثير من قريش الفرار من حرارة مكة القائظة إلى الطائف حيث كانت لهم منازل صيفية فى مدينة اللات فى ذلك المكان الأكثر برودة ورطوبة فى أرض الحجاز. ولابد أن ضريح الآلهة كان مُهمّاً بالنسبة لهم لأنهم كانوا يمارسون العبادة هناك فى أثناء غيابهم عن الكعبة. وحينما حرم محمد على قومه عبادة اللات فلابد وأنهم أصابهم الأسى والخوف لأنه قدْ عرّض مركزهم فى الطائف للخطر. ويورد الطبرى رواية لرجل يُدْعَى أبا العالية توحى بقلق قريش لدرجة حاولت معها الوصول إلى اتفاق مع محمد. وكما يقول الأثر فإن الاتفاق مؤداه أنه إن وعد محمد أن يطلق بعض الأقوال الاسترضائية عن بنات الإله الثلاث فستبوئه قريش مكانة فى الدوائر الداخلية لمكة. وعلى هذا ـ وكما يدعى ـ فقد تلا محمد آيتين يمتدح فيهما اللات والعُزّى ومناة كوسطاء مُعْتَرفٍ بهنّ، ليعرف فيما بعد أن تلك الكلمات كانت من إيحاء الشيطان(٦).

لكن تلك القصة تتعارض مع المأثورات الأخرى ومع القرآن نفسه، ويجب أن نعلم أن مؤرخاً مسلماً كالطبرى لا يُكرّس بالضرورة لجميع المؤثورات التى يُسجلها، فهو يتوقع من القارئ أن يقارنها بعضها ببعض وأن يقرر بنفسه مدى صدقها. فلم يكن محمد فى تلك المرحلة المبكرة جداً من رسالته النبوية مهتماً بالقوة السياسية. وهكذا، فإن تلك القصة التى رواها أبو العالية غير محتملة الحدوث. فإن القرآن، كما رأينا، استنكر أن يكون لمحمد دور سياسى فى ذلك المنعطف الزمنى، كما أن الرسول فيما بعد سوف يرفض عروضاً من ذلك القبيل من قادة قريش دون تردد.

والطبرى أيضاً يحفظ مأثوراً يعرض الحدث بشكل آخر، وفى هذه الرواية نرى محمداً يبحث مع نفسه عن حل لذلك الصراع المؤلم مع قريش. وتوحى تلك الرواية أن محمداً لم يكن لينزلق ببساطة إلى إطراء بنات الله. فقد قدم الطبرى محمداً وهو يصغى إلى حل مبتكر يجعل قريشاً تتقبل رسالته التوحيدية.

«لما رأى رسول الله تولّى قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله، تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، حتى حدث بذلك نفسه، وتمناه وأحبه»(7).

وكما يقول الطبرى، فبينما كان الرسول فى أحد الأيام يفكر ملياً فى الأمر فى الكعبة، بدا وكأن الإجابة واتته فى صورة وحى يمنح مكاناً ما للآلهة الثلاثة دون تفريط فى رؤيته للتوحيد. فقد كان كثيرون من قريش يجلسون فى الكعبة حينما نزلت سورة النجم. واعتدل الجميع فى جلستهم وأخذوا ينصتون حينما بدأ محمد تلاوة الكلمات التالية:

﴿أفرأيتم اللات والعُزّى، ومناة الثالثة الأخرى﴾(8).

فقد كان أى شىء ينطق به محمد عن «بنات الله» ذا أهمية فائقة لديهم. وكان هنا على وشك أن يبين أن القرآن يرفض تلك العبادة رفضاً باتاً. أو أن

يأتى بشىء أكثر إيجابية عنهن، وحينذاك، وطبقاً لرواية الطبرى وضع الشيطان كلمات مشابهة لهاتين الآيتين بين شفتيه: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى[٨].

وطبقاً لتلك الرواية، فقد ابتهجت قريش لذلك. أما الغرانيق، فربما كانت طيوراً من نوع Numidian كانوا يعتقد أنها ترتفع فى طيرانها أكثر من أى طائر آخر. ولو افترضنا صدق الرواية، فيحتمل أن محمداً الذى كان يعتقد فى وجود الملائكة والجن، كاد يُحيّى تلك الطيور تحية رقيقة دون تفريط فى رسالته. فلم تكن الغرانيق على مستوى واحد مع الله ـ ولم يخطر لأحد أن يضعها على نفس المستوى ـ فقد كانت تحوم بين السماء والأرض، ولذا فقد كان هناك احتمال توسطها بين الله والبشر، الأمر الذى صدقت الآية التالية فى سورة النجم على صحته[٩]. وهكذا، أشاعت قريش تلك الأخبار السعيدة، فى أنحاء المدينة بقولها: «لقد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر»[١٠].

والذين نشئوا على ثقافة مسيحية قد لا يفهمون لفظ الشيطان كما يشار له فى الحادث نفس فهم أولئك القوم فى القرن السابع. فالشيطان فى العالم المسيحى أصبح رمزاً للشرّ المستطير، بينما هو فى القرآن ـ كما فى كتب اليهود ـ شخصية بالإمكان السيطرة عليها. وفى رواية خروجه من رحمة الله يقول القرآن إن الله حينما خلق الإنسان أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، لكن الشيطان أو إبليس الذى قد يكون تعريباً للفظ اليونانى Diabolos(*)، رفض وطرد من الحضور الإلهى، ولا يرى القرآن أن تلك هى الخطيئة الأولى المطلقة، بل هناك تفسيرات تقول إنه سيتم العفو عنه يوم القيامة[١١]. كما ادعى بعض الصوفيين أن الشيطان قد أحب الله أكثر من الملائكة لأنه رفض أن يمجد مخلوقاً بأسلوب تبجيلى هو من حق الله وحده. وهكذا، فحادثة تلك الآيات

(*) عُجمة «إبليس» أو اشتقاقها من هذا من اللفظ الإنجيلى اليونانى مسألة فيها شك عند اللغويين. (المحرر).

الخلافية لا تُوحى قط أن القرآن قد تلوَّث ولو لبرهة بشرٍّ حقيقى. فالإسلام لا يكرس لمبدأ السقوط The Fall بمعناه المسيحى، فهو يخبرنا أن آدم استسلم لغواية الشيطان، لكن ذلك كان ممارسة للإرادة الحرة كما يفهمها المسلمون - وأغلبية اليهود - كمرحلة ضرورية فى تطور الإنسان. وبرغم خطيئته، فقد أصبح آدم أول الأنبياء رغم ارتكابه زلة شيطانية، كما لم يصبح الشيطان أبداً محطماً Destroyer للإنسانية. ولابد أن يحضرنا ذلك التمييز اللغوى حينما نسمع بعض المسلمين الآن يشيرون إلى أمريكا على أنها «الشيطان الأعظم». كما أنه فى المذهب الشيعى الشائع ينظر إلى الشيطان على أنه كائن مسكين حقير تمتع بما هو تافه بدلاً من القيم الروحانية الحقة. وهكذا، فقد رأى إيرانيون كثيرون أمريكا على أنها: «المهرج الأعظم» لمحاولتها غواية الناس عن طريق الماديات المتفسخة(١٢).

وهكذا، ففيما بعد سنرى قريشاً تتجه إلى محمد كى يقدم حلاً توفيقياً فيما يخص رسالته التوحيدية: فبالإمكان أن يعبد الله هو بينما يعبدون هم آلهة أسلافهم مع الإله الواحد. لكن محمداً كان دائم الرفض. وفى القصة موضع النزاع - وكما حفظها الطبرى - فقد حل إنكار صريح لوجود تلك الإلهة محل ما سمى «بالآيات الشيطانية»، وكما تقول الرواية، فقد أتى جبريل محمداً ذات ليلة وسأله: «يا محمد، ماذا صنعت! لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل، وقلت مالم يُقل لك»(١٣).

ونزلت آية جديدة تنبذ بنات الله كمجرد أسماء. فتلك الآلهة ما هى إلا اختراع إنسانى وليس هناك تنزيل من الله بشأنها: ﴿**إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس**﴾ (النجم: ١٩/ ٢٦).

وتلك هى أكثر إدانة قرآنية جذرية لتلك الآلهة. وبعد نزول تلك الآية لم يعد هناك مجال للتوافق مع قريش.

وحتى إذا ما أُخذت القصة كما جاءت فى تاريخ الطبرى مأخذ الجد، فليس فيها ما يوحى بأن محمداً كان بصدد حل توفيقى مشبوه مع قريش.

فتقول الرواية: إن محمداً حينما سمع أن الكلمات التى نطق بها كانت من إيحاء الشيطان أصابته صدمة، لكن الطبرى يذكر أن الله طمأنه فوراً بتنزيله وحياً آخر أخبره فيه أن أنبياء آخرين قد حاول الشيطان غوايتهم، وأن ذلك لا يعتبر كارثة لأن الله دائما يصحح الأوضاع بإرساله آيات بديلة عن تلك التى تم نسخها، ويوضح هنا القرآن المخاطر المرتبطة بمفهوم الوحى:

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطانُ فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم** ﴾. (الحج: ٥١).

فقد خضع آدم أول الأنبياء كما رأينا لغواية الشيطان، كما أن رسلاً من بعده تعرضوا لأقوال شيطانية حينما بلغوا كلمة الله لأقوامهم، ولم يعن هذا تلويث كتبهم بأثر للشر، أما العرب فكثيراً ما كانوا يستعملون لفظ «شيطان» ليشيروا إلى مزاج إنسانى بحت. وقد رأينا مدى صعوبة تأويل تلك الإيحاءات تأويلاً صحيحاً على محمد. وعلى ذلك، فقد كان من السهولة بمكان إساءة تأويل البنية الخفية Undercurrent للوحى لاختلاطه بفكرة شخصية للمرء، أو التعبير عنها بكلمات غير دقيقة. لكن ذلك لم يمنح محمداً قط حرية تغيير ما أُوحى به إليه وفق ما يرى. فقد أوضح القرآن أنه ليس لمخلوق أن يُغير فى كلمات الله، ولو كان محمد نفسه قد أخذ مثل تلك المبادرة لكانت العواقب وخيمة(١٦). وباستطاعة الله إصلاح ما كان قد أسيء فهمه فى اللحظة التى يتم فيها الإيحاء إلى نبى ما. وبلغة بشرية، فإنه يمكن القول إن محمداً كان يشعر أنه فى حالة تلقٍّ للوحى بصفة مستديمة فى الفترة التى كان يأتى فيها القرآن إلى العرب. أى أن التنزيل كانت له صفة الاستمرارية، وكان محمد أحياناً يرى فى الرسالة الموحاة مضامين جديدة تقول أو تضيف إلى معانٍ سابقة.

وعند هذا المنعطف برز فى رسالة محمد تأكيد جديد على وحدة الذات الإلهية كأهم جزء فى الرسالة الموحاة. ومنذ ذلك الحين أصبح محمد شديد الحرص على رسالته التوحيدية.

وقد ظهر توجه حديث يميل إلى تذوق الوثنية القديمة وآلهتها المتعددة وما يقال عن الأسلوب الصادق الشجاع الذى واجهت به تلك العبادات المآسى والمعاناة رافضة رفاهية الحل النهائى. وفى مقابل ذلك تبدو العقيدة التوحيدية شمولية وأحادية مما تسبب فى كثير من المشاكل الفلسفية فى حين برهن مجمع الآلهة الوثنية (بانتيون) على وجود أساليب متعددة متنوعة للحقيقة المطلقة، وعلى ذلك فإصرار الديانات التوحيدية على وجود إله واحد يبدى عدم تسامح إزاء اختلافات البشر. غير أن تعدد الآلهة ينتمى إلى مرحلة تطور للجنس البشرى لم يكن فيها وعى الإنسان نفسه على قدر كاف من التوحّد، وحين كان الكون والدنيا أيضاً يبدوان وكأنهما يحويان عدداً من العناصر المختلفة المتنافرة، أما حينما بدأ الرجال والنساء يرون أن كلاً منهم وحدة لا تنفصل عناصرها، وأن الكون كيان واحد تحكمه قوة مشتركة، فقد بدأ البشر فى الاتجاه إلى الحل التوحيدى. حين ذلك تبدو الآلهة القديمة مجرد مظاهر مختلفة للكائن الأعظم أو الحقيقة العُظمى، وبتعبير توحيدى تبدو تلك الآلهة صفات لله.

ونستطيع رؤية ذلك فى الفترة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية. فقد ساعدت تجربة الحياة فى ظل كيان سياسى عملاق ـ الناس على أن ينظروا للعالم المعروف لديهم كوحدة كلية. أى أن الآلهة والعبادات المحلية المرتبطة بنطاق محدود لم تعُد كافية. وتدريجياً، وبشكل متزايد، بدأ الناس يرون أن الله، بشكل ما، واحد، كما قال بذلك الفلاسفة والإغريق. لكن، وكما رأينا، كانت تلك فترة انتقال أليمة. فحتمياً كان هناك من الناس من هم على استعداد للانتقال الجذرى للديانة التوحيدية أكثر من غيرهم، بينما ازدهرت الوثنية أيضاً لفترة طويلة بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة فى الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى. فقد كان الحل الخاص بالديانة التوحيدية يعنى أن يتخلى الناس بحزم عن الماضى الذى قدّسوه. وقد وجد

البعض تلك الفجـوة فى الاستمرارية مدعاة للقلق العمـيق. وعلى هذا، فقد كانت هناك فى بلاد الـعرب أزمة مشـابهة فى بداية القـرن السابع. فقـد كان المشهد السياسى فى بلاد العرب قد أثر فى الحـالة الروحانية والنفسية للعرب. فقد كانوا مـحاطين بإمبراطوريات ذات شأن، كما أنهـم كانوا يعلمون بوجود عالم متوحـد خارج نطاق صحراء العرب. كمـا أنهم كانوا قد بدءوا ينظرون إلى أنفســهم كأفراد ذوى حقـوق ومسئوليـات لا يمكن إنكارها. ويعنى ذلك أنهم كانوا قد بدءوا يخبرون وعيهم الشخصى كوحدة لها بصيرة خاصة. كما بدأ النظام القبلى، والذى كـان يعنى أن تذهب كل قبيلة مـذهبها، يبدو غـير مُوات بشكل فـاجع لظروف الحداثة. وتوضح قـصة الأحناف استـعداداً لدى العرب للديانة التوحيدية. غير أن الآخرين لم يكونوا بعد مستعدين للانفصال الجذرى عن الماضى، أو لفقـدان تلك الاستمرارية التى كانت لهـا مركزية فى حياتهم الروحانية القديمة.

وإن كان من الصحيح أن إحساس محمـد بمهمته كان قد أخذ فى التطور، فلابد أنه شعر أكثـر بحاجة العرب لوجود بؤرة مشتركـة. والديانة التوحيدية بطبيعتها معادية للقبلية، فهى تتطلب من البشر التوحد كمجتمع متفرد. وفيما بعد، كـان لمحمـد أن يرى وحدة العرب مـبدأ هاماً، لـكنه فى عام ٦١٦م، حينما حدثت القطيعة الخطيرة مع قريش، كان وعى محمد الأقوى هو حاجة العرب الديـنية لأن يجدوا حـقيـقة عليا واحـدة وراء آيات الطبيـعة المتـعددة المتنوعة. وكـانت الآيات التى قيل إنها حـلت محل تلك المتنازع عليهـا، قد وضحت أن الآلهة القديمة ما هى إلا إسقاطات إنسانية، لا يمكن لها أن تكون فى منزلة الإله الأعلى والأسمى الذى يفوق مفـاهيم البشر المحدودة. ومعظم الجدل القرآنى بخصوص ما يدعى «شـركاء الله» أو «أصحابه» يؤكد على عدم فاعلية الآلهة الوثنية بطريقة تتـشابه ـ إلى حد ما ـ مع بعض ما جاء فى كتب اليهود. فليس من المُجدى جعلهم مـركز عالمنا لأنهم لا يملكون أن يفعلوا لنا

شيئاً، فهم لا يستطيعون أن يمدوا أتباعهم بالطعام والرزق[١٧]، كما أنهم كوسطاء لا رجاء فيهم، ولن يكون باستطاعتهم مساعدة الرجال والنساء الذين وثقوا فيهم يوم الحساب[١٨]. فإن تلك الآلهة ما هى إلا مخلوقات كالرجال والنساء والملائكة والجن الذين لا يملكون تقديم المساعدة الجذرية. وفى هذا الصدد، يبدو تشابه مع بعض المزامير العبرية، والتى لم يكن ليتسنى لمحمد قراءتها، لكن نفس الجدل وظف فيها.

﴿**إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون**﴾[١٩]. (الأعراف: ١٩٤ و١٩٥).

ويقدم القرآن مفهوماً للإله العلى بشكل جوهرى يستوعبه العرب. فيطلق عليه من الصفات ما ينطلق من البنية القبلية، لتقريب المفهوم إلى أذهانهم. فالله هو الذى يمنح الولاية والنصر، فى حين كانت الآلهة القديمة رئاسات ضعيفة بشكل جد خطير، حيث كانت لا تملك رعاية تابعيها. وستصبح الوحدة الإلهية الأساس الروحانى لدى المسلمين. كما أن بمقتضاها أيضاً ستجرى المحاولة لتحقيق الوحدة فى حياة الفرد والمجتمع. فلكى يتحقق التكامل الفردى، كان ذلك يستلزم جهداً مستديماً، كما أن تجربة التكامل تلك تنجم عنها إيحاءات بالإله الواحد (أو بوحدة الإله) حين يحاول الفرد العثور على مركز واحد، أو هدف واحد، فى النفس المتكاملة تكاملاً صحيحاً، ويلخص الجزء الأول من الشهادة ـ التى هى إعلان الإيمان للمسلم ـ عزم كل مسلم: «أشهد ألا إله إلا الله» كما أن الشهادة تحرّم على المسلمين أن يُبجلوا ـ بأى شكل ولو محدود ـ آلهة أخرى كاللات والعُزّى ومناة، بل أيضاً تحرّم عليهم أن يسمحوا لمغانم أخرى ظاهرية أن تشتت ولاءهم لله. فقد تقدم الأيديولوجيات الإنسانية والتطلعات والحماس الوعد بنوع من الخلاص، لكنها

فى النهـاية لن تؤدى إلا للإحبـاط. وينطبق هذا بوضوح على المال والـنجاح والرفاهية المادية، كـما أنه ينطبق أيضاً على التعصبـات الدنيوية الأخرى التى تبدو جـذابة لكنها غـير مـستطيـعة أن تهـدئ القلق وعدم الرضـاء الأساسى للبشر، والذى يلجئ الكثيرين إلى السلوى الذى يقدمها الدين ويقدمها الفن. وحينمـا التجأ بعـض المسلمين فى عصرنا إلى الأيديولـوچيات الغربيـة، مثل القومية والاشتراكية حذرهم المصلحون من أن تلك لن تأتى بالإرضاء المأمول. فرغم أنها ليست شريرة فهى غير موائمة وليس بإمكانها تقديم الحماية والعون أو الإرضاء النهائى على أعلى مستوى فـردى أو جماعى أو سياسى. وخطيئة الشرك تحذر المسلمين من تبنى مثل بشرية خالصة - مهما بلغ صلاحها فى حد ذاتها -، وذلك من الأهمية القصوى بمكان، كى لا يتحولوا إلى الوثنية.

وبعد القطيعـة النهائية مع قريش نزلت سورة الإخـلاص، ويقرأ المسلمون تلك السورة فى صلاتهم اليومية وفى المساجد، وهى تذكرهم بالوحدة الإلهية التى يجب علـيهـم أن يخبـروهـا فى حـياتـهم اليـومـية عـن طريق تكامل شخـصيـاتهم بينمـا هم يجمـعون قـواهم المتناثرة الموزعة ويلـمسون أعـمق أولوياتهم.

﴿ **قل هـو الله أحـد، الله الـصـمـد، لـم يلد ولـم يولد ولـم يكن له كـفـوا أحد** ﴾. (سورة الإخلاص).

لكن لم يكن الكثيـرون من قريش مسـتعدين لإيجاد القطيـعة مع الماضى ونبذ مقدساتهم القـديمة. ويبدو أن كثيراً من أتباع محمـد قد فرّوا من قومهم كى يتبعوه، وبدأ أقوياء قريش حملة للخلاص منه، إذ كانوا ينظرون إليه على أنه مرتد، أى مُلحد يُعـادى أكثر قيم المجتمع قدسـية والتى يجب ألا تُنتهك حرمتها. ولهذا، قابل وفد منهم أبا طالب، زعيم عشيرة محمد، وطلبوا منه أن يرفع عنه الولاية (الحـماية). ولم يكن لأحد فى مـجتـمع بلاد العرب أن يستمر فى البقاء دون والٍ أو حامٍ. فربما كان النظام القبلى قد بدأ فى الذواء،

لكن كانت القبيلة والعشيرة الوحدتين الأساسيتين فى المجتمع، وكان من المحال العيش خارج تلك المجموعتين. والرجل الذى لا مولى له كان يُقتل دون أن تكون له حصانة. غير أن وفد قريش ذكّر أبا طالب بواجبه تجاه قبيلة قريش جمعاء، فقالوا له: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تُخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه»[٢٠].

وكان الموقف شديد الحساسية، فقد أحب أبو طالب محمداً، لكنه بالتأكيد لم يكن يرغب فى أن يجلب عداء كل العشائر الأخرى ولم يكن أيضاً مسلماً، ولم يشعر بالارتياح لإدانة محمد الدين القديم. لكنه كان يعرف أنه إن سلمهم ابن أخيه فسوف يقتلونه، وكان ذلك يعنى فشله رئيساً للعشيرة حيث لم يُوفّر له الحماية الكافية، مما يمثل لطمة قوية لمنزلة بنى هاشم، والتى كانت بالفعل تمر بأوقات عصيبة. وهكذا، رفض أبو طالب، لحين، أن يلتزم بشىء وأجاب رؤساء القبائل بلطف وردهم رداً جميلاً. واستمر محمد يبشر بالدين الجديد تحت حمايته.

ولكن بعد فترة عادت قريش إلى أبى طالب، منذرة، فهاجوا وقالوا: «إنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

وقد شعرت قريش أنها تُقاتل فى سبيل حياتها كاملة، والتى كانت تُقوّض كل يوم. وكانوا قد تحققوا أنه لا يوجد إمكان لإيجاد أسلوب توفيقى وأن على أحد الأطراف أن ينتصر. واستاء أبو طالب ودعا إليه محمداً وتوسل إليه أن يُنقذه ويُنقذ نفسه مُطالباً إياه ألا يُحمِّله أكثر مما يحتمل. وظنًا منه أن أبا طالب كان على وشك التخلى عنه قال له محمد وعيناه تترقرق فيهما الدموع: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته». وترك الغرفة وهو يبكى

بحرارة. ولكن أبا طالب ناداه من فوره وقال له: «اذهب يا ابن أخى، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا»(٢١).

ولحين من الزمن ظل محمد آمنا. فمادام أبو طالب قد ظل يحميه حماية فعالة لم يكن هناك فى مكة من يستطيع الإضرار به.

وكان أبو طالب من أفضل الشعراء الموهوبين فى مكة، وهنا، نظم بعض الأشعار شديدة الغضب يهجو فيها كل العشائر التى كانت من حلفاء الهاشميين التقليديين والتى انقلبت ضدهم بسبب محمد. وردت عشيرة أبى طالب بإعلانها تكافلها مع الهاشميين الذين كانوا يُمّتون لهم بقرابة وثيقة. لكن تبعت تلك الأنباء الحسنة أنباء انضمام مؤسف لصفوف الأعداء. فقد كان أبو لهب معادياً لمحمد منذ البداية. لكن، ولكى يصلح العلاقات بينهما، خطب بنتين من بنات محمد، رقية وأم كلثوم، لابنيه. لكنه بعد رفض محمد النهائى الاعتراف «ببنات الله» قرر أن يتحالف أكثر مع عبد شمس، عشيرة زوجته، وأجبر ابنيْه على ترك بنات محمد، لكن عثمان بن عفان، ذلك الشاب الأنيق الذى اعتنق الإسلام، كان معجباً منذ زمن برقية أجمل بنات محمد، وتمكن بذلك أن يطلب يدها للزواج.

وبدأ أبو لهب منذ ذاك الوقت فى العمل الوثيق مع أعداء محمد. وكان على رأس هؤلاء أبو الحكم، ابن شقيق الوليد رئيس مخزوم المُسِنّ، فأصبح الوليد قائد المعارضة ولقب المسلمون أبا الحكم بأبى جهل. وعلى المستوى الشخصى كان أبو جهل طموحاً، وربما كانت الغيرة قد تملكته من مقدرة محمد السياسية. ولكن يبدو أيضاً أن القلق تملكه من رسالة محمد الدينية. فتحالف مع رؤساء آخرين مُهِمّين مثل أبى سفيان، رئيس عبد شمس والذى كان داهية، وكان أيضاً صديقاً لمحمد ذات يوم. أما نسيبه عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة فكانا فى مقدمة المعارضين، وكذلك كان أمية بن خلف، ذلك الشيخ البدين رئيس عشيرة جُمَح. وفيما بعد انضم إليهم سهيل بن عمرو

رئيس عامر وكان من كبار الوثنيين، رغم أنه كان معتاداً ـ مثل محمد ـ الذهاب إلى الخلوة. وهكذا نجد أن سهيلاً كان متأرجحاً لأنه لابد وأنه تعرف على تيمات روحانية فى رسالة محمد. وآزر هؤلاء أيضاً بعض الشباب من أمثال عمرو بن العاص وكان دبلوماسياً نشطاً ومحارباً قديراً، وخالد بن الوليد وصفوان بن أمية. أما أكثر أعداء محمد حماساً فكان عمر بن الخطاب وكان فى حوالى السادسة والعشرين فى وقت قطيعة محمد مع قريش. وكان عمر ابن الوثنى المتحمس الخطاب، والذى قام بطرد أخيه لأمه زيد الحنيف إلى أعلى مكة، حينما شوّه سمعة دين الآباء. وكان عمر شبيهاً بأبيه، فبينما أوصى الآخرون بالحذر كعادة قريش فى الكر، كان عمر مستعداً للمجاهرة بأعمال العنف.

وكان كل هؤلاء قد فقدوا أقرباء لهم ذهبوا إلى معسكر المسلمين. واستمر القرآن يفرق الأسر بشدة. فمثلاً فقد سهيل بن عمرو ابنه الأكبر عبد الله، وابنتين له، وزوجيهما وثلاثة من إخوته وابن عمه ونسيبته سودة. فبدا الأمر وكأن محمداً يُكوّن عشيرة من نوع جديد تتألف من المنشقين الشباب الذين نبذوا الولاء الأسرى. وربما رأى أعداء محمد التضمينات السياسية لرسالته قبل أن يراها هو، فقد كان القرآن يؤكد أنه ليس لمحمد دور سياسى فى مكة. لكنهم تساءلوا إلى متى يقنع رجل يقول إنه يتلقى رسائل من الله ـ بقبول قيادة عدد أكبر من البشر العاديين أمثالهم؟ وكان بعض من هم أشدّ عداوة لمحمد قد بدءوا يقتنعون أنه لا أمل فى حل توفيقى. ولذا، فسيخرج جانب واحد منتصراً من تلك المعركة الحاسمة، ورأى الرجال من أمثال أبى جهل والفتية من أمثال عمر، وهو ابن أخته، أنه لن يوجد احتمال لحل سلمى.

غير أنهم لم يكن باستطاعتهم فعل الكثير بعد. فمادام محمد تحت حماية أبى طالب لم يكن أحد بمستطيع قتله دون التسبب فى مواجهة ثأرية بين عشيرتى بنى هاشم وأبى طالب تتضرر منها الأسرتان.

وهكذا، حاولت المعارضة فى البداية فرض المقاطعة، والقيام بأفعال السخرية. ففى حالة العبيد والمسلمين الأكثر ضعفاً كان بالإمكان مهاجمتهم دون دية، لكن كان عليهم استخدام أساليب أكثر دهاء مع أشخاص مثل محمد ممن تتوفر لهم الحماية الكافية. ويخبرنا ابن إسحق عن سياسة أبى جهل العامة فيقول:

«كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنَعَة، أنّبه وخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسفِّهنّ حلمك، ولنغيلنّ رأيك، ولنضعنّ شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسِّدنّ تجارتك، ولنُهلكن مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به»(٢٢).

أما العبيد، فقد وقعت عليهم معظم المعاناة، لأنهم لم تكن تتوفر لهم الحماية العشائرية. وكان أمية، رئيس عشيرة جُمَح، يأخذ عبده الحبشى المسلم بلالاً، فى أشد أوقات النهار قيظاً ويقيده ويتركه معرضاً للشمس وعلى صدره صخرة ضخمة. لكن بلالاً لم يهن عزمه، واستمر يُعلن الوحدانية وهو يصيح «أحد.. أحد» بينما يتردد صوته ذو القوة غير العادية فى أنحاء المكان. ولم يستطع أبو بكر أن يأخذ موقف المتفرج من عذاب بلال، فاشتراه من أمية وأعتقه. ويقال أيضاً إنه أعتق سبعة عبيد آخرين بنفس الطريقة. كما تعرض المسلمون، الذين كانوا ينتمون إلى عائلات رفيعة المستوى، للمعاناة على أيدى عائلاتهم. فمثلاً قام خالد بن سعيد، ذلك الشاب الذى اعتنق الإسلام بعد حلم رآه عن جهنم بسجنه وحرمانه من الطعام والشراب. كما أساءت عشيرة مخزوم معاملة أسرة عمار بن ياسر الذى اعتنق الإسلام، لدرجة عجلت بوفاة والدته.

ولذلك، قرر محمد البحث عن موطن آمن للمسلمين الذين كانوا يتعرضون لأسوأ أنواع العذاب، وطلب من نجاشى الحبشة المسيحى أن يُلجئ المسلمين هناك. ورغم عداوة قريش للحبشة منذ عام الفيل، فقد وافق

النجاشي. وفي عام ٦١٦م غادر ثلاثة وثمانون مسلماً مكة مصطحبين عائلاتهم، وكان يقودهم عثمان بن مظعون، وكان موحداً متقشفاً قبل اعتناقه الإسلام. وذهب أيضاً أفراد من أسرة محمد، بينهم جعفر بن أبى طالب، وابنة محمد رقية مع زوجها عثمان بن عفان. ويعتقد بعض الباحثين الغربيين المحدثين بوجود أسباب أخرى لتلك الهجرة غير الالتجاء، ويقولون باحتمال محاولة محمد فتح خط تجارة مستقل باتجاه الجنوب لهؤلاء الذين كانوا يعانون من العقوبات التجارية التى فرضها أبو جهل. وأوحى هؤلاء الباحثون أن قائمة أسماء المهاجرين تشى باحتمال وجود خلافات داخل جماعة المسلمين، وذلك لأن بعض المهاجرين - من أمثال عثمان بن مظعون وعُبيد الله بن جحش - والذين كانوا قد وجدوا بأنفسهم طريقهم إلى الوحدانية، ربما شعروا بالغيرة من التأثير الذى كان يمارسه قادم جديد نسبياً مثل أبى بكر على محمد. لكن، إن كانت تلك الخلافات هى الدافع إلى الهجرة، فلا بد وأنها لم تكن جدية، فرغم أن عبيد الله تحول إلى المسيحية أثناء وجوده فى الحبشة، فقد عاد عثمان مسرعاً إلى مكة حالما ساد الأمن واستمر فى ولائه لمحمد وأبى بكر.

وأرسلت قريش مبعوثَيْن إلى النجاشى عقب وصول المسلمين هناك تطلب منه أن يُعيدهم، فقد كان فى ذلك الخروج الجماعى تهديد لهم من نواحٍ عديدة. وأخبر المبعوثان النجاشى أن المسلمين أهانوا عقيدة مكة ومزقوا المجتمع. ودعا النجاشى المهاجرين المسلمين إليه وطلب منهم الكلام دفاعاً عن أنفسهم. فوضح جعفر الأمر قائلاً إن محمداً هو نبى الله الحق والذى أكد رسالة المسيح. ولكى يبرهن على تلك النقطة أخذ يتلو وصف حمل مريم العذراء فى المسيح:

﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما

زكيا. قالت أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغيا. قال كذلك قال ربك هو علىَّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً﴾(٢٣). (مريم: ١٦ - ٢١).

وحينما فرغ جعفر، كان لجمال القرآن أثره، فقد بكى النجاشى بشدة حتى ابتلت لحيته، وذرفت أعينُ قساوسته ومستشاريه الدموعَ على خدودهم بغزارة ابتلت معها صحفهم التى كانوا يحملونها.

وحاول المبعوثون الوقيعة بأن قالوا للنجاشى إن القرآن لا يعترف بألوهية المسيح، لكنه رفض ترحيل المسلمين إلى مكة. وكان مسيحيو الحبشة قد قلقوا من مساندة أناس كانوا يرونهم هراطقة، لذا لجأ النجاشى إلى معاملات غامضة لتبرير ذلك. والقصة، فى صورتها التى وصلت بها إلينا غير كاملة. إذ إنه ربما كانت لمحمد خطط سياسية أو اقتصادية وراء تلك الهجرة، وكانت تلك الخطط قد نسيت حينما بدأ ابن إسحق الكتابة. وربما كان وفد قريش من مكة قد وضّح للنجاشى أن المسلمين ليسوا بالقوة الكبيرة التى تخيلها، لذا لم يُساندهم بالدرجة المأمولة.

وفى تلك الأثناء استمر أبو جهل ورفاقه فى إيذاء المسلمين. وكانوا قد بدءوا فى التفكير فى اعتراضات جديدة على الإسلام وتساءلوا: لماذا اختار الله محمداً ولم يختر شخصاً أكثر منه أهمية مثل الوليد؟ ولماذا لم يأت محمد بالمعجزات؟ ولماذا ينزل الله القرآن تدريجياً بدلاً من الإيحاء به تنزيلاً واحداً مهيباً كالذى تلقاه موسى على جبل سيناء؟ ولماذا لم يرسل الله ملاكاً رسولاً بدلاً من أن يختار بشراً عادياً؟. وظن بعض من قريش أن محمداً يتلقى تدريبات على يد يهودى أو مسيحى ولا يتلقى وحياً من الله نفسه. غير أن قريشاً لم تكن تملك إلا الشكوى. وانحصر اضطهادهم للنبى وأصحابه بشكل رئيسى فى الحظر التجارى والامتهان اللفظى بعد أن رحل معظم المسلمين الذين يمكن اضطهادهم إلى الحبشة. ولقى محمد نفسه بعض المعاملة الفظة.

وفى هذا الصدد يتذكر عمرو بن العاص ـ وكان ضمن الوفد الذى أرسلته قريش إلى النجاشى والذى لم يسلم حتى وقت متأخر ـ مناسبة أهين فيها محمد فى الكعبة، فبينما كان يؤدى الطواف، كان قادة قريش يجلسون بالقرب من الكعبة يشكون قائلين إنهم «لم يواجهوا قط مثل تلك المشاكل التى يواجهونها مع ذلك الرجل، فقد أعلن أن أسلوب حياتهم أحمق، وأهان أسلافهم، ولعن دينهم، وقسم جمعهم، وسب آلهتهم. فإن ما احتملوه كان فوق طاقتهم». وكلام آخر من هذا القبيل. وبعد أن أتم محمد الطواف الثالث برفقة أتباعه، بدا وجهه مسوداً من الغضب. ثم توقف فى مسيره وواجه منتقديه قائلاً: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بالذبح».

وأصابت الكلمة الأخيرة الوقوف بالصدمة وألجمت ألسنتهم، لكنهم استعادوا بأسهم فى اليوم التالى، فقفزوا عليه عند ظهوره فى الكعبة وأحاطوا به متوعدين، وما فتئوا يعاملونه بقسوة، ويتجاذبونه من عباءته، وعند ذلك تدخل أبو بكر باكياً وقال: «أتقتلون رجلاً يقول ربى الله»؟! وهنا تركوه لحال سبيله. ثم اختتم عمرو قائلاً: «فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط»(٢٤).

ولابد أن ذلك كان مبعثاً للأسى والضيق. غير أن تلك المضايقات لم تكن عنيفة. إذ تراجعت قريش سريعاً واحتُوى العنف.

وفى الواقع فقد أتتْ تلك التصرفات بعكس ما أريد منها، حيث دفعت البعض إلى اتباع محمد. فذات يوم مثلاً زاد أبو جهل إهانته لمحمد بوجه خاص، لكنه لم يُعره اهتماماً بل جاوزه وخطا تجاه منزله. وفى وقت متأخر من ذلك اليوم حضر عمه حمزة العظيم بعد رحلة صيد وقوسه معلق فى كتفه. وكان كما يقول ابن إسحق: «أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة»(٢٥). وكان يجب أن يُنهى يومه فى الميدان بالقيام بشعائر الطواف، وبعد ذلك يتجاذب أطراف الحديث مع أى شخص يتصادف وجوده فى الكعبة.

لكن فى ذلك اليوم انتحت به امـرأة وأخبرته عن امتهان أبى جـهل لمحمد مبكراً. ولم يكن حمزة مسلماً، لكنه حينما سمع ذلك استشاط غضباً وأسرع ليجد أبا جهل فـضربه بكل قوته على ظهره وصاح قائلاً: «أتـشتمه وأنا على دينه أقـول ما يقول؟ فـرد ذلك علىّ إن استطعـت». فقامت رجـال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل. فـقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنى والله سببت ابن أخيه»(٢٦).

وقد ترك اعـتناق حمـزة الإسلام أثراً قوياً فى نفـوس قريش، ولأسـباب واضحة، فقد عرفتْ أن محمداً عزّ وامتنع.

وكان للقـرآن أكبر الأثر فى اعتناق القـوم للإسلام. ففى أثناء حـجة عام ٦١٦م، وحينمـا أتى الحجيج مكة من جـميع أنحاء الجـزيرة، زرع أبو جهل زملاءه فى جـميع منافذ المدينة كى يحـذر القادمين من محمـد. وهنا، انتاب شاعـراً يُدعى الطفيل بن عـمرو من قـبيلة دوس فى المنطقـة الغربيـة، الذعر لدرجة أنه سد أذنيه بالقطن ليتأكد أنه لن يستمع «لسحر» النبى، ولكنه حينما أتى الكعبـة ورأى محمداً واقـفاً يصلى قبـالتها، شعـر فجأة بالتفـاهة وقال: «فليباركنى الله ها أنا رجل ذكى وشاعر أعرف الفرق بين الحق والباطل تماماً، فما الذى يمنعنى أن أسـتمع لما يقوله هذا الرجل؟ فإن كان خيـراً تقبلته، وإن كان شـراً تركتـه» وتبع محمـداً الذى شرح له الدين ثم تلا آيـات من القرآن عليه. فاندهش الطفيل وصاح: «والله مـا سمعت قولاً أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه. قال: فأسلمت وشهـدت شهادة الحق وقلت يا نبى الله، إنى امرؤ مطاع فى قومى وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوْناً عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: «اللهم اجعل له آية»(٢٧). وعاد إلى قبيلته، وخلال السنوات القليلة التى تلت، اعتنقت سبعون أسرة من قبيلته الإسلام.

ويبدو أن الجمال القـرآنى الفائق اخترق تحفظات القوم. فـقد أزاح الطفيل القطن من أذنيه مختاراً بعد مقاومتـه خوفه. غير أن آخرين ثابروا غير متأثرين

وأبقوا على الحواجـز فى أماكنها. وحدث أن قررت قـريش أن تُجرّب مسلكاً جديداً، وأرسلت عتبة بن ربيعة للتفاوض مع محمد. وهنا عرضوا عليه المال والمركز وحتى الملك. وهذا إن صح، فهو يُعَـدّ مؤشراً على يأسهم: فإن المال كان ذا قيمـة شبه مقدسة لكـثير من قريش، كما كـانت لديهم كراهية فطرية لأى سلطة عليا مثل الملكية. وانتظر محـمد حتى أنهى كلامه وقال: «والآن، فلتنصت إلىّ، وجلس عتبة ويداه خلفه يتكئ عليـهما وأنصت باهتمام، بينما محمد يرتل سورة «فُصِّلَت» والتى تصف الحواجز التى يقيمها أهل قريش فى قلوبهم حتى لا تخترق الرسالة السماوية أرواحهم.

﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل فإنا عاملون ﴾[٢٨]. (فصلت: ٣ و٤).

وكثيراً ما يحدثنا القرآن عن الحـجب التى تجعل القلوب المتحجرة محصنة ضد قوة رسـالته الملحة. ولم يكن عتبـة بعد مستعـداً أن يُزيل تحفظاته. ولم يلحق بمحمـد حينما سـجد بعد أن انتـهى من التلاوة. لكن حينمـا عاد إلى صحبه فى المجلس أدركـوا فوراً أنه قدْ مرّ بتجربة هائلة. ووجـد عتبة أنه من الصعب جداً أن يصف ما حدث له حينما أنصت إلى بهاء الكلمات. فقد كان بوسعـه فقط أن يقرر ما لا تماثله تلك الـكلمات. إنها لمختلفـة عن أى إيحاء آخـر عرفـه العرب من قـبل، فلم تكن مـثل الشعـر أو تلاوات السحـرة أو إيحاءات الكهنة المبهمة. ومن المهم بمكان أن أحداً من أعـداء محمد لم يتهمه بتزييف الوحى. فقد وجدوا شيئاً غريـباً يحدث لم يجدوا له تفسيراً. وأخيراً حذّر عـتبة قريشـاً قائلاً: «ورائى أنى قد سمـعت قوله والله ما سمـعت مثله قط.. أطيعونـى واجعلوها بى... والله ليكونن لقوله الذى سمـعت منه نبأ عظيم»[٢٩].

ويمكن القول إن محمداً على ـ أحد المستويات ـ قد أتى بشكل أدبى جديد تماماً، كان البعض معدين له، بينما وجده آخرون صادماً مُربكاً. فقد كان من

الجدية وقــوة الأثر لدرجة أن وجوده فى حــد ذاته بدا إعجــازاً، خارج نطاق المقدسات الإنسانية العادية. ويتحــدى القرآن أعداء محمد أن يأتوا بمثله، فإن سماته الفــريدة كما أن محتــواه آيات تمكن البشر من الالتقــاء بالخالق بطريقة أيقونية[٣٠]. ومازال المسلمــون يخبرون بذلك الحضــور الغامض حين يرتلون القرآن أو يجلســون قبالة نصــوص من هذا الكتاب المقــدس التى تزين جدران المساجد. وقد رأينا مركزية القرآن فى روحــانيات المسلمين، تماماً مثل مركزية عيسى، كلمة الله، بالنســبة للمسيحيين. وفيما بعــد سنجد المسلمين يتحدثون بلغة إنســانية عادية عن «الكلمة غــير المخلقة» Uncreated word، تماماً مثل اللوجوس «الكلمة» أو «المسيح» فى مقدمة إنجيل يوحنا، فالقرآن إذاً، هو أكثر من أن يكون مجرد إفصاح عن معلومات متميزة، بل هو أيضاً رمز يشابه كل رموز التوراة، وشخص المسيح، وتلك الرموز التى اتخذها البشر فى الأعراف الأخرى آيات على «التواجد» الإلهى بيننا.

وحديثاً ألــهمت فكرة انبثاق «حــضور حقيقى» أو «تجــاوز للوجود المادى» بواسطة نص أو عمل فــنى، أو مقطوعات مــوسيــقيــة، نقاداً غربيــين، مثل چورج شتاينر وبيتر فوللر. فحينما يتحدث ابن إسحق وغيره من كُتاب السيرة الأوائل عن الإســـلام وهو «يدخل قلب» من يُــنصت إلى القـــرآن، ويحطم التحيزات والخوف، فإن ذلك يوحى بشىء من قبيل ما وصفه شتاينر فى كتابه «حضور حــقيقى»: «هل يوجد أى شىء فيــما نقوله؟» Real presences: Is there anything in what we say?” وهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يخبروا أى جمال فى القرآن من بيننا هم أنفسهم الذين يجدون فى موروثاتنا ما يسميه شــتــاينر «طيش، أو عــدم معــقــوليــة، أو حمــاقــة الجــاد من الفن والأدب والموســيقى»، وذلك التــوجــه هو الذى «يشكك فى خــصوصــيات وجــودنا ويضعهــا موضع التساؤل». ومثل هذا الفن، هكذا يقــول شتاينر، يتطلب منا ضمنا أن «نغــيّر حياتنا». إنهــا لقيا مع بعد لا مــادى تخترق «البيت الصــغير

لكياننا التحذيرى Cautionary»، غير أنه متى أنصتنا إلى نداءات الفن تلك، فـإن ذلك المنزل يصـبح «غـيـر قابـل للسكنى بالطريقـة التى كـان بهـا من قبل»[٣١]. إن شتـاينر لا يعتـقد فى وجود الله، ولهـذا فهـو يقول إن الفن بالنسـبة لأناس كـثيـرين يمثل الإمكانيـة الوحيـدة للتـسامى فى عـالم ملىء بالشكوك. ومن الواضح وجـود فروق مـهمـة بين نظرية شـتاينر وبين تجـربة المسلمين الذين شعـروا أن حياتهم قـد تغيرت بصورة لا عـدول عنها بواسطة جمـال القرآن. لـكن أدلة اللقاء الأولى مع الكتـاب المقدس للإسـلام توحى بقلقلة مماثلـة للأحاسـيس، ويقظة، ولمحـة ثراء مـحيـر يخـتـرق الحواجـز التحذيرية. وقـد قوبل كتاب شتـاينر بترحيب كبيـر لدى نشره، مما يوحى أنه عكس تجربة كثير من قرائه. أما نظريته فقد تمدنا بلمحة عن تأثير ذلك العمل الأدبى الكلاسيكى العربى الرائع. فمحـمد موحى إليه والقرآن ـ كنص وفعل يتجلى فيه الله ـ لابد وأن يكون من الأمثلة الأشد لفتا للانتباه عن العلاقة بين التجربة الدينية والفنية.

وبدون ذلك «الغزو» أو «البشارة»، كما يسميـها شتاينر، لم يكن محتملاً للمجـتمع الإسلامى الأول أن يمارس تلك القطيـعة المخيـفة مع الماضى، وأن ينتهك حرمة الموروث من المقدسات العمـيقة، وأن يهزم التحيزات أو الأهواء المتأصلة. فقـد تجاوبت أصداء القرآن مع شىء ما مدفـون فى أعماق العرب، وألمح القـرآن إلى مـوجودات خـارج نطاق النص، تمامـاً كـتلك الآيات التى يصفهـا. وهكذا استطاع الوصول إلى تلك الخـصوصيات العمـيقة، مشـجعاً المسلمين على تغييـر حياتهم على مستـوى أشد عمقاً من المستـوى العقلانى. ويقول المسلمون الآن إن إعجاز القرآن يتجلى فى استطاعته ممارسة ذلك التأثير حتى يومنا هذا، حتى على هؤلاء الذين يتكلمون لغـة غير العربية. وفى هذا الصدد يشيـر الباحث الإيرانى المتميـز سيد حسين نصـر إلى أن القرآن مازال حتى الآن يتطلب من المسلمين تغـيير حياتهم. ويرى أن الآيات المتشظيـة غير

متـرابطة المعنى المنطقى ـ وخاصـة فى السور الأولى ـ فتـمثل اللغة الإنسـانية وهى تتشظى تحت ثقل الكلـمة المقدسة، كـما أنها أيضاً تعكس تفكك حـياة الفرد نفـسه. ولكى يكتـشف الإنسان المعنى الأعـمق الذى يرمز إليـه القرآن فلابد للمسلم أن يدمج أجزاء حيـاته. فقراءة القرآن، أو الإنصات إليه، ليس مجـرد تجربة عقلية لاسـتخلاص المعلومـات أو لتلقى الإرشاد الواضح، لكنه تنظيم روحـانى. أما عـملية التـأويل، فـما هى إلا بحث عن مـعنى باطنى يتطلب من الفرد أيضاً أن يخترق أعمـاق نفسه أو نفسها. ولفظ تأويل، يعنى حرفـياً إرجـاع الشىء لأصوله أو بداياته. ويتطلب القـرآن من المسلمين حين قراءتهم القرآن أن ينتـقلوا من المستوى الظاهر إلى الباطن الخـفى لكيانهم فى محاولة لاكتشاف الأساس أو الأصل(٣٢).

ومن الطبيعى أن تجربة الشخصى الغربـى ستكون مختلفة تماماً. ليس فقط لأن الترجمات لا يتواجد بها جمال العربية الأصلى، لكن التجربة المشار إليها تتطلب توجهـاً غريبـاً على معظمنا. فلأن يحـد المرء نفسه بـالقراءة الظاهرية العقلانية دون أن «تلكزه» خاصية العربية التى تدفعه للبحث عن المقدس، غير المنطوق به، خارج نـطاق النص الكلامى، فغالبـا ما تكون التـجربة مقـفرة. وخاصـة أن القراءة تتم بروح عـدائية ومن منظور استـعلاء مـتخيل، كـحالة جيبون مثلاً، وتلك الروح ليست بالروح المبدعة المتلقية التى قد ينجم عنها أى تجربة خيالية.

وفى نهـاية عام ٦١٦م، تسبـب القرآن فى اعتنـاق شخص بعيـد عن كل التوقعات ـ الإسلام. فبعد أن قرر أن الوقت قد حان لقتل محمد، أخذ عمر ابن الخطاب يقطع شـوارع مكة وسـيفـه فى يده فى اتجـاه منزل أسفل جـبل الصفاة حيث كان يعلم أن محمداً يقضى فترة ما بعد الظهيرة. ولم يكن يعلم أن أخته فاطمـة وزوجها سعيد (ابن زيد الحنيف)، وقد ظنوا عمـر بعيداً، قد دعوا حداداً مسلماً يدعى خبـاب بن الأرت ليتلو عليهم أحدث السور تنزيلاً.

لكن وبينما هو متوجه إلى جبل الصّفاة، استوقفه شخص من عشيرته كان قد اعتنق الإسلام سـراً، ولكى يصرف عمر عن هدفه، أخبـره أن يعود لينظر ما يحدث بمنزله. وهرول عـمر آيباً، وسـمع كلمات القرآن تـنبعث من منزله، فصاح وهو يدخل «ما هذه الهينمة التى سـمعت؟». وأسرع خباب يختبئ فى غرفة علوية بينمـا اندفع عمر نحو فاطمـة وسعيد، وضرب أخـته وألقى بها أرضاً. لكن يبدو أنه شعر بالخجل عندما رأى دماءها تسيل. وعلى أية حال، فقد اعترى التغيّر وجهه. والتـقط الصحيفة التى كانت قد سقطت من خباب فى عجلتـه. وبدأ فى قراءة الآيات الأولى من سـورة طه، وكان أحـد أفراد قريش القليلين المتـمكنين من القراءة والكتـابة. ثم صاح متـعجباً وقـال: «ما أحسـن هذا الكلام وأكرمـه». وكمـا صرع تجلى المسـيح ـ كلمة الله ـ سـول الطرسـوس، صرع جـمال القـرآن نظيره المسـلم عمـر، فقـد تخلل تحيـزاته وكراهيته المتقـدة، وأثر فى حسه الداخلى والذى لم يكن هو يدرى بوجوده، وفوراً، أمـسك عمـر بسيـفه مـرة أخرى وهرول فى شـوارع مكة تجاه جـبل الصفاة، واندفع إلى داخل المنزل الذى يوجد به مـحمد وأمسك به من ردائه. فصـاح به محـمد: «ما الذى جـاء بك يا ابن الخطاب؟» وأجاب عـمر: «يا رسول الله، لقد جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله»(٣٣). فكبّر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم.

لكن ابن إسحق سجل رواية أخـرى عن إسلام عمر جديرة بأن نستـشهد بها. فـلقد كان عـمر فى زمن الضـلال سكيراً وكـانت متـعته الكبـرى تلك الصولات التى يقوم بها فى أنحاء السوق. فى أحد الأيام تغيّب كل رفاقه فى الشراب، وفكر عـمر أن يمضى وقتـه مؤدياً الطواف حـول الكعبة، وحـينما وصل إلى هناك رأى محمـداً قائماً يصلى يتلو القرآن بصوت خـفيض، وقرر أنه يريد أن يسمع الكلمـات. ومن هنا زحف عمر تحت ستار الـكعبة وتسلل حولها حـتى أخذ موقفـه قبالة محمـد. وكما قال: «ما بينـى وبينه إلا ستار

الكعبة». وهناك تهاوت كل دفاعاته إلا واحداً. وسرى مفعول «سحر» العربية لغة القرآن، وقال عمر: «فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت ودخلنى الإسلام»(٣٤)، ولم يكن عمر أبداً من ذوى أنصاف الحلول، ففى الصباح التالى قرر أن يُبلغ أبا جهل بالأخبار وذهب إلى وكره وصاح أبو جهل مبتهجاً وهو يفتح الباب: «جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب بوجهى وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به»(٣٥).

وكما لنا أن نتخيل، فقد كان إسلام عمر القشة الأخيرة، وخاصة أنه رفض تأدية الصلاة فى السر، وسجد أمام الكعبة فى حضور الجميع. ولم يحتمل أبو جهل وأبو سفيان مشاهدته، لكن لم يكن فى أيديهم ما يفعلونه، لأن عمر كانت تحميه عشيرته عدى. وهنا، حاول أبو جهل أن يُجيع محمداً كى يستسلم. وفرض المقاطعة على عشائر هاشم وعبد المطلب. وتمكن من أن يجعل جميع العشائر تُوقع معاهدة كى يتحدوا ضد خطر الإسلام. وهكذا، حظر التزاوج أو الاتجار مع تلك العشيرتين الخارجتين على القانون، وكان ذلك يعنى ألا يبيع لهم أحد طعاماً. ولكى يحافظوا على أمنهم، انتقل كل أفراد بنى هاشم وبنى عبد المطلب للسكنى فى ناحية عشيرة أبى طالب، التى أصبحت «جيتو» صغيراً. وحين وصل محمد وخديجة إلى هناك، غادر أبو لهب وعائلته المنطقة واتخذوا مسكناً فى ناحية عبد شمس واستمر الحظر عامين. أما أبو طالب فقد رفض وأعضاء عائلته - الذين لم يُسلموا من منطلق المبدأ المحض - أن ينبذوا أقاربهم. ولم يكن للحظر شعبية خاصة بين الأقوام والعشائر الأخرى، التى لها أقارب بين عشيرة بنى هاشم وعبد المطلب، والذين لم تُطاوعهم ضمائرهم أن يتركوا أهليهم يموتون جوعاً. وكان المسلمون من أمثال أبى بكر وعمر، والذين كانوا ينتمون إلى عشائر أخرى، يرسلون الطعام والإمدادات بانتظام إلى الجيتو، كما كان يفعل ذلك أيضاً

أقرباء وأصدقاء آخـرون. وكان أحدهم يدعى هشام(*) بن عمرو، وله أقارب عديدون فى بنى هاشم، وكثـيراً ما كان يرسل بعيراً محـملاً بالإمدادات ليلاً إلى نزل أبى طالب(**)، وكان يضرب الجـمل على مؤخرته ويرسله فيـتهادى فى الطريق. وفى إحـدى المرات، اسـتوقف أبو جـهل حكيم بن حـزام ابن شقيق خديجة فى طريقـه إلى الشِّعب، وفى يده قمح، وارتفع الجدل العنيف بينهما، وهنا لحـقهما أحد المارة وأخذ جانب حكيـم، وسأل أبا جهل إن كان فعـلاً يعتزم منع رجل يحـمل الطعام إلى عـمته. وظل أبو جـهل سادراً فى رفضه إطلاق حكيم، فضربه الرجل بعظم فخذ بعير وألقاه أرضاً.

وفى أثناء الأشهـر الحرم التى يحرم فيـها القتال، كـان باستطاعة محـمد والمسلمين مغـادرة موقعهـم والذهاب بانتظام إلى الكعبة، وهناك كـان يصبح هدفـاً لإهانات جديدة. وكـانت امرأة أبى لهـب ـ والتى كانت تظن نفـسهـا شاعرة ـ مغرمة بقذف الـنبى بالأشعار المهينة عند مروره. وفى إحدى المرات، ألقت بحمل من الحطب الشـائك فى طريقه. وربما كانت تلك مناسـبة تنزيل سورة المسد:

﴿ تبت يدا أبى لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيـصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. فى جيدها حبل من مسد ﴾.

وربما رأى أولئك الذين نشـئوا على تعاليم «وعظـة الجبل»، أن محـمداً، بعدم إدارته الخدّ الآخـر لهم، أعطى مثلاً سيـئاً. لكننا نجد فى الإنجـيل نفسه عيسى يلعن أعداءه بعبارات واضحة. وقد تنبأ بمصير رهيب لمدينتى بيت صيدا وكوارزيم، والتى لم تستمع لكلماته. كما أنه ـ وكما جاء فى إنجيل متى ـ قام بسب الفريسيين Pharisees، والسدوسيين Sedducees بهجاء عنيف يعـتبر

(*) ورد هذا الاسم خطأ فى النص الإنجليزى متكرراً فى هذا الفصل، وقد كتب (Hishim)، (المحرر).

(**) المقصود أنه يرسل البعـير إلى شِعْب بنى هاشم وبنى المطلب، وقد ذكرت المؤلفة مـنزل أبى طالب، فقد كانوا جميعاً فى شِعب واحد. (المحرر)

تشهيراً بدون شك. ومن ثم نجد نوعاً من التشدد الجديد فى القرآن فى تلك الفترة. فنجده يُنبئ دوماً بكوارث تحل على مكة التى رفضت الإصغاء إلى كلمة الله. ويبدو أن معرفة المسلمين بكتب اليهود بدأت تتسع فى تلك الفترة لأن القرآن أتى بقصص جديدة عن الأنبياء السابقين من أجل تعزية المسلمين وإنزال الطمأنينة عليهم، والتى هدفت ـ طبقاً لأسلوب الخطاب المستعمل ـ إلى إثارة حب الاستطلاع، فإن تلك القصص غالباً ما تبدأ هكذا «هل أتاك حيث موسى؟» و«هل أتاك نبأ فرعون؟» وكان موسى أكثر الشخصيات شعبية إبان الحظر. فالقرآن يشير مرات ومرات إلى أنه قد تم تحذير فرعون ليطيع كلمة الله، لكن المصريين رفضوا الإنصات وتم عقابهم. غير أن أنبياء آخرين مثل يوسف ونوح ويونس ويعقوب وعيسى قد حذّروا أقوامهم بأن عليهم أن يتبعوا الصراط المستقيم ليوجدوا مجتمعات عادلة متراحمة، إن كانوا يريدون النجاة من سوء العقاب. وتضمّن القرآن أيضاً الأنبياء الذين لم يذكروا فى التوراة مثل هود وشعيب وصالح الذين أرسلهم الله للشعوب العربية القديمة، مثل عاد ومدين وثمود، بنفس الرسالة.

وكانت معرفة محمد بالإنجيل والتوارة مازالت محدودة. كما أننا نجد فى القرآن الأنبياء الذين يبجلهم العرب مذكورين على قدم المساواة مع أنبياء التوارة والإنجيل. وتعكس قصص الأنبياء فى القرآن وضع محمد والمسلمين الأوائل فى مكة وتختلف كثيراً عما تعكسه القصص الإنجيلية كما وردت فى الكتاب المقدس. فمثلاً تعطينا قصة نوح فكرة واضحة عن المصاعب التى عاناها محمد مع كبراء مكة والمعارضة التى واجهوا بها نبوته:

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين. إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾.

(المؤمنون: ٢٢ ـ ٢٤).

غير أنه ـ وكما رأينا ـ فالقرآن يرى كل القصص آيات، ترمز إلى علاقة الله مع البشر، وليست مجرد سرد للأحداث كما وقعت. كما يحاول القرآن استخلاص النتائج من أحداث تلك القصص القديمة التى عرفها العرب ليصل إلى لب الرسالة.

ومن ثم، فبعد أن يرفض نوحاً قومُه، يأمره الله ببناء السفينة، ويغرق كل من لم يتبع نصحه. كما أنه فى تلك الفترة يصور القرآن يوم الحساب حدثاً مهيباً يفصل الله فيه المؤمنين عن غير المؤمنين فى مشاهدة شديدة الرمزية، والتى هى: ﴿**آية لمن خاف عذاب الآخرة**﴾[٣٧]. غير أن القرآن يبين أن ذلك العقاب ليس جزافاً. فكما ينص القرآن ﴿**فما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب**﴾[٣٨] (هود: ١٠١)، فكما جلبت المدائن والأقوام الذين رفضوا الاستماع إلى تحذيرات الأنبياء دمارهم على أنفسهم، فإن على مدينة مكة أن تتوقع كارثة لأن قريشاً رفضت إصلاح حياتها وإقامة مجتمع طبقاً للنظام الحق.

ولكن رسالة القرآن فى ذلك الوقت لم تكن كلها دماراً وخراباً. فالقرآن دائماً يحث المسلمين على الصبر وعلى تحمل معاناتهم بجلد وكرامة. كما أنه يوضح أن عليهم ألا يتحينوا الفرص للانتقام الشخصى من أعدائهم. وأيضاً، فقد أمدته قصص الأنبياء السابقين بالسلوى بتوضيحها أن عقيدتهم ليست ابتكاراً متفرداً حتى ولو بدوا وكأنهم يديرون ظهورهم لآبائهم، فإن لهم نسبهم الروحى الذى يصل إلى آدم، أول الأنبياء الذى علم البشر الطريق الحقة للحياة. ووضحت لمحمد فى تلك الآونة معارضة قريش له على طول الخط حتى بين أولئك الذين كانوا أقل تصلباً من أبى جهل.

وبعد فرض الحظر بوقت قليل، قدم إلى محمد وفدٌ صغير يقوده الوليد المخزومى المبجل على أمل الوصول إلى حل سلمى. وكان اقتراب الوليد من

الموت ـ بحكم سنه ـ يقلل من احتمال وجود خطر من محمدٍ عليه. كما ضم الوفد ثلاثة من قادة عشائر شمس وأسد وجُمَح، وكانت تلك العشائر أعضاء فى حلف الفضول، وربما أن تلك العشائر قد أصابها القلق من السطوة التى يمنحها الحظر لأبى جهل فى مكة. وقد يكونون قد تحققوا من قدرات محمد الكامنة ومقدرته على إنعاش مقادير العشائر الأضعف.

واقترح الوفد حلاً توفيقياً، وهو أن يعبد المسلمون الله، بينما يستمر الآخرون فى عبادة اللات والعُزّى ومناة. ولكن محمداً قد درس الأمر بدقة، ونزلت سورة الكافرون:

﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولى دين﴾. (سورة الكافرون).

وبدأ الوضع يتحسن فجأة بالنسبة للرسول بعد عامين من فرض الحظر، وبدا وكأن الحزم قد آتى كله. فقد أخذ الحظر يفقد شعبيته بشكل متزايد. فلم تكن التقاليد العربية تسمح أن يتساقط القوم جوعاً بينما يقف ذووهم موقف المتفرجين. وهكذا، فقد أخذت تصلهم إمدادات منتظمة من الطعام بصفة غير منتظمة. وأخيراً، قام أربعة من قريش تربطهم صلة قرابة وثيقة بأفراد من بنى هاشم وبنى المطلب بالتخطيط لإنهاء الحظر. وبدأ هشام بن عمرو ـ وكان قد أرسل بعيراً محملاً بالإمدادات إلى نزل أبى طالب ـ بتحريك دعم لإنهاء المقاطعة. وتمكن من أن يجد أربعة آخرين يتماثل فكرهم مع فكره، وقرروا أن يحاولوا إجبار أبى جهل على الإذعان. وكان ثلاثة من هؤلاء ـ وهم: مُطعم بن عدىّ، وأبو البَخْترىّ بن هشام، وزَمعة بن الأسود ـ يفتحون لعشائر الحلف. وقد يكون هؤلاء قد شعروا بالقلق لتصاعد سطوة المخزوميين ـ عشيرة أبى جهل ـ فى مكة أثناء المقاطعة. كما أن الشخص الرابع، وهو زهير

ابن أبى أمية ـ والذى كانت تربطه قرابة بأبى طالب ـ كان مخزومياً، واتفقوا على أن يبدءوا المفاوضات.

وفى اليوم المحدد، ارتدى زهير عباءة بيضاء طويلة، وأدى الطواف بوقار حول الكعبة. وبعد انتهائه من الطواف، أقبل على الناس مخاطباً كبراء مكة: «أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يُبتاع منهم؟»، وعارضه أبو جهل غاضباً لكن الرجال الأربعة الآخرين تحدثوا مؤازرين اقتراح زهير. وأخيراً خطا مطعم بن عدى نحو الكعبة ليبحث عن الصحيفة التى وقعتها العشائر لفرض المقاطعة، وقيل إن القوم انتباهم خشوع عميق حين اكتشفوا أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة ولم تترك سوى الصيغة الافتتاحية التى تقول «باسمك اللهم». وهنا أصروا على العدول عن المقاطعة.

ولابد أن جماعة المسلمين قد ابتهجت ابتهاجاً شديداً، فقد بدا أن أوقاتاً أفضل قد بدأت.. وسمع مجتمع المنفيين فى الحبشة الأنباء، وقاد عثمان بن مظعون ما يقرب من ثلاثين عائلة عائدين إلى مكة، تاركاً الباقين مع جعفر ابن أبى طالب. وسُرَّ محمد وخديجة للقيا رقية وزوجها عثمان بن عفان. لكن عودة المهاجرين كانت متسرعة. فقد كان من الحتمى أن يستتبع الحظر معاناة رغم سبل الإمدادات غير القانونية. وفى أوائل عام ٦١٩م حدثت وفاة جعلت وضع محمد فى مكة مستحيلاً.

الفصل السابع
الهجرة: قِبْلَةٌ جديدة

أحياناً ما يطلق كُتَّاب السيرة النبوية على عام ٦١٩ عام الحزن، إذ توفيت فيه خديجة، بعد فترة قصيرة من رفع الحصار المضروب على المسلمين، وكانت قد تخطت الستين من عمرها، ومن المحتمل أن نقص الطعام قد أضر بصحتها ضرراً لم يكتب لها أن تبرأ منه. وكانت أقرب رفقاء محمد إليه، وكان من المحال على أى أحد أن يشغل الفراغ الذى تركته بعد وفاتها، بل لم يستطع حتى أبو بكر الصديق، على إخلاصه، أو عمر بن الخطاب، على وقدة مشاعره، توفير اللون الخاص من المؤازرة الحميمة الذى كان محمد يجده عند خديجة، ولابد أن فَقْدها أثّر فيه تأثيراً عميقاً. ولم تَنْقَضِ فترة طويلة حتى توفى شخص آخر، وكانت لوفاته آثارها العملية، إذ أصيب أبو طالب بمرض عضال واتضح أنه لن يشفى منه. وقامت قريش، قبل وفاته، بمحاولة أخيرة لإقرار السلم. فرغم جميع الضغوط التى تعرض لها، كانوا يعلمون أن أبا طالب قد سلك مسلك السيد العربى الحقيقى بمناصرة ابن عشيرته مناصرةً لم يتزحزح عنها، ومن ثم قام أبو جهل بتشكيل وفد من قريش، يرأسه بنفسه، وذهب بالوفد إلى أبى طالب، وكان آنذاك طريح الفراش؛ طلباً للمصالحة، وقال أعضاء الوفد إن محمداً ما عليه إلا أن يعترف بدينهم حتى ينصرفوا عنه. ولكن محمداً كان قد حسم هذه القضية قبل ذلك بعامين وأخبر قريشاً أن الله هو الإله الأحد. وغضب الجميع غضباً شديداً وانصرفوا وهم يعلنون عن تحديهم له ويزعمون أن الله نفسه سوف يحكم بينهم وبين محمد.

وبعد انصرافهم، دُهش محمد عندما قال له أبو طالب إنه كان محقاً فى رفضه ذلك الحل الوسط، ومن ثم توسل إلى عمه أن يخطو خطوة أخرى

ويعلن إسلامه لله. ولكن أبا طالب قال له برفق إنه إن أعلن إسلامه فلن يكون ذلك إلا إرضاء له. وقال إنه سوف يموت كما عاش على دين آبائه. وفى اللحظة الأخيرة، لاحظ العباس أن شفتى الرجل المحتضر تتحركان وأخبر محمداً أنه كان فيما يبدو يقرأ الشهادة. ولكن محمداً هز رأسه، إذ كان يعرف أن أبا طالب لم يدخل الإسلام.

كان أبو لهب هو رئيس بنى هاشم الجديد، وكان ذلك أمراً بالغ الخطورة لمحمد، ولكن أبا نهب قدم له فى البداية قدراً من الحماية. وكان ذلك أمراً متوقعاً منه باعتباره الرئيس الجديد، ولكن تلك الحماية لم تكن على نفس المستوى من الفاعلية التى تميزت بها حماية أبى طالب، لأن الجميع كانوا يعلمون أنه كان يقدمها مرغماً ومن ثم استغلوا ما أصاب محمداً من ضعف جانب، وبدأ جيرانه يلعبون ألاعيب بالغة القبح برحم الشاة، فكانوا يطرحونها عليه وهو يصلى بل إن أحد اللاهين طرحها ذات يوم فى بُرمته إذا نصبت له، وهى القدر التى يطهو فيها الطعام. وبينما كان يسير ذات يوم فى المدينة اعترضه سفيه شاب من سفهاء قريش، نثر على رأسه تراباً، فلما عاد الرسول ودخل بيته والتراب على رأسه، قامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، وهو يقول لها: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك»، وكان يقول بين ذلك: «ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»[1].

وقد يكون الضعف الذى أصاب محمداً قد أثر فى موقف المسلمين الآخرين، فقد أدى الحصار المضروب عليهم إلى أن تكبد أبو بكر خسارة اقتربت به من الإفلاس إذْ انخفض رأسماله من ٤٠٠٠٠ درهم إلى ٥٠٠٠ درهم. وكان يعيش فى حىّ بنى جمح، وكانت علاقته قد ساءت منذ أن اعتنق الإسلام برئيس العشيرة، وكان هرماً بديناً يدعى أمية بن خلف. وكان أمية يحب أن يُعرّض العبد المسلم الذى يملكه، واسمه بلال، لحر الشمس

اللافح فى الفتـرة الأولى لاضطهاد المسلمين، لكنه شعـر الآن أنه يستطيع أن يفعل الفعلة نفسها بأبى بكر وهو التاجر المبجل، ومن ثم ربطه هو وابن عمه الذى كان يصغره فى السن، واسـمه طلحة، فى قيد واحد وتركـهما يكتويان بالشمس الحارقة فى ذلك الوضع المشين. وكان ذلك دليلاً على أن عشيرة تيم التى ينتميان إليـها لم تعد على استعداد بل لم تعد لديهـا القدرة على حماية أبى بكر، ومن ثم أدرك أنه لم يعد له مستقبل فى مكة. وهكذا غادر المدينة، بعد موافقة النبى محمد، وانطـلق ليلحق بالمهاجرين فى الحبشة. ولكنه التقى فى الطريق مع ابن الدُّغُنَّة(*)، زعيم مجموعة صغيرة من القبائل الرّحل (التى كانت تسمى الأحابيش) والتى كانت من حلفاء قريش. وذُعر ابن الدغُنَّة حين سمع أن أبا بكر قد اضطر للخروج من مكة، شبه طريد، واقترح عليه العودة مـعه على الفـور، قائلاً إنـه سوف يتـولى حمـايتـه بنفسـه. ووافق أبو بكر مسـروراً، وكان عـلى قريش فى حـرصهـا على إرضاء ابن الدغنة أن تقـبل الوضع الجديد، ولو أنها طلبت من البـدوى أن يضمن أن أبا بكر سوف يمتنع عن الصلاة أو قـراءة القرآن علناً، وقالت قريش إن أبا بكر يتـمتع بشخـصية ساحرة والأرجح أنه سوف يفتن الشباب ويصرفهم عن دين آبائهم. وقبل ابن الدُّغُنَّة هذه الشروط ووعده أبو بكر ألا يؤدى الصـلاة إلا فى منزله بعيداً عن العيون.

ولكن نفراً آخر كـان يرفض التكتم. وكان منهم عثـمان بن مظعون(**)، وكان زاهداً من بنى مخـزوم، وكان يتمتع بالجوار، أى الحـماية، التى يوفرها له الوليد بن المغيرة، وكانت تكفل له القوة والمنعة، فقال إنه «نقصٌ» فى نفسه أن يغدو آمنـاً و«أهل دينى يلقون من البـلاء والأذى فى الله ما لا يصـيبنى»،

(*) تكرر وروده فى النص الإنجليزى "Ibn Dughumma"، والصواب ما أثبتناه (المحرر).

(**) ورد اللفظ خطأ فى النص الإنجليزى "Ma'zum". . (المحرر).

ومن ثم ذهب إلى الوليد وأعلن أنه «يرد إليه جواره»، مما أصاب الرجل الهرم بحيرة واضحة. وبدا له أنها فرصة رائعة للتكفير عن نفسه طائعاً مختاراً، ولكن ذلك كان أقرب إلى الورع المسيحى منه إلى التقوى الإسلامية. ففى أيام اضطهاد الرومان للمسيحيين كان بعض المتحمسين لدينهم يكشفون عن عقيدتهم طوعاً للسلطات، رغبة منهم فى الاستشهاد، ولكن محمداً لم يكن يرضى بمثل ذلك التطرف. بل إن ذلك لم يكن يتفق مع التقاليد العربية، فالحياة فى بلاد العرب كانت شاقة وعسيرة دون التعرض للمزيد من الأخطار والمعاناة. وبعد أيام معدودة حضر عثمان بن مظعون مجلس إنشاد للشعر الذى يلقيه لبيد بن ربيعة، وكان أكبر شعراء عصره. وكانت قريش تشعر أن زيارة لبيد لبلدهم تمثل تكريماً وتشريفاً لها، ومن ثم هالهم ما فعل عثمان مع الشاعر، فعندما أنشد لبيد:

ألا كل شىء ما خلا الله باطلُ

قال عثمان: «صدقت» ولكنه عندما أكمل البيت قائلاً:

وكل نعيم لا محالةَ زائلُ

صاح عثمان: «كذبت! نعيم الجنة لا يزول»، وكان ذلك سلوكاً لا يُغتفر إزاء ضيف مُكَرَّم، فأحس لبيد بأنه قد أُهين إهانة بالغة، فقال: «يا معشر قريش! والله ما كان يُؤْذَى جليسُكم! فمتى حدث هذا فيكم؟» فقال رجل من القوم: «إن هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تَجِدَنَّ فى نفسك من قوله»، ولكن عثمان واصل إهاناته، فقام ذلك الرجل فلطم عينه فَخَضَّرها، وكان الوليد بن المغيرة شيخاً مهذباً ولابد أنه كان يشهد ما يجرى بأسى وأسف، فقال: «أما والله يابن أخى، كانت عينك عما أصابها لغنيَّة، لقد كنت فى ذمة منيعة». ولكن عثمان أدار لهم خده الآخر بروح التحدى، قائلاً: «إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله»[٢]. وقد حرص محمد على التبرؤ من تلك الحادثة التى يمجُّها الذوق السليم، ولم

يكن ليوافق على انتهاك مبادئ المجاملة على هذا النحو، ولابد أنه قد أحس أن آخر ما كان يحتاج إليه هو ذلك اللون من الاستفزاز.

ثم وقعت الأزمة. إذ حفز أبو جهل أبا لهب على أن يسأل محمداً إن كان أبوه عبد المطلب، الذى كان يحب محمداً ويعتز به اعتزازاً شديداً فى طفولته، قد دخل النار. كان السؤال خدعة، إذ كان محمد يقول بما يقول المذهب المسيحى اليهودى من أنه لا نجاء إلا لمن اعتنق الإيمان الصحيح. ولم تكن لديه إجابات جاهزة للتهرب من مثل تلك الأزمة، وهى الإجابات المتحررة اللطيفة التى ابتدعها أصحاب التوحيد فى السنوات الأخيرة. فإذا قال محمد إن الوثنية القديمة تستطيع أن تخلّص رجلاً مثل عبد المطلب وتنجيه من النار، فسوف يكون رد قريش أنه من الطبيعى فى هذه الحال ألا تكون فى حاجة إلى إلغائها. أما إذا أقر بأن عبد المطلب لن ينجو من النار، فمن المحتمل أن ينزع أبو لهب حمايته عنه بعد أن أهان ذكرى أحد الأسلاف الذين يتمتعون بالحب والإعزاز.

كان على محمد أن يجد سنداً جديداً يحميه، وبلغ به اليأس أن حاول أن يجد هذا السند فى الطائف، مدينة اللات. وكانت الطائف بلدة تجارية مثل مكة، وإن لم تبلغ ما بلغته مكة من نجاح، ولكنها كانت تقع فى منطقة أكثر خصباً من بلاد العرب، ولابد أن محمداً قد مر فى طريقه إلى المدينة التى تحيط بها أسوارها على الجبل، بحدائق غنّاء، وبساتين لفّاء وحقول حنطة جميلة. وكان كثيرون من أبناء عشيرة عبد شمس، ومن بنى هاشم - عشيرة محمد نفسه - يملكون مساكن يقضون الصيف فيها فى الطائف، ومن الجائز أن محمداً كان له بعض المعارف فى المدينة. ولكن المحاولة كانت تكتنفها الأخطار، لأن بنى ثقيف، الذين كانوا يتولون الوصاية على المعبد القديم، لابد أن يشعروا بإهانة بالغة حين يهاجم محمد عبادة اللات. وقام محمد بزيارة ثلاثة إخوة فى المدينة وطلب منهم أن يقبلوا دينه ويجيروه، ولكنه لقى

منهم الصدود، بل لقى جفاءً مهيناً. بل لقد بلغ بهم الحنق على محمد الذى تجاسر على اقتراح ما اقترح، أن أمروا عبيدهم بتعقبه والصياح به فى الطرقات.

وتفادياً لعبث الغوغاء، لجأ محمد إلى بستان يحتمى به، وكان مالكا البستان، وهما عُتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة، جالسيْن فيه وقد شاهدا ما لقى من سفهاء أهل الطائف. ومع أنهما كانا فى طليعة مُعارضى محمد فى مكة، فقد كانا من أصحاب العدل والإنصاف وساءهما أن يريا أحد أبناء قريش وهو يفرّ من السفهاء هذا الفرار المهين. وأرسلا إليه عبداً صغيراً بطبق فيه قطف من العنب. وكان محمد وهو قابع فى البستان يحس أنه قد استنفد كل طاقاته، ولابد أنه افتقد خديجة واشتاق إليها شوقاً جارفاً فى تلك اللحظة، فكان ما يؤلمه الآن هو الألم الذى طالما نجحت فى مداواته، ولابد أن أحس أنه فى مسيس الحاجة إلى مشورتها ونصحها. ولقد كان من عادة العرب أن «يستعيذوا» (أى أن يلجئوا ويعتصموا) بأحد الأرباب أو أبناء الجن عندما تُلمُّ بهم مُلمّة، ولكن محمداً الآن استعاذ بالله قائلاً:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقتْ له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[٤] (ابن هشام ـ ص ٣٨٥ و٣٨٦).

ومثل تلك الرواية الدقيقة للحالة النفسية التى انتابت محمداً غير مألوفة فى سيرة ابن إسحق، مما يُشتمّ منه أنها كانت تمثل أزمة فى تطوره الروحى،

إذ لم يعد يعتمد على الصحبة البشرية، وكان عليه أن يركن إلى عقيدته فلا رب ولا أمان ولا «مجير» إلا الله.

وقد استجاب الله دعاءه، على الفور فيما يبدو، حين أرسل إليه «آية» تتمثل فى عداس، العبد الصغير، حاملاً طبقاً فيه قطف العنب. وكان عداس نصرانياً من مدينة نينوى فى العراق الحديث، وقد دُهش عندما رأى ذلك العربى يبارك الطبق «باسم الله» عندما وضع فيه يده. ودهش محمد كذلك وفرح عندما علم أن عدّاساً من بلدة النبى يونس بن متّى، وقال لعدّاس إنه هو أيضا نبىّ ومن ثم فهو أخٌ ليونس. وبلغ التأثر بعداس مبلغه فأكَبَّ يقبّل رأس محمد ويديه ورجليه، مما أزعج عتبة وشيبة اللذين كانا يرقبان ما يحدث، وكان ذلك مثالاً آخر على قوة تأثير محمد الغامضة فى الشباب. ولكن محمداً شعر بأن عزلته قد انحسرت بعد ذلك الاتصال مع واحد من أهل الكتاب، وبعد أن ذكّرته بالناس جميعاً خارج بلاد العرب ممن يستطيعون فهم دعوى نبوته حتى لو لم يستطع ذلك عرب الحجاز. وقيل إنه لقى المزيد من العزاء والسلوى وهو فى طريق العودة إلى مكة حين استمع إليه نفر من الجن وهو يقرأ القرآن، فبهرهم جماله(٥).

ولكن «الاستعاذة» أو الاستجارة بالله لم يكن معناها أن محمداً كان قادراً على الاستغناء عن حماية البشر، فالقرآن يقول بوضوح وجلاء إن على المسلمين أن يبذلوا كل جهد بشرى ممكن لرعاية أنفسهم، وألا يتواكلوا تاركين كل شىءٍ لله، ﴿**إن الله لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾(٦) (الرعد: ١١). وهذه آية يحب المسلمون المشتغلون بالكفاح السياسى اليوم أن يستشهدوا بها. وقبل أن يدخل محمد مكة أرسل إلى ثلاثة من رؤساء العشائر الأخرى يعرض عليهم التحالف معه، إذ إن الخطر الذى يواجهه فى مكة كان سيزداد حتماً، حين يبلغ قريشاً أنه على استعداد للهجرة إلى الطائف، ورفض التحالف اثنان من الرؤساء الذين خاطبهم، وهما الأخنس

ابن شَرِيق الزُّهرى، وسهيل بن عمرو العامـرى، لأسباب تتعلق بمبادئ الحياة القبلية(٧)، ولكن الثالث واسمه مُطْعِم(*)، شيخ بنى نوفل، وكـان قد كافح لرفع الحصار، أعلن قبوله إجارة محمد ومن ثم تمكن النبى من دخول مكة.

ولكن هذا الحل لم يكن يمكن أن يصبح حـلاً طويل الأجل، فبدأ مـحمد فى نحـو تلك الآونة فى الدعـوة لدينه بين حـجاج البـدو فى مـواسم الحج السنوية، آمـلاً أن يجد مـجيـراً دائماً بينهم. أى أنه كـان قد بدأ فى توسـيع رسالتـه لنشرها بين غيـر أهل مكة من العرب. ولكن البدو كـانوا فى البداية مُعْـرِضين، بل أظهروا العـداء والميل إلى إهانة محـمد، ولم يَبْـدُ أنهم على استعداد للدخول فـى دين محمد. وكانت تلك أياماً كئيـبة، ولكن محمداً - ربما بسبب اضطراره إلى ترك آماله القديمة فى العرب وربما بسبب إحساسه بأنه قد استنفد طاقـته البشرية - تعرض لأعظم تجربة دينيـة فى حياته، وكان ذلك فى عام ٦٢٠.

كان مـحمد فى زيارة ابنة عمـه أم هانئ، أخت على وجعفـر، ولما كانت تقيم بالقرب من الكعبة، نهض فى منتصف الليل وذهب لقراءة القرآن هناك. ثم قرر آخـر الأمر أن يغفو قليـلاً فى الحجْر، وهى منطقة غـير مفتـوحة فى الشمال الغربى من الـبيت العتيق. ثم شعر بجبـريل وهو يوقظه ويرفعه على ظهر جواد سـماوى اسمه البُراق، ويطير بـه فيما يشبه المعـجزة إلى القدس، وهى التى يصفـها القـرآن بأنها المسجـد الأقصى(٨). وبعد هذا الإسراء (أى رحلة الليل) نزل مـحمد وجـبريل على جـبل المعبد حـيث حياهـما إبراهيم وموسى وعـيسى ورهط من الأنبياء الآخـرين. وصلى الجميع مـعاً، وأعطوا محمداً ثلاث كـئوس، فى إحداها ماء، وفى الأخرى لبن وفى الثـالثة خمر. واختار مـحمد أن يشرب اللبن، وكان ذلك رمـزاً للطريق الوسط الذى حاول

(*) وردت فى النص الإنجليزى خطأ "Mu'tim"، وهو مُطْعِمُ بن عدىّ بن نوفل. (المحرر).

الإسلام أن يسير فيه بين التطرف فى الزهد وبين مذهب اللذة. وبعد ذلك صعد فى المعراج (أى السُّلَّم) مع جبريل إلى السماء الأولى من السماوات السبع، ومن ثم بدأ صعوده إلى عرش الله. وكان فى كل مرحلة يرى نبياً من الأنبياء العظام، إذ كان آدم يرأس السماء الدنيا، حيث عرضت على محمد رؤيا الجحيم، وكان المسيح ويحيى (يوحنا المعمدان) فى السماء الثانية، ويوسف فى الثالثة، وإدريس فى الرابعة، وهارون وموسى فى الخامسة والسادسة، وكان إبراهيم، أخيراً، فى السماء السابعة على أعتاب الفلك المقدس.

ويترك ابن إسحق تلك الرؤيا العلوية دون إيضاح، احتراماً لها وتبجيلاً، وإن كان يستشهد بحديث نبوى يقدم سبباً علمياً لتلك التجربة ولو أن هذه التجربة كانت - فيما يبدو - ذات طابع فردى، أى أنها كانت خاصة بمحمد دون سواه، لأنها لم تتضمن تنزيل آيات قرآنية. وعندما وصل محمد إلى العرش، قال الله لمحمد إن على المسلمين أن يؤدوا خمسين صلاة فى اليوم، ولكن موسى أخبره وهو فى طريق العودة أن يرجع ويحاول تخفيض العدد. وتكرر ذلك حتى انخفض عدد الصلوات المفروضة يومياً على المسلمين إلى خمس صلوات، وكان محمد يرى أنها كانت أكثر مما ينبغى وإن كان قد أبدى استحياءه من طلب تخفيض آخر. وقد التزم المسلمون بعد وفاة محمد بالصلوات الخمس اليومية، ويدل هذا الجزء من السيرة على أن الصلاة لم يكن المقصود بها أن تكون عبئاً ينوء به كاهل المؤمن، بل أن تكون عبادة تتميز بالاعتدال وأن تكون فى طوق كل فرد[٩].

وكانت لهذه التجربة الدينية أهميتها البالغة فى تنمية الطابع الروحى للإسلام. ويحتفل المسلمون بذكراها فى كل عام يوم ٢٧ رجب، وهو الشهر السابع من الشهور الهجرية (القمرية) وطالما كتب متصوفة المسلمين وفلاسفتهم وشعراؤهم تأملاتهم فى مغزاها. بل لقد دخلت هذه التجربة إلى التقاليد

الغربيـة لأن روايات المسلمين عن المعراج، أى صـعود محـمد إلى السـماء، أثرت فى رواية دانتى للرحلة الخيالية فى الجـحيم والمطْهر والجنة فى الكوميديا الإلهيـة، ولو أن دانتى، بسبب الانفصـام النفسى الذى اتسم به الغـرب، قد وضع محمداً، كما سبق أن أوضحنا، فى الدرك الأسفل من النار. وقد أبدى المتصوفة اهتـماماً بالغاً بهذه التجربة، وكانـوا يعتقدون أن الرؤيا العلوية التى رآها محمد قد أشار إليها القرآن فى سورة النجم:

﴿ ولقـد رآه نزلة أخـرى، عند سـدرة المنتـهى، عنـدها جنة المأوى، إذ يغشى السـدرة مـا يغشى، مـا زاغ البـصـر ومـا طغى، لقـد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾[١٠] (١٣ ـ ١٨).

وسدرة المنتـهى ترمز هنا، مـثلما ترمـز فى التقاليـد الهندوسيـة إلى الحد الأقصى للمـعرفة الإنسـانية، ويقول القـرآن بوضوح وجلاء إن محـمداً رأى «آية» واحدة فقط من آيات ربه، ولم ير الله نـفسه، وكان المتصوفـة المتأخرون يؤكدون المفـارقة الكامنة فى هذه الرؤيا، إذ رأى محـمد ولم ير ـ فى الوقت نفسه ـ الذات الإلهية[١١].

ويصور الصوفـيون محمداً هنا فى صورة البطل الذى اشـتق طريقاً جديداً إلى الله بهذه التـجربة الفريدة، ولو أنها تُشـبه تجارب المتصوفـة الآخرين فى تقاليـد أديان تفصل بينها مـسافات شاسـعة. ففى ما كـتبه الشاعـر الفارسى العظيم فريد الدين العطار فى القرن الثالث عشر، نجـد أننا نقترب كثيراً على المسـتوى الروحى من «يوحنا الصـليب» الذى كان يؤكـد أهميـة ترك جمـيع المفاهيم والتجارب البشرية والتخلى عنها، أى تجاوز ما يصفه القرآن بأنه سدرة المنتهى، بمعنى حدود المعرفة البشريـة المعتادة. ويؤكد العطار أن محمداً اضطر فى النهاية إلى أن يترك الجميع ويمضى وحـده، بل إن جبريل نفسه لم يستطع أن يصطحب النبى فى المرحلة الأخـيرة من رحلتـه. فبعـد أن تجاوز محـمد مدارك الحواس المعتادة، وبعـد أن تجاوز المنطق والعقل فى هذه الرحلة، وجد

نفسه فى مجال تجربة جديدة، ولو أنه كان عليه أيضاً أن يبدى استعداده للتخلى عن نفسه أيضاً:

سمع دعوةً، رسالة من الصديق،
دعوة قادمة من جوهر الكل، تقول:
«اترك النفس والجسم يا أيها الفانى
«وادخل الآن، يا مقصدى وغايتى،
«ولْتَرَ جوهرى وجهاً لوجه يا صديقى!»
غلبته الرهبة ففقد النطق وفقد نفسه -
كان محمدٌ لا يعرف محمداً هنا
ولا يرى نفسه، بل كان يرى نفس النفوس
وجه الذى صنع الكون(١٢).

إنها تجربة تشترك فيها جميع التقاليد الدينية الكبرى، وهى تعبير عن العقيدة القائلة بأنه من المحال على الإنسان أن يرى الله ويظل فى قيد الحياة.

ولكن تجربة الفناء بالنسبة لذاته، ومواجهة تجربة العدم، بعثت محمداً إلى مستوى رفيع سام من الوجود. ولقد تمكن فيما بعد أن يسترجع هذه التجربة بحيث يوسّع من نطاق قدرة البشر على الإحساس بالقداسة. وأصبح المعراج نموذجاً للنبرة الصوفية فى الإسلام، وأصبح الصوفيون يتحدثون دائماً عن الفناء فى الله، وهو الذى يعقبه البقاء والإحساس الأرقى والأرفع بتحقيق الذات.

وكان بعض المسلمين وما يزالون يصرّون دائماً على أن محمداً قام برحلته إلى عرش الله بجسده، ولكن ابن إسحق يورد حديثاً لعائشة تقول فيه إن الإسراء والمعراج كانا تجربتين روحيتين محضتين (ولكن الله أسرى بروحه - ص ٣٦٩) ومهما يكن التفسير الذى نختاره لها، فإن التجربة الدينية حقيقة من حقائق الحياة الإنسانية، وهى تتميز بالتشابه الكبير فى جميع التقاليد.

ويزعم البوذيون أن مثل ذلك الإحساس بالمطلق، والامتداد الشاسع للوحى، ما هو إلا حالة طبيعية محضة، وليس نتيجة اللقاء مع «الآخر». ويبدو أن الوعى الإنسانى، عندما يتعرض للضغط فيصل إلى أقصى حد ممكن له، يصور ذلك تصويراً رمزياً، ويشبه ذلك، وإن اختلف السياق اختلافاً كاملاً، الضغط الذى يتعرض له البدن عندما يصل الإنسان إلى حافة الموت مثلاً فيتصور أو يتوهم أنه يسير فى ممر طويل، وأنه يقابل عند الباب شخصاً يأمره بالرجوع وهلم جراً. ويتمتع الرجال والنساء، فى جميع الأديان، بموهبة خاصة تمكنهم من مكابدة هذه التجربة، كما أنهم يقومون بتنمية هذه الموهبة من خلال تدريبات معينة وحيل خاصة تتشابه هى الأخرى تشابهاً كبيراً فيما بينها. وتجربة المعراج التى وصفها الكُتَّابُ المسلمون تتشابه مع تجربة «تصوف العرش» فى التقاليد اليهودية، والتى شاعت من القرن الثانى حتى القرن العاشر للميلاد. ويقوم الموهوبون بإعداد أنفسهم للتحليق الصوفى والرحلة إلى عرش الله من خلال تدريبات خاصة، إذ يصومون مثلاً، ويقرءون أوراداً معينة تُولّد لديهم حالة التلقى المنشودة، كما يلجئون إلى بعض الأساليب البدنية. ويبدو أنهم كثيراً ما يضعون رءوسهم بين رُكبهم، على نحو ما ذكرتْه بعض الروايات التاريخية الإسلامية عن محمد. وكانت تدريبات النفس ذات أهمية كبرى فى التقاليد الأخرى. وكانوا بعد ذلك يشعرون بأنهم يبدءون رحلة صعود تكتنفها المخاطر إلى عرش الله، وكانوا، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين، يصفون الرؤيا العلوية القصوى بأساليب تقوم على المفارقة، وتؤكد أنها فى جوهرها تستعصى على الوصف والتعبير. وكان المتصوفة فى إطار هذه التقاليد يعتبرون مؤسسيها من الأبطال الذين اكتشفوا طريقاً إلى الله، وتعرضوا لمخاطر شخصية فى سبيل ذلك.

وبعض جوانب الإسراء والمعراج تشبه التأملات الصوفية التى يمر بها الإنسان عند تحوُّله، ومكابدته ألم التحول من أسلوب حياة معين إلى أسلوب

آخر. وهى تتشابه تشابهاً غامضاً مع التجربة التى مرت بها راهبة شابة اسمها «بيربتوا»، وهى من الشهداء المسيحيين الذين لاقوا حتفهم فى قرطاجنة فى أثناء اضطهاد الإمبراطور سيفيروس لهم، عام ٢٠٣، ويعتقد معظم الباحثين أن الروايات الواردة فى كتاب «أعمال بيربتوا وفيليكيتاس» الذى قام بتحقيقه ونشره أحد المحررين بعد وفاتها بقليل، صحيحة، وتقول إحدى هذه الروايات إن الراهبة كانت فى السجن تنتظر محاكمتها، فألح أصحابها عليها أن تدعو الله أن يهبها رؤيا تدلهم على ما إذا كانوا سوف يموتون حقاً أم لا. وقد طلبوا ذلك من بيربتوا بسبب ما عرف عنها من مواهب صوفية خاصة، فوعدتهم بإجابتهم إلى طلبهم فى اليوم التالى. وقد تكون قد هيأت نفسها بصورة لا شعورية لتلقى الرؤيا، مثلما يفعل اليوم مرضى التحليل النفسى الذين يقدمون أحلاماً ذات دلالات مهمة لأطبائهم[١٣]. وبالفعل، رأت بيربتوا تلك الليلة فى منامها سُلَّماً تنتهى درجاته فى السماء (معراج محمد)، وكان الصعود محفوفاً بمخاطر جمة، مما جعلها تخشى فى لحظة معينة ألا تقوى على الوصول إلى آخره، ولكن رفقاءها شجعوها على المثابرة حتى وجدت نفسها آخر الأمر فى حديقة كبيرة وجميلة. وكان فيها أحد الرعاة، وكان يحلب شاةً له، ومن ثم قدم لها بعض اللبن المخثر، وعندما أفاقت بيربتوا من نومها وجدت أنها «لا تزال تمضغ شيئاً حلو المذاق ويصعب تحديد كنهه». وتأكد لها ساعتها أنها سوف تموت، وحثت أصدقاءها فى السجن على «أن يطرحوا كل أمل فى الحياة الدنيا»[١٤]. ورأت بعد ذلك أحلاماً كثيرة أخرى نقلتها إلى رفقائها، وهى تدل على أنها قد بدأت تتقبل، لا شعورياً، موتها الوشيك، وكانت قد بدأت تتهيأ نفسياً لا للخلود فحسب بل للاستشهاد أيضاً، وهو ما كان بمثابة التجربة الدينية القصوى فى الأيام الأولى للمسيحية. ولكن محمداً لم يكن يوشك أن يموت، بل كان يوشك أن يبدأ مرحلة جديدة من مراحل بعثته، وهى مرحلة تتطلب قطع الوشائج التى

تربطه إلى الماضى وكان الماضى نفسُه نوعاً من الموت. ولكن رؤياه كانت تتضمن العزاء والسلوى، فهو لم يتناول اللبن، مثلما فعلت بيربتوا من الراعى الطيب بل من الأنبياء العظام الذين سبقوه فى رؤيا تعبر عن إحساسه بالاستمرار والتواصل مع الكتب المنزلة السابقة.

ويشبه المعراج نفسه تجربة الدخول فى سلك كهنوت الشامانيين، والتى يقول الباحث الأمريكى جوزيف كامبيل إنها ما تزال «تحدث فى شتى أرجاء شمالى آسيا وأمريكا من سيبيريا حتى تييرا ديل فويجو» وهو يوضح ذلك قائلاً: إن الكاهن الشامانى يمر فى شبابه المبكر «بتجربة نفسية عارمة تتحول نفسه على أثرها إلى الاستبطان الكامل. وهى نوع من الانشقاق الفُصامىّ إذ ينفتح اللاوعى كلُّه فيبتلع الشامانى ويستغرقه»(١٥). ويلجأ رجال الغابات إلى توليد هذه التجربة عن طريق الرقص مدة تطول فتمعن فى الطول. وقد وصف أحد الشامانيين ما حدث عندما وصل إلى حالة الغيبوبة وأغشى عليه قائلاً:

«عندما أخرج أجد أننى قد بدأت الصعود من قبل، وأنا أتسلق خيوطاً، تلك الخيوط التى تمتد هنالك فى الجنوب، أتسلق خيطاً ثم أتركه، ثم أتسلق خيطاً آخر، ثم أتركه وأتسلق خيطاً آخر... وعندما تصل إلى مكان الله تقوم بتصغير ذاتك. لقد أصبحت ضئيلاً، وأنت تأتى ضئيلاً إلى مكان الله. وتفعل ما يجب عليك أن تفعله هناك، ثم ترجع إلى حيث يوجد الجميع.. ثم تعود آخر الأمر وتدخل جسدك مرة أخرى»(١٦).

لقد مر بصورة من صور الفناء الذاتى وتغلغل إلى بقاع لا يستطيع الآخرون أن يرتادوها، وهو يعود بأنباء من منطقة الصور الأسطورية أى من مقر القوة والسلطان.

وتدل تجربة الإسراء والمعراج بالصورة التى رواها الرواة لنا على أن محمداً كان قد بدأ يرى أنه ربما أصبح أكثر من مجرد المنذر المتواضع لقريش، ومع

ذلك فقد كان لا يزال يبحث عن مجير من أبناء البشر. كان من عادته فى أثناء الحج أن يحرص على زيارة الحجاج أثناء مقامهم فترة الثلاثة أيام المقررة فى وادى منى، متنقلاً بين الخيام. وهكذا التقى بمجموعة من ستة من العرب الوثنيين من مدينة يثرب، فى موسم الحج عام ٦٢٠. وكانوا قد ضربوا خيامهم عند ماء العقبة فى أقرب جنبات ذلك الوادى إلى مكة. وعندما جلس إليهم محمد وحدثهم عن رسالته وقرأ عليهم القرآن، لم يجد عداءً ولا صدوداً بل وجد أن العرب يُصغون إليه ويفرحون بما أنزل إليه. وعندما فرغ من حديثه التفت العرب وقالوا لبعضهم بعضاً إن هذا لا شك هو النبى الذى ما فتئ يهود يثرب يتحدثون عنه. وكان من دأب اليهود أن يغيظوا جيرانهم الوثنيين بحكايات عن نبى يأتى بالهلاك لهم، فيفنون مثلما فنيت قبيلتا عاد وإرم وهما من القبائل العربية القديمة. فإذا كان محمد هو ذلك النبى، فمن المهم أن يمنعوا اليهود من الوصول إليه قبلهم(*) وأدركوا أيضاً على الفور أن محمداً يستطيع أن يحل مشاكل يثرب، وهى المشاكل التى كانت فيما يبدو تستعصى على الحل.

وفى تلك الأيام لم تكن يثرب قد أصبحت بعد مدينة مثل مكة. كانت واحة، أو جزيرة خضراء تبلغ مساحتها نحو عشرين ميلاً مربعاً، تحيطها جبال بركانية، وتلال صخرية، وأراض حجرية تتعذر زراعتها. لم تكن مركزاً تجارياً بل مستوطنة زراعية تعيش فيها شتى المجموعات القبلية متلاصقة متناحرة، يسودها العداء القاتل، فى شتى قراها ومزارعها. وكان المستوطنون اليهود الرواد أول من استزرع هذه المنطقة، ولو أننا لا نعرف من أين أتى هؤلاء اليهود. لربما كانوا لاجئين من فلسطين فرّوا إلى بلاد العرب بعد أن قمع الرومان ثورتهم عام ١٣٥ للميلاد، وربما كانوا من القبائل العربية التى اعتنقت

(*) قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه النبى الذى توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه (المترجم).

اليهودية. وهناك احتمال ثالث وهو أن يكون بعض العرب من غير المنتمين إلى قبائل بعينها قد ارتبطوا بمجموعة من العبرانيين واعتنقوا دينهم. وفى مطلع القرن السابع كان فى يثرب ثلاث قبائل يهودية رئيسية، وهم بنو قريظة، وبنو النضير، وقبيلة أخرى أصغر وأقل أهمية وهى قبيلة بنى قَيْنُقَاع. وحرص اليهود على هوية دينية منفصلة، ولكنه ـ باستثناء ذلك ـ كان من المحال تقريباً أن يميز المرء بينهم وبين جيرانهم من العرب الوثنيين، إذ كانت أسماؤهم عربية لا عبرانية، وكانوا يراعون تقاليد النظام العربى القبلى، وكان التناحر فيما بينهم كثيراً ما يتسم بالمرارة والشدة التى اتسم بها عداؤهم لأىٍّ من القبائل العربية.

وكان بنو قَيْلة قد هاجروا خلال القرن السادس من جنوب الجزيرة العربية واستقروا فى الواحة جنباً إلى جنب مع اليهود. وتفرع هؤلاء القادمون الجدد إلى فرعين من جذع واحد هما الأوس والخزرج، ومن ثم تحولوا إلى قبيلتين متميزتين، تتكون كل منهما من عشائر مختلفة. وكان الأوس والخزرج فى البداية أضعف من اليهود، ولكنهم تمكنوا تدريجياً من اكتساب الأرض الخاصة بهم، وبناء قلاعهم الخاصة، وأصبحوا أقراناً ونظراء لهم. وفى مطلع القرن السابع كان الأوس والخزرج أقوى قليلاً من اليهود، ولكنهم بدءوا يحاربون بعضهم بعضاً.

كان التحول من حياة الترحال إلى الاستيطان سبباً فى نشوب أزمة فى يثرب، وكان الإحساس بها هنا أَحَدَّ من الإحساس بالملال فى مكة. لم تكن العادات القبلية التى أثبتت نجاحها فى الشعاب والهضاب تناسب حياة الاستقرار، فكان الرُّحَّل فى الصحراء يدافعون عن الأرض التى ورثوها عن أسلافهم دفاع الغيور العنيد، ولم يكن ذلك عسيراً عندما كانت المسافات الشاسعة تفصل بينهم، أما حين تكدسوا معاً فى واحة صغيرة، تفرض على كل قبيلة أن تدافع بحماس عن أفدنتها الضئيلة، فقد انهار النظام. وكانت

جماعة من الجماعات تقوم بغزو أرض الأعداء وفقاً للنظام الذى ثبتت دعائمه على مر الزمن، وكان لابد من الثأر من كل غزوة. ودخلت قبائل يثرب تدريجياً فى حلقة مفرغة من أعمال العنف، وكانت الحروب الدائمة مصدر خراب للبلاد، فهى تدمر المحاصيل وتقوض مصادر ثروة يثرب وقوتها. وتورطت القبائل اليهودية وازداد تورطها فى الصراعات الدائرة، فكانت تتحالف بأشكال متفاوتة مع الأوس أو مع الخزرج. وتجمد الموقف بحلول عام ٦١٧، فلم تتمكن أى مجموعة من فرض سيطرتها وتفوقها، وكان الصراع قد أنهك قوى الجانبين وحلفائهم. وبلغت الحرب الأهلية ذروتها فى ذلك العام فى معركة بُعَاث، وهى التى أحرز فيها الأوس انتصاراً اسمياً مع حلفائهم اليهود من بنى النضير، دون أن يتمكنوا من استغلال انتصارهم وجنى ثماره الفعلية. وبدأ الجميع يدركون أن أمل يثرب الأوحد يتمثل فى أن تخضع لسلطة عليا، على الرغم من استرابة العرب الراسخة بالنظام الملكى. وكان عبد الله بن أبىّ، أحد رؤساء الخزرج، قد رفض القتال فى موقعة بعاث لأنه كان يدرك أنها لا أمل فيها. ومن ثم اكتسب سمعة من يتمتع بالحياد إلى حد ما، وبدأ الناس ينظرون إليه باعتباره قادراً على أن يصبح ملكاً عليهم أو رئيساً أعلى لهم، وإن كان الكثيرون، بطبيعة الحال، غير مطمئنين إلى هذا الحل، فكان الأوس يعارضون بشدة تولية رجل من الخزرج عليهم، وتسليمه مقاليد السلطة العليا، وهذا مفهوم، كما كانت عشائر الخزرج الأقل قوة لا تريد لابن أبىّ أن تكون له اليد العليا.

وعندما عرض محمد نفسه على حُجّاج يثرب الستة خلال موسم الحج عام ٦٢٠، أدركوا على الفور أن نبى الله يمكن أن يكون زعيماً أكثر حياداً بكثير من ابن أبىّ. أما رسالة التوحيد التى أتى بها فلم تكن مصدر إزعاج لهم، فلقد عاشوا ردحاً طويلاً من الزمن جنباً إلى جنب مع اليهود حتى اعتادوا فكرة وجود إله واحد، وكانوا على أتم استعداد لخفض منزلة رباتهم

القديمة إلى مستوى الجن والملائكة ماداموا قد أحسوا أنهم دون مستوى اليهود لأنهم لا يملكون كتاباً مقدساً خاصاً بهم، ولأنهم كانوا «قوماً لا يعلمون العلم»(١٧)، ومن ثم أسعدهم سعادة بالغة أن يتلقوا دعوة محمد القائلة بأنه نبىّ للعرب وأنه قد أتى إليهم بقرآن عربى. وأسلموا لله على الفور، وراودتهم الآمال العريضة ليثرب إذ قالوا: «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك»(١٨) (ابن هشام ـ ٣٨٢) ووافقوا على أن يعودوا إلى محمد بالرد بعد عام واحد. وكان من بالغ الأهمية لمحمد أن يحظى بتأييد أوسع فى تلك الواحة إذا كان يعتزم الانتقال إليها مع أصحابه. ولم يكن يتوقع أى متاعب مع اليهود لأنه كان يعتقد على الدوام أن رسالته كانت تتفق مع رسالتهم، ولكن هؤلاء الحجاج كانوا ينتمون إلى قبائل الخزرج الصغيرة، وكان لابد أن يجتذبوا الأوس إلى دينهم، حتى يتمكن محمد من توحيد يثرب.

وكانت قضية المسلمين قد جنحت فيما يبدو للجمود عدة سنوات، ولكن التطورات الجديدة كانت تبشر بإمكان كسر الجمود وتحسُّن الأوضاع. وكان محمد قد أجرى تعديلات كبيرة فى أسرته إبان ذلك العام، إذ كان بحاجة إلى زوجة، وإلى وجود أنثى فى حياته، وعُرض عليه أن يتزوج سودة، ابنة عم سهيل رئيس بنى عامر، وأرملة أخيه واسمه السكران، وكانت قد هاجرت هى والسكران إلى الحبشة فى عام ٦١٦، ثم توفى السكران بعد عودتهما إلى مكة بقليل. ووافقت سودة على الزواج، وقام بتزويجها من النبىّ أحد إخوة سهيل وهو أبو حاطب بن عمرو.

وكان أبو بكر حريصاً كذلك على توثيق علاقته بمحمد، بعد أن أخلص له العمل والجهد سنوات طويلة مما كلفه نفقات كبيرة. ولم تكن عائشة قد

تجاوزت السادسة من عمرها فى عام ٦٢٠، ولكنها كانت قد خُطبت من قبل إلى ابن مُطعم، رئيس بنى نوفل، المجير الجديد للنبى. ولكن مُطْعماً كان على أتمّ استعداد لإلغاء الخطبة لأن زوجته كانت تخشى أن يعتنق ابنهما الإسلام، ومن ثم تمت خطبة عائشة إلى محمد فى حفل لم تحضره الفتاة الصغيرة. وقد روتْ بعد ذلك بسنوات عديدة ذكرياتها عن تلك الفترة، فقالت إنها أدركت لأول مرة منزلتها الجديدة عندما أوضحت لها أمها أنها لم يعد من المسموح لها أن تلعب فى الطرقات مثل غيرها من الأطفال، بل كان عليها أن تدعو صديقاتها للعب معها فى منزل الأسرة.

وقد أثار موضوع زوجات النبى تأملات كثيرة فى الغرب، تتسم بالبذاءة والصفاقة، وبكثير من مشاعر الحسد التى فشل الكُتّاب فى إخفائها، على نحو ما رأينا فى الفصل الأول الذى بيّنْتُ فيه أن محمداً كثيراً ما اتهم بالميل إلى الشهوة الجسدية. وقد فرض القرآن فيما بعد ألا يزيد عدد زوجات المسلم على أربع، ولو أن محمداً قد سمح له باعتباره نبياً بأكثر من ذلك. والواقع أن الاقتصار على زوجة واحدة لم يكن يعتبر من الأعراف المستحبة فى بلاد العرب إلا من جانب قلة لا تذكر، وبعد سنوات كثيرة عندما أصبح محمد من سادة العرب العظماء، كانت زوجاته الكثيرات من دلالات منزلته الرفيعة. ويغلب أن يكون تعدد الزوجات هو العرف السائد فى المجتمع القبلى، ولا يجد الكتاب المقدس غضاضة على الإطلاق فى الحديث عن الإنجازات الجنسية للملك داود، أو الزوجات اللائى لا يحصى عددهن للملك سليمان. ويعتبر عدد زوجات النبى محمد، بالقياس إلى زوجاتهما، ضئيلاً إلى درجة كبيرة. والواقع أنهما كانا يعيشان، مثل النبى محمد، فى مجتمع يمر بفترة انتقالية من الحياة القَبَلِيّة إلى حياة المدينة. ولكن يخطئ من يظن أن محمداً كان ينعم بالملاذ فى حديقة من المتع الدنيوية، بل إن كثرة زوجاته كانت أحياناً، على نحو ما سوف نرى، نعمة ونقمة معاً.

ويجب علينا وحسب أن نرصد أمرين، الأول أن اختيار سودة أو عائشة لم يكن يستند إلى المفاتن الجسدية لأى منهما. فلم تكن عائشة سوى طفلة صغيرة، وكانت سودة قد بلغت الثلاثين وتخطت مرحلة ربيع الشباب، بل بدأت تميل إلى السمنة. ونحن لا نكاد نسمع المزيد عنها، مما يدل على أن الزواج كان أقرب إلى لون من «الترتيبات» العملية منه إلى زواج يقوم على الحب. فكانت لازمة لرعاية أسرة محمد، وقد علت منزلتها كذلك، على الأقل بين المسلمين، عندما أصبحت زوجة للنبىّ. والثانى هو أن كلا من هاتين الزيجتين كانت لها أبعادها السياسية، إذ كان محمد يعقد أواصر قرابة ونسب ذات أهمية كبرى. فكان مايزال يأمل أن يهدى الله سهيلاً، بسبب تدينه العميق، والزواج بسودة جعله من أصهار النبى. كما كان من المهم توثيق العلاقة مع أبى بكر، فإذا كان محمد قد شرع فى تكوين لون آخر من العشيرة، لا يستند فيه على القرابة بل على التمازج الفكرى، فإن رابطة الدم كانت ما تزال تعتبر بالغة الأهمية.

ولابد أن أبا بكر قد أسعده إيجاد هذه الرابطة مع محمد، لأنه كان قد بدأ، فى نحو ذلك الوقت، يشعر بأنه قد أصبح معزولاً مرة أخرى فى مكة. كان قد بنى مسجداً صغيراً بجوار باب مسكنه، مما أثار سخط بنى جمح. ويقول ابن إسحق إنه كان «رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن استبكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته»[١٩]. وعندما أجاره ابن الدُّغُنَّة، اشترطت قريش ألا يؤدى الصلاة علناً، ومن ثم ذهب وفد إلى الرئيس البدوى وسأله فى استياء:

«يا ابن الدُّغُنَّة! إنك لم تُجِرْ هذا الرجل ليؤذينا! إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرقّ ويبكى. وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم. فإنه أمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء»[٢٠] (ابن هشام ـ ٣٤٧).

ولكن أبا بكر رفض التنازل عن مسجده، وربما يكون قد أحس بأنه لن يستطيع المزيد من التنازلات، وأن فيما سبق له أن قدّمه الكفاية. ومن ثم عاد يتعرض للإهانات، وألقى أحد السفهاء التراب عليه فى الطرقات، وقال له رؤساء قريش إنه هو السبب فيما يحدث له.

وفى موسم الحج التالى عام ٦٢١ رجع المؤمنون الستة من يثرب إلى مكة، طبقاً للاتفاق، ومعهم سبعة آخرون، كان اثنان منهم من الأوس وقابلوا محمداً للمرة الثانية فى وادى العقبة وبايعوه على أن يعبدوا الله وحده وأن يراعوا أوامره ونواهيه. وقال أحدهم فيما بعد:

«بايعنا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذّب وإن شاء غفر»(٢١) (ابن هشام ـ ٣٩٤).

وفى هذا الاجتماع الذى أصبح يعرف باسم «العقبة الأولى»، كان التأكيد على الدين أكبر من التأكيد على السياسة. كانت الوثنية القديمة قد عجزت عن حل الأزمة فى يثرب، وكان الناس على استعداد لتقبل مذهب فكرى جديد. وكانت التكاليف الدينية التى قدمها محمد كفيلة بغرس احترام الآخرين باعتبارهم أفراداً يتمتعون بحقوق ثابتة لا يمكن نزعها، وكان لابد أن تحل هذه الشرعة الأخلاقية الجديدة محل المثل الأعلى القديم الذى يتمثل فى القبيلة، ويجعل الجماعة أهم من أفرادها. وكانت هذه النزعة الفردية الجديدة صالحة لنوع جديد من المجتمع، لأن من شأنها أن تساعد أهل يثرب على أن يدركوا أن مكسب أحد الأفراد لا يعنى بالضرورة خسارة لفرد آخر، على نحو ما كان الحال عليه فى الصحراء، حيث كانت ضرورات الحياة لا تكفى الجميع.

وعندما عاد الحجاج إلى يثرب أرسل معهم محمد أحد المسلمين الأكفاء المتمكنين من دينهم وهو مصعب بن عمير، بعد أن عاد من الحبشة، لتعليم

أهل الواحة وقراءة القرآن عليهم. وكانت الكراهيــة القَبَلِيَّة قد استحكمت بين الأوس والخزرج حــتى لم يعد يطيق أحــد منهما أن يســمع أحد أبناء القــبيلة المعادية وهو يقــرأ القرآن، أو أن يَؤُمَّهُ فى الصلاة، وهكذا كــان لابد أن يقوم بالقراءة من لا ينتــمى لأيهما ويتمــتع من ثم بالحياد. كان زعــماء الأوس فى البداية يضمرون عداءً شديداً للــدين الجديد، وحدث ذات يوم أن سمع سعد بن معاذ، رئيس أحد العــشائر الرئيسية للأوس، أن مصعــباً كان يجلس علناً فى حديقــة تقع فى أرض تلك العشيــرة لتعليم أفرادها، فــأفزعه مــا سمع، ولكن مصعباً كان ضيفــاً على ابن خالته أسعد بن زرارة، وكان من بين الستة الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام، ومعنى ذلك أنه من غــير اللائق أن يقدم سعد على إهانة الضــيف المكىّ. ومن ثم أرسل أسيــد بن حضــير، الذى يليــه فى المنزلة داخل العشيرة، لإخراج مصعب من أرضه. وحمل أسيد حربته وانطلق إلى الحديقــة، وعندما رأى الرجال قد تحلــقوا حول مصــعب، حريصين على متابعة حديثه، أرغــى وأزبد وقال متشتّماً: «ما جاء بكما تســفّهان ضعفاءنا؟» (ابن هشام ـ ٣٩٦)، فــأجاب مصــعب: «اجلس واسمع، فإن رضــيت أمراً قبلته، وإن كــرهته كف عنك ما تكره»، ووافق أسيــد وقال: «أنصفت»، ثم ركز حربــته وجلس ليستــمع إلى القرآن. وكالعادة، تمكّن جــمال الكلام من اقتحــام معاقله، ولاحظ أفراد عشــيرته أن تعبيــر ملامح وجهه قد تغــير تماماً فسادته السكينة وأشرق مــحياه، وبعد أن فرغ مصعب من قــراءته قال أسيد: «ما أحــسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصــنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟» فقيل له أن يغــتسل ويطهر ثوبيه ثم يشهــد شهادة الحق بأن لا إله إلا الله ويركع ركعتين. وعندما فعل أسيد ذلك انطلق مهرولاً إلى سعد.

وما إن لمح ســعد أسيداً حــتى علم من التعبــير الذى يكسو وجهــه أنه قد خَذَلَهُ، فقبض على حربته وهو يصيح مــغضباً: «والله ما أراك أغنيت شيئاً!» ثم خرج إلى الحديقة، وتكرر الشىء نفــسه، إذ طلب إليه مصعب أن يجلس

ويستمع، فركز سعد حربته فى الأرض، وتمكن منه جمال القرآن بدوره، وكان تحوله إلى اعتناق الإسلام حاسماً، إذ استدعى سعد أفراد العشيرة وسألهم عن سبب اختيارهم إياه رئيساً لهم، قائلاً: «كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيباً». ومن ثم أمرهم أن يضمروا ثقتهم فيه فى هذا الأمر أيضاً، قائلاً: «فإن كلام رجالكم ونسائكم علىّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله»(٢٢) وكان من نتيجة ذلك أن آمنت العشيرة كلها بالإسلام دفعة واحدة. والواضح أن القصة قد تأثرت بالصياغة النمطية للرواة، واصطبغت بالطابع الرومانسى على مر السنين، ولكن سعداً أثبت فى الواقع أنه من أكثر مسلمى يثرب إخلاصاً لدينه، ومن الأرجح أن إسلامه ترك انطباعاً قوياً على الذين كانوا يسعون للعثور على زعامة جديدة وعلى حل لمشكلاتهم التى كانت تبدو مستعصية.

ولم يلبث أن أسلم الكثيرون فى كل أسرة تقريباً فى الواحة، ولو أنه كان ما يزال هناك «جيب مقاومة» وثنية صغيرة فى عشيرة الأوس، يستمد إلهامه من أبى قيس بن الأسلت، الذى كان شاعراً ورئيساً. وكان الشعراء دائماً ينهضون بدور حاسم فى تحديد هوية القبيلة والتغنى بأمجادها، وكان بمقدورهم أن يدمروا سمعة أحد الأشخاص بنفس الفاعلية والإحكام اللذين تتميز بهما أجهزة الإعلام اليوم. وكان يمكن أن تكون الدعاية الشعرية المعادية ذات أثر مدمر فى بلاد العرب يضاهى الهزيمة العسكرية الكبرى، ويجب ألا نغفل عن هذه الحقيقة عند التعرض لعداء محمد للشعراء الذين كانوا يسخرون منه. وفى ذلك العام الانتقالى الذى مرت به يثرب، كان أبو قيس يحث العرب من أفراد عشيرته على أن يظلوا مخلصين للصورة العربية الأصيلة لدين التوحيد، فلا يقبلوا القرآن بسبب ما ارتبط به من معانٍ دخيلة. ومن ثم كتب الأبيات التالية، يتوجه فيها بالخطاب إلى الله، وكان أهل يثرب قد أدركوا من قبل أنه الإله الأوحد:

أَرَبَّ النـاس أشـيـــاءٌ أَلَـمَّتْ ... يلفُّ الـصـعبُ منهـا بـالذَّلولِ
أَرَبَّ النـاسِ أَمَّـــا إنْ ضَلَـلْنَـا ... فَـيَـسِّـرْنا لمعـروفِ السبـيـل
فـلولا ربُّـنـا كـنا يـهــــوداً ... ومـا ديـن اليـهــود بذى شكول
ولـولا ربنـا كـنا نـصـــــارى ... مع الرهـبـان فى جـبل الجـليل
ولـكـنّـا خُـلـقـنـا إذ خُـلـقـنـا ... حَنيــفــاً ديننُا عن كـل جـيـل
نسـوقُ الهَـدْىَ تَـرْسُفُ مُـذْعِنَاتٍ ... مُكَشَّـفَـةَ المنـاكب فى الجلول(٢٣)

(ابن هشام - ص ٣٩٨)

ولا ينبغى أن ندهش لنظرة أبى قـيس بن الأسلت إلى الدين المكىّ الجديد باعتبـاره ذا صلة بأهل الكتاب، وذلك لأن محمداً عمل منذ «العـقبة الأولى» على إقامة بعض الروابط المهـمة مع التقاليد اليـهودية. وكان من الواضح أنه يحاول استمـالة اليهود المقيمين فى الواحة، ويبـدو أنه كان يتطلع إلى العمل والصـلاة مع أهل ذلك الكتاب القـديم، بعد أن طالت فـترة العـزلة، فـأمر مصعباً أن يعـقد اجتماعاً خاصاً للمسلمين فى عـصر يوم الجمعة، فى الوقت الذى يسـتعد فـيه اليـهود لشـعائر يوم السـبت، مما أوجد رابطة بـين الصلاة الجديدة وبين الاحتفـال اليهودى، مع الإبقاء على مسافة كـافية تفصل بينهم. ثم أمر المسلمين بالصوم فى يوم الـتكفير اليهودى (يوم كـيبور) الذى كان يقع فى العاشـر من شهر تشرى بالتـقويم اليهودى، ومن ثم كـان صوم المسلمين يطلق عليه يوم عاشـوراء، وهو اللفظ المعرب عن الآرامية ليـعنى «العاشر». كما أصـبح على المسلمين أن يؤدوا الصلاة عند الظهر، مثل اليـهود، بعد أن كانوا يؤدون الصلاة صباحاً ومساءً فقط، إلى جـانب قيام الليل للتهجد. كما سُمح للمسلمين أيضاً بالزواج من اليـهوديات وأكل طعام اليهود. ولكنهم لم يراعوا جـميع قوانين الطعام اليـهودية، بل صورة معـدلة منها تتشابه تشـابهاً

عجيباً مع الصورة الواردة فى «أعمال الرسل» إلى الأمميين الذين يعتنقون المسيحية(*)(٢٤).

وفوق ذلك كله أُمر المسلمون الآن أن يُولوا وجوههم فى الصلاة شطر بيت المقدس، مثلما كان اليهود والمسيحيون يفعلون. وقد أثبت إسراء محمد إلى القدس أن هذه المدينة المقدسة العريقة كانت تشغل مكانة أساسية فى العقيدة الإسلامية أيضاً، وكان اعتماد القدس قبلةً للمسلمين بمثابة تذكرة وتبيان للرابطة بين الدين الجديد والأديان السماوية السابقة. وأصبح المسلمون يولون وجوههم شطر القدس فى الصلاة ثلاث مرات يومياً، ومن شأن الاتجاه الذى يأخذه الجسد أن يوحى بالتوجه الروحى الجديد وأن يُعَلّم المسلمين على أحد المستويات الأساسية أنهم كانوا يشاركون أهل الكتاب فى أهدافهم.

وتقبل القرآن كذلك الاسم الآرامى الذى أطلقه اليهود على يثرب، وهو **مديتا** وهو لا يعنى أكثر من «المدينة»، ومن ثم أصبحت الكلمة فى العربية «المدينة». وكان محمد، أثناء بحثه عن وطن جديد لبعض أصحابه قبل ذلك بخمس سنوات، قد حاول إقامة الروابط مع المسيحيين المونوفيزيين فى الحبشة، ولكن تلك المحاولة قد أصابها الإخفاق لأسباب لا نستطيع أن نفهمها الفهم الكامل. وكان محمد نفسه قد اكتشف الآن أنه من المحال عليه مواصلة العيش فى مكة، ولكنه كان من المحال أيضاً على الرسول المرسل إلى العرب أن يغادر بلاد العرب. وكان أن حث المسلمين جميعاً على أن يهاجروا معه إلى الواحة التى أصبحت تسمى «المدينة»، وكان يناشد القبائل اليهودية المقيمة فيها أن تقدم له العون والمؤازرة.

(*) «اليوم أُحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان» (المائدة ـ ٥)؛ وفى الكتاب المقدس: «لذلك أنا أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم، بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم»؛ «أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا التى إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون، كونوا معافين» أعمال الرسل ١٥/١٩ - ٢٠، ٢٩.

وفى عام ٦٢٢ قام فريق ضخم من الحجاج بمغادرة المدينة إلى مكة فى موسم الحج، وكان بعضهم ما يزال وثنياً، ولكن ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين كانوا من المسلمين، وكانوا يمثلون أقوى الأسرات نفوذاً فى المدينة. ووقعت أثناء الرحلة حادثة ثبت فيما بعد أنها استطلعت الغيب بصورة تدعو للدهشة، إذ إن البراء بن معرور، أحد رؤساء الخزرج، اقترح على غيره من حجاج المسلمين برنّة يشوبها التردد أن يغيروا قبلتهم فى الصلاة أثناء موسم الحج. كان الجميع يحثون خطاهم جاهدين وقد يمموا وجوههم شطر مكة، حيث بيت الله العتيق، أهم الأماكن المقدسة، وحيث كان معظمهم على وشك أن يقابلوا نبيهم للمرة الأولى. وبدا لهم أنه من غير اللائق أن يُديروا ظهورهم إلى مكة فى الصلاة حتى يواجهوا بيت المقدس. ورأى الآخرون أن البراء لم يكن مصيباً، لأن قبلة محمد، فى حدود ما يعرفون، كانت بيت المقدس، وكان ذلك سبباً كافياً لأن يُولّوا وجوههم شطرها. ولكن البراء أصر على رأيه واتخذ من مكة قبلة له أثناء الرحلة وإن كان ما يزال قلقاً بعض الشىء، ومن ثم توجه فور وصوله إلى الكعبة لمقابلة محمد وسؤاله عن رأيه. ولكن إجابة محمد كانت غامضة إذ قال له: «كنت على قبلة لو صبرت عليها»(٢٥) وإن كان الرسول استمر يولى وجهه شطر بيت المقدس فى الصلاة، وأطاعه البراء وحذا حذوه. وقد تذكر أبناء عشيرة البراء، فى قابل الأيام، ما أبداه البراء من بصيرة نافذة. ولم يلبث أن توفى البراء بعد أن عاد إلى المدينة، وكان المعتقد أنه لا ينبغى الاستهانة بحدس الذين يشرفون على الموت بل يجب أخذه مأخذ الجد.

وأثناء شعيرة الإقامة فى وادى منى، حدث اجتماعٌ آخر فى الشعب عند العقبة، ولكن الاجتماع انعقد هذه المرة فى جوف الليل، وكانت البيعة التى عقدها المسلمون فى ذلك العام أصبحت تسمى بيعة الحرب: «بايعنا رسول الله بيعة الحرب على السمع والطاعة، فى عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا،

وأثره علينا، وأن لا ننازع الأمـر أهله، وأن نقول بالحق أينمـا كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم»[٢٦] ولم تكن بيعة الحرب تعنى أن الإسـلام قد تحول فجأة إلى دين عدوانى وحربى، ولكن البيعة كان لابد منها بسبب الخطوة التى كان محمد يوشك أن يخطوها، إذ كان يحث أصـحابه على الهجرة من مكة إلى المدينة، ولم تكن الهـجرة تغـييـراً جغرافـياً فـحسب، إذ إن المسلمـين كانوا يوشكون على التخلى عن قريش وقـبول حماية قبيلة لا ينتسـبون إليها بنسب الدم[٢٧]. كانت خطوة غير مسبوقة، وكانت تتضمن، من زاوية معينة، إيذاء الحساسـيات العربية على نحو مـا آذاها امتهان الربّات الوثنيـة. لقد كان نظام «التحالف» قائماً على الدوام، وكـان يعنى أن يصبح فرد من الأفراد أو تصبح عشيـرة بأكملها «أعضـاء شرفيين» فى قبيلة أخـرى، بحيث يقبلون حمـايتها لهم، ولكن ذلك لم يكـن يعنى فى يوم من الأيام قطع الوشـائج إلى الأبد، فروابط الدم كانت تمثل قـيمة مقدسة فى بلاد العرب، كـما كانت من أسس المجتمع. وتدل كلمـة «الهجرة» فى ذاتها على أن ذلك الانفـصال الأليم كان يشغل مكان الصدراة فى أذهان الذين قرروا الهجرة إلى المدينة. ومادة الكلمة «هجر» والفـعل المشتق منهـا «هَجَرَهُ» ترجمـه بعضـهم إلى «قَطَعَ صلات أو أحاديث الود أو الحب.. كَـفَّ... عن الارتباط به»[٢٨] وكان على مـسلمى المدينة أن يَعِدُوا بأن يصبحوا أولياء (أى حُمـاةً) وأنصاراً بصفة مستديمة لأناس من غير أقربائهم. ومنذ ذلك الحين أصبـحوا يعرفون باسم الأنصار أى الذين قدمـوا «النصر» أى العـون إلى الرسول وأصـحابه. وعـادة ما تترجم كـلمة «الأنصار» إلى الإنجليـزية بما يعنى «المعينين» ولكـن هذه الترجمـة لا تقدم إلا صورة ضـعيـفة لمعـنى النصر فـهو لا يقـتصـر على تقديم العـون، بل يعنى الاستعداد لتدعيم «العون» والمؤازرة بالقوة إذا اقتضت الضرورة. وكان هذا هو سبب بيعة الحرب من جانب مسلمى المدينة.

وقد تمت البيعة سـراً، فلم يكن الأمر يقتصر على قيام محـمد عما قريب باتخـاذ قرار غريب، لنـفسه ولأصـحابه المكيين، ولكـنه كان يتعـرض لخطر

داهم. ويؤكد ابن إسحق الجوانب الإيجابية للهجرة ويجعل قرار الهجرة يبدو قراراً طوعيـاً. ولكن القرآن يقول إن المسلمين «أخرجـوا» من ديارهم، ويقول عن مكة «قريتك التى أخـرجتك» (و«أخرجه الذين كـفروا»)(٢٩). ويبدو أن محمداً كان يدرك أن الناس يتآمرون على قتله(٣٠) وقد يكون مُطْعم قد أجاره عند عـودته من الطائف، شريطة أن يكف عن الدعـوة إلى دينه. ولا يشـير القـرآن مطلقـاً إلى مـزايا الهـجرة، ولـكنه يوحى فـقط بأن المسلمين كـانوا مضطرين إلـى الرحيل ومرغـمين عليه. وقـد ساد الاجتـماع الذى عـقد فى موسم الحج عام ٦٢٢ إحسـاس بالخطر وبأن الجسور قد تقطعتْ دون أمل فى إعادة بنائها، وكان لابد من الحفاظ عـلى سرية الاجتماع، بل إن الأنصار لم يذكروه حـتى لأصحابهم الوثنيين أثناء الحج، حـتى لا يتحدثوا عن الهـجرة المعتزمة فى أرجاء مكة وبحيث لا تنتبه قريش إلى ما كان يجرى آنذاك.

وفى ليلة البـيعة، ترك الأنصـار أصحـابهم الوثنيين نيامـاً فى خيـامهم، وتسللوا «تسلل القطا مستخفين» إلى الشعب عند العقبة، حيث قابلوا محمداً وبصحبته العباس(٣١). ولم يكن العباس قد اعـتنق الإسلام بعد، ولكنه كان يحب ابن أخيه، وكان يريد أن يطمئن، وفـقاً للمصادر الأولى للسيرة، على أن محـمداً سوف يتمـتع بالأمن والسلامة الكامـلة فى المدينة. وبدأت وقائع الاجتمـاع بأن حذّر الأنصار قائلاً إن عليـهم أن يفكروا ملياً قبل أن يتـعهدوا بنصرة وحمـاية مسلمى قريش: «فإن كنتم ترون أنكم وافـون بما دعوتموه إليه ومـا نعوه ممـن خالفـه، فـأنتم ومـا تحملتم مـن ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه»(٣٢). ولكن الأنصار كانوا على استعداد للثبات على قـرارهم، إذ أخذ البراء بن معرور بيد النبى، ممثلاً للأوس والخـزرج، وأقسم إن المسلمين سـوف يحمـون النبى حمـايتهم لنسائهم وأطفالهم، ولكن رجلاً من الأنصار قاطع البراء أثناء حديثه قائلاً: إن أهل المدينة قد عقدوا أحلافـاً ومعاهدات أخرى وإنهم قد يضطرون إلى نقض

بعضـها فى غضـون حمايتهم لـمسلمى مكة. ماذا يكون عليه الحـال إذا هجر محمد المدينة بعـد ذلك وترك أهلها عُرضة لانتقام حلفائهم السـابقين؟ فتبسم مـحمـد وأجـاب: «أنا منكم وأنتم منى، أحـارب من حـاربتم وأسـالم من سالمتم»(٣٣). ولما رضى الجانبان بذلك عقد الأنصار بيعة الحرب.

وبعـد عودة الأنصـار إلى المدينة، شـرع مـحمـد فى إقناع مـسلمى مكة بالهجـرة إليها. لقـد كانت خطوة رهيـبة ولا رجوع عنهـا، إذ لم يكن أحد يعرف مدى نجاحها، لأنها لم تكن مسـبوقة فى بلاد العرب. ولم يأمر محمد المسلمين بالهجرة، فـمن رفض أو رأى أنه لا يقدر عليها، سُـمح له بالبقاء. ولقد ظل بعض كـبار المسلمين فى مكة ولم توجه لهم إطلاقاً تـهمة الردة أو الجبن. ولكن نحواً من سبـعين مسلماً انطلقوا خلال شهـرى يوليو وأغسطس عام ٦٢٢ مـع أفراد أسـرهم إلى المدينة، حيث اسـتضـافهم الأنصـار ريثمـا يتمكنون من الاستقلال بمنازلهم. ولا يبدو أن قريشاً بذلت جهداً كبيراً لمنعهم من الهجرة، وإن كان بعض النساء والأطفال قد احـتجزوا بالقوة، وأعيد أحد الرجـال مربوطاً إلى جـمله فاحـتفلت بـذلك قريش. ولكن المسلمين كـانوا يحرصـون على عدم لفت انتباه النـاس إليهم، وكثيـراً ما كانوا يتفـقون على اللقاء خارج مكة، وكانوا يسافرون فى جماعات صغيرة لا تثير الانتباه. وكان من السابقين عمر وأسرته، وعثمان بن عفان وزوجته رقية، وغيرهم من أفراد أسرة النبى، مع زيد وحـمزة. وظل محـمد وأبو بكر فى مكة حـتى غادرها الجمـيع، ولكن تلك الهـجرة على ذلك النطاق الواسع سـرعان مـا أحدثت فجوات بعثت على قلق أهل البلدة، وهى التى كـانت ترمز إلى الجرح السيال الذى أحدثه مـحمد فى جسـد قبيلة قريش، وهى التى كـانت تنعم بالوحدة والازدهار من عشـر سنوات فحسب. وكان عـبد الله بن جحش (ابن عـمة محـمد) قد هاجـر من قبل مع أسرته وأخـواته، وبعد رحيـلهم أصبح المنزل الكبير الخاص بآل جحش فى وسط مكة خاوياً تماماً. ونظر إليه عتبة بن ربيعة

فـرآه مهـجوراً ونذيـر سوء إذ كـانت الدار «تخـفق أبوابها يبـاباً ليس فـيهـا ساكن»(٣٤).

وفى أغـسطس توفى مطعم الذى كان يجـير مـحمـداً، فأصـبحت حـياة الرسول معرضة للخطر مـن جديد. وانعقد اجتماع خاص لمناقشـة أمر محمد فى دار الندوة (مجلس الشيوخ) وحـرص أبو لهب على عدم حضوره، وكان بعض الرؤسـاء لا يريدون إلا إبعاد مـحمـد عن مكة، ولكن الآخرين كـانوا يدركون أن الـسماح لمحـمد باللحـاق بالمهاجـرين الآخرين فـيه خطر شـديد عليهم. وقـالوا إن كل الذين هاجروا يعـتبرون خـونة فقـدوا الأمل وانتهكوا المبـادئ وقطعوا أواصـر النسب المقـدسة، ولن يرعـووا الآن عن اقتـراف أى جرم، فإذا ظفروا برئاسة محمد وزعامته لهم فسوف يمثلون خطراً يتهدد مكة. وطرح أبو جهل، آخر الأمر، خطة تكفل التـخلص من محمد دون أن تؤدى إلى الأخـذ بثأره وهى أن يأخـذوا من كل قـبيلة «فـتى شـاباً جليداً وسـيطاً فينا... فيـضربوه ضربة رجل واحد... فـيتفرق دمـه فى القبائل جمـيعاً» وهكذا يكون على بنى هاشم أن «تـرضى بالعقل» أى بأخـذ الدية، لأنهم لن يستطيعوا أن يحاربوا قريشاً كلها.

وسرعان مـا تم اختيار الفـتيان، واجتـمعوا خارج منزل محـمد، ولكنهم انزعجوا عندما سمعوا أصوات سودة وبنات النبى من خلال النوافذ، ولما كان من العار أن يقدموا على قتل رجل بحضرة نساء بيته، قرروا أن ينتظروه حتى يخرج فى الصباح. ونظر أحـد المتآمرين من النافذة فشاهد محـمداً نائماً وقد تدثر ببردته، ولم يفطـنوا إلى أن محمداً كـان قد نبّهـه جبريل، فيـما يروى الرواة، إلى المؤامرة فخـرج متخفياً من باب خلفى وترك عليـاً، الذى كان قد تأخر فى الهجرة حـتى يؤدى عن النبى الودائع التى كانت عنده للناس، راقداً فى فراشه ونائماً فيما يبدو مـتدثراً ببردته. وعندما خرج علىٌّ فى الصباح من المنزل، أدرك الشـبان أنهم قـد خُـدعوا، ومن ثم أعلـنت قريش عن مكافـأة

قدرها مائة من النوق لمن يعود بمحمد حياً أو ميتاً.

وكان محمد وأبو بكر فى هذه الأثناء يختبئان فى غار بأحد الجبال خارج المدينة. ومكثا فى الغار ثلاثة أيام، وكان مناصروهما يتسللون من مكة بين الفينة والفينة لتزويدهما بالمؤن والأنباء. وجاء فى الأثر أن فريقاً من الباحثين عن محمد مر بالغار فعلاً، ولكن أفراده لم يهتموا بالنظر فى داخله، إذ كانت عنكبوت قد نسجت بيتاً كبيراً تغطى المدخل خيوطه، ونبتت شجرة سنط أمامه بين عشية وضحاها بما يشبه المعجزة، أما فى الموقع الذى لابد للمرء أن يضع قدمه فيه حتى يصعد إلى الغار فكانت توجد فيه حمامة ترقد على بيضها فى العش، وكان الواضح أنه قد مضى عليها وقت طويل. وشعر محمد فى هذه الأيام الثلاثة بسلام نفسى عميق، وأحس إحساساً قوياً بوجود الله معه. ويصف القرآن هذا الشعور بأنه السكينة، والتى تعنى حرفياً لوناً من السكون ولكنها تعنى فى هذا السياق معنى يقترب من معنى الشكينة بالعبرية، وهو المصطلح الذى يشير إلى وجود الله على الأرض، ويقول القرآن: ﴿ **فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها** ﴾(٣٥) (التوبة ـ ٤٠).

وعندما بدا لمحمد وأبى بكر أنهما يستطيعان مغادرة الغار فى أمان، حرصا وهما خارجان على عدم الاقتراب من الحمامة الراقدة، وركبا الراحلتين اللتين كان أبو بكر قد جهزهما. وأراد أبو بكر أن يقدم الراحلة الأقوى إلى محمد، ولكن محمداً أصر على أن يدفع ثمنها، فقد كانت هذه هجرته الشخصية، وقربانه إلى الله، ولذلك فكان من المهم له أن يشعر بأنه صاحب الرحلة كلها. وأطلق على الناقة اسم «قسوة» وظلت راحلته المفضلة إلى آخر عمره.

وكانت الرحلة التى شرعا فيها تحفُّها أخطار بالغة، إذ يقال إن محمداً لم يكن وهو على ظهر الطريق يتمتع بحماية أحد. واصطحبهما الدليل فى

طريق بالغة الالتواء، وكـانا يتقدمان ويتأخـران لتضليل من يتعقبهـما. وكان مسلمو المدينة فى تلك الأثناء يترقبون وصولهما بلهـفة كبيرة. وكان عدد كبير من المهاجرين يقيمون فى قباء، وهى منطقة فى أقصى جنوب الواحة، وكانوا يقومون كل يوم بعد صلاة الصبح بتسلق الصـخور البركانية القريبة ويتطلعون إلى كل شبر فى الأفق. وفى صبيحة يـوم ٤ سبتمبر ٦٢٢ لمح القادمين رجل من اليهـود فصـاح بالأنصار «يا بنى قـيلة! هذا جدكم قـد جاء!»[٣٦] وعلى الفور أهرع الرجال والنساء والأطـفال لملاقاة المسافرين فوجدوهمـا يستريحان عند جذع نخلة.

ومكث محـمد وأبو بكر فى قـباء ثلاثة أيام، ثم لحق بهـما علىّ. ولكن المسلمين فـى «المدينة» (وكـان ذلك الاسم يطلق علـى أكـثـر مناطق الواحـة ازدحاماً بالسكان) كـانوا يتطلعون إلى لقاء النبى بصبـر نافذ، ومن ثم انطلق لمقابلتهم واختيار المكان الذى سيقيم فيه. كان يركب راحلته «قسوة» التى قيل إنها «مـأمورة» ومن ثم ترك النبى لهـا حرية الذهاب أنّى تشـاء. وتوسل إليه الكثيرون وهو فى الطريق أن ينزل عن راحلته ويقيم فى منازلهم ولكن محمداً يرفض بأدب جم حتى بركت عند مربد (وهو المكان الذى يجـفف فيه التمر) ورفضت أن تنهض من جـديد. وكان المربد ملكاً لأخويـن من يتامى المدينة، فنزل مـحـمـد عن ظهـرها وسمح بـحمل مـتاعـه إلى أقـرب منزل، ثم بدأ التفـاوض مع الأخوين حول شـراء أرضهمـا. وعندما تم الاتفاق على سـعر مناسب، أمر الرسول بأن يبـدأ العمل فوراً على بناء مسجـد، على أن يتخذه النبى منزلاً له ولأسـرته أيضاً. وشرع الجـميع فى العـمل، وكان المهـاجرون يعملون جنباً إلى جنب مع الأنصار. ولم يكن أبناء قريش جميعاً ممن اعتادوا العمل اليدوى، وكان عـثمان بن عفان، زوج ابنة النبى، أنيقـاً مهندماً، وقد وجد ذلك الـعمل، فيـما يبـدو، مرهقـاً ومنهكاً له، وفى أثناء العمـل كانوا أحياناً ينشدون أراجيز ألّفها المنشدون خصيصاً لهذه المناسبة منها:

لا عيــش إلا عيــش الآخــرة

اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة(*)[٣٧]

وكان مــحمد يغيــر الشطر الثانى إلى «اللهم ارحم المهاجـرين والأنصار، وهو التعديل الذى يبتعد بالكلام عن الوزن والقـافية، مما يبين أن محمداً كان «أُميّاً»، فلم يكن شاعراً بالفطرة، والواقع أن نقص مهارته اللغوية يثبت مدى إعجاز القرآن.

ولكن المهاجرين والأنصــار كانوا فى حاجة إلى رابطة «رسمــية» أقوى من الأراجيز والمشــاركة فى العمل. ومن ثم وُضعت مـعاهدة آنذاك، ومن حسن حظنا أن المصادر الأولى قد حفظتها لنا حتى نطلع على التخطيط الأول لأقدم مجتمع إسلامى. وهى تقول إن محمداً وَادَعَ القبائل العربية واليهودية بالمدينة وعاهدهم، على أن تنسى جميع قبائل الواحة، على اختلافها، عداءها القديم وأن تشكل فيــما بينها «قــبيلة عظمى» إن صح هذا التـعبيـر، وعلى أن يسود السلام بين المسلمين واليهود من ناحيــة وبين مشركى المدينة من ناحية أخرى، بشرط ألا يعقـدوا معاهدة منفصلة مع مكة للتــخلص من النبى. وتقول المادة العشرون من العهد: «لا يجير مـشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مـؤمن»[٣٨] وإن مـرجع أمــر المجتــمع كلــه إلى الله، وإن ذمــة الله واحدة[٣٩]. أما المسلمون فهم يشكلون فيمـا بينهم مجموعة ذات طابع جديد تماماً، فالقبائل جمــيعاً «أمة واحدة من دون الناس»[٤٠]. وكانت القبيلة حتى الآن تمثل الوحدة الأساسية للمجتمع، أما الأمة فهى مجتمع يقوم على الدين لا على صلات القرابة والنسب. وكان ذلك غيــر مسبوق فى بلاد العرب. لم تكن ولاية محمد الأصلية تتـضمن إنشاء حكومة دينية، والأرجح أنه لم يكن يدرى ما هى الحكومة الدينية، ولكن تطور الأحداث دفعه إلى تجاوز مفهوماته

(*) قال ابن هشام: هذا كلام وليس برجز. (ص ٤٤٢). (المترجم)

المسبقـة الأصلية إلى إيجاد حل جديد تماماً. كان الإسـلام يمثل، على امتداد سنوات عديدة، قـوة تفصم عـرى المجتمـع، وكان محـمد يتهـم بأنه يسرق الأطفـال من أبويهم. ولكنه لم يدر بخلد أحـد، حتى حـدثت الهجـرة، أن يترك قـبيلة قريش. أما الآن فـقد ألغيت الروابط القـبلية القديمة، وأصـبحت قريش والأوس والخزرج أمة واحدة، وبدأ الإسلام يمثل قوة توحيد لا تفريق.

ولكن مفهـوم القبيلة كان له تأثيره المحـتوم فى نظرة المسلمين الأوائل إلى الأمة. وكانت نظرتهم إلى المجتمع الجديد مـا تزال تخضع للمفاهيم القبلية، وفى هذا يقول القرآن:

﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصـروا أولئك بعـضـهـم أوليـاء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فـعليكـم النصـر إلا علـى قـوم بينكـم وبينهـم مـيـثـاق﴾[٤١] (الأنفـال ـ ٧٢).

فإذا أردت الانضمام فعليك أن تهاجر وتترك قبيلتك وتلتحق بالأمة. كانت الأمة، مـثل القبـيلة، عالماً قائمـاً برأسه: «أمـة واحدة من دون الناس»[٤٢]. ولكن بإمكانها التـحالف مع القبائـل الأخرى بالطريقة التقليـدية. وكان على وحدة الأمة أن تمثل وحـدة الخالق، وقد أُمر المسلمـون أيضاً أن يقيمـوا الحياة الشخـصية على أسس هذه الوحدة، فـلا يسمحـوا لرابطة الدم أو للإخلاص القديم للقـبيلة، أن يعوق وحدة الأمـة أو أن يُشتّت الأمة ويحيلهـا إلى فرق متناحرة، فيجب ألا يحارب مسلم مسلماً مـهما تكن قبيلته. ولم يكن محمد قد أصـبح بعد رأس هـذه الأمة، فكانت منزلتـه بالغة التـواضع فى المدينة، وكانت فى البداية أقل كثيراً من منزلة رؤساء المدينة مثل سعد بن معاذ أو ابن أُبيّ. وكانت الوظيفة الخاصة الوحيدة التى يقوم بها هى النهوض بدور الحَكَم المحايد فى المنازعات الناشبة بين المسلمين.

كان ذلك حلاً ثورياً، ولكن الجميع كانوا على استعداد فى البداية لتجربة ذلك الحل، فقد كانت الأحوال فى المدينة من المحال أن تستمر، وكان التغيير - مهما يكن - أفضل من دائرة الحروب القديم التى لا بُرء منها. ولم يعارض المشركون ذلك . وقد حدث أن فرّ أحد زُهّاد العرب واسمه أبو عامر (ويشار إليه أحياناً باسم الراهب) إلى مكة بعد وصول النبى إلى المدينة. ولكن المشركين الذين لم يعتنقوا الإسلام كانوا يعمدون إلى عدم الظهور بعد تلك الحادثة. وكان اليهود على استعداد فى البداية لقبول النظام الجديد، وقرر بعضهم أن يتحول إلى اعتناق هذا الشكل الجديد من دين التوحيد العربى. ولكن محمداً لم يطلب منهم مطلقاً أن يقبلوا دين الله الذى جاء به، إلا إذا أبدوا هم الرغبة فى اعتناقه. ويقول القرآن ما يمكن تفسيره بأن اليهود الذين لم يعتنقوا الإسلام كانوا يشكلون نوعاً من المجتمع «الموازى» وكانوا يعتبرون أنفسهم يهوداً أولاً وأخيراً(*)(٤٣). فقد أنزل عليهم كتاب صادق، وكأنما يوحى القرآن بأنه لم يكن بهم حاجة إلى قبول الإسلام فى ذلك الوقت، وهكذا كان كل شىء ينطق بالأمل أول الأمر بل لقد اعتنق الإسلام رجل لم يكن ينتمى إلى العرب على الإطلاق. إذ حدث أثناء بناء المسجد أن قام عبد فارسى يدعى سلمان، وكان مملوكاً ليهودى من بنى قريظة، بعرض نفسه على النبى، وقص قصته عليه فقال إنه ولد بالقرب من أصفهان واعتنق المسيحية، وسافر إلى سوريا حيث سمع روايات عن النبى الذى يوشك على الظهور فى بلاد العرب. وقال إنه وقع فى الأسر وهو فى طريقه إلى الحجاز وشاءت العناية الإلهية أن ينتهى به المطاف فى المدينة، وقد كتب لسلمان الفارسى أن

(*) الإشارة إلى الآية ١٠٩ من سورة آل عمران غير دقيقة، والأرجح أنها الآية ١١٣ وما بعدها: «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون فى الخيرات، وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين». (المترجم).

يصبح من الشخصيات المبجلة فى الإسلام، إذ عادةً ما ينظر إليه باعتباره رمزاً لدخول جميع الشعوب الشرقيـة غير العربية فى الإسلام، وهى الشعوب التى سخّرت جميع مواهبها لإعلاء شأن الإسلام.

وفى أبريل ٦٢٣، أى بعد الهجرة بسبعة أشهر، اكتمل المسجد. كان مبنياً من الطوب (القرميـد)، وكان بالحائط الشمالى المواجه للقـدس محراب تحيطه الأحجار، ويدل على وجهة القبلة، وقـد ألحق بالمسجد فناء كبير لأداء صلاة الجماعـة. وكان الناس فى البداية يأتون للصلاة دون دعـوة وكان من الواضح أن ذلك لم يكن مستحباً لأنهم كانوا يأتون فى أوقـات مختلفة. ونظر محمد فى إمكان استخدام بوق من قرون الكباش لدعوة المسلمين إلى الصلاة، مثلما كان اليهود يفعلون، كما نظر فى إمكان استخدام ناقوس خشبى (لقلاقة) مثل المسيحيين الشرقيين، ولكن أحد المهاجرين رأى فى منامه أن رجلاً يرتدى بردة خضـراء جاءه وقال له إن أفضـل طريقة لدعوة الناس إلى الصـلاة هى تعيين رجل له صوت جَهْوَرِىّ رنّان، تكون مهمـته هذه الدعوة بأن يقول «الله أكبر» أربع مرات لتـذكير الناس بأن الله أكبـر من أى متاع دنيوى. ويسـتمر الأذان على النحـو التالى: «أشـهد ألا إله إلا الله ـ وأشـهد أن مـحمـداً رسول الله (مرتين)، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكـبر، الله أكبـر، لا إله إلا الله». وتقبل الرسـول الفكرة وعيّن بلالاً، العبد الذى أعتـقه أبو بكر، ليقوم بتلك المهمـة. وكان بلال يصعد فى كل سَحَرٍ إلى قـمة أعلى منزل قريب من المسجـد، ويجلس على السقف فى انتظار بزوغ الفجـر. فإذا رآه تمطّى وقبل أن يؤذّن دعـا الله قائلاً: «اللهم إنى أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك»(٤٤).

ولم يتخذ محمد مسكناً خـاصاً به فى المسجد، ولكن الحائط الشرقى كان قد ألحق به بيتان صغيران، أحدهما لسـودة، والآخر لعائشة. وقد بنيت فيما بعد غرف مستقلة لكل زوجة من زوجاته، وكان محمد يقيم مع كل منهن فى

اليوم المخصص لها. وعندما اكتمل بناء المسجد أرسل زيداً لإحضار زوجتيه ونساء المنزل، واللائى كن ما يزلن فى مكة، إلى المنزل الجديد. وعاد زيد مع سودة، وأم كلثوم وفاطمة، ابنتى محمد، (بينما ظلت زينب تقيم مع زوجها المشرك، وهو أبو العاص) ومع زوجة زيد (أم أيمن). كما جاء معه آخر من هاجر من أفراد أسرة أبى بكر، وهم عبد الله، ابنه، وأم رومان، زوجته، وابنتاه أسماء وعائشة.

وعندما جاءت النساء أقيمت بعض حفلات الزفاف، إذ قرر محمد أن على زيد أن يتزوج زوجة أخرى أقرب إليه فى عمرها من زوجته أم أيمن، وتقدم نيابة عنه لخطبة زينب بنت جحش، التى كانت جميلة، من أخيها عبد الله، ولكن زينب لم تكن سعيدة على الإطلاق بذلك، إذ كان زيد قصيراً أسمر وذا أنف أخنس، ومن ثم لم يكن شاباً وسيماً على الإطلاق ، بينما كانت لزينب آمال وطموحات أكبر، على نحو ما سوف نرى. ولكنها وافقت عندما أدركت أن ذلك كان ما يريده النبى حقاً. كما قام أبو بكر بتزويج ابنته أسماء إلى الزبير بن العوام، وهو من أقرباء النبى، لزيادة توثيق الرابطة بينه وبين أسرة النبى.

وأخيراً، وبعد نحو شهر من وصول عائشة إلى مكة، تقرر أن الوقت قد حان لزفافها إلى محمد. كانت ما تزال فى التاسعة من عمرها، ومن ثم فلم يعقد حفل الزفاف بل اكتفت الأسرة بالحد الأدنى من الإجراءات الرسمية. والحق أن الاحتفال كان محدوداً لدرجة أن عائشة نفسها لم تكن تدرى يوم زفافها أنها سوف تتزوج وكانت تلعب بأرجوحة مع صديقاتها. وكان أبو بكر قد اشترى قماشاً بديع النسج ذا خطوط حمراء من البحرين، صُنع لها منه ثوب الزفاف. ثم اصطحبوها إلى مسكنها الصغير المجاور للمسجد. وكان محمد هناك فى انتظارها، وكان يضحك ويبتسم أثناء تزيينها بالحلىّ والجواهر وتمشيط شعرها الطويل. وأحضر أهل الدار إناء مليئاً باللبن شرب منه محمد

وعائشة ولكن الزواج لم يُدخل تغييراً يذكر فى حياة عائشة. ويقول الطبرى إنها ظلت تقيم فى منزل أهلها، ولم يدخل بها النبى إلا بعد أن بلغت مبلغ النساء. وظلت عائشة تلعب مع صديقاتها وتلهو بعرائسها الصغيرة، وكان محمد يأتى أحياناً لزيارتها، وتقول عائشة إن الفتيات كن يتسللن خارجات من المنزل ولكن محمداً كان يسعى إليهن ويأتى بهن ثانية فقد كان يسره أن تظل الفتيات معها يشاركنها اللعب. وكان محمد يستمتع بمشاركة بناته اللعب وهن صغيرات، وكان أحياناً يشارك عائشة فى لهوها. وذكرت عائشة أنه دخل عليها ذات يوم وهى تلعب بالدمى والعرائس وسألها عن نوع اللعبة فقالت إن اسمها «خيول سليمان» فضحك النبى(٤٥).

ولكن عائشة أحسّت بحزن يغشى الأمة، وشاهدت ذات يوم أباها والعبديْن اللذين أعتقهما ـ عامراً وبلالاً ـ راقديْن على الأرض، مريضين بالحمىّ التى أصابت كثيراً من المهاجرين عندما وصلوا إلى يثرب فى البداية. كان الثلاثة يعانون من هذيان الحمى، وكان بلال يضطجع وحده بفناء البيت ثم رفع عقيرته ينشد أغنية تعبر عن حنينه إلى مكة قائلاً:

ألا ليتَ شعرى هل أبيتنّ ليلةً بفخٍّ وحولى أذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدَنْ يوماً مياه مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لى شامةٌ وطفيلُ(٤٦)

وذهبت عائشة إلى محمد، وكان يدرى مدى الألم وعذاب الفرقة الذى يعانيه المهاجرون، فبث الطمأنينة فى قلب عائشة وإن كان قد دعا الله قائلاً: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كما حبَّبت إلينا مكة أو أشد»(٤٧)، كما بدأ يدرك مشكلة أخطر تتعلق بالأنصار، فلم يكن جميع الذين اعتنقوا الدين الجديد فى المدينة من الملتزمين به حقاً، إذ كان بعضهم قد أسلم استجابة للأوضاع القائمة، لا عن عقيدة واقتناع، وكان يبدو لهؤلاء أن اعتناق الإسلام هو التيار الجارف الذى لا راد له، وكرهوا أن يتخلفوا عن المسيرة. والواقع أن هؤلاء كانوا فى تلك الآونة «يجلسون على السور» ينتظرون ما تئول إليه الحركة

الجديدة. وقـد تجمع هؤلاء المنافـقون حـول عبد الله بن أُبيّ الـذى كان على الأرجح سيُتوَّج ملكاً على المدينة لو لم يصل محمد. وكان ابن أُبيّ قد اعتنق الإسـلام، ولكنه كـان أبعـد مـا يكون عـن التـحـمس له، وكـان يأمل فى «اختطاف» الحـركة لو تعـثرت. وقد نزلت السـورة الثانيـة من القرآن، وهى أطول سورة، خـلال الشهور القليلة الأولى التى قـضاها محـمد فى المدينة، وهى تلقى الضـوء عـلى إدراك مـحـمـد للصـعـوبة التى كـان يواجـهـهـا المسلمون[٤٨]. وأبدى محـمد الصـبر على ابن أُبيّ مـؤقتـاً، فكان ينزله فى المسجد منزلة التكريم، ويسـمح له بإلقاء خطبة الجمعـة. وكان ابن أُبيّ يقابل ذلك بالتأدب عادة فى التعامل مع محمد، ولو أن عداوته كانت أحياناً ما تبرز بوضوح. وفى أعقاب حـادثة سمع فيها الرسول مـا يكره من ابن أُبيّ، تغيّر وجهه فـانتحى به أحد الأنصار وقال له: «يا رسـول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لـننظم له الخرز لنُتـوِّجه، فوالله إنه ليـرى أن قد سلبـته مُلكاً»[٤٩].

وكان اليهود فـى البداية، مثل المنافقين من العرب، على استـعداد لمسايرة النبى، خصوصاً بسبب ما كان يبدو لديه من ميل إلى اليهودية، ولكنهم لحقوا بابن أُبيّ آخر الأمر وانقلبـوا على الإسلام، وبدءوا يجتمعـون فى المسجد فى أوقـات الصلاة «فـيسـتـمعـون أحاديـث المسلمين ويسخـرون ويسـتهـزئون بدينهم»[٥٠]. لقد وجدوا من أيـسر اليسير عليـهم، بسبب إحاطتهـم الفائقة بالكتاب المقدس، أن يسخروا من بعض قصص القرآن عن شتى الأنبياء بسبب اختـلافها الواضح عن الصـورة التى وردت بها فى صـحفهم. ولقـد تعالت أصواتهم برفض الاعتراف بصدق نبوة محمد وسخروا منه قائلين ما أغْرَب أن يعجـز رجل يقول إنه تتنـزل عليه الآيات من عند الله عن العـثور على ناقـته الضالة[٥١]. وكان المسلمون يضيقون ضيقـاً شديداً بهذا الغمز واللمز حتى إنه كثيراً مـا كان يتسبب فى التشاجر، كمـا وقعت اشتباكات قبيـحة طُرد اليهود

على أثرها بالقوة من المسجد بعد أن سخروا من المسلمين سخرية خبيثة. كان اليهود يستندون فـى رفضهم إلى أسس دينية صُلبة، إذ كانوا ينتظرون مـسيحاً وهم يعتقدون أن عصر النبوة قد انتهى. وكانوا يقولون إن أحداً من اليهود أو المسيحيين ليس له فى ذلك الزمن أن يزعم أنه نبىّ، مثلما كان من المحال على أحد أن يزعم أنه مـلاك أو بطرك. ولكن تاريخ اليهود فى المدينة كـان يسمح لهم بقبـول محمد، لأن اليهـودية تتمتع بتقـاليد عريقة تنص على الـترحيب «بالمتقين» فى كنف معبدهم. ولم يكن هؤلاء المتقـون يلتزمون بشريعة موسى كلهـا، ولكن اليهـود كانـوا يعتـبرونهم من أصـدقـائهم وخُلصائهم، وكـان المسلمـون، فيمـا يبدو، ممن تنطبـق عليهم صـفات هؤلاء الحلفـاء بوضوح. ولكن اليـهود أدركـوا أن أوضاعـهم فى المدينة تدهورت تدهوراً شـديداً منذ وصول محمد، ومن ثم أعلنوا رفضهم له بقوة وعنف.

وربما كان رفض اليهود لمحمد بمثابة أكبـر خيبة أمل تعرض لها فى حياته، وبمثابة تحـدٍّ لموقفه الدينى برمتـه. ومع ذلك فقد كان فى المدينة بعض الـيهود الذين يضمـرون الود له، والذين ساعدوه فى الـرد على زملائهم بأساليـبهم نفسها، وبتقديم معلومات مهمة إليه عـن كتبهم المقدسة. والحجة التى يقيمها القرآن على اليهود حجـة كاملة الأبعاد وهى تدل على مدى قلق المسلمين من انتقـادات اليهود لهم، ولكن مـحمداً تمكن بفـضل ازدياد معرفـته من دحض مزاعمهم. فكتبهم المقدسة نفسها تقول إنهم شعب لا يؤتمن، انتهكوا عهد الله بانتكاسهم إلى الوثنية وعبادة العجل الذهبى(٥٢)، كما ابتدعوا «بدعة» لا مبرر لها عندما وضعوا «شريعة القول»(٥٣)، كما دأبوا على عصيان الأنبياء، مراراً وتكراراً(٥٤). وعرف مـحمد التسلسل الزمنـى للتاريخ اليهودى واكـتشف أن اليهود والمسـيحيين، الذين كان يعتقد أنهم ينتمـون إلى دين واحد، يختلفون فيما بينهم اختلافات خطيـرة. وكان يبدو لمن لا ينتمون إلى أى من الطائفتين أن مساحة الاختيار بينهمـا محدودة، وهكذا كان من الطبيعى أن يتصوروا أن

كل طائفة من أهل الكتاب قد أضافت حتماً بعض العناصر الجديدة الدخيلة إلى التنزيل النقىّ الأصلى. ولكن خلاف محمد مع اليهود لم يؤثر فى علاقاته بالمسيحية. بل إن القرآن أحياناً ما ينحاز إلى المسيحيين ضد اليهود، على نحو ما يفعل عند الرد على زعم اليهود بأنهم قد صلبوا المسيح، إذ يقبل حجة أصحاب مذهب «الاشتباه» قائلاً إن عيسى لم يمت حقاً على الصليب، ولكن الذى بدا أنه قد مات شبيه له(٥٥). ومع ذلك فالقرآن يرفض تماماً زعم المسيحيين بأن الله قد اتخذ ولداً، ولم يكن من الأرجح أن محمداً الذى عانى مر المعاناة بسبب رفضه قبول اتخاذ الله بنات، سوف يبدى التعاطف مع هذا المبدأ. ومراراً وتكراراً يؤكد القرآن أن هذه العقيدة مثال على «الظن»، أى ذلك اللون من التخرص الذى لا غناء فيه والذى يُحدث الفرقة، إزاء أمور من المحال أن يعرفها أحد، والذى أدى إلى انقسام أهل الكتاب إلى معسكرين متناحرين(٥٦).

ومع ذلك فقد استمر محمد يقول بأن ما أنزل إليه يتفق مع ما أنزل إلى من قبله من الأنبياء. ولم يكن جميع اليهود يتخذون موقفاً معادياً، وكان محمد يصر على أن واجب المسلمين، مهما تكن متاعبُهم الراهنة، هو تأكيد الأشياء التى يشتركون فيها مع أهل الكتاب. والأرجح أيضاً أن محمداً كان يعتقد أن بعض المسيحيين لا يوافقون على الفكرة المشينة التى تقول بأن الله قد اتخذ ولداً. ولذلك فعلى المسلمين ألا يُناهضوا من اليهود والمسيحيين إلا من يعادون القرآن أو من أتَوْا بالبدع غير المقبولة فى الدين الحنيف:

﴿ ولا تُجادوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾(٥٧) (العنكبوت ـ ٤٦).

ورغم تفاقم النزاع مع القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث فى يثرب فيما بعد، فقد ظلت هذه هى السياسة الإسلامية الرسمية.

وقد كُتب لمحـمد أن يعلم المزيد فى المدينة عن إبراهيم، كمـا تمكن بفضل معرفتـه بالتسلسل الزمنى لتاريخ الهداية الإلهية أن يُدرك أهـمية سَبْق إبراهيم لموسى وعيسى. ولذلك فمن المنطقى الافتراض أن أتباع موسى وعيسى الذين كانوا، فيـما يبدو، مشتبكين فى مناظرة عـقيمة، قد أدخلوا بدعاً مـعوقة فى الدين الحنيف الذى أتى به إبراهيم والذى نزل قبل التوارة والإنجيل:

﴿ **ما كان إبراهيمُ يهوديًا، ولا نصرانيًا ولكنْ كان حنيفاً مسلماً وما كـان من المشـركين؛ إن أولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتَّبعـوه وهذا النبىُّ والذين آمنوا والله ولىُّ المؤمنين** ﴾[٥٨] (آل عمران ٦٧ و٦٨).

كان المسلمون فى مكة يُفـضّلون النبى موسى، ولكن إبراهيم شغل المكانة الذى كان يتـمتع بها فى المدينة، ووجد مـحمد الإجابة الكاملة على سـخرية اليهـود وتهكمهم. كان النبى ومن تـبعه من المسلمين يرجـعون إلى روح دين إبراهيم الحنيف (الخـالص) الذى كان أول المسلمين. ولا ندرى إلـى أى مدى حقق النبى محـمد رغبة بعض العرب، فى بلدان الاستـقرار، فى العودة إلى دين إبراهيم، ولا يشير القـرآن إلى طائفة الحنيفية الصغـيرة فى مكة، كما لا يتضمن القـرآن الإشارة إلى إبراهيم قبل نزول السور المدنـية. ويبدو على أى حال أن المسلمين كانوا يطلقون على دينهم فى تلك الفترة «الحنيفية» أى الدين النقى الخالص الذى كان إبراهيم يتبعه.

وهكذا فإن وسيلة مـحمد فى الردّ ما تزال قـائمة على العقيدة الأسـاسية القائلة بأن الإيمان يعنى الإسلام لله لا لأى صورة دنيوية معينة من صور ذلك الإيمان. والواقع أن الاتجـاه إلى تقدير أهمـية إبراهـيم مكّنه من تعمـيق ذلك الإدراك. فاليهـود والمسيحيـون الذين كانوا يحثون الناس على قـبول ما أنزل إليهم وطـرح ما عدا ذلك كـانوا يبتـعدون عمـا أنزل على إبراهيم أولاً وعن الرسالة النقـية لقدامى الأنبـياء والذين كـان كـل منهـم يؤكـد صحـة ما أنزل على غيره:

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[٥٩] (البقرة - ١٣٦).

ولا شك أن من «الوثنية» تفضيل التعبير البشرى عن الإيمان على الله ذاته. والكتب المُنزّلة لا تُلغى أى رسالة مما أتى به الأنبياء الأوائل، بل هى بمثابة تأكيد ومواصلة لها.

وورود ذكر إسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم، ذو أهمية أساسية فى هذه القائمة من الأنبياء العظام. فأصدقاء محمد من يهود العرب أضافوا بعض الأساطير المحلية الخاصة بهم، وفقاً لما يقوله أحد الباحثين[٦٠]، إلى ما ذكروه للنبى عن إسماعيل لأول مرة، وكان محمد يعلم أن سفر التكوين يقول إن إبراهيم أنجب ولداً من جاريته هاجر اسمه إسماعيل (ومعنى الاسم اشتقاقاً «سمع الله») وعندما حملت سارة وليدها إسحق، تملكتها الغيرة من هاجر وابنها إسماعيل وأصرت على أن يتخلص إبراهيم منهما. وحزن إبراهيم لفراق ابنه إسماعيل، ولكن الله وعده بأن يصبح إسماعيل هو الآخر أباً لأمة عظيمة. وهكذا قام إبراهيمُ الذى يعصره الأسى بترك هاجر وابنها فى وادٍ غير ذى زرع، أى فى البرية، فنما وترعرع طليقاً «رامى قوس» أى محارباً عظيماً[٦١] وكان يهود العرب يعتقدون أن إسماعيل أصبح جَدَّ العرب، وقيل إن إبراهيم قد أتى بهاجر وابنها إلى وادى مكة حيث تركهما وإن الله هو الذى رعاهما. وبعد فترةٍ ما زار إبراهيمُ إسماعيل فى مكة وتعاونا معاً فى بناء الكعبة، أول بيت وضعه الله للناس فى بلاد العرب. وهكذا فإن العرب كانوا من نسل إبراهيم مثل اليهود.

ولابد أن محمداً سعد سعادة غامرة بالعلم الذى أتاه، إذ اكتسبت الكعبة دلالة وأهمية جديدة، وكانت القصة تدل على أن الله لم ينس العرب، وأن الله كان يكلؤهم برعايته منذ أقدم العصور. ويصور القرآن إبراهيم وإسماعيل

وهما يدعوان الله أن يرسل نبياً إلى العرب بعد أن فرغا من بناء بيت الله(٦٢). لقد أتى محمد العرب بكتاب، ومن ثم فهو يأتيهم اليوم بعقيدة عربية متميزة، تضرب بجذورها فى مقدسات أسلافه.

وما إن اتضح أن عداوة معظم اليهود عداوة مقيمة ودائمة، أعلن دين الله الجديد رسمياً استقلاله عن الدين القيم. وفى أواخر يناير عام ٦٢٤، الذى صادف شهر شعبان، وكان ذلك بعد الهجرة بنحو ثمانية عشر شهراً، قام محمد يؤمُّ المصلّين فى صلاة الجمعة فى مسجد بُنى فى أرض عشيرة البراء بن معرور (الذى كان قد توفى) وكان ذلك من التفاصيل التى لها دلالتها. وفجأة، نزل عليه الوحى وألهمه أن يتحول بالمصلين جميعاً إلى الناحية الأخرى بحيث يولّون أوجههم شطر مكة بدلاً من القدس. لقد أعطى الله للمسلمين بؤرة اهتمام جديدة وقبلة جديدة فى صلاتهم:

﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ (البقرة - ١٤٤).

وقد وصف بعضهم تحويل القبلة بأنه الخطوة الدينية التى تفوق كل ما عداها إبداعاً وإلهاماً، فتحوُّل المسلمين إلى القبلة المكّية كان يعنى أنهم يُعلنون ضمناً أنهم لا ينتمون إلى أى مجتمع من المجتمعات الراسخة، بل يُولّون وجوههم شطر الله ذاته فحسب. وكان معنى ركوعهم وسجودهم فى اتجاه الكعبة، وهى التى تتسم باستقلالها عن عقيدتى التوحيد القديمتين اللتين تتحملان مسئولية «تفريق» أبناء الدين الواحد الذى أنزله الله، إلى شيع وأحزاب متناحرة، أنهم يعودون اليوم إلى العقيدة الخالصة النقية التى كان يتمتع بها الرجل الذى بنى الكعبة:

﴿ **إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم يُنبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ (الأنعام - ٥٩)

﴿قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوّلُ المسلمين. قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء﴾ (الأنعام: ١٦٠ ـ ١٦٤).

كان تفضيل أى نظام بشرى على الله ذاته بمثابة الشرك به، وكان على المسلمين أن يتوجهوا إلى الله نفسه، لا إلى مؤسسة دينية أو تقاليد دينية، مدركين أنه المحور الذى ترتكز عليه حياتهم.

ولا شك أن القرآن قد جاء بالحق إذ كان المسلمون يُفضّلون هذه القبلة على قبلة القدس. وكان المهاجرون والأنصار جميعاً يُخلصون للكعبة كل الإخلاص، ولم يكُنْ من قبيل المصادفة أن يكون أول لقاء بين محمد والأنصار قد حدث فى أثناء الحج. لم يعد المسلمون يشعرون بعد تحويل القبلة أنهم من «فقراء أقارب» الدينَيْن القديمَيْن أو أنهم يقتفون، واهنين، خطاهم. لقد أصبح لهم توجُّهُهُمْ الخاص، وكان ذلك التوجه مستقلاً عن الأديان التى ارتبطت للأسف فى أذهان العرب بالإمبريالية. وكان حماسهم لمكة عاملاً جديداً من عوامل صهر المهاجرين والأنصار فى أمة واحدة، كما وجد المهاجرون فى تحويل القبلة عاملاً يخفف من ألم النزوح الذى أحدثَتْه الهجرة.

كان تحويل القبلة آية على هوية إسلامية جديدة تعتز بنفسها، وكان المسلمون قد بدءوا يكتسبون، تدريجياً، هوية مشتركة تشد بعضهم إلى بعض، رغم انتمائهم إلى ثلاث قبائل منفصلة. فكانوا يستيقظون جميعاً فى نفس الوقت عندما يعلو صوت بلال بأذان الفجر، وكانوا يتوقفون عند العمل جميعاً فى موعد صلاة الظهر وموعد صلاة المغرب. وكانت الزكاة تذكرهم بأنهم يتحملون مسئولية مشتركة عن الفقراء. وهم الآن يركعون ويسجدون، حيثما كانوا، ثلاث مرات فى اليوم باتجاه مكة، وهو اتجاه كان الجميع

يشعرون بالارتبــاط به ارتباطاً وثيقاً مــشبوباً. ولكن هذاالاستقــلال الجديد قد تحقَّق فى الوقت الذى كــان المسلمون فيه يقـفون موقف جهــاد ودفاع بعد أن أحاط الأعداء بهم من كل جانب. وسُرعان مــا فسَّر يهود المدينة تحويل القبلة بأنه يمثل تحدِّياً لهم، فقوى عزمهم واشتد على التخلص من محمد، كما كان مجتمع المدينة يتوقع آنذاك أيضاً هجوماً من البلدة ذات الشوكة القوية مكة.

الفصل الثامن
الحرب المقدسة

كان محمد قـد استمر شخصية مألوفـة حتى هذه اللحظة. وبعد أن تحمل سنوات من الاضطهاد والهزيمة - وتلك صورة يتفهمها ويحترمها أولئك الذين شبوا فى ظل الإرث المسـيحى - استمر نبـيّاً غير معتـرف به فى داره. غير أن محـمداً أصاب نجاحـاً سياسـياً وروحيًا مـذهلاً بعد الهجـرة، وقد دفع ذلك النجاح المسيـحيين الغربيين للارتياب فى ذلك الشق من حيـاته. ولأن محمداً أصبح قـائداً سياسـياً نابهاً كـاريزمياً، ونجح فـى تغييـر بلاد العرب، وتاريخ العالم، فـقد رفضه منتـقدوه فى الغرب كـمدع استغل الدين وسـيلة للقوة. ونحن نميل إلى أن نرى الفـشل والهـوان سمـات القـائد الدينى، وذلك لأن العالم المسيـحى تسوده صورة عيسى المصلوب الذى قـال إن مملكته ليست فى هذا العالم. لكننا نتوقع من القادة السياسيين أن يحرزوا انتصارات مبهرة بلغة دنيوية[١].

ونحن، على وجه الخصـوص، نرى ما قيل عن أن محمـداً حارب طريقه إلى السلام والقوة والـنصر أمراً مُخزياً. وهكذا، لُقِّب الإسـلام بدين السيف كعـقيدة تخلّتْ عن الروحـانية الحقة وكـرّستْ للعنف وعدم التسـامح. وقد طاردت تلك الصورة الإسلام فى الغرب المسيحى منذ العصور الوسطى، رغم أن المسيـحيين كانوا يشنون حروبـهم المقدسة الخاصـة فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت. وفى يومنا هذا تلـهو الكتب وبرامج التلـيفـزيون بإبراز عناوين مـثل: «حنق الإسـلام»، و«سيف الإسـلام»، و«الحنق المقـدس»، و«الرعب المقدس». لكن هذا تشـويه للحقيـقة. فلكل دين عبـقرية خاصة، أو بصـيرة خاصة تُميّز بحثه عن معنى أو عن قيمة كلية. فمثلاً نجد المسيحية ديانة المعاناة

والمحن بامتياز. وكانت فى أحسن أحوالها - على الأقل فى الغرب - فى أوقات المحن. وقد دعمتْ قرون الاضطهاد فى الأيام الأولى للكنيسة صورة المسيح مصلوباً، وتركت أثراً عميقاً على الروح المسيحية. وهكذا شعر المسيحيون منذ البداية أن عليهم العزوف عن «الدنيا»(٢).

فمن الطبيعى إذاً أن أصبح تحدى المؤسسة السياسية أو الانفصال عنها فضيلة. وفى عصر الشهداء أصبحت التجربة الدينية العظمى هى المعاناة والموت فى سبيل المسيح. فقد كان ذلك برهاناً حياً على رفض القوى الدنيوية للمسيحيين. وأصبحت الفكرة المسيحية القائلة بأن المعاناة تعظيم لشأن البشر، وتغيير لهم، مصدر إلهام ومواساة لملايين التعساء. لكن تلك الفكرة أيضاً أسىء استخدامها، إذ شعر المسيحيون أن من واجبهم احتمال الاضطهاد والظلم، إذ إن الله يُساند نظاماً هرمياً يجلس الغنى فيه فى قصره بينما ينتظر الفقير عند الباب، حيث إن المعاناة والاضطهاد فى الدنيا سيكون لهما أجرهما فى الآخرة. وحتى فى وقتنا الحاضر يتم تشجيع الأصوليين المسيحيين من قبل قطاعات معينة فى المؤسسة الأمريكية أن يبشروا بتلك المبادئ ذاتها فى بلدان وسط وجنوب أمريكا. غير أن هناك أيضاً مسيحيين فى تلك البلدان يشعرون أن من واجبهم العيش بجانب المضطهدين والبؤساء والاشتراك معهم فى معارك من أجل مجتمع عادل كريم. وهذا المنظور الأخير هو الذى يجب أن نتبناه كى نفهم «الجهاد الإسلامى»، ذلك التعبير الذى عادة ما يُترجمه الغرب إلى «الحرب المقدسة».

إذاً، هناك ميل حاد قوى فى الغرب المسيحى للنظر إلى النشاط السياسى كشىء خارج نطاق الحياة الدينية. وعموماً فلم يكن المسيحيون يرون النجاح الدنيوى انتصاراً روحيًا(٣). غير أن فكرة الفصل بين الكنيسة والدولة تطورت تدريجياً فى أوربا. ولهذا، فعادة ما نلوم الإسلام لخلطه مجالين هما بطبيعتهما متمايزان. لكن الأعراف المسيحية لا يجب أن تكون سبباً فى تحيزنا

ضد أعراف حضارية ودينية أخرى نمتْ فى ظل أوضاع مختلفة. فحينما أتى محمد برسالته إلى قومه كانت بلاد العرب خارج نطاق العالم المتمدين، وكان نظامها السياسى والاجتماعى فى حالة انحطاط. أما المسيحية فقد ولدتْ إبان زمن الإمبراطورية الرومانية التى كانت تفرض نوعاً من السلام والأمن الاجتماعى ولو بطرق وحشية، فلم يكن لعيسى والقديس بولس أن يقلقا بشأن النظام السياسى والاجتماعى، لأنه كان مؤسسا بالفعل. وفى الواقع فما كان لرحلات القديس بولس التبشيرية الطويلة أن تتم دون السلام الذى كانت توفره الإمبراطورية. أما فى بلاد العرب، فكان دم الشخص الذى لم تكن تتوفر له الحماية (القبلية) مُحلاً فى الطريق. غير أنه فى نهاية الأمر، أصبحت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية فى أوائل القرن الرابع الميلادى، لكن المؤسسة المسيحية الجديدة لم تشعر أن عليها إيجاد نظام سياسى جديد كلية. فما فعلوه هو «تعميد» القانون والمؤسسات الرومانية القديمة، لذا بقيت السياسة مجالاً منفصلاً.

وخلافاً لعيسى، فلم يتمتع محمد برفاهية الميلاد فى «عالم يسوده السلام»[٤]. فقد ولد إبان حمامات الدم التى وجدتْ فى بلاد العرب، حيث كان يجرى تقويض القيم القديمة جذرياً دون إبدالها بما هو موات. وفى البداية، كان محمد يُصرّ على أنه غير ذى دور سياسى، رغم أنه - مثله مثل الأنبياء اليهود - كان يبشر برسالة للعدالة الاجتماعية، لكنه حينما دعى للهجرة إلى المدينة وقعت أحداث لم يكن يتوقعها، ودفعته إلى أن يقبل تحدياً جديداً. وربما أنه كان قد بدأ بالفعل يكوّن فكرة عن مثال لوحدة عربية لا تتحارب فى ظلها القبائل بل تتوحد فى شكل مجتمعى جديد. أى أنه فى تلك الآونة كانت هناك حاجة ملحة لحل سياسى جديد. وفى القرن السابع الميلادى، كان الحل الدينى هو الخيار الحتمى. أما فى ظروف الهجرة فلم يكن لدى محمد تصور محدد أو سياسة منسّقة يأمل من خلالها إنجاز هدف

بالإمكان التعبير عنه بنوع من الاكتمال. كما أنه لم يحدث له قط أن تكونت لديه أنواع من المشاريع الكلية، لكنه كان يستجيب لكل حادث جديد لدى حدوثه، الأمر الذى كان ضرورياً. فإن حركته التدريجية كانت تجاه المجهول وغير المسبوق، ولذا فإن أى أفكار أو سياسات ذات تعريفات واضحة كانت لابد وأن تنتمى بشكل ما إلى النظم القديمة المتفسّخة. غير أن الأفضلية الأولى لديه، وفوق كل شيء، كانت لله.

وبعد الهجرة إلى المدينة، وحينما بدأ محمد فى اتخاذ قرارات أكثر، ذات طبيعة اجتماعية أو سياسية، نلاحظ أيضاً تغيراً فى سور القرآن، فيحل محل السور ذات الشعرية عدم الترابط المنطقى، والسور التى تتمتّم بما لا تعبر عنه الكلمات عن قدس الأقداس، سور ذات طبيعة أخلاقية عملية، تضع تشريعات جديدة، أو تعلق على وضع سياسى قائم. لكن هذا لا يعنى ما يقوله الدارسون الغربيون بأن رؤية محمد الخالصة قد لوّثتها شهوة السلطة. فإن أى موضوع يناقشه القرآن يركز بوضوح على نقطة المرجعية الإلهية. حتى قيل إنه لا يوجد مفهوم قرآنى واحد غير ذى مركزية إلهية. ويواجه القرآن المسلمين فى كل موضع بالتحدى الأكبر وهو: هل سيستسلمون مؤمنين لمشيئة الله أم أنهم سيركنون إلى آرائهم المحدودة؟ ورغم ما تظهر به بعض العبارات من دنيوية فى الترجمات، فإن الأسلوب القرآنى يتسم بالجلال فى الأصل العربى. وتحافظ موسيقى الألفاظ وترتيب الكلمات على ذلك السمو فى المواضع الخالية من الشاعرية، مثل الصور عن معاملات السوق حين يتحدث القرآن مثلاً عن إقراض الله قرضاً حسناً فيضفى على الصورة المستعملة قدسية النص. ويظل التكامل هو التجربة الرئيسية. فالمسلمون حينما يستمعون إلى جزء قصير من القرآن يتذكرون القرآن ككل. فتستحضر العبارات الدائمة التكرار (والتى تبدو مضجرة فى الترجمات) إلى ذهن القارئ مقاطع أخرى وتعمل على أن يتركز الذهن على النقطة الجوهرية. وهكذا، ومع تزايد دور

محمد كرجل دولة، ظل يوحى إليه بكـل ما فى الكلمة من عمق، بالإضافة إلى أنه كان فى طريقه إلى إيجاد حلّ يعم السلام بمقتضاه بين العرب.

غير أنه، وبالرغم من الدور الـسياسى الذى اضطلع به محمـد مؤخراً فى حياته فقد ظلت رسالته الاجتمـاعية مرتبطة ارتباطاً عضوياً برؤيته الدينية، أى أنها لم تكن عملاً مضافاً أو فكرة لاحقة. فحينما يحث القرآن المسلمين على تأمل آيات الله فى الطـبيـعـة يكون ذلـك من أجل أن يطور المؤمنون حـسـاً بالتنظيم الإلهى. فـالأسمـاك والطيور والحيـوانات والجبـال لا خيـار لها فى الانصياع أو عـدمه للخطة الإلهية. أى أنها تعـبر فى كل لحظة من تواجـدها عن إرادة الخالـق لها. وعلى هذا، فـالمسلمـون ـ دون أن يكون لهـم خـيار شخصى ـ هم مسلمون بالطبيـعة، يخضعون لإرادة الله، وهم بذلك يتمكنون من تحقيق إمكـاناتهم. فإن البشر وحدهم هـم الذين منحوا المسئوليـة الرهيبة للاختيار الحر.

ويصور موضع رائع من القرآن الله وهو يـعرض الأمانة (الحرية) على كل مخلوقـاته الأخرى التى ترفـضها، أمـا الإنسان فقـد كان من التهـور بدرجة جعلته يقبلها:

﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبيْن أن يحملنها وأشفقْن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾[٥] (الأحزاب: ٧٢).

غير أن الله لم يترك البشر دون هدايـة. فقد أرسل رسلاً لا يحصون لكل الشعوب على وجـه الأرض كى يعلموهم ما أراده لهم. لكن ومنذ آدم، أول الأنبياء، رفض البشر الإنصات إلى تجليات الإرادة الإلهية. فهم إما فشلوا فى استيعاب الرسالة، أو لم يطبّقوها فى حياتهم اليومية. وبدلاً من ذلك استغلوا العالم الطبيعى استغلالاً مشيناً. كما يبين القرآن كيف رفضت الأقوام، واحدة بعد الأخـرى، إطاعة حـتى أبسط أوامر أنبـيائهم[٦]. وهكذا تصدعتْ تلك

المجتمعات التى لم تُشيَّد كما يجب، بل عمدت إلى تحقيق أهدافها الأنانية، وجعلت من نفسها مركزاً للكون. ولأن تلك الأقوام لم تتقبل الخطة الإلهية لتصرفات الإنسان، فقد أفسدت النظام الطبيعى، كالبحار، تُحدث الدمار والفوضى، إن هى طغت على حدودها. وبما أن قريشاً رفضت الإنصات إلى نبيها، فإن مجتمعها هالك. ولقد أنذرهم محمد بكارثة وشيكة الوقوع، وذلك لا يرجع لتخيله أن الله سينزل الصواعق على مكة فى نوبة غضب إلهية ولكن لأن قريشاً كانت تُصرعلى إفساد النظام الحق.

غير أن الأمور لم تكن قد وصلت إلى نهايتها. فقد منح الله أهل المدينة فرصة الاستماع إلى قرآنهم العربى، كما أن محمداً سيتمكن من إقامة مجتمع طبقاً للخطة الإلهية فى تلك الواحة. وبالمثل، فقد حقّق بعض الأنبياء السابقين نجاحاً أكثر من غيرهم. فقد تمكن إبراهيم من إقناع عددٍ لا بأس به من الناس بأن هناك إلهاً واحداً، وكذلك تمكن موسى وعيسى من إقناع أهل الكتاب بتكريسهم للتوارة والإنجيل. وسيتمكن محمد أيضاً أن يقنع، ليس فقط أهل المدينة، بل معظم القوم فى بلاد العرب، باللحاق بأمته. وفيما بعد، سيعتبره المسلمون أكثر الأنبياء تحقيقاً للنجاح. وهم أيضاً يؤرخون للفترة الإسلامية، لا بميلاد محمد أو باليوم الأول لتلقيه الوحى (فلم تكن تلك أحداثاً فريدة)، لكن بسنة الهجرة حيث بدأ المسلمون يجسدون الخطة الإلهية فى التاريخ الإنسانى.

وسيؤدى ذلك بالمسلمين إلى الدخول فى أكثر المعارك خطورة وإجهاداً. فقد وصل محمد إلى المدينة فى سبتمبر ٦٢٢م كلاجئ نجا من الموت بأعجوبة، واستمر ذلك الخطر على حياته لسنوات خمس قادمة واجهت خلالها الأمة احتمال الإبادة. وفى الغرب، غالباً ما نتخيل محمداً قائد حرب ماضياً يلوح بسيفه ليفرض الإسلام على مجتمع كاره له بقوة السلاح. أما الحقيقة فكانت جد مختلفة. فقد كان محمد والمسلمون الأوائل يكافحون فى

سبيل الإبقاء على حياتهم، كما أنهم كانوا قد أخذوا على عاتقهم مسئولية كان العنف معها حتمياً. فلم يحدث أبداً أن أنجز تغيير اجتماعى أو سياسى جذرى دون إسالة دماء، ولأن محمداً كان يعيش فى فترة اضطراب وانحطاط، فلم يكن هناك سبيل سوى السيف لتحقيق السلام. والمسلمون ينظرون إلى سنوات محمد فى المدينة على أنها عصر ذهبى. غير أنها كانت أيضاً سنوات أسى ورعب، فلم تتمكن «الأمة» من إنهاء حالة العنف والخطر فى بلاد العرب إلا بجهد قاس.

وبدأ القرآن يحث مسلمى المدينة على المشاركة فى الجهاد، وهذا يتطلب ضمن ما يتطلب، القتال وإسالة الدماء. غير أن جذر اللفظ «جهد» يعنى أكثر من مجرد حرب مقدسة. فهو دال على مجهود جسمانى وأخلاقى وروحانى وعقلى. كما أن هناك ألفاظاً عربية كثيرة تعنى الاشتباك الحربى بالأسلحة، ومنها «الحرب والقتال والصراع والمعارك والقتل»، وكان يمكن للقرآن استعمالها لو أن الحرب كانت هى الوسيلة الأساسية للقيام بهذا الجهد. وبدلاً من ذلك، يختار القرآن لفظاً أقل تحديداً وأكثر ثراء، ذا مجالات متشعبة من ظلال المعنى.

والجهاد ليس أحد أركان الإسلام الخمسة. وخلافاً للرأى السائد فى الغرب فهو أيضاً ليس دعامة الإسلام المحورية. لكن، يظل من واجب المسلمين أن يلتزموا بالنضال على جميع الجبهات، الأخلاقية منها والسياسية والروحية من أجل خلق مجتمع عادل كريم جدير بالاحترام، يعيش فيه الإنسان وفقاً لإرادة الله، ولا يُستغل فى ظله الفقراء وغير المحصّنين. وقد يكون الحرب والقتال ضرورة فى بعض الأحيان، لكن ذلك جزء ثانوى من الجهاد أو النضال. وهناك حديث مروىّ عن محمد لدى رجوعه من إحدى المعارك حيث قال ما معناه: «لقد عدنا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر»، أى أن الجهد الأكثر صعوبة وحسماً هو هزيمة قوى الشر فى نفس الإنسان، وفى مجتمع الإنسان، فى جميع تفاصيل الحياة اليومية.

وحالما اضطلع المسلمون بالهجرة كانوا يعلمون أن عليهم الاستعداد للقتال. وكان الأنصار قد عقدوا ميثاق حرب عند العقبة، ثم حدث بعد وصول محمد بفترة وجيزة أن تلقى وحياً يسمح للمهاجرين أن يحاربوا هم الآخرون:

﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾[٧] (الحج: ٣٩ و ٤٠).

وبدأ القرآن يطور تشريعات للحرب العادلة، إذ إن الحرب تكون أحياناً ضرورية للحفاظ على القيم الفاضلة. ولولا استعداد بعض المتديّنين من الناس لدفع الهجوم لحطمت، مثلاً، جميع أماكن عبادتهم. والله سينصر المسلمين فقط إن هم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ووضعوا قوانين عادلة شريفة وأوجدوا مجتمعاً كريماً.

وتشير الآيات فقط إلى المهاجرين الذين وقع عليهم ظلم قريش حينما طردوا من منازلهم فى مكة، فلم يكن الأنصار قد منحوا بعد إذناً بالمشاركة فى القتال، لأنه لم يكن بينهم وبين أهل مكة نزاع ذو صبغة رسمية. غير أنه لا يجب علينا أن نفسر تلك الآيات على أنها توحى أن محمداً كان لديه تصور لحرب شاملة مع مكة فى ذلك الوقت المبكر. لأن ذلك كان يعنى ضرباً من الجنون. إذ إن ما كان يدور بخلده هو هجوم أكثر تواضعاً بكثير، أى: غزوة أو غارة، الأمر الذى كان، ولوقت طويل، ضرباً من ممارسات التسلية العنيفة فى بلاد العرب، كما أنها كانت وسيلة مقبولة للكسب فى أوقات الشدة. فلم يكن لدى المهاجرين سوى الضئيل من الفرص لكسب العيش فى المدينة. وكان معظمهم ممن اشتغلوا بالمعاملات المالية، ولذا كانوا لا يعلمون

شيئاً عن زراعة التمر، حتى لو أنه توفرت لهم أراض ليبدءوا فيها مشروعات زراعية. لذا اعتمدوا على الأنصار فى معيشتهم، بذلك كان بالإمكان أن يُصبحوا عالة تستنزف موارد الأمة. ولم يكن باستطاعة الجميع فعل ما فعله ذلك التاجر الشاب النابه عبد الرحمن حال وصوله إلى المدينة، والذى سأل ببساطة عن الطريق إلى السوق وسرعان ما ضمن لنفسه دخلاً بفضل براعته فى البيع والشراء. لكن فرصة التجارة فى المدينة كانت ضئيلة. أما المضاربات التجارية واسعة النطاق فكانت قد احتكرتها مكة لنفسها.

أما الغزو فقد كان طريقاً جاهزاً وعراً يضمن تداولاً لا بأس به للثروة المتاحة فى عصر البداوة. فقد كان من عادة الغازين أن يهاجموا أراضى القبيلة المعادية ويستولوا على بعيرها وماشيتها وغيرها من المتاع. ورغم هذا، فقد كانوا يحرصون على تحاشى سفك الدماء لما يترتب على ذلك من أفعال ثأرية. أما موقع المدينة، فكان مكاناً مثالياً لمهاجمة قوافل مكة فى طريقها من الشام وإليها، حيث لم يكن يحرسها سوى تجار قلائل. وبناء على ذلك، أرسل محمد عام ٦٢٣م مجموعتين من المهاجرين للغزو ومهاجمة القوافل، ولم يذهب هو. بيد أنه أوكل أمر الحملات إلى رجال مثل حمزة، وعبد الله ابن الحارث المحارب المتمرس، ولم يتوقع أحد أن تلغى تلك الحملات عقائد أحد، ولابد أن القوم قد أدهشتهم جرأة المسلمين على مهاجمة ذويهم الأقوياء. غير أن غزوات عام ٦٢٣م لم تنجح نجاحاً كبيراً، فإن الحصول على معلومات دقيقة عن تحرك القوافل كان من الصعوبة بمكان. ورغم أن المسلمين لم يتمكنوا من الاستيلاء على أية بضائع، وأنه لم يحدث أى اشتباك قتالى، فقد تضايق أهل مكة وانزعجوا، إذ أصبح عليهم أن يأخذوا حذرهم ـ الأمر الذى لم يكن من قبل ضروريًا ـ كما أن القبائل البدوية على طول الساحل المفضل للتجارة، أى ساحل البحر الأحمر، لابد أنها أعجبت بإقدام المسلمين. ورغم فشل هؤلاء الغزاة المبكرين فى الهجوم على القوافل، فقد

عقدوا معاهدات مع بعض القبائل التى كانت تحتلّ مواقع استراتيجية فى نقاط متنوعة على طول الطريق. وفى سبتمبر من عام ٦٢٣م قرر محمد أن يقود بنفسه غزوة ضدّ قافلة كبيرة يقودها أمية من عشيرة جمح، والذى كان قد سام أبا بكر العذاب من قبل. وكانت تلك القافلة تتكون من ٢٥٠٠ من البعير. ونظراً لأن الغنائم كانت تبدو واعدة، فقد تطوع حوالى مائتى مسلم للذهاب معه. غير أنه حدث مرة أخرى أن راوغت القافلة المسلمين، ولم يحدث قتال.

أما فى أشهر الشتاء، فكانت قريش ترسل قوافلها إلى اليمن فقط، وعلى هذا، فلم تكن تلك القوافل تمر بالمدينة. لكن محمداً، ومن أجل أن يبرهن لقريش عن جدية نواياه، فقد أرسل فريقاً صغيراً من الغزاة يتكون من تسعة رجال بقيادة ابن عمته عبد الله بن جحش لمهاجمة إحدى القوافل المتجهة جنوباً. وكان ذلك فى نهاية شهر رجب «الحرام» (يناير ٦٢٤م) حيث كان يحرم القتال فى أنحاء الجزيرة. وأعطى محمدٌ عبد الله بعض التعليمات فى رسالة مغلقة لا تفتح إلا بعد يومين من رحيل الحملة، وأخذ منه عهداً ألا يمارس أى ضغوط على رفاقه، فقد كانوا فى سبيلهم للاقتراب من مكة بدرجة أكبر من أى وقت مضى، وكان احتمال الخطورة أمراً وارداً.

وفتح عبد الله الرسالة بعد يومين. وتمدنا المصادر بروايات مختلفة عن نص الرسالة. فبينما يذكر ابن إسحق أن المسلمين أمروا بالذهاب إلى نخلة، بين مكة والطائف، وأن يقوموا فقط بالتجسس على القافلة، يروى محمد بن عمر الواقدى مؤرخ القرن التاسع الميلادى أن فحوى الرسالة كان أمراً للمسلمين أن يذهبوا إلى وادى مكة ويقيموا كميناً لقريش[٨]. ويعنى ذلك أنه كان على المسلمين أن ينتهكوا حرمة الشهر الحرام. وفى حالة تصديق الرواية الثانية، فيمكن القول إنه لم يكن لدى محمد الكثير من المحاذير فى ذلك الوقت. فقد كانت تلك الأشهر الحرم مازالت جزءاً من النظام الوثنى الذى

كان يحاول هو التغلب عليه، وربما بدا انتهاكه لها مساوياً للتقليل من شأن تلك الآلهة الوثنية. ويبدو أن اثنين من الغزاة رغبا فى أن يستبعدا أنفسهما من الحملة، وذلك لأنهما فقدا بعيرهما حينما توقفت الحملة بعد ذلك، وطلبا من السبعة الباقين المواصلة دونهما. وحينما وصل عبد الله وصحبه إلى نخلة، وجدوا قافلة صغيرة قد توقفت قرب الموقع. وكان اليوم هو الأخيرمن شهر رجب. فإن هم انتظروا حتى اليوم التالى حين يسمح بالقتال، فستكون القافلة قد وصلت إلى الحدود الآمنة لمكة. وهكذا قرروا أن يهاجموها. وقتل السهم الأول واحداً من التجار الثلاثة، واستسلم الآخران فوراً. واصطحب عبد الله الغنيمة والرجلين عائداً إلى المدينة.

لكن، بدلاً من الترحيب بهما أبطالاً فاتحين، فقد هال أهل المدينة الأمر، عندما سمعوا أن الغزوة قد انتهكت الشهر الحرام. وكما رأينا، فلم يُقلقْ عرب المدينة إلغاء محمد عبادة الآلهة الوثنية، فقد كان اليهود قد أعدوهم للرؤية التوحيدية، وكانوا مستعدين تماماً لنبذ ذلك الجزء من الديانة الوثنية. غير أنهم، وبدون شك، كان إحساسهم قوياً جداً تجاه الأشهر الحرم ولم يكونوا مستعدين للتخلى عن هذه القيمة الدينية. وقام محمد بالتبرؤ من الحملة ورفض تقبل الغنيمة. وكان ذلك تصرفاً برجماتياً عملياً، رغم أنه يبدو وكأنه يحيطه الشك كعمل ذرائعى، فإن محمداً لم يكن يطيق تقديم أى تنازلات فى الأساسيات، فقد حدث أن عرَّض حياة المسلمين للخطر حينما رفض حلاً من قريش يسمح بأحادية العبادة مع الاعتراف بوجود آلهة أخرى. أما فى ذلك الوقت، فقد كان بسبيله لإرساء دين الله تدريجياً، خطوة خطوة، وكما تتكشف الأحداث. ولم يكن لديه أى تصور تفصيلى كلى واضح عن الدين فى البداية، وكان يعمل منفرداً فى غياب موروث راسخ. لذا، فقد كان عليه أن يتحسس طريقه للأمام عن طريق المحاولة والخطأ. وربما كان على استعداد تام للتخلى عن الأشهر الحرم، فلم تكن تبدو حينئذ ذات

قيمة دينية رئيسية. وعلينا أيضاً أن ندرك أن الممارسات الوثنية كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً فى أنحاء الجزيرة المختلفة. ومن غير المحتمل أن محمداً كانت لديه أدنى فكرة عن أنه كان للمدنيين ذلك الشعور القوى إزاء تلك الممارسة التى كانت حينها مرتبطة بالوثنية. ولكنه، حينما عادت الغزوة ورأى استياء الأنصار، تأكد أنه قد داس على أحاسيسهم الدينية دون قصد منه، ولم تكن أيضاً هناك فائدة من التمسك بالموقف بعناد. وعلى ذلك فقد رأى أنه إذا كان القوم يرغبون فى الإبقاء على الأشهر الحرم فليسمح لهم بذلك، لأنه ليس فى تلك الممارسة ما يضير دين الله.

وحزن عبد الله ورفاقه حزناً شديداً حينما تبرأ محمد من الغزوة. فقد بدا لهم وكأنهم اتخذوا قراراً خاطئاً، وأن خلاصهم نفسه مُحاطٌ بالخطر. وكان واجب محمد أن يقدم لهم السلوان، وأيضاً أن يتحسس طريقه للأمام مرة أخرى. وكانت تلك مناسبة لتأسيسٍ أقوى لفقه الحرب. نعم، لقد كان من الخطأ الاقتتال فى الأشهر الحرم، لكن هناك جرائم أسوأ من ذلك. فالأشد خطورة هو أن يضطهد الناس، كما اضطهدت قريش المسلمين، منتهكة بذلك أقدس قيمة عربية، وذلك بطردهم من القبيلة، وأحياناً يكون على مبعوث الإله أن يقابل ظلماً بيّنا كهذا ونزلت الآية التى حددت الأمور:

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل﴾[٩] (البقرة: ٢١٥).

وكان لتلك الآية أثرها فى حل أزمة الموقف. أما اليهود فقد استمروا فى الشجب بعنف، لكن الأنصار، ومعهم فريق الغزو، اطمأنوا. وتمكن محمد من تقسيم الغنائم بين المهاجرين، كما بدأ المفاوضات مع قريش لتبادل الأسرى، أى أنه عرض أن يطلق سراح التاجرين الأسيرين ويبادلهما بمسلمين كانا فى مكة، ويريدان الهجرة. غير أن أحد الأسيرين، وهو حكم بن

كَيْسان(*)، تأثر بما رآه فى المدينة، وقرر البقاء هناك واعتناق الإسلام.

وذلك الحدث مثل جيد لأسلوب محمد فى العمل. فقد كان على استعداد للموت فى سبيل عقيدته، لكنه أيضاً كان على استعداد للمقايضة بشأن ما هو غير أساسى. وكان، فى غياب نظام أخلاقى راسخ، يدرس الأحداث جيداً، ويرى فيها تجلياً لمشيئة الله (وهذا مبدأ راسخ فى تاريخ الديانات التوحيدية) فلم يكن محمد يتوقع أن تثير الغزوة ذلك القدر من الاعتراضات، ولكن عندما حدث ذلك، اعتقد أن الله أراد توضيح أمر مهم له. وتلك الحادثة ساعدت على تأسيس مبدأ مهم فى الإسلام، فالمسلمون يحترمون رسالة عيسى السلمية (رغم أن القرآن يشير إلى أن المسيحيين قد يولعون أحياناً بالقتال)(١٠). ولكن المسلمين يقبلون باستعمال القوة أحياناً فلو أن الطغاة والأنظمة الكريهة لم يتم قمعها بالسطوة العسكرية، لغمر الشر العالم أجمع. وكذلك، فقد أجبر الأنبياء السابقون أحياناً على الحرب والقتال، فلقد قتل جالوت بعون من الله.

﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾ (البقرة: ٢٥١).

ويتفق مسيحيون كثيرون على مفهوم الحرب العادلة لأنهم يعلمون أن المعركة المسلحة ضد أمثال هتلر وسيسيكو هى الطريقة الوحيدة المؤثرة. ولهذا، فبدلاً من أن يكون الإسلام ديناً سلبياً يدير الخدّ الآخر، فهو دين يقاتل الطغيان والظلم.

وقد يشعر المسلم أن عليه واجباً مقدساً فى مناصرة الضعيف والمقهور. وحينما ينادى المسلمون اليوم القتال ضدّ أعدائهم فهم يلبون ذلك المثل القرآنى(١٢).

(*) ورد خطأ فى النص الإنجليزى "kaysar". (المحرر)

وتوقع المسلمون معركة دامية لأن قريشاً كان لابد لها أن تنتقم لمن قتل فى نخلة، غير أن المســلمين كانوا قد أصبحــوا أكثر ثقة فى أنفــسهم. وبعد ذلك بأسابيع قليلة، وخلال شهر رمضان (مارس عام ٦٢٤م) قاد محمد جيشاً إلى الساحل ليقطع الطريق على قافلة لأهل مكة كان أبــو سفيان يقودها عائداً من الشام. وكانت تلك إحدى أهم قوافل ذلك العــام. وتطوع ثلاثمائة وخمسون مسلماً بينهم سبعون مهاجــراً والباقون كانوا من الأنصار. وسارت الحملة تجاه بئر بدر قرب البحر الأحمر حيث كان يعقد سوق تجارى عربى كبير كل عام. وهناك كانوا يأملون فى قطع الطريق على القافـلة. وكان لغزوة بدر أن تصبح أحد أهم الأحداث الحاسمة والـفعالة فى تاريخ الإسلام المبكر، لكن أحداً لم يكن يتوقع فى حينهــا أن تكون ذات أهمية. فقد كانت مـجرد غزوة أخرى. واختار بعض المسلمين من ذوى الالتزام العميق مـثل عثمان بن عفان، والذى كانت زوجته رقية قد مرضت مرضاً خطيراً، ألا يذهبوا.

وبدا وكأن القــافلة ستهــرب كالمعتــاد. فقد كــان أبو سفيــان شديد الدهاء والمقدرة. وسرعان ما اشتمّ أخبـار مغامرة المسلمين بسؤاله الناس فى الطريق. وبدلاً من أن يسلك الطريق المعــتاد عبــر الحجاز إلى مكة، أخــذ منحنى حاداً يميناً تجاه الساحل. ثم بعث ضــمضم، من قبيلة غفار المحليــة لطلب المساعدة على وجه الــسرعة، ودخل ضــمضم مكة بطريقــة دراميــة مثـيرة. وفى هذا الصدد، يتذكر العباس عم النبى، كـيف أن المدينة بأكملها تجمدت من الرعب وهى تستمع إلى «صــوت ضمضم وهو يصرخ ببطن الوادى واقفــاً على بعيره قد جــدع بعيــره وحوّل رحلـه وشق قميــصه وهو يــقول يا مــعشر قــريش، اللطيــمة. . اللطيــمة، أمــوالكم مع أبى سفــيان قــد عرض لهــا محمــد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث»(١٣).

واستــشاطت قريش غــضباً. وتســاءلوا إن كان محــمد يعتــقد أن بإمكانه الاستيــلاء على أكبر قافلة فى ذلك العــام بنفس السهولة التى نجح بهــا كمينه

لقافلة نخلة الصغيرة. واستعد كل قادة قريش للقتال حتى إن أمية بن خلف، الشيخ البدين، قـام بحشر جسده فى درعـه. وسُمح لأبى لهب أن يتخلف، لكن العباس سار ليواجه ابن أخيه مع طالب وعقيل (ولدى أبى طالب اللذين لم يعتنقـا الإسلام)، وكـذلك حكيم بن حزام ابن أخى خـديجة. وفى ذلك المساء، سار نحو ألف من الرجال إلى خارج مكة متوجهين نحو بدر.

وحينما سمع محمد تلك الأخبار المخـيفة قام بعقد مجلس حرب، ولما لم يكن محـمد القائد الحربى للأمـة، لذا لم يكن بوسعه إقرار أفـضل الوسائل لمواجـهـة تلك الأزمـة الطارئة دون التـشاور مـع الرؤساء الآخـرين. وكـان المتطوعـون المسلمون قـد أتوا ليـشاركـوا فى الغـزو لا فى معـركة ضـارية. وتساءلوا: هل لهـم أن ينسحبـوا مادام هناك وقت لذلك، أم يمكثـوا ويقاتلوا قريشاً؟ ثم هل هناك أمل فى الاستيلاء عـلى القافلة قبل وصول الجيش؟ وقام أبو بكر وعمر بإلقاء خطب حماسية، وأقسم سبعون من المهاجرين على البقاء فى بدر مهمـا كلفهم الأمر، وبرغم أنهم سيـجدون أنفسهم فى مـواجهة مع أقرباء حـميمين، وأصـدقاء سابقين، وشكـر لهم محمـد ذلك، ثم اتجه إلى الأنصار، وكـانوا قد وعدوا فى العقـبة الثانيـة بالدفاع عنه إن هو هُوجم فى المدينة، وتكلم سـعد بن معـاذ نيابة عنهم قـائلاً: «فقد آمنـا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعـة، فامْضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فـوالذى بعثك بالحق، لو استـعرضت بنا ذلك البحر فخـضته لخضناه مـعك، ما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن نلقى عدونا غـداً! إنا لصبُر فى الحرب، صُدُق فى اللقاء»(١٤).

وتلك كانت كلمـات شجاعـة. لكن أيضاً من الطبيـعى أن المسلمين كانوا يأملون فى عـدم القتـال. وأيضاً أن يُسَلِّم الله إليـهم أبا سفـيان قـبل وصول قريش، وبذلك يمكنهم الانسحاب انسحاباً شريفاً. ثم قام المسلمون بأسر اثنين

من السقاة عند بئر بدر، وأخبر الرجلان المسلمين أنهما ليسا ضمن القافلة بل هما من جيش مكة. وأخاف ذلك الأمر الأسيرين لدرجة أنهم أخذوا يضربون الأسيرين اعتقاداً منهم أنهما يكذبان. وأنهى محمد الموقف، ثم استجوب الرجلين بنفسه، وحينما أخبراه أن قريشاً قد سيّرت جيوشها ضده، أخبر هو رجاله أن القتال قد بدأ.

وفى تلك الأثناء، تمكن أبو سفيان أن يروغ من محمد. وحالما ابتعد بالقافلة عن منطقة خطر المسلمين أرسل إلى المقاتلين مبلغاً إياهم بسلامة القافلة وأن عليهم جميعاً العودة إلى مكة. ولعل أبا سفيان كان يخشى الكسب الشخصى لأبى جهل وصعود نجمه بين القوم من جراء تلك الحملة. وكان أبو سفيان مخططاً داهية، ولعله كان يأمل مثل محمد فى مصالحة نهائية. لكن أبا جهل رفض فكرة التقهقر، وقال: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً... فنقيم عليهم ثلاثاً فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها. فامضوا»(١٥). لكن لم يكن الجميع، وخاصة بعد أن اطمأنوا على القافلة، بمثل هذا الحماس. فقد انسحبت قبائل بنى زهرة وعدىّ فورا؛ قلقاً وتخوفاً من السطوة التى سيمنحها لأبى جهل الانتصَار العسكرى والمعنوى على محمد. ولحق طالب، ولد أبى طالب، ببنى هاشم، لأنهم لم يكونوا ليتجاسروا على محاربة رجال عشيرتهم. لكن العباس وحكيماً استمرا مع الجيش المكى.

وحال وصولهم إلى بدر واستقرارهم فى مخيماتهم بعَث المكيون عمير بن وهب الجمحى ليلقى نظرة على جنود محمد. وهاله التصميم الضارى الذى ارتسم على وجوه المسلمين، ونصح قريشاً بعدم القتال رغم تفوق عدد جنودهم على جنود المسلمين بما يبلغ الضعف. وقال لهم: «ما وجدت شيئاً، ولكنى رأيت يا معشر قريش المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع». وقد

كان المكيون يتوقون إلى الاشتباك كنوع من رياضة الفروسية، لكن مجرد نظرة إلى وجوه المسلمين، أقنعت عميراً أنه لن يموت أحد منهم قبل أن يقتل واحداً على الأقل من قريش. وتساءل عمير بيأس: «فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟»(١٦)، ولم يكن العرب ليخاطروا فى الحرب بما ليس ضرورياً. فقد كانوا دائماً يتحاشون الأعداد الكبيرة من الإصابات، إذ إن الحروب القبلية لا تنتهى، وطبيعة الحياة المحفوفة بالمخاطر فى بلاد العرب جعلتهم يحرصون على الحفاظ قدر الإمكان على القوى البشرية. وكان هناك من قريش من هم غير مرتاحين لقتال أفراد من قبيلتهم وعائلاتهم. فمثلاً، تأثر حكيم بن حزام بكلمات عمير لدرجة أنه ذهب فوراً إلى عتبة بن ربيعة راجياً إياه أن يحاول منع القتال. وكان عتبة ولىّ الرجل الذى قتله المسلمون فى نخلة، وأقنعه حكيم أن يتولى أمر الثأر له بنفسه حتى يرضى شرفه. ورأى عتبة حكمة ما قاله حكيم، ونهض فخاطب الجنود قائلاً: «يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً: والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته»(١٧). ولم يكن أهل قريش بالمحاربين. ولم يكونوا مؤثرين أو متمرسين فى ميدان القتال. وكانوا دائماً يفضلون التفاوض المخادع على الحل العنيف. لكن أبا جهل لم يكن ليستمع إلى صوت العقل. فأجاب مُتّهماً عتبة بالجبن وأنه كان يخشى أن يُقتل ابنُه الذى كان قد ذهب إلى محمد. ولم يكن هناك عربى يتحمل تهمة الجبن. ويقول ابن إسحق إنه عقب ذلك «حميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة»(١٨).

ولم يكن المسلمون أيضاً يرغبون فى القتال. لكن الآن قد حسم الأمر وارتفعت أرواحهم المعنوية. ولم يكن محمد قد رأى الجيش المكى، ولم تكن لديه فكرة عن عدده. وربما لو كان الأمر كذلك لعدل عن رأيه بشأن القتال.

وكان قد مَوْضَع رجاله جانب الآبار، الأمر الذى حرمت قريش معه من المياه، وكان يعنى ذلك أيضاً لقريش أن يواجهوا الشرق والشمس فى أعينهم. وكان زخ الأمطار قد يبّس الرمل وسهّل حركة المسلمين، بينما صعّب حركة المكيين الذين كان عليهم أن يجاهدوا كى يتسلقوا التل.

وكما كانت عليه الممارسات فى بلاد العرب، بدأت معركة بدر بمبارزة فردية، بارز فيها ثلاثة من قادة المسلمين وهم: حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ثلاثة قرشيين: هم عتبة، وشيبة والوليد بن عتبة، والذين كانوا يثأرون لقتل الرجل فى نخلة. وقتل القرشيون الثلاثة بينما تلقى عبيدة بن الحارث المسلم طعنة خطيرة، ونقل من ساحة المعركة، وبدأ القتال بحماس. ولدهشة قريش، فقد وجدوا أنهم ـ رغم تفوق عددهم ـ كانوا يبلون بلاء سيئاً. فقد كانوا يقاتلون بالأسلوب العربى القديم حيث يقود كل زعيم رجاله بشىء من عدم الاكتراث والتظاهر بالشجاعة، ولذا فقد كانت تعوز جيشهم القيادة الموحدة، أما جيش المسلمين، فقد كان يخضع للتنظيم الشديد، كما أنهم كانوا فى حالة استبسال دفاعى، وكانوا قد تم تدريبهم بعناية من قبل محمد. وفجأة ظهر محمد مخططاً حربياً تكتيكيًا بارعاً. فقد وضعهم فى تنظيمات متلاصقة بدأت بإمطار العدو بالسهام، ولم يسحبوا جيوشهم للقتال وجهاً لوجه إلا فى اللحظات الأخيرة. وعند منتصف النهار، كان الخوف والرعب قد سيطرا على قريش، الذين كانوا قد ظنوا أن عليهم فقط استعراض قوتهم، وفروا فى فوضى تاركين وراءهم خمسين قتيلاً من قادتهم، بينهم أبو جهل نفسه.

وغمر الفرح المسلمين. وأخذوا يحيطون بالأسرى طبقاً للأسلوب العربى المعتاد. وشرعوا فى قتلهم. لكن محمداً أمرهم بالتوقف. ونزلت آية مفادها إعتاق الأسرى بالفدية. وأيضاً أوقف محمد تنازع المسلمين حول الغنائم. وقسمت الإبل المائة والخمسون، والخيول العشرة والدروع والمعدات بالتساوى.

وبدأ الجيش المنتصر يأخذ طريقه ومعهم سبعون أسيراً، بينهم سهيل كبير عمير، وعباس، وابنا عم النبى عقيل ونوفل. وفى طريق عودته أوحى إلى محمد بآية خاصة بالأسرى أنفسهم:

﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾(19) (الأنفال: ٧١).

وهكذا تطلع محمد إلى الوفاق النهائى وهو فى غمرة السعادة بالنصر.

ولقى المقاتلون ترحيباً حاراً لدى دخولهم المدينة. وتسبب ذلك فى شعور قبائل اليهود الثلاث وفريق ابن أبىّ(*) بالخيبة.

ومن الصعب المبالغة فى وصف الأثر المعنوى لغزوة بدر، فقد كان محمد لسنوات موضع الاحتقار والإهانات. لكن بعد هذا النجاح المذهل غير المنشود كان على الجميع فى بلاد العرب أن يأخذوه مأخذ الجد. كما أن النصر غير المتوقع، أو التغير المفاجئ فى الأقدار فى تاريخ الحروب المقدسة فى الديانات التوحيدية الثلاث، يبدو أنه فعل إلهى يملأ القوم دوماً بالثقة والاقتناع(20). ومثلهم مثل الصليبيين فى موقف مشابه، تعرض المسلمون لما يشبه ما قد يطلق عليه فى الغرب الهلوسة الجماعية، ورأوا جحافل من الملائكة تقدم لمساعدتهم. ومن منظور لهم متأخر عن الحدث، بدا لهم كل شىء من ترتيب الله. فقد قادهم الله للنصر رغماً عنهم تقريباً. فلم يكونوا يتوقعون أن يخوضوا معركة، كما أنهم كانوا غير متحمسين للقتال، وحتى جهلهم بالتفوق العددى لعدوهم بدا لهم جزءاً من خطة إلهية(21). وحدث فى لحظة ما، أثناء القتال، أن ألقى محمد بحفنة من الجمرات على العدو، فيما بدا وكأنه فعل طقوسى تقليدى، لكن بعد النصر صور القرآن ذلك الفعل

(*) لعله عبد الله بن أبىّ بن سلول، وجماعته من المنافقين. (المحرر).

ومحمداً وصحبه على أنهم مجرد وسيلة لتنفيذ إرادة الخالق:

﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم** ﴾ (الأنفال: ١٧).

وكانت قضية المسلمين، حتى بدر، تبدو وكأنها أمر ميئوس منه، لكن بعد ذلك النصر تملكت المسلمين الثقة والبهجة، وبدا كأن شيئاً لن يقف فى سبيلهم:

﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإنْ يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾. (الأنفال: ٦٥ و٦٦).

غير التأكيد كان على الصبر، ودائما يؤكد المؤرخون الأوائل على الرصانة والجدية التى كانت تميز الجهاد. ولم يكن هذا تعصباً هستيرياً، لكنه كان اختباراً ضارياً لقوة التحمل. وكان محمد وصحبه الأكثرون حنكة، يعلمون جيداً أن ذلك النصر قد وضعهم على طريق وعر قد يدمر الأمة. فلكى يستعيدوا شرفهم ومنزلتهم التى يعتمد عليها نجاحهم كان على قريش أن تثأر. ورغم أن المسلمين لم يكونوا قد اعتزموا ذلك، فإنه بدا وكأن الله قد دفع بالأمة إلى حرب كاملة ضد أقوى قبيلة فى بلاد العرب.

وقد تبدو فكرة تدخل الله فى مسار التاريخ وفى المعركة غريبة وغير محببة (للقارئ الغربى المعاصر). لكن مثل تلك الأفعال الإلهية عامل حاسم فى التقاليد الدينية التوحيدية. ففى اليهودية والمسيحية أيضاً، فسرت أحداث جارية على أنها تجليات إلهية، واعتُقد أن الله قد تجلى فى تلك المعارك، والتقلبات السياسية والإنجازات. وأصبحت بعض الأحداث لحظات صدق وتمّت أسْطرتُها (تحويلها إلى أساطير)، حتى أصبحت محملة بأهمية رمزية

غيرت تماماً من طبيعة ما حدث. ويمكن أيضاً النظر إلى الفكرة، وتحليل المعنى الأكثر عمـقاً للتاريخ من ذلك المنطلق، أى من محاولة تخـيلية (خارج نطاق العقل) لإيجاد نمط تنظيمى لتدفق أحداث الحياة غير ذى معنى، وكانت إحدى تلك الأحداث الأكـثر تأثيراً، والتى أعيـدت صياغتـها، حادثة غرق فـرعون وجيـشه فى البحـر الأحمر. وقـد رأى كاتبو المزامـير، والأنبيـاء، والحكماء جميعاً تلك الحادثة على أنها اقتحام إلهى للتاريخ، أصبح نوعاً من الخلاص. وقد جـرى تأمل لتلك الواقعـة من جانب المسـيحيين ورأوا فـيهـا رمزاً ينبئ بخروج المسيح من الموت إلى الحيـاة، كما أصبحت أيضاً نمطاً لعملية الـتعميد الذى يسجل انتـقال المسيحى من حـالة اليأس والضياع إلى حـالة أمل وحياة جديدة. ويسمى عـبور البحر الأحمر فى القـرآن بالفرقان وهو لفظ دال على الخلاص وفصْل ما هو عادل عما هو ظالم. وقد سُمِّى القرآن نفسه بالفرقان، لأنه بدّل حياة المؤمنين حيث فصلهم بطريقة فجائية عن أهلهم:

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين. الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ (الأنبياء: ٤٨ ـ ٥٠).

كما أن تنزيل القرآن وحضوره بصورة مواكبة للحدث، بحيث كان مرشداً للأمة ومؤوِّلاً للأحداث، تذكرة بالحـضور الإلهى الغامض وتدخله فى الأمور الدنيوية بأسلوب فاصل.

وكذلك أصبحت مـعركة بدر «فرقاناً»، أى آية على الخـلاص. فقد فصل الله بين العدل والظلم بانتصار المسلمين، كمـا ميّز بين الإسرائيليين والمصريين عند البحر الأحمر.

وجاء فى الوصف الإنجيلى:

«فقـال المصريـون نهرب من إسـرائيل. لأن الرب يقاتل المصـريين عنهم. فـقـال الرب لموسى مُـدّ يدك على البـحـر ليـرجع الماء على المصـريين على

مركـباتهم وفرسـانهم. فمدَّ مـوسى يده على البحر فـرجع البحر عند إقـبال الصبح إلى حاله الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريين فى وسط البحـر، فرجع الماء وغطى مركـبات وفرسـان جميع جيش فـرعون الذى دخل وراءهم فى البـحـر لم يُبق منهم ولا واحـد. وأمـا بنو إسـرائيل فمـشوا على اليابسـة وسط البحر والماء سور لهم عـن يمينهم وعن يسارهم. فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتـاً على شاطئ البـحر. ورأى إسـرائيل الفعل العظيم الذى صنعـه الرب بالمصريين. فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى» (سفر الخروج: ٢٥/ ٣١).

ولم يحدث قط أن قرأ مـحمد الوصف الإنجيلى للواقـعة. لكنه لابد وأنه تفهّم أهميـتها جيداً (كـما نزلت فى القرآن) لأن رؤياه الدينية الخـاصة كانت ذات دينامية مماثلة. فقد أنقـذ الله الأمة يوم بدر من قريش، وشاهد المسلمون كبـراء قريش يرقدون أمـواتاً فى ساحة المعركـة. وشهدتْ الأمـةُ ذلك الفعل العظيم الذى أتاه الله ضد المكيـين، فبجّل القومُ الله وعـبده محمـداً. والفرق بين الموقفين هو أن الأمـر، وكما كان يحدث دائمـاً فى حياة محـمد، حدث بالفعل أمام أعين المسلمين، ولم تكن صياغته لهم مجرد صياغة أسطورية، أو تفسـير لحدث تاريخى على غـرار حدث آخر. ومما يجذب الاهتـمام فى هذا الصـدد (ويبين أن مـحـمداً رأى فـرقـان اليـهـود) هـو أن اليهـود كـانوا يحتفلـون بذكرى «الفرقان» فى عيد الفصح. غـير أن محمداً اعتقد أن صوم الكيبور (عيـد الشكر) هو الذى يكرس لذكرى انتصار البحر الأحـمر. وكما يقول الطبرى:

«وكان النبى صلى الله عليه وسلم حين قـدم المدينة، رأى يهود تصوم يوم عاشوراء، فـسألهم وأخبروه أنه اليـوم الذى أغرق فيه اللهُ قـومَ فرعون ونجى موسى ومن مـعه منهم، فقـال: نحن أحق بموسى منهم، فصـام وأمر الناس

بصومه»[٢٦].

ويبدو أن محمداً فى تلك الفترة كان يحاول أن يتخذ من حياة اليهود الدينية نموذجاً لحياة المسلمين. غير أنه قبل بدر بأيام قليلة حرّر الإسلام من عادات العقيدة القديمة حينما غـيّر موضع القبلة. وعقب الانتصار بأيام قليلة، أى فى يوم التاسع من رمضان، أعلن محمد أن صوم عاشوراء ليس إجباريا. وأنه بدلاً من ذلك سيصوم المسلمون رمضان ليُحيوا ذكرى فرقانهم الخاص فى بدر. وأصبح صوم رمضان، والتى بدأت مراعاة أدائه لأول مرة فى مارس عام ٦٢٥ أحد الممارسات الخمس الأساسية فى الإسلام.

ولاحظ محمد أن هناك جانباً أكثر إعتاماً فى الموقف الجديد، لأن الأمة قد ألزمت نفسها بحرب شاملة ضد قريش، وكانت قريش تعتمد على مكانتها، إذاً فلابد أن عليها أن تثأر لمنزلها فى بدر إن هى رغبت فى البقاء قوة عربية عظمى. وكانت الأمة، مرة أخرى، ورغماً عنها، قد بدأت مرحلة جديدة من الجهاد. وخلافاً لليهود، الذين ألزموا أنفسهم بحرب مقدسة لإبادة الآخرين بعد البحر الأحمر، لم تكن لدى محمد رغبة فى الخلاص من قريش. فقد شعر أن عليه أن يكسبهم بشكل ما إلى جانبه وبهذا الهدف، وحتى إبان نشوة الانتصار الأولى، عامل محمد الأسرى القرشيين معاملة عادلة، فبعد المعركة مباشرة أمر بقتل أسيرين كانا قد شنا هجوماً فكرياً هائلاً ضده قبل الهجرة. فلقد رأينا كيف أن محمداً وجد ذلك النوع من التحدى النقدى منذراً. غير أن بقية الأسرى، أُحضِروا إلى المدينة آمنين، ومُنحوا إقامةً إنسانية فى منازل الأشخاص الذين أسروهم. وبعد ذلك مباشرة أتى القرآن بسياسة إنسانية تجاه أسرى الحرب. فأمر ألا تُساء معاملتُهم بأى شكل. فإما أن يطلق سراحهم، وإما أن يفتدوا. وإذا لم تتوفر الدية لأسير، فبإمكانه العمل وكسب المال لشراء حريته. كما حث آسريهم على معاونة سجنائهم بدفع الفدية من مالهم الخاص. كما أن إعتاق الأسرى امتدح كعمل خيّر فاضل[٢٧]. وفى حديث

نبـوى لاحق يأمر الرسـول المسلمين أن يعاملوا أسراهم كـأفراد فى أسـرهم ويقول الحديث ما معناه: «فلتطعموهم مما تطعمون أنفسكم، ولتلبسوهم مما تلبسـون أنفسكم، ولا توكلوا إليهم المشاق، وعاونوهم فيما توكلونه إليهم»(٢٨).

وإن ذلك التشريع القرآنى، والنبوى، لتقابل مؤسف للمعاملة التى يلقاها الرهائن على يد مسلمى عصرنا. وفى الواقع فليس هناك ما هو إسلامى فى أمر احتجاز الرهائن، فى المعركة الراهنة اليوم. فإن المسلمين الشيعة الذين يقومون بسجن الرهائن وإساءة معاملتهم فى بيروت اليوم، لا يفعلون ذلك من منطلق إسلامى، والواقع، أن سلوكهم هذا خرق للمفاهيم المقدسة الجوهرية لدينهم.

ولم يكن أسرى بدر أعداء غير معروفين، بل كانوا أقرباء لصقاء وأصدقاء للمهاجرين. فحينما رأت سودة، زوجة الرسول، ابن عمها ونسيبها أبا اليزيد سهيل بن عمرو جالساً ذليلاً فى ركن من الغرفة ويداه مقيدتان خلفه، لم تتمالك نفسها وطغت عليها المشاعر القبلية، وتناست الأيديولوجية الإسلامية للحظة وقالت: «أى أبا اليزيد، أعطيتكم بأيديكم، ألا متم كراماً». لكنها سرعان ما تذكرت حاضرها الإسلامى حينما أنّبها زوجها الذى كان قد ولج الغرفة وقال: «يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين؟»(٢٩) وكانت أيضاً مشاعر القربى قوية لدى محمد. فلم يستطع النوم تلك الليلة وهو يفكر فى عمه وأبناء عمومته وهم يرقدون فى بأس وعناء فى الأسر. فأعطى الأوامر بإطلاق سراحهم. وأثمرت تلك المعاملة الإنسانية العادلة. وتأثر بعض الأسرى بأسلوب المعاملة فى الأمة فاعتنقوا الإسلام. وربما كانت أكثر تلك التحولات إثارة هى اعتناق عمير بن وهب (الذى حاول أن يُثنى قريشاً عن الحرب فى بدر) الإسلام. فبعد أن أعيد إلى مكة، أقنعه ابن عشيرته صفوان

ابن أمية أن يعود إلى يثرب ويغتال محمداً. وهناك اكتشف محمد سره. غير أن عُميراً تاب واعتنق الإسلام.

وكان من بين الأسرى أبو العاص زوج زينب ابنة محمد، وأحد الذين تمسكوا بالوثنية. وأرسلت زينب أخاه عمر بقيمة الفدية، التى جمعتها بنفسها، ومعها سوار كان لخديجة. وتعرف عليه محمد من فوره وشحب وجهه من فرط انفعاله. ثم ترجى المسلمين الذين كان بحوزتهم أبو العاص أن يطلقوا سراحه دون تقاضى الفدية، ووافقوا على ذلك بسرور. وكان محمد يأمل أن يتحول أبو العاص إلى الإسلام، غير أن ذلك لم يحدث. فطلب منه محمد أن يرسل زينب وابنتها أمامة إلى المدينة. وكان قد تبين فى تلك المرحلة الطبيعة غير العملية لزواج الوثنيين والمسلمين. ووافق أبو العاص بأسى، وهو يعلم أنه برغم عدم رغبة زينب فى تركه، فقد أصبح وضعها فى مكة محالاً.

وفى ذلك الوقت، كانت فكرة لقائه بزينب تعزية لمحمد الذى كان قد علم بوفاة ابنته الجميلة رقية لدى غيابه فى بدر. وحزن عثمان حزناً يصعب مواساته، غير أنه سُرّ حينما عرض عليه محمد الزواج من ابنته أم كلثوم. وزار محمد قبر رقية مع صغرى بناته فاطمة، حيث كان يجفف دمعه بطرف عباءته. وكانت فاطمة حينئذ فى العشرين من العمر وقد حان وقت تزويجها. وكان أبو بكر وعمر قد طلباها للزواج، لكن محمداً كان يودّ أن يزوجها من ربيبه الشاب علىّ. والذى نشأ مع فاطمة كأخ لها. وتردد علىّ أول الأمر نظراً لفقره الشديد فلم يكن قد ورث شيئاً عن أبيه أبى طالب. لكن محمداً شجعه على التقدم وتم الزواج بعد أسابيع قليلة.

وفى الفترة نفسها تقريباً، كان محمد قد قرر أن يتزوج مرة أخرى، وكانت حفصة بنت عمر قد ترملت حديثاً حيث توفى زوجها خنيس بن حذافة، والذى كان قد تزوجها بعد عودته من الحبشة وتوفى عقب غزوة بدر. وكانت حفصة فى ذلك الوقت فى الثامنة عشرة وتتميز بالجمال والكياسة، مثل أبيها

وقد كانت تجيد القراءة والكتابة، لكنها ـ وكأبيها أيضاً ـ كانت سريعة الانفعال، مما قلل من جاذبيتها لدى الرجال. وحينما انتهت فترة حدادها، عرض عمر أن يزوجها من عثمان ولم يكن يعلم أن محمداً قد قرر أن يزوجه من أم كلثوم. وبعد ذلك عرض زواجها من أبى بكر الذى التزم الصمت إزاء ذلك العرض المربك. وحينما ذهب عمر إلى محمد يشكو الجفوة الواضحة التى أبداها صحابته المقربون برفضهم حفصة، هدّأ محمد من روعه فوراً بعرضه الزواج منها. وأصلح أبو بكر القطيعة العارضة مع عمر بقوله: إنه كان يدرى بعزم محمد اختيار حفصة لنفسه. واحتفل بالزواج فى وقت مبكر من عام ٦٢٥م. وهكذا توثق التحالف بين محمد وصحابته المقربين وأصبح نسيبهما.

وكانت عائشة سعيدة لدى ترحيبها بحفصة. فرغم أن عائشة كانت تغار من الزيجات اللاحقة لمحمد، إلا أن الصلة الوثيقة بين أبويهما جعلت من الفتاتين صديقتين. ومن المحتمل أن حفصة أصبحت مرشدة لعائشة التى كانت مازالت حديثة السن، فى تلك السنوات المبكرة. وكانتا فيما بعد تناصران سودة. أما فى البداية، فكان من الطبيعى أن تحاولا مضايقة المرأة الأكبر سناً. وذات يوم قررتا مداعبتها فأخبرتاها أن المسيخ الدجال قد وصل. وتملك الخوف من سودة لدرجة أنها اندفعت إلى خيمة المطبخ كى تختبئ من ذلك المخلوق المرعب. واندفعت الفتاتان الضاحكتان من فورهما لإخبار محمد بالفكاهة، وأسرع هو لإنقاذ سودة التى خرجت من مخبئها متربة. لكن ارتياحها لعدم وصول الدجال جعلها لا تبالى أن توبخ شقيقتيها الصغيرتين كما كانت زوجات النبى يدعون بعضهن البعض.

لكن الحياة لم تكن دائماً مسلية بالنسبة للزوجات الصغيرات. فذات يوم، وحين كانت عائشة فى أوائل عشرتيها الثانية طلب منها محمد أن ترافق أحد أسرى الحرب. غير أن عائشة غفلت وهرب الرجل. وحينما عاد الرسول واكتشف ما حدث ثار غضبه وصاح داعياً الله أن يقطع يدها، واندفع خارجاً

من مسكنها ليتبع الرجل. وبعد الإمساك بالأسير عاد محمد ووجد عائشة جالسة وهى تنظر إلى يدها فى حزن، فسألها عما دهاها وإن كان قد تملك منها جان. فأجابته عائشة بقولها إنها لا تدرى أى يد سوف يقطعها الله. حينئذ استشعر محمد اللوم، وخجل واعتذر للفتاة الصغيرة على الفور، وقال لها إنه سيدعو الله أن يبارك أى شخص قد سبق له أن دعا عليه.

وكان مركز محمد قد تحسن بعد بدر، لكن لم يكن جميع الأنصار متحمسين لتصاعد مكانته. ورغم السعادة الطاغية وزهو الانتصار، فإن معظم الحكماء من المسلمين كانوا يعلمون جيداً أنه لن يكون من السهل هزيمة قريش مرة أخرى. ولذلك، كان العام الذى تلا بدراً عام قلق شديد، وزاد هذا القلق بطبيعة الحال، عندما علم القوم أن المكيّين قد دعوا قبائل البدو لمؤازرتهم فى صراعهم مع محمد. وتلاعب ابن أبىّ والمعارضون بتلك المخاوف زاعمين أن الإسلام قد عرّض المدينة لخطر مهلك. إذ لو كانت تلك الواحة على شفا الهلاك قبل محمد، فإن جميع العرب الآن قد بدءوا فى الوقوف ضدها. ومن الممكن تفهم مثل تلك المخاوف. ثم أعلن ابن أبىّ أنه على استعداد أن يطيع التنزيل لكنه لن يطيع محمداً شخصياً لأنه على وشك الزج بالمدينة فى حرب مهلكة. غير أنه، وكما يشير القرآن، فحينما نزلت الآيات التى تقر قرارات محمد وتؤكد ضرورة الجهاد، استمر تمرد المعارضة، رغم أن هؤلاء القوم كانوا أحياناً يتملكهم الرعب الشديد من محمد(٣٠).

وكانت القبائل اليهودية تساند ابن أبىّ، لأنها قد روّعها مركز محمد الجديد فى المدينة. ولذا أيضاً، فإنها وجدت فى مكة حليفاً طبيعياً. فبعد النصر مباشرة، مثلاً، ذهب كعب بن الأشرف شاعر بنى نضير اليهودى إلى مكة، وبدأ ينظم الأشعار الملتهبة التى يحث فيها قريشاً على السير ضد محمد للثأر من قتلاهم. فقال فيما قال:

صدقوا فليت الأرض ساعة قُتّلوا ظلت تسوخ بأهلها وتَصَدَّعُ

صار الذى أثر الحديث بطعنه أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع[٣١]

وأوضحت أشعار كعب لقريش أن هناك من أهل المدينة من لا يؤازرون محمداً. وكانت قبائل اليهود مُهابة. فقد كانت لها جيوش كبيرة العدد، وكانوا على قوة قتالية مؤثرة. وقد كان بالإمكان إقناعهم بالانضمام إلى قريش للخلاص ممن قالوا عنه إنه مدّع، وذلك فى حالة هجوم مكّى على المدينة. وكان للشعر مركزية فى الحياة السياسية العربية. ولذلك، ساعدت أشعار كعب على إيقاظ قريش من حالة الخمول والاكتئاب التى أصابتها بعد الهزيمة.

وبعد الكارثة، أصبح أبو سفيان أهم شخصية فى مكة. وكان معظم كبراء قريش قد قتلوا، وتوفى أبو لهب، عدو محمد، بعد بدر بوقت قصير. وكان لأبى سفيان منذ ذلك الحين أن يقود الصراع ضد محمد. وفى اجتماع لمجلس العشائر، تقرر أن تكرس عائدات القافلة التى أنقذها أبو سفيان للحرب ضد المدينة. وبعد بدر بحوالى عشرة أسابيع قاد أبو سفيان بنفسه غزوة، كإشارة وتحذير مما هو قادم. فقام على رأس سرية قوامها مائتا رجل وتوجهوا إلى المناطق خارج أرض بنى النضير اليهودية، أى قبيلة كعب، واحتفى به سلام ابن مِشْكَم، سيد بنى النضير، وبحث معه الموقف. وكما يقول ابن إسحق: «بطن له من خبر الناس» أى أمده بمعلومات سرية عنهم. وفى اليوم التالى قام أبو سفيان بتدمير بعض الحقول، وحرق بعض أشجار النخيل (وكانت تلك فعلة مضادة لمبادئ العرب، وكانت ترتكب تمهيداً للحرب)، ثم قتلوا اثنين من الصحابة اللذين كانا يفلحان الأرض. وفور سماعه الأنباء، قاد محمد سرية من المسلمين للحاق بهم، وفرت قريش فوراً ملقية بكل زادها للتخفف أثناء الفرار.

وأصبح من الواضح أن القبائل اليهودية صارت مخاطرة أمنية. فلو حدث أن عسكر جيش من مكة جنوب المدينة حيث زمام أقوى قبيلتين، يصبح

بالإمكان انضمام القبائل اليهودية إلى قريش حيث كانوا يرون فيهم حلفاء. وإن هاجمت قريش المدينة من الشمال، وكان ذلك هو الخيار الأفضل لها، يصبح بإمكان القبائل اليهودية الهجوم على المسلمين من الخلف وتطويقهم تطويقاً كاملاً. وتحقق محمد أن عليه أن ينهى حالة الفرقة تلك. وأخبره من أسلم من اليهود أن بنى قينقاع، أصغر القبائل الثلاثة، هم الأشد عداء للأمة، وكانوا حلفاء ابن أبىّ قبل الهجرة. كما أنهم قرروا أن يخرقوا عهدهم مع محمد بعد بدر، ويحيوا التحالف القديم لتقوية المعارضة، وهزيمة الرسول. وكان زمامهم أكثر قرباً من المدينة على عكس القبيلتين الأخريين، واللتين لم تكونا من المزارعين، بل كانوا حدادين وأصحاب حِرف. وبعد بدر، وهروب كعب إلى مكة، زارهم محمد فى منازلهم، وطلب منهم أن يقبلوا به نبيًّا بحق إرثهم الدينى المشترك. واستمع يهود قينقاع فى صمت متمرد، ثم أخبروه أنهم لا ينوون البقاء فى الأمة. وقالوا له «يا محمد، إنك ترى أنّا قومك؟ لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»(٣٢) وبعد ذلك الإنذار، انسحب محمد انتظاراً للتطورات.

وبعد أيام قليلة وقعت حادثة فى سوق قينقاع. وقام صائغ يهودى بخداع امرأة مسلمة كانت تتاجر هناك. إذ عمد خلسة إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم على اليهودى، فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع.

وكانت الخسائر فى الأرواح متساوية. ودعى محمد بصفته الرسمية كقاضٍ للمنازعات لكى يعيد السلام. لكن اليهود رفضوا قبول حكمه وحصنوا أنفسهم فى حصنهم ودعوا حلفاءهم من العرب لمساعدتهم. وكان لدى بنى

قينقاع سبعمائة محارب مُعَدُّون، فلو أن حلفاءهم العرب استجابوا لندائهم وأتوا بقواتهم للقاء محمد، ما كان باستطاعته هزيمتهم. وكان ابن أبىّ متلهفاً على مساعدة قينقاع، وتشاور مع حليفه الآخر عبادة بن الصامت. لكن عبادة كان مسلماً ملتزماً وأوضح له أن ذلك التحالف القديم مع اليهود قد أُلغى منذ أن وقّعوا المعاهدة مع محمد. وعرف أُبىّ أنه لا حيلة له فى المساعدة، إذ إن باقى العرب استمروا صامدين خلف محمد. وكانت قينقاع قد توقعت ثورة ضد محمد والمهاجرين، لكن بدلاً من ذلك وجدوا أنفسهم محاصرين من كل العرب فى المدينة، وانتظروا أن يُوفّى ابن أُبىّ بوعده لمدة أسبوعين، لكنهم أُجبروا على التسليم أخيراً دون شروط.

وذهب ابن أبىّ بعد ذلك إلى محمد وطلب منه الرحمة، ولما لم يُجب النبى قبض على ياقته. وأبيضّ وجه محمد غضباً، واستمر ابن أبىّ سادراً وهو يتساءل، كيف له أن يتخلى عن أعوانه القدماء الذين طالما قدموا له العون فى الماضى.

وكان يعلم أنه من حق محمد طبقاً للتقاليد العربية القديمة أن يقتل كل أفراد القبيلة، لكن محمداً أبقى على حياتهم شريطة أن يغادروا الواحة. وطلب من ابن أبىّ أن يرافقهم إلى خارج المدينة وحينما علمت قينقاع أن ابن أبىّ لا يملك لهم عونا استعدوا للرحيل. فقد قامروا مقامرة لم تنجح لأنهم أساءوا تقدير القوة التى كان محمد قد اكتسبها، وكانوا بعدُ لم يتحققوا أن النظام البائد قد انتهى إلى غير رجعة، وكانوا يعتقدون أن حلفاءهم العرب القدامى كانوا ينتظرون الفرصة لإعادة ذلك النظام. وتركوا الواحة على ما يبدو دون احتجاج لأنهم كانوا يعلمون أنهم محظوظون أن نجوا بحياتهم. وكان من المعتاد أن تُطرد القبائل خارج الواحة فى فترة ما قبل الإسلام. وكان جميع المدنيين على علم بهذه العقوبة، ولابد أن قينقاع قد توقعت أن عليها الرحيل. والتجئوا إلى جماعة يهودية أخرى فى وادى القرى، وبعد ذلك توطنوا على حدود سوريا.

ومن الأمور شديدة الصعوبة علينا فى الغرب فهم علاقات محمد بيهود المدينة، ذلك لأن الموضوع يبعث أشباحاً مخزية عديدة من ماضينا. لكن صراع محمد مع القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث كان مختلفاً تماماً عن الكراهية الدينية والعرقية التى أدت إلى أن يشعل مسيحيو أوربا المذابح لمدة تقرب من ألف عام. ثم وجد إرهاب المسيحيين اللاعقلانى تعبيره النهائى فى حملة هتلر الصليبية العلمانية ضد اليهود. لكن لم يكن لدى محمد تلك المخاوف والأوهام. كما لم تكن لديه أية رغبة فى رفع شعار «الإبادة لليهود» فى المدينة. فقد كان نزاعه مع قينقاع ذا طابع سياسى محض، ولم يمتد ذلك النزاع ليشمل العشائر اليهودية الأخرى فى المدينة، الذين حفظوا العهد وعاشوا جنباً إلى جنب مع مسلمى المدينة فى سلام.

وكان ذلك وقتاً خطراً بالنسبة للأمة التى كان يتوقع أفرادها هجوماً عارماً من مكة، ولم يكن بوسعهم ببساطة أن يُئووا عدواً لهم بينهم. وكان طرد قينقاع تحذيراً للخوارج المحتملين مثل ابن أُبىّ وبنى النضير. وأوضح ذلك أيضاً أن محمداً لم يكن بالشخص الذى يُستهان به. وبعد شهور قليلة، وحينما عاد الشاعر كعب للمدينة وأخذ فى صياغة أشعار تشهيرية ليشعل بها فتنة أمر محمد بقتله. وكان محمد ينزعج دائماً من الشعراء المعادين. فقد كان يعتقد أن مقولاتهم لها وقع يشبه وقع السحر كما رأينا. وكان من الممكن للشعراء فى بلاد العرب أن يُصبحوا أسلحة فتاكة، ومرة أخرى لم يكن محمد ليسمح لكعب أن يشعل عداوة الجماعات المحايدة فى المدينة أو أن يلهم البدو الذين قد يستمعون إلى القصائد أن يلحقوا بتحالف أبى سفيان ضد المدينة. وكان بنو النضير قد هذبتهم هزيمة قينقاع، وحينما قتل كعب ذهبوا إلى محمد شاكين أحد كبرائهم، وكان محمد يعلم أن عداءهم هو بنفس درجة عداء كعب له، لكنهم كانوا يلتزمون الصمت حتى تحين الفرصة فقط. وقال لهم محمد: «إنه بإمكانه أن يتسامح مع فكر ورأى مخالفين،

لكن ليس مع فعل فتنة». وكان قد تقدم مراراً لعقْد معاهدة خاصة مع النضير، هذا بالإضافة إلى العهد، لضمان سلامتهم، وصمتهم. ووافق بنو النضير على ذلك بسرور. وهكذا، وبينما كان ينتظر هجوم مكة، ألجم محمد المعارضة.

وزادت معالجة محمد الماهرة للأزمة من مكانته فى المدينة، ولكنه لم يكن بعد ينظر إليه رئيساً للأمة. فلم يكن له أن يحتوى خطر قينقاع وابن أُبىّ دون مساندة عبادة بن الصامت. ومُنح محمد خُمس المتاع الذى خلفته قينقاع. وكان المعتاد للرئيس أن يأخذ ربع مثل تلك المغانم ليوظفها من أجل قومه: فقد كان يُتوقع منه أن يوزع العطايا ويعتنى بالفقراء ويحتفى بالضيوف. وهكذا ميّز الخُمس محمداً قليلاً عن الرؤساء الآخرين، ولكن كان دليلاً على أنه الآن يحتل مكانة مشابهة. وبينما كان ينتظر محمد هجوم المكيين بقلق، انشغل بتدعيم المنزلة التى اكتسبها. فكان حينما يسمع عن قبيلة من البدو الرُّحَّل تخطط لغزو زمام المدينة تحت تأثير دعاية مكة، كان يُسيّر سرية كى يحبط الهجوم المتوقع. وكانت المعارضة تتلاشى بمجرد وصول السرية المسلحة واستطاع محمد آخر الصيف أن يتسبب فى خزى جديد لقريش، فقد كانت القوافل منذ بدر لا تستطيع استعمال طريق البحر الأحمر إلى الشام، وقرر صفوان بن أمية أن يسير فى طريق نجد إلى العراق مسافراً شرق المدينة. وكان ذلك الطريق غير مناسب لبُعْد أماكن السقى عن بعضها البعض، لكن صفوان أرسل بعيراً إضافية محملة بالماء، بالإضافة إلى تلك التى كانت تحمل بضائع من الفضة بلغ قدرها ١٠٠,٠٠٠ درهم. ووصلت لمحمد أخبار عن تلك القافلة، وأرسل زَيْداً ليعترض طريقها. وتمكن زيد ورجاله من أن يفاجئها فى غفلة منهم بينما كانت القافلة تستريح عند بئر قَرَدَة. ومنذ بدر، كان الجنود المسلمون قد اكتسبوا صيتاً يبعث على الرهبة، ولذا، فحالما رآهم المكيون يقتربون هربوا تاركين القافلة بأكملها وراءهم.

وكشّفتْ قريش استعدادها للهجوم على المدينة، غير أنهم انتظروا حلول فصل الشتاء. وفى النهاية، وفى يوم ١١ مارس عام ٦٢٥م ترك مكة ثلاثة آلاف رجل مع عدد مماثل من البعير وحوالى مائتى حصان، وبدءوا رحلتهم متهادين تجاه المدينة. وكان قد لحق بقريش حلفاؤها من البدو من مجموعة القبائل التى تدعى الأحابيش أى ثقيف الطائف وقبيلة عبد مناة. ووصل العسكر إلى مشارف المدينة يوم الحادى والعشرين من مارس، وعسكروا على السهل المواجهة لجبل أحد شمال الواحة. وكان محمد وأهل المدينة قد سمعوا أن الجيش فى طريقه قبل أسبوع واحد. ولم يكن هناك وقت لجمع المحاصيل من الحقول. غير أنهم تمكنوا من جمع كل القوم فى المناطق الواقعة خارج المستوطنة وحصنوهم مع بعيرهم وماشيتهم وأغنامهم ومعيزهم داخل المدينة. وبمجرد وصول الجيش جمع كبراء المدينة مجلس حرب. ونصح أكثرهم خبرة بالحذر الشديد: أى أن على الجميع أن يمكثوا داخل المدينة ويرفضوا الخروج للقاء العدو. وكان من الصعب جداً الإبقاء على أى حصار فى بلاد العرب. وحين كانت تلك الخطة تُتَّبع سابقاً، كان العدو يجبر على الرحيل دون قتال. لكن بعض من هم أحدث سناً كانوا يُريدون الأداء الفاعل. وقالوا إن محمداً هزم جيشاً كبيراً فى بدر ومعه ٣٥٠ رجلاً فقط، وإن الله لابد أن يُساعدهم مرة أخرى. وساندهم فى ذلك بعض المساعدين الذين لم يحتملوا فكرة رجال قريش وهم يأكلون محاصيلهم التى تركوها خارج المدينة. وتملكت مشاعر حب القتال تلك الفئة حتى إنهم انتصروا فى النهاية وبدأت الاستعدادات للمعركة.

لكن هؤلاء الصقور تملك منهم الخوف، وخاصة حينما أخبرهم سعد بن معاذ أنهم يمشون إلى الهلاك بأرجلهم. فأخبروا محمداً أنهم على استعداد للبقاء داخل المدينة. لكن محمداً، وكما ينبغى، التزم بقرار القتال. وقال: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»[٣٣]. فقد كان أى تردد

عند ذلك المنعطف سيؤدى إلى نتائج وخيمة، وبناء على ذلك، امتطى محمد جواده المفضل فى مساء ١٢ مارس الموافق السادس من شوال، وقاد ما يقرب من ألف رجل تجاه أحد، على بعد عشرين ميلاً تقريباً ليلقى جيشاً عدده ثلاثة أضعاف عدد جيشه. ورفض اليهود القتال لأن ذلك كان يوم سبت، لكن المسلمين كانوا يعلمون جيداً أنهم يتمنون انتصار المكيين. وعسكر الجند تلك الليلة فى منتصف الطريق بين المدينة وأحد، وفى الصباح فر ابن أبىّ إلى المدينة مصطحباً ثلاثمائة رجل . ولم يهتم حتى بإبلاغ محمد قراره، لكنه أوضح لبعض الأنصار أنه أراد الانفصال عن تلك الحملة العبثية الانتحارية، وقال: «أطاعهم وعصانى ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس»(٣٤).

ورغم أنه كان قراراً يعوزه الشرف، فبالإمكان فهم دوافعه. لكن قد يكون ابن أبى قد استهدف ما هو أعمق. ففى عام ٦١٧م، كان قد انسحب من غزوة بُوَاط لأنه كان قد تحقق من استحالة النصر الكامل. وكانت تلك خطوة فى صالحه، وأوشك أن يصبح بسببها ملكاً للمدينة. وفى هذه الحالة، فإن هزم محمد فى أحد، كما كان محتملاً، فإن ابن أبىّ يكون قد فصل نفسه عن الكارثة، ويشرع بعد ذلك فى إنقاذ الموقف.

وواجه المسلمون القرشيين فى الصباح التالى بجيشٍ كان قد تناقص لدرجة خطيرة. وكان أبو سفيان يقف فى وسط الخط الأمامى، ويحيط به عن اليمين خالد بن الوليد المخزومى، وعن اليسار عكرمة بن أبى جهل، وقبل بدء القتال وقف أبو سفيان وطلب من الأوس والخزرج أن يهجروا محمداً ويرجعوا لأدراجهم، لأنه لم يكن بينهم وبين مكة عداوة حقيقية. لكن الأنصار صاحوا فيهم متحدين بأنهم لن يتركوا نبيهم أبداً. ثم تقدم أبو عامر، وكان مدنياً من الموحدين وفر إلى مكة عقب وصول محمد وخاطب قومه وقبيلته قائلاً: « يا معشر الأوس، أنا أبو عامر» قالوا: «فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق». وصدمت الدهشة أبا عامر، فقد كان يتفاخر فى مكة أن كلمة

واحدة منه كفيلة بأن تكسب الأوس فى مصاف قريش. ولكن الآن عاد متمتماً: «لقد أصاب قومى بعدى شراً»(٣٥).

وبدأ الجند فى التقدم تجاه بعضهم البعض. وكانت هند، زوجة أبى سفيان تسير خلف الجند مع كبريات نساء مكة يضربن الدفوف مغنيات:

إن تقبلوا بغانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق(٣٦)

وكانت هند تبغض محمداً، لكنها أيضاً كانت قد فقدت والدها عتبة بن ربيعة وابنين لها فى بدر، وأقسمت أن تأكل كبد حمزة الذى قتل عتبة فى مبارزة. وبدأ القتال.

ومن الصعب تبين ما حدث بالتفصيل لأن المصادر مشوشة. ففى البداية صمد المسلمون. وكان محمد قد صف جنوده فى تشكيلات متراصة كتلك التى نجحت فى بدر. وبدا لوهلة وكأنهم قد أجبروا العدو على الفرار، لكن رماة الأسهم من المسلمين عصوا الآراء وتراجعوا وهاجمهم خالد من الخلف. ثم اندفع إلى الأمام فى هجوم رائع بالخيل، وفر المسلمون فى خزى. وحاول محمد وقف فرارهم لكنه وقع على الأرض فاقد الوعى بعد أن تلقى ضربة على الرأس، وانتشرت شائعة أنه توفى.

لكنه كان قد فقد وعيه فقط، وتم حمله إلى بستان حيث أفاق سريعاً، لكن قريشاً لم تصبر للتأكد من النبأ. ويبدو أنهم حينما سمعوا نبأ وفاته توقفوا عن القتال ولم يتابعوا انتصارهم.

لذا تمكن المسلمون من التراجع تراجعاً منظماً. كان اثنان وعشرون من المكيين قد قتلوا وجرح خمس وستون، ولم يكن نصراً عظيماً لقريش. فقد فشلوا فى قتل محمد والقضاء على الأمة، وكان من بين موتى المسلمين ثلاثة فقط من المهاجرين، وهم حمزة، وعبد الله بن جحش، ومصعب، والباقى من الأنصار. ولم تكن قريش حريصة على حرب مع الأنصار حيث لم تكن

لها معهم عداوة. وبعد المعركة، عملت قريش على اغتراب بعض قبائل البدو عنها لأنها شوهت جثث القتلى. فقد شق قرشى بطن حمزة وانتزع كبده وأتى به هنداً التى مضغت شريحة منه وفاء لعهد كانت قطعته على نفسها، ثم قامت بقطع أنف حمزة وأذنيه وأعضائه التناسلية وحثت النساء الأخريات أن يفعلن مثلها بجثث القتلى الآخرين. وتركن ساحة الحرب وهن يرتدين أساور وأقراطاً وقلائد من جثث الموتى الدامية مما أثار اشمئزاز البدو وبعض من رجالهن، الذين شعروا أن ذلك قد أفسد قضيتهم.

وسمع أبو سفيان أخبار عدم موت محمد قبل رحيل الجيش: إذاً فلم تنته المتاعب مع المدينة. وصاح أبو سفيان: «العام القادم فى بدر» كتحد آخر، وصاح أحد الصحابة قائلاً: «إن ذلك لموعد بينهم»(٣٧). وكان المسلمون فى وضع حسن، رغم هزيمتهم الكبيرة، لدرجة تمكنوا معها من القيام بمطاردة عدوهم مطاردة رمزية وتبعوا جيش مكة لمدة ثلاثة أيام، وفى الليل، كان محمد يوزع رجاله بعيداً عن بعضهم البعض قدر المستطاع، ثم يشعل كل منهم ناراً، حتى يبدو وكأن جيشاً عارماً يعسكر فى المكان. وتسببت تلك الحيلة فى عرقلة بعض رجال قريش الذين أرادوا الرجوع إلى المدينة ليدمروا الأمة.

لكن ذلك العزاء كان غير مجد. فقد كان معظم المسلمين فى حالة كآبة شديدة بعد أحد، وتساءلوا: إن كانت بدر آية للخلاص فهل تعنى هزيمة أحُد أن الله قد تخلى عن محمد؟ ورد القرآن على ذلك التساؤل فى سورة آل عمران، موضحاً أنه ليس لدى المسلمين من يلومونه سوى أنفسهم، فقد كانوا مشاكسين، عصاة، غير منظمين طوال الحملة. غير أن أحد كانت «آية» فى حد ذاتها. فقد ميزت بين المسلمين حقّاً والجبناء الذين فروا مع ابن أبىّ.

وكما كان متوقعاً، فقد ابتهج ابن أبىّ واليهود، وأصر ابن أبىّ ومؤازروه على أن عدم اتباع سياسته هو الذى أدى إلى تلك الإصابات. أما اليهود فقالوا

إن محمداً ما هو إلا شخص طموح وليس لديه ما يثبت نبوته. فمن سمع عن نبى أصيب بمثل تلك النكبة؟ وأراد عمر قتل أولئك المتقصين من حق النبى. لكن محمداً هدأ من ثورته ووعده ألا تنزل قريش بالأمة مثل ذلك الخزى مرة أخرى، كما أنهم سوف يقومون بتأدية الفرائض فى الكعبة يوماً ما.

ولكن، ورغم ثقته الهادئة، فقد هدمت أُحد مكانته وتسببت فى قطيعة مع ابن أبىّ. فحتى ذلك الحين، كان المعارضون غير ذى فعالية. لكن بعد أحد، تعمّد ابن أبىّ استغلال كل مناسبة كى يدمر محمداً. وفى يوم الجمعة التالى تم إحراج وخزى ابن أبىّ فى العلن. فحينما قام ليخطب أمسك به اثنان من الأنصار قائلين إن عليه أن يصمت بعد خيانته. فخطا خارج المسجد مهتاجاً غاضباً ورفض أن يسأل محمداً الدعوات والعفو. وبعد أحد، أعطى القرآن لابن أبىّ وصحبه اسماً جديداً وهو المنافقون، والتى عادة ما تترجم إلى Hypocrites. غير أن و. مونتجومرى واط يرى أن التأويل الأكثر صحة هو «الزواحف»، أو «الفئران»، لأن ابن أبىّ وصحبه زحفوا متسللين إلى جحورهم إبان أحد مثل حيوانات ضئيلة منزعجة[٣٨].

كانت هناك أيضاً مشاكل عاجلة عملية يجب حلها. وقد ترك الخمسة والستون مسلماً الذين قتلوا فى أحد وراءهم زوجات وعوائل كان على المسلمين إعالتهم. ويبدو أن الآية التى تبيح للمسلمين الزواج من أربع نساء قد نزلت بعد أحد:

﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً. وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾[٣٩]. (النساء: ٢ و٣).

ويميل نقاد محمد الغربيون إلى أن يروا ذلك السماح بتعدد الزوجات شوفونية ذكورية. كما تروج الأفلام الشعبية مثل فيلم "Harem" «الحريم»

صورة مبالغاً فيها عن الحياة الجنسية لمشايخ المسلمين، ويعكس هذا الأمر هوى الغربيين وجنوح خيالهم أكثر مما يعكس الواقع. وإذا نظرنا للأمر فى سياقه، نجد أنه لم يقصد بتعدد الزوجات إباحة نوع من الممارسة الجنسية للرجال. فقد كان ذلك نوعاً من التشريع الاجتماعى. وكانت مشكلة الأيتام محل اهتمام محمد منذ بداية رسالته. ثم تفاقمت المشكلة بعد وفيات أحد، فلم يترك الرجال الذين استشهدوا زوجات فقط، لكنهم أيضاً تركوا بنات وأخوات وقريبات وأقرباء فى حاجة لمن يكفلهم من جديد. وكان هناك احتمال ألا يكون الأوصياء الجدد على درجة كبيرة من الحرص والورع فى توزيعهم وإدارتهم لممتلكات هؤلاء اليتامى. وربما عمل بعضهم على عدم تزويج بعض هؤلاء النساء من أجل أن يسيطروا على ممتلكاتهن. ولم يكن زواج الرجل من ربائبه، كوسيلة لضمْ ممتلكاتهن إلى ما بيده، أمراً غير معتاد.

ومن المحتمل أيضاً أنه كان هناك نقص فى عدد الذكور فى بلاد العرب، الأمر الذى أدى إلى وجود فائض من النساء غير المتزوجات واللاتى كن يستغللن استغلالاً سيئاً. وقد أولى القرآن تلك المشكلة اهتماماً شديداً، ومن هنا لجأ إلى إباحة تعدد الزوجات أسلوباً لمعالجتها، وبذلك تتمكن الفتيات اللاتى تيتمن، من الزواج. لكن القرآن نص على أنه باستطاعة الرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة فقط إذا هو وعد بالإدارة العادلة والتوزيع العادل للممتلكات. كما أنه نص على ألا تزوج يتيمة ممن يرعاها ضد رغبتها وكأنها متاع منقول(٤٠). كما ينص القرآن أيضاً على شروط الطلاق. ففى عصر ما قبل الإسلام، وحينما كانت الزوجات يعشن فى بيوتهن الأبوية، كان باستطاعة الزوجة، أو أحد من أقاربها الذكور، إنهاء العلاقة الزوجية. أما فى القرآن، فقد منح الرجل سلطة رفض الزوجة الطلاق. غير أن هناك فقرة فى صالح الزوجة. فقد كان من المعتاد فى بلاد العرب أن يدفع الرجل مهراً لعروسه. وكان أقرباء المرأة من الرجال عادة ما يتملكون ذلك المهر. لكن

الإسلام أوجب أن تعطى المرأة المهر مبـاشرة. وإلى يومنا هذا، يسمح للمرأة أن تفعل ما تشاء بتلك النقود، أى أنه يمكنها أن تتبرع بها، أو أن تبنى حماماً للسباحة، أو تبدأ مشروعـاً تجارياً. ولا يسمح للرجل باسترداد المهر فى حالة الطلاق. وهذا ضمان لأمن المرأة(٤١).

ويلوم النقاد الغربيـون الطريقة التى يعالج بها القرآن شئـون النساء ويرونها غير عادلة. غير أن الحقيقة هى أن تحرير المرأة كان من الأمور المحببة إلى قلب الرسـول. ويدعى النقاد الغـربيون أن القـرآن يكيل بمكيالين. فـمثـلاً، تنص قوانـين الإرث على منح المرأة نصف ما يمنح لإخـوانها من الرجـال (والذين عليـهم أن يوفروا مـهوراً ليبـدءوا بها أسـراً جديد). كـذلك يسمح للـنساء بالشهادة فى المنازعات القضائية لكن قيـمة شهادة المرأة هى نصف قيمة شهادة الرجل. ويبدو ذلك التشـريع القرآنى فى سياق القرن العشـرين (حيث مازلنا فى الغرب نقود الحمـلات من أجل حقوق متساوية للنسـاء) كأن يحرم النساء من حقـوقهن. غيـر أنه فى القرن السابع كـان ذلك التشريع تشـريعاً ثورياً. وعلينا أن نتذكـر ما كانت عليه حيـاة المرأة فى عصور ما قـبل الإسلام حيث كان وأد الأطفـال البنات هو القاعدة وحـيث لم تكن للمرأة أية حـقوق على الإطلاق. وفى مثل ذلك العـالم البدائى، فإن مـا أنجزه محـمد للمرأة غـير عادى. فمبـجرد أن يصبح للمرأة حق أداء الشهادة، وأن ترث لنفسـها كامرأة أى شىء على الإطلاق هو أمر مـثير للدهشة. ويجب أن نتـذكر أن فى أوربا المسيحـية كان على النساء أن ينتظرن حـتى القرن التاسع عشـر حتى يحصلن على ما هو مشابه من الحقوق لأن القانون ظل فى صف الرجال.

ومرة أخرى علـينا أن نرى قاعدة تعدد الزوجـات فى سياقهـا. ففى بلاد العرب فى القـرن السابع، وحينما كـان متاحاً للرجل أن يتـزوج أى عدد من النساء، كان التقـيد بأربع بمثابة حد لتلك الممارسة، وليس ترخـيصاً باضطهاد جـديد. وأكثـر من هذا، فـالقـرآن يتبع الآيات التى تمـنح المسلمين الحق فى

الزواج بأربع بشرط يجب مراعاته بمنتهى الدقة. فإن لم يكن الرجل واثقاً فى مقدرته على العدل بشدة بين جميع زوجاته فعليه الاكتفاء بواحدة(٤٢). وقد أسس التشريع الإسلامى على هذا. فعلى الرجل أن يقسم وقته بالتساوى بين زوجاته، وعليه ألا يفضل إحداهن، ولو تفضيلاً طفيفاً على الآخريات. وأن يحبهن ويحترمهن بنفس القدر.

وهناك اتفاق واسع فى العالم الإسلامى على عدم استطاعة البشر قضاء ذلك الشرط القرآنى. فإن عدم التفرقة هذا مستحيل. وهذا يعنى أنه من غير المسموح للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة. ولم تلجأ السلطات فى الدول الإسلامية التى منع فيها تعدد الزوجات إلى مبررات علمانية لذلك المنع، بل إلى مبررات دينية.

وعلى هذا، فلم يشجع القرآن الرجال فى المدينة بعد أُحد على تكوين حريمهم الخاص. فهو فقط لم يحدد عدد الزوجات اللاتى يستطيع المسلم تزوجهن، لكنه يطلب من المسلمين أيضاً التزاماً مستقبلياً. ويكرر القرآن أيضاً تحريمه لوأد البنات، كما أصبح ذلك التحريم أيضاً من الوصايا التى كان على معتنق الإسلام القبول بها. وبدلاً من تلك الممارسة الوحشية لتحديد النسل، فإن القرآن يحث المسلمين على الوثوق به فى مجتمع كان يجب منح غير المحصنين فيه مثل المسنين واليتامى والأطفال حقوقاً إنسانية كاملة، ومعاملتهم معاملة عادلة(٤٣). كذلك، ففى أحد أجمل المقاطع فى الكتاب المقدس نجد المسيح يحث حوارييه على أن يتأملوا الطيور فى الجو، وأزهار السوسن فى الحقول ولا يقلقوا بشأن المستقبل، فإن الله سيكفل لهم احتياجاتهم(٤٤). وبطريقة شبه مماثلة يحث القرآن المسلمين أن يبصروا رحمة الله وكرمه فى آياته الطبيعية. فعليهم أن يتوكلوا على الله دون الالتجاء إلى أساليب الجاهلية الاستغلالية القاسية، وأن ينمُّوا الثقة المبهجة فى أنفسهم بأنه هو رازقهم. كما أن عليهم أن يتزوجوا المحتاجات من النساء ويقيموا أسراً متعددة الأفراد وهم على ثقة أن الله سيُيسّر لهم الحياة:

﴿وأنكحـوا الأيامى منكـم والصـالحين من عبـادكـم وإمائكـم إن يكونوا فقراء يغنهـم الله من فضله والله واسـع عليـم﴾(٤٥) (سور النور: ٣١).

ويعتبر ذلك فعـلاً إيمانياً يتطلب قدراً غير يسير من الشجاعـة وقدم محمد للمسلمين المثل باهتمامه بغير المحصنات فى الأمة، فقد تزوج برابعة بعد أحد وهيأ سكناً لزينب بنت خزيمة أرملة عبيدة بن الحارث شهيد بدر. وكانت أيضاً ابنة كبير قبيلة عمير. وهكذا، شكلت هذه الزيجـة أيضاً تحالفاً سياسياً وأقيم لها سكن إلى جانب المسجد ولحقت بأخواتها سودة وعائشة وحفصة.

وكـان محـمد يحث المسـلمين على الوثوق بمسـتقـبلهم. إن هم آمنوا أن باستطاعتهم الإتيان بالسلوك المنصف، وبتحمل مسئوليات جديدة، فى الوقت نفسه الذى كان يحاول أبو سفيان فيه أن يقيم تحالفاً عملاقاً لهدم الأمة. لكن محمداً كالمعتاد كان يلتزم الحيطة. فـقد تحقق أن عليه أن يضمن مساندة قبائل البدو شرق المدينة وشـمالها الشرقى لمنعهم مـن الانضمام إلى الحلف المكى. وأرسل محـمد فرق غزو كى يلفت اهتـمام البدو. لكن وقعت حـادثتان فى صيف عام ٦٢٥م برهنتا على درجة عدم الحصانة التى كانت عليها المدينة.

فقد طلبت قبيلتـان بدويتان نجديتان من محمد أن يمدهما بمن يفـقههما فى الإسلام، وكـان بعض أفراد تلك القبائـل قد اعتنقوا الإسـلام وكانوا يودون تعلم قراءة القرآن. فأرسل إليـهم محمد ستة من أكثـر رجاله كفاءة من أجل تلك المهمة. وفى أثناء رحلتهم عكفـوا إلى الراحة عند بئر رَجِيع بالقرب من مكة وهناك هاجمهم أحد كبار هذيل وقتل ثلاثة من المسلمين وتم أسر الثلاثة الآخرين. وحينمـا حاول أحدهم الهرب تم رجمه حـتى الموت. أما الآخران فأُخِـذا إلى مكة كى يباعا إلـى أعدائهمـا القرشيين. وابتـاع صفوان بن أمـية أحدهما ليـقتله ثأراً لأبيه كبـير جمح الذى كان قد قـتل فى بدر. وبعد ذلك أُخذ المسلمان إلى خارج الحرم وتم صلبهما.

وفى الفترة نفسها تقريباً طلب أبو براء كبير بنى عامر وصهر محمد الجديد، طلب أيضاً مبعوثين لتفقيه قومه فى الإسلام. وكان ذلك أيضاً طلباً للمساعدة ضد بعض المنشقين من قبيلته. وتم على الفور إرسال أربعين مسلماً لكن معظمهم قتلوا فى مذبحة قرب بئر معونة على حدود أرض بنى عامر، فقد قام منافس لأبى براء من قبيلته بإقناعه بقيام أفراد من بنى سليم المجاورة بارتكاب الفعلة. وكان اثنان من المسلمين يقومون برعى البعير عن قرب، وعرفا بالفاجعة فقط حينما رأيا الجوارح تحوم حول المعسكر. فاندفعا عائدين ليجدا رفاقهما أمواتاً، وتم أسر أحدهما بينما تمكن الآخر من العودة إلى المدينة. غير أنه أثناء عودته لقى اثنين من بنى عامر نائمين تحت شجرة، واعتقاداً منه بمسئولية بنى عامر عن المذبحة، استلّ سيفه وقتلهما وأسرع ليخبر محمداً بما فعل، لكن لدهشته أخبره محمد بخطأ ما فعله، وقال إن على الأمة أن تدفع دية الدم الذى أهدر خطأ، وكان ذلك أمراً أصبح مقبولاً لدى بعض القبائل بدلاً من الاقتصاص بالقتل. واعتقد محمد أنه ما كان يجب قتل العامريين، فرغم أن بعضاً من عامر كان وراء المذبحة إلا أن من ارتكبها كان من بنى سليم، وكان محمد أيضاً يأمل من دفع الدية إلى أبى براء، الذى ارتاع لما حدث، أن تتحول القبيلة إلى الإسلام. وبدأ الشعراء المسلمون ينظمون الأشعار الدعائية يرثون فيها ضحايا بئر رجيع ومعونة. ونتج أيضاً عن سلوك محمد المهذب إزاء أبى براء أن بدأ بعض أعداء الأمة السابقين ينظرون إليها بأعين أكثر تعاطفاً. وفى الواقع، فقد قيل إن إيمان وشجاعة المسلمين عند لقائهم الموت قد ترك أثراً عميقاً فى بعض بنى سليم لدرجة أنهم اعتنقوا الإسلام.

ثم بدأ محمد فى رفع قيمة الدية فى المدينة. وكانت قبيلة بنى نضير اليهودية ضمن من فوتحوا فى الأمر، وكانت أيضاً حليفة لأبى براء. وتقدم محمد وبرفقته أبو بكر وعمر وعليّ ونفر من أصحابه بطلبه فى اجتماع

لمجلسهم. وبدا اليهود مرحبين متعاونين. وطلبوا من المسلمين الانتظار فى الخارج لحين النظر فى طلبهم. لكن الرسول قام راجعاً إلى المدينة وانسحب فجأة من بين مرافقيه. وفيما بعد أخبرهم أن جبريل قد حذره من أن بنى نضير كانوا يخططون لقتله. وفى الواقع، لم يكن تحذير الوحى ضرورة قصوى. فقد كان بعض أفراد القبيلة مازالوا يريدون الثأر لمقتل الشاعر كعب ابن الأشرف، وتذكر المصادر المسلمة بالتحديد الشخص الذى كان على وشك إلقاء جلمود على محمد من سطح قريب.

ثم أرسل محمد أحد الأنصار نائباً عنه ليبلغهم إنذاراً. وأخبرهم الأنصارى، محمد بن مسلمة، أحد أفراد قبيلة الأوس الذين كانوا حلفاء بنى نضير قبل الهجرة ما معناه أن رسول الله أرسله إليهم يبلغهم أنهم قد نقضوا العهد بينهم وبينه بتخطيطهم لقتله. ولهذا، فإنهم ليس بوسعهم البقاء فى المدينة بعد تلك الخيانة. ودهش اليهود من أن يقوم أحد أفراد الأوس بتبليغهم رسالة كتلك. فمثلهم مثل قينقاع فى العام الفائت، لم يكن بنى نضير بمستطيعين تقبل فكرة زوال النظام القديم بغير رجعة. وكان على ابن مسلمة أن يبلغهم دون مواراة بأن القلوب قد تغيرت، وأن الإسلام قد محا التحالفات القديمة(٤٦).

وحاول اليهود التفاوض مع محمد ليروا ما إذا كان بإمكانهم الوصول إلى حل وسط. لكن ابن أبىّ رأى فى الموقف فرصة ممتازة ليحاول مرة أخرى الخلاص من محمد. فأنبأ بنى النضير أنهم سينضمون إليهم إن كانوا مستعدين للانفصال عن الأمة. ومثل بنى قينقاع من قبل، انسحب يهود بنى النضير إلى حصنهم، وراقبوا المسلمين وهم يحاصرونهم، وانتظروا أن يأتى ابن أبىّ وجماعته لعونهم على رفع الحصار. لكن شيئاً لم يحدث، ومرة أخرى أساء ابن أبىّ تقدير قوة منزلة محمد واعتقد أن ما أصابه من هزيمة نتيجة أحد يفوق الواقع. وبعد أسبوعين، وحينما علمت بنى النضير أنهم لم يمكنهم المثابرة أكثر

من ذلك، أصدر محمد أمره بتقطيع نخيلهم والتحريق فيها. وألقت تلك العلامة على الحرب بالرعب فى قلوب اليهود، واستسلموا وهم يرجون محمداً أن يمنحهم الحياة فقط. ووافق محمد على أن يغادروا الواحة حاملين معهم من متاعهم القدر الذى يمكن لبعيرهم أن تحمله فقط. وحمل بنو نضير كل ممتلكاتهم، حتى إنهم قاموا بخلع «نجاف» بيوتهم (العتبات العليا) وحملوها ظناً منهم أن يتركوها لمحمد. وغادروا الواحة بزهو وفخر وكأنما قد انتصروا. وارتدت نساؤهم جواهرهن وزينتهن وأخذن يضربن دفوفهن ويغنين فى صحبة المزامير والطبول. وبعد أن اخترقوا المدينة سافروا شمالاً على طريق سوريا الشمالى .وأقام بعضهم مستوطنة خيبر اليهودية، ومن هناك، عاونوا أبا سفيان على تكوين تحالفه وقاموا بعمل حملات لتأييده بين القبائل الشمالية.

وتمكن محمد فى العام التالى لأحد من استعادة قدر من المنزلة التى كان قد فقدها، وكان شأن بنى النضير هزيمة أخرى لابن أبىّ. واستمر محمد فى القيام بإخماد بوادر الغزوات من أعدائه. وفى أبريل عام ٦٢٦م كسب نصراً معنوياً حاسماً. فقد كان أبو سفيان لدى مغادرته ساحة القتال فى أحد، قد تحدى المسلمين أن يلاقوه فى بدر إبان السوق السنوية. وعلى هذا، خرج محمد فى أبريل من عام ٦٢٦م مع ألف وخمسمائة من الرجال وعسكروا خارج بدر، لمدة أسبوع كامل. لكن أبا سفيان لم يظهر إذ إنه لم يتوقع أن يوفى محمد بالميعاد، ثم خرج بجيشه لمجرد التظاهر وهو يخطط للعودة بمجرد أن يسمع أن المسلمين لم يغادروا المدينة. وكان ذلك عام جفاف شديد، ولم يكن هناك عشب لإطعام البعير أثناء الرحلة. وبعد يومين عاد أبو سفيان بجيشه إلى مكة، وهناك قوبل بالشجب واللوم الشديد من قومه لفشله فى الوفاء بالوعد، وخاصة أن البدو كانوا قد ملئوا إعجاباً بشجاعة المسلمين واستعدادهم لمواجهة جيش من المكيين أكثر عدداً منهم بكثير عند بدر مرة أخرى، وعلى ذلك، فلم يتحسن مركز محمد فى المدينة فقط، لكن المناخ بدأ ينقلب فى صالحه فى بقية أنحاء البلاد.

وكان محمد مازال يأمل فى تسوية سلمية رغم أن المسلمين كانوا يعلمون أنه بعد مهانة المكيين فى بدر الثانية، فإنهم قد أخذوا يكثفون استعداداتهم لهجوم جديد على الأمة. وفى يناير من عام ٦٢٦م توفيت زوجة محمد الجديدة زينب بعد ثمانية أشهر فقط من زفافها. وبعد شهور قلائل تقدم لهند بنت المغيرة أرملة ابن عمته أبى سلمة وطلب منها الزواج. وكانت أم سلمة - وهو الاسم الذى تعرف به - شقيقة أحد قادة مخزوم المكية، الأمر الذى كان يحمل معه أملاً فى فائدة تلك الصلة، وكانت أم سلمة فى التاسعة والعشرين من عمرها وذات جمال مرموق. ويبدو أيضاً أنها كانت ذكية ورفيقة جيدة لمحمد. وكان محمد يفضل أن يصحبها فى الغزوات المهمة، وحدث فى مناسبة واحدة على الأقل أن قدمت له نصيحة ثمينة. لكنها فى البداية أبدت تردداً فى الزواج من محمد قائلة: «إنها ليست شابة وإن لها طبيعة غيورة ولا تعلم إن كانت تتحمل الحياة مع شريكات لها». وطمأنها محمد مبتسماً أنه بعدُ أكبر منها وأن الله سيتولى أمر غيرتها.

وكانت أم سلمة مصيبة فى خشيتها منافسة الزوجات الأخريات. فقد تسبب زواجه منها فى انقسام بين زوجاته انعكست آثاره على أطراف متعددة داخل الأمة والتى كانت تتنافس على القوة السياسية. فأم سلمة كمخزومية كانت تمثل المجموعة الأكثر أرستقراطية بين المهاجرين، بينما كانت عائشة وحفصة، بنات أكثر صحابة محمد حميمية، تمثلان المجموعة السياسية الشعبية. وكانت كلما انضمت زوجة جديدة إلى من سبقتها انضمت إلى إحدى تلك المجموعتين المتنافستين. وكثيراً ما كانت أم سلمة تبحث عن المؤازرة بين مجموعة أقلية ثالثة، وهى أهل البيت، واللاتى كن أفراد عائلة محمد الأصلية. وكانت تنظر إلى فاطمة الخجولة كأمل رئيسى لها. وعكست تلك التقسيمات بين زوجات محمد تقسيمات أخرى حاسمة فى الأمة، والتى سوف تصبح بعد وفاة محمد شديدة الخطورة، كما أنها مازالت، إلى حد ما،

تقسم المسلمين إلى يومنا هذا، فإن أهل البيت، والذين كانوا يريدون أن تقود فاطمة وعليّ وسلالتهم العالم الإسلامى سيصبحون الشيعة. وبعد زفاف أم سلمة بفترة ليست بالطويلة، أخذ محمد زوجة جديدة ازداد بها عدد تلك المجموعة الأرستقراطية التى تحالفت معها. وكانت الزوجة الجديدة زينب بنت جحش بنت عم الرسول، قد طلقت من زيد وتزوجها محمد. وتسببت تلك الزيجة فى دهشة البعض كما وظفت من قبل منتقدى محمد للتقليل من شأنه.

فيرى كتّاب مثل فولتير وبريدو الحادث برهاناً على شهوة محمد للنساء وعن استغلاله الوحى من أجل تحقيق ما يشتهيه!! كما أنهم يقدمون رواية أكثر إثارة عن الحادثة عن تلك التى يقدمها المسلمون. فقد ذهب محمد عصر يوم لزيارة زيد وكان بالخارج. وفتحت زينب لمحمد. وبدا أنها لم تكن تتوقع زائرين فقد كانت ترتدى ملابس غير ساترة. وكانت زينب حينذاك فى أواخر الثلاثينيات لكنها كانت مازالت رائعة الجمال. فوقع محمد فى حبها لأنه استدار على عجل وهو يتمتم بكلمات كأنما يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان مقلب القلوب»(٤٧). وكانت زينب غير راغبة فى الزواج من زيد وبدأت تستغل إعجاب محمد بها كمخرج من ذلك الزواج وأخذت تردد على مسامع زيد عن ذلك الأثر الشديد الصارم الذى تركته فى محمد لدرجة أصبحت معها الحياة محالة. وذهب زيد إلى محمد وعرض عليه أن يطلق زينب إن كان هو راغباً فى الزواج منها. لكن محمداً صرفه طالباً منه أن يتقى الله ويمسك عليه زوجه، غير أنه لم يكن هناك أمل فى استقرار الزواج. فقد أدى تذمر زينب المستمر إلى تعاسة زيد لدرجة دفعته إلى تطليقها. وقرر محمد فى النهاية أن يتزوجها

وظهرت انتقادات لذلك الزواج المزمع. فقد قال البعض إنه لا يصح، حيث إن زينب كانت متزوجة من ربيب محمد أى ابنه بالتبنى. غير أن

محمداً تلقى وحياً مفاده أن مثل ذلك الزواج غير محرم. فعلاقة التبنّى ليست علاقة بنوة طبيعية، ولذا فإن زواج محمد من زينب لا ينتهك درجات المحارم المنصوص عليها. وحيث إن محمداً كان مع عائشة عند نزول الآية وعلقت عائشة بصورة غير لائقة قائلة ما معناه: إن الله يسرع فى تلبية رغبات محمد. ولكن مجرد حفظ قول عائشة هذا المنتقد يبرهن على أن معارضى محمد كانت لهم نظرة أكثر واقعية. فقد كانوا ينظرون إليه على أنه بشر له رغباته، وأنه ليس من حقهم الانتقاد إذا رأى الله أن يمنح رسوله بعض المزايا. وينكر المسلمون اليوم أن محمداً تزوج زينب عن شهوة. ويبنون اعتراضهم على أنه من غير المحتمل أن امرأة فى التاسعة والثلاثين كانت طوال حياتها تعيش على حافة سوء التغذية وتعرضت للهيب شمس بلاد العرب المحرقة كان لها أن تثير مثل تلك العاصفة فى صدر أى رجل، دعنا من إثارتها عاصفة فى صدر ابن عم لها كان قد عرفها منذ أن كانت طفلة. كما أن محمداً كان دائماً وثيق الصلة بأسرة جحش، وزينب من بينهم. ويفسر المسلمون ما حدث على أن محمداً شعر بالمسئولية تجاهها بعد أن طلقت، وكان - وكما نعلم - يولى اهتماماً بالنساء غير المحصنات من الأمة. فلو أنه ابتغى زينب لجاذبيتها الجنسية لتزوجها قبل ذلك بسنوات عديدة. كما أن الحادثة تبرهن أيضاً على أن العلاقة بالتبنى تختلف عن صلة الدم وليس لها أن تمنع الزواج.

وبعد زواج زينب بفترة قصيرة، وربما لعلاقة بذلك الحادث، نزلت آية الحجاب والتى نصت على أن تُفصل زوجات النبى عن بقية الأمة. ويعالج المأثور الإسلامى إدخال الحجاب بطرق مختلفة. فالبعض يقول إن عمر، والذى كانت لديه آراء شوفونية عدوانية هو الذى حث محمداً على حجب زوجاته عن الأنظار بواسطة ستار. فقد كانت قد حدثت بعض الوقائع حيث أهان المنافقون زوجات النبى حينما خرجن لقضاء حاجتهن. بينما يقول آخرون إنه مع ارتفاع مكانة محمد وزيادة درايته بالحياة فى البلاد المتمدينة،

فقد كـان يود أن يتبنى بعض العادات الفارسـية والبيزنطية والـتى تفصل نساء الطبقات العليا للمجتمـعات لمنزلتهن. وعلى أية حال، فالدلائل تشير إلى أنه كان هناك تسـيب فى أخلاقيـات الجنس فى بلاد العرب قبل الإسـلام. وكان هناك توجه شديد نحـو الأحاديث غير اللائقـة والتلميحات وكثـير من الغزل والمراودة. ويمكن للفضائح الجنسـية فى المجتمعات التـقليدية أن تكون شديدة الخطورة وأن ينجم عنهـا كثيـر من المشاعـر العنيفـة. ومن المحتـمل أيضاً أن محـمداً كان على علم أن ابن أبىّ ومـؤازريه كان يسرهم أن يقـوضوا قضـية الإسلام بترويجهم لما هو شائن على عائلته.

ويقال، إن بعض المدعوين لحفل زفاف زينب تعمّدوا أن يمكثوا فترة طويلة وإنهم أساءوا التصرف، وكان ذلك سبب نزول الآية التى نصّت على ضرورة فصل زوجات النبى عن بقية الأمة:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غيـر ناظرين إناه ولكن إذا دعيـتم فادخلوا، فإذا طعـمتم فـانتـشـروا ولا مسـتـأنسين لحـديث إن ذلكم كـان يؤذى النبى فـيسـتـحى منكم والله لا يستحى من الحق وإذا سألتـموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجـاب ذلكم أطهـر لقلوبكم وقلوبهن ومـا كـان لكم أن تـؤذوا رسـول الله ولا أن تـنكحـوا أزواجـه من بعـده أبداً. إن ذلكم كـان عنـد الله عظيـمـا ﴾[٤٩] (الأحزاب: ٥٣).

ولم يكن لمحمد، كمـا ذكرنا، غرفة خاصة به فى المسجـد، فقد كان ينام فى بيوت زوجاته. لكن بعد أن ازداد شأنه فى المدينة أصبح منزله مكاناً عاماً، حيث كـان من يقدمون لاسـتشارته فى ازدياد مطرد، وكـانوا يستشـيرونه فى شئـونهم الشخصـية والدينية أو يطلـبون إليه أن يحكم فى منازعـات. وكان بعض المسلمين يلجئون لزوجاته على أمل أن يجـدوا آذاناً صاغية. فكان مثلاً يعرف عن عائشة أنها تتجـاذب أطراف الحديث مع أحد الشباب، الأمر الذى

تذكره القوم فيما بعد عندما انفجرت فضيحة هددت بانقسام الأمة. ولم يكن المقصود من الستار أو الحجاب أن يكون أمراً قمعياً. لكنه قصد به عدم تطور موقف ينجم عنه فضيحة يمكن أن يستغلها أعداء محمد للإساءة إليه.

هنا نتوقف لبحث مسألة الحجاب فى الإسلام. فغالباً ما ينظر إليه فى الغرب على أنه رمز للقمع الذكورى. أما فى القرآن فلم يكن سوى جزئية إجرائية تطبق على نساء النبى. فالنساء المسلمات مطالبات، كالرجال، بمراعاة الاحتشام فى ملابسهن. لكن لا يطلب من النساء أن يحجبن أنفسهن أو يعزلن أنفسهن فى جزء منفصل من المنزل. فقد كانت تلك تطورات لاحقة، ولم تنتشر فى أرجاء العالم الإسلامى سوى بعد ثلاثة أو أربعة أجيال لاحقة على وفاة محمد. ويبدو أن تقليد حجب النساء وعزلهن أتى إلى العالم الإسلامى عن طريق فارس وبيزنطة، حيث كان ذلك أسلوب التعامل مع المرأة لزمن طويل.

وفى الواقع فلم يقصد بالحجاب الحط من شأن نساء محمد، بل كان رمزاً على رفعة منزلتهن. واكتسبت نساء النبى بعد وفاته قوة كبيرة. فقد كن مصادر لها احترامها فى الشئون الدينية كما كن يستشرن بشأن ممارسات النبى (السنة) وآرائه. وأصبحت عائشة ذات أهمية سياسية قصوى وقادت ثورة ضد علىّ رابع الخلفاء عام ٦٥٦م. وفيما يبدو أنه، فيما بعد، تملكت الغيرة من النساء إزاء منزلة نساء النبى، وهكذا طالبن بالسماح لهن بارتداء الحجاب أيضاً. فالحضارة الإسلامية حضارة مساواة، ولذا كان من التناقض أن تتميز نساء النبى وتشرفن بذلك الأسلوب. وهكذا رأت النساء اللاتى ارتدين الحجاب فى البداية فيه رمزاً للقوة وحسن الأثر، وليس شارة تدل على اضطهاد الذكور لهن. وقد أخذت نساء الصليبيين فيما بعد فى ارتداء الحجاب على أمل أن يعلمن ذويهن من الرجال أن يحسنوا معاملتهن حينما رأين الاحترام الذى كانت تلقاه النساء المسلمات. إنه لمن الصعب فهم رموز وممارسات

الحضارات المخالفة. وقد بدأنا نعى فى أوربا أننا قد أسأنا فهمها، وقمنا بتقويض حضارات تقليدية فى مستعمراتنا ومحمياتنا السابقة. كما أن نساء مسلمات كثيرات اليوم، بينهن من نشأن فى الغرب، يجدن شجب النسويات الغربية لحضارتهن كحضارة معادية للنساء أمراً كريهاً. إن معظم الديانات كانت شأناً ذكورياً وكان لها تحيزات أبوية patriarchal، لكن من الخطأ أن نرى الإسلام معيباً فى هذا الصدد أكثر من الديانات الأخرى. وكان الأمر مغايراً تماماً فى العصور الوسطى. فقد تملك المسلمين الرعب حينما رأوا الأسلوب الذى كان المسيحيون فى دول الصليبيين يعاملون به نساءهم، كما هاجم المفكرون المسيحيون الإسلام على أساس أنه يمنح الوضعاء من العبيد والنساء قوة كبيرة. واليوم، تعود بعض النساء المسلمات إلى زيهن التقليدى، وهذا لا يحدث، كما يقول الغربيون، نتيجة لإخضاعهن لعملية «غسيل مخ» من قبل ديانة شوفونية، لكنهن يفعلن ذلك لأنهن يجدن العودة إلى جذورهم الحضارية عملية فيها إرضاء كبير. وغالباً ما يكون ذلك رفضاً لمواقف الحضارة الغربية الإمبريالية التى تدعى أنها تفهم مأثوراتهن أكثر منهن أنفسهن.

ووقعت حادثة فى يناير من عام ٦٢٧م، وبعد فترة وجيزة من إدخال الحجاب فى حياة زوجات النبى. وقد برهنت تلك الحادثة على أن أى قدح ضد عائلة محمد يمكنه قلقلة مركزه. فكان قد قاد غزوة ضد بنى المصطلق أحد فروع خزاعة والتى كانت تعد لغزو المدينة، وقاجأهم عند بئر يقال لها المريسيع على شاطئ البحر الأحمر، شمال غربى المدينة وأجبرهم على الفرار، واغتنم ألفين من بعيرهم، وخمسة آلاف من أغنامهم، ومائتى امرأة من بينهن جويرية بنت الحارث، كبيرهم. وكان قد سمح لعائشة بمرافقة الغزوة. وارتعد قلبها عندما رأت جويرية وهى تساوم محمداً على فديتها لأنها كانت شديدة الجمال، حتى قيل عن عائشة إنها قالت عنها «فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها صلى الله

عليه وسلم ما رأيت»(٥٠). وحدث فعلاً أن تقدم محمد للزواج منها وبذلك حول قبيلة معادية إلى قبيلة حليفة.

وعسكر المسلمون عند بئر المريسيع ليومين آخرين. وهنا تقدم عدد أكثر من المنافقين ليلحقوا بالغزوة لأنها كانت تبشر بغنائم كبيرة. وفجأة كشفت حادثة مفاجئة عن التوتر التحتى للأمة. فقد نشبت مشاجرة بين رجلين من قبائل محلية، وكانا قد استؤجرا لسُقْيا الخيل، واستدعى كل منهما الحلفاء التقليديين لقبيلته: أى أن أحدهما استدعى القرشيين واستدعى الآخر الخزرج. وفى لمحة استجاب المهاجرون والأنصار لذلك التحدى القبلى وأمسكوا برقاب بعضهم البعض فى دقائق، مما يدل على قوة الولاء القبلى القديم وكيف أنه فى لحظة انتصر على الأيديولوجية الإسلامية فى غفلة من المسلمين. وهنا تقدم عمر وبعض صحابة الرسول المقربين وأوقفوا التقاتل. غير أن ابن أبىّ استشاط غضباً وتساءل عما إذا كان الهوان قد بلغ بأهل المدينة مبلغاً يسمح معه أن يأتمروا بأمر الأجانب. وقال: «أو قد فعلوها؟ فقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول، سمّن كلبك يأكلك. أما والله وإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»(٥١). وحينما أخبر أحد الأنصار محمداً بما حدث استل عمر من فوره سيفه. وهنا سأله النبى بهدوء: «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا» ولكنه أذن بالرحيل رغم أن ذلك كان يعنى أن يرتحلوا فى أشد أوقات النهار قيظاً، وهو أمر لم يكن يحدث من قبل، فارتحل الناس، وفى أثناء رحلة العودة نزلت سورة المنافقون، لكن محمداً احتفظ بها لنفسه حتى عاد إلى المدينة.

وفى أثناء التوقف للاستراحة، تسللت عائشة لقضاء حاجتها، وحين عادت للمعسكر، وكانت القافلة على وشك الرحيل، اكتشفت أنها فقدت عقدها، فرجعت للبحث عنه، وبينما هى فى تلك المهمة جاء القوم الذين

يرحلون لها البعير، فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه، فرفعوه، وشدّوا على البعير. وانطلق الناس. ولم يقلقها ذلك كثيراً، فقد كانت تعلم أنهم سيفتقدونها سريعاً ويرجعون إليها. ورقدت فى انتظارهم. وبعد ذلك حضر صفوان بن المعطل ذلك الشاب الذى كان يعرف عائشة جيداً قبل فرض الحجاب، والذى كان أيضاً يقضى حاجته. فتعرف عليها، وكان غيابها لم يُكتشف، وحينما وصلت فجأة مع صفوان بدأت الألسنة تلوك سيرتها. ولم يتوانَ المنافقون عن نشر الفضيحة على وجه السرعة مثيرين بذلك العداوات القديمة القبلية تجاه المهاجرين الذين تسببوا فى تلك الحروب. حتى إن حسان ابن ثابت الشاعر الذى امتدح انتصارات النبى بإخلاص منذ الهجرة واحتفى به، نظم قصيدة ينعى هجران الآلهة القديمة ووصف نفسه وكأنه محاصر ببحر من اللاجئين فى المدينة. كما بدأ بعض المهاجرين أنفسهم يتشككون فى براءة عائشة ومن بينهم ابن عمها مسطح وحُمنة بنت جحش شقيقة زينب والتى كانت تغار بالنيابة عن شقيقتها من تفضيل النبى لعائشة. أما زينب نفسها، فقد صمدت فى دفاعها عن عائشة.

وكانت عائشة قد مرضت بعد عودة الجماعة إلى المدينة ولم تعلم بالشائعات إلا تدريجياً. وكانت قد لاحظت فتور محمد وتباعده وطلبت الذهاب إلى منزل والديها لتلقى الرعاية. وكان محمد فى حيرة. كما أنه كان منزعجاً لتوقف الوحى فجأة. ولم يكن له إلا أن يتوجّه إلى الصحابة طالباً العون. ولم يكن له أن يستشير أبا بكر فى أمر ابنته، ولم يطلب رأى عمر، ربما لما عرف عنه من شدته تجاه النساء. واتجه بدلاً من ذلك إلى الجيل الأحدث سناً، فسأل ولد زيْد أسامة عن رأيه فى عائشة، ودافع عنها أسامة بحرارة. وكذلك فعلت جاريتها بريرة التى قالت لمحمد: «والله ما أعلم عنها إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أنى كنت أعجن العجين فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله». لكن علياً كان معادياً

ومتشككاً،[٥٢] وقال: «يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف». ولم تغفر له عائشة ذلك قط.

غير أن ابن أُبىّ استمر فى إثارة المتاعب، وسرته تلك الفرصة للإساءة إلى الرسول. واضطر محمد أن يدعو كبراء المدينة إلى اجتماع يطلب منهم مؤازرته إن هو اضطر إلى اتخاذ خطوات ضد واحد منهم يحاول الإضرار بعائلته. وكان يعلم أن بعض رجال الخزرج سيُحزنهم اتخاذه خطوات ضد ابن أبىّ دون إذن منهم. وبرهن اللقاء على أن وحدة المسلمين كانت مازالت هشة. وأظهرت القضية الصدع الذى كان ما زال موجوداً بين الأوس والخزرج. فقد حث بعض كبار الأوس، الذين كانوا يعلمون جيداً أن معظم أعداء عائشة كانوا من الخزرج، على قطع رقاب مُثيرى الفتنة. وإزاء ذلك، اتهم الخزارجة بالنفاق ووصل الأمر إلى أن القبيلتين أوشكتا على الاشتباك بالأيدى. وتطلب حسم ذلك المأزق بقاء الأمة متوحدة.

وفى النهاية ذهب محمد ليواجه عائشة نفسها، وكان قد تم شفاؤها وبدتْ منزعجة لدرجة كان من الصعب معها تهدئتها، وكانت قد انتحبت لمدة يومين ولم يستطع أبواها تقديم العون لها. وكانت والدتها أم رومان قد قالت لها: «أى بنية، خفضى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها». ولم يدر أبو بكر كيف يفكر، فكان أن نصحها أن تعود إلى بيتها بجوار المسجد. وحينما وصل محمد كان والدها بصحبتها، وكان ثلاثتهم يبكون بحرارة. لكن حينما ظهر النبى جفّت دموع عائشة كأنما بفعل السحر. وسألها محمد إن كانت مذنبة، أن تعترف بما قارفت من سوء وتتوب إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده. ونظرت ابنة الرابعة عشرة بكبرياء عظيم وأجابت قائلة: إنها لن تتوب عما لم ترتكبه. وإنها أيضاً تعرف أنها إن أقرّت بما يقول الناس، والذى يعلم الله أنها منه بريئة، فإنها تقول ما لم يكن. وإن هى أنكرت ما يقولون فلن يصدقوها.

ثم التمست اسم يعقوب فلم تتذكره. فأضافت أنها ستقول ما قاله أبو يوسف «فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون». ثم ذهبت صامتة إلى سريرها فرقدت عليه.

ولابد أن محمداً قد اقتنع، وبعد أن فرغت من كلامها انتابته غشية مثل تلك التي تواكب الوحى، غاب فى أثنائها عن وعيه. ورغم أن اليوم كان بارداً فقد عرق عرقاً شديداً. ووضع أبو بكر وسادة جلدية تحت رأسه وغطاه بمعطفه، بينما انتظر هو وأم رومان الوحى الإلهى. وكانت عائشة التى كان يحطيها خطر كبير باردة كالصقيع. وفجأة أفاق محمد وقال: «أبشرى يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك». وبعد أن غلبتهم الطمأنينة طلب منها والدها أن تنهض وتذهب إلى محمد. فأجابت قائلة ببساطة إنها لن تذهب إليه، وإنها لن تشكر أيًا منهما لأنهما أصغيا إلى الافتراء. لكنها ستنهض وتشكر الله وحده[٥٣]. وقبل محمد ذلك العتاب، ثم خرج إلى الحشد الذى كان قد تجمع وتلا الآيات التى برّأت ساحة عائشة وأدانت الإفك على أنه افتراء واضح[٥٤].

وأوضحت الحادثة أن عائشة قد أصبحت امرأة ذات كبرياء وشجاعة، وتمكنت من كسب مكانتها فى قلب الرسول. أما معالجتها للموقف فدليل على الثقة التى يمنحها الإسلام للمرأة. فلم يحدث أن ارتعبت أى من نساء النبى من زوجها. بل كنَّ يُواجهنه وكان يُنصتُ باستمرار إليهن جيداً. وكان يحدث كثيراً أن تشكو الزوجات تفضيله لعائشة. لكن محمداً كان يحاول أن يُقيم نظاماً غير متحيز. فكان يقضى لياليه مع زوجاته بالتتابع، وكان يجرى القرعة ليقرر أياً منهن ترافقه فى أسفاره. ولكنه كان مجرد بشر، وكان من الواضح للأمة جميعاً أيهن يفضل. وكان المسلمون الذين يودون إرسال هدايا يرسلونها إلى المسجد فى اليوم الذى يكون فيه مع عائشة لاعتقادهم أن ذلك سيسره. ووجدت زوجاته الأخريات ذلك مهيناً. وذهبت أم سلمة تطلب منه

أن يخبرهم أن يرسلوا الهدايا لمساكنهن جميعاً. لكن محمداً طلب منها أن تتوقف عن مضايقته المستمرة بشأن عائشة، إذ إنها الوحيدة بين زوجاته الحاليات التى كان يأتيه الوحى وهو فى معيتها. وهنا أرسلت أم سلمة إلى فاطمة على أمل أن تنجح مع والدها. فسألها النبى إن كانت لا تحب من يحب؟ الأمر الذى ارتبكت معه فاطمة ارتباكاً شديداً. وأخيراً جاءت زينب معترضة، وفقدت تحكمها بنفسها وكالت الإهانة لعائشة. فاستدار محمد لعائشة وطلب منها أن تدافع عن نفسها، وفعلت عائشة ذلك بحمية وطلاقة صمتت معها زينب، وراق ذلك لمحمد الذى رأى وجه الشبه بينها وبين والدها أبى بكر. لكن عائشة لم تكن دائماً تحقق كل ما تريد. ففى يوم ما، وبدافع غيرتها من المكانة التى كانت خديجة مازالت تحتلها فى نفس محمد، دَعَتْها المرأة الدرداء العجوز. وأغضب هذا محمداً أشد الغضب، فلم يكن هناك من هو أعزّ إليه من خديجة التى آزرته فى وقت رفضته الدنيا جمعاء.

وفى مارس عام ٦٢٧م، وبعد أسابيع قليلة، كان اللغط حول عائشة خلالها قد خمد، سير المكيون وحلفاؤهم جيشاً قوامه عشرة آلاف محارب ضد المدينة. وكان كل ما يجمعه محمد من المدينة ومن حلفائه من البدو هو ثلاثة آلاف محارب. وهكذا لم يكن هناك إمكانية السير لمقاتلة العدو، وهو الأمر الذى أجبر عليه فى أحد. ولهذا، حصّن المسلمون أنفسهم فى المدينة التى لم تكن هناك صعوبة فى الدفاع عنها. فقد كان يحيطها من جهات ثلاث صخور ووديان من الأحجار البركانية، ولذا كان من الميسور حراسة الطرق التى تخترق تلك المنطقة الصعبة فى اتجاه المدينة ولم تكن هناك تحصينات فى الشمال، وفكر محمد فى حيلة وجدها معاصروه غير عادية. غير أنه يبدو أن قريشاً وحلفاءها لم يكونوا فى عجلة من أمرهم، فقد كانوا يشقون طريقهم إلى المدينة بأسلوبٍ استعراضى وعلى مراحل متمهلة. وهكذا وجد المسلمون مُتَّسعاً من الوقت ليستعدوا. فتمكنوا من جمع المحاصيل المزروعة فى المناطق

خارج المدينة لكى لا يجد الجُند المحاصرون علفاً لماشيتهم كما حدث فى المرة السابقة. وبعد ذلك اشتركت الأمة جمعاء فى حفر خندق هائل حول الحدود الشمالية للمدينة. ويقال إن الخطة قد اقترحها سلمان الفارسى الذى كان قد اعتنق الإسلام وأعتق مؤخراً. ولم تكن هناك أيضاً حاجة أن تحفر كل المساحة بطولها حيث كانت توجد حصون فى بعض المواقع توفر حماية كافية. وتطلّب الانتهاء من الحفر فى الوقت المناسب جهداً هائلاً متناسقاً. وأصبحت كل مجموعة عائلية مسئولة عن جزء من الخندق، وعمل محمد إلى جانب الآخرين وتغنَّى بالأراجيز التى كانوا يرددونها فى أثناء بنائهم المسجد بعد الهجرة. وكانت الروح المعنوية مرتفعة. ويتذكر الصحابة أن محمداً بدا فائق الجمال والقوة وهو يعمل، وكان يفاكه ويتضاحك مع الرجال الآخرين. وقادهم وهم يغنون أرجوزة تقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنْزِلَنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا(٥٥)

ووصلت قريش بجيشها يوم الحادى والثلاثين من مارس عام ٦٢٧م وحملقوا مشدوهين فى الخندق. وكان المسلمون قد استعملوا الأتربة التى حفرت ليقيموا منحدراً ضخماً كان وقاية فعّالة للمسلمين فى معسكرهم أسفل جبل سَلْع ومكّنهم من احتلال موقع عال يُصوبون منه قذائفهم. وفى الواقع، فبينما كان المكيّون يحدّقون فى الخندق مشدوهين، حذّرهم سيل من السهام أنهم كانوا هدفاً سهلاً فى جلستهم تلك، فأسرعوا بالابتعاد خارج نطاق مرمى السهام. وهكذا أحبط خندق سلمان فاعلية الهجوم الضخم برمته. ولم يعرف قادة قريش كيف يتعاملون مع الموقف، وكان يقود جيشهم أبو سفيان، وعكرمة بن أبى جهل، بينما كان خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، القرشيين اللذين كانت عداوتهما لمحمد طويلة المراس، على رأس فرقة الفرسان. لكن فرقة الفرسان، والتى كان القرشيون يعولون عليها تعويلاً

كبيراً، أصبحت غير ذات نَفْع لأنه ما كان للجياد أن تعبر الخندق. وفى المرات القليلة التى تمكن فيها واحد أو اثنان من القفز للجهة المقابلة، كانت أجسادهم تمزق إرباً. وكان عبور المشاة سينتج عنه إصابات فادحة، كما لم يكن لديهم آليات حصار، أو سلالم من الممكن استعمالها. وعلى أية حال، فقد كانت قريش تحتقر العمل اليدوى، ومن الواضح أنها رأتْ فى حفر الخندق عملاً دونيّاً، أى أنها رأت عملاً منافياً للروح القتالية والعربية، ومناقضاً لروح الفروسية. وحاول أفراد مثل عكرمة الهجمات الجريئة بين الحين والآخر، لكن كان تقدمهم يُعترض ويقابلون بالصدّ.

وكان بعض القرشيين قد ارتَدَوْا دروعهم واندفعوا على صهوات جيادهم إلى مواقع بنى كنانة وهم يصيحون: «تهيئوا يا بنى كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم». ثم انطلقوا إلى الأمام تُسرع بهم خيلهم، حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها»(٥٦). ثم قرروا اللجوء إلى وسيلة أكثر حيلة يُمكن بمقتضاها الولوج إلى المدينة من الجنوب عن طريق الاتفاق مع قبيلة قريظة. وكان حُييّ بن أخطب، رئيس قبيلة بنى نضير اليهودية، والتى كانت تقطن خيبر فى ذلك الحين، قد زار أبا سفيان فى مكة واعداً إياه أن يعاضده فى صراعه ضد محمد. وكان قد ذهب مع صفوان وآخرين إلى الكعبة ليقسموا بالله أنهم لن يخذلوا بعضهم البعض حتى يدمروا الأمة. وفكر أبو سفيان فى أن ينتهز الفرصة ليسألهم عن رأيهم فى دعوة محمد الدينية. وقالت لهم قريش: «يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟» قالوا: «بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق». فانزعج المسلمون حين سمعوا أن حُييّاً دافع عن الوثنية(٥٧). وكان يهود خيبر قد أرسلوا جيشاً كبيراً إلى المدينة، كما تمكنوا من أن يُثيروا القبائل فى الشمال ضد المدينة بوعدهم إياهم بنصف محصولهم من التمر. وهكذا أرسلت قبائل أسد وغطفان وسليم سرايا لينضموا إلى تحالف بنى سفيان. ثم

حاول حُيىّ إقناع بنى قريظة بأن يُهاجموا المسلمين من الخلف أو أن يسمحوا لحوالى ألفين من نضير وغطفان بالدخول إلى المستوطنة حيث يصير بإمكانهم بدء الهجوم بذبح النساء والأطفال المتحصنين بالحصون المتناثرة فى أنحاء المستوطنة. وتردّد اليهود لأنهم كانوا يعلمون أن البعض كان قد بدأ يتساءل عما إذا كان محمد هو النبى الذى طال انتظاره بالفعل. لكنهم حينما رأوا الجيش الهائل الذى أتت به قريش والذى كان يملأ السهل أمام المدينة وحتى الأفق، وافق كعب بن أسد كبير قريظة على مؤامرة التحالف.

وكان عمر أول من علم بخيانة قريظة وأبلغها محمداً من فوره، الذى أحزنه ذلك حزناً واضحاً. فقد كان يخشى ذلك الاحتمال. وكان يعلم أن جيش المسلمين لن يمكنه أن يقاوم مثل هذا الهجوم من جميع الجهات. فأرسل سعد بن معاذ، والذى كان حليف قريظة الأول قبل الهجرة ليُجرى تحرياً فى ناحيتهم. فعاد سعد من هناك وأبلغ النبى أن اليهود بدوا متحدين، وأنهم تساءلوا: «من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد»(٥٨). ويبدو أيضاً أن هاجم نفر منهم أحد الحصون التى يحتمى بها الأطفال والنساء من المسلمين. ثم بدأ محمد هجومه «الدبلوماسى» الخاص مع قريظة، والذى هدف من ورائه إلى إخافة اليهود ودفعهم إلى فقدان الثقة فى قريش. غير أنه، ولمدة أسابيع ثلاثة، لم يكن من الواضح أى اتجاه سيسلكه اليهود. وبدأ جيش المسلمين يُنْهَك. ويبدو أن المنافقين أيضاً كانوا ينشرون الذعر والاستياء ويحثون الأنصار أن يسلموا محمداً لقبيلته. وأيضاً حاول بعضهم أن يتسللوا من المدينة وينضموا إلى أبى سفيان. ويُبين القرآن أن اليأس كاد يتسلل إلى قلوب المسلمين لدرجة أن بعضهم كان على وشك أن يفقد إيمانه:

﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابْتُلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾. (الأحزاب: ١٠ و١١).

ولكنهم أنقذوا من ليلة الخوف المظلمة تلك. أما ما حدث على وجه التحديد فغير واضح، لكن يبدو أن يهود قريظة بدءوا يفقدون الثقة فى أهل مكة وأصروا على أخذ رهائن من بين القرشيين حتى يُثبتوا صدقهم إذ خشوا أن يفر المكيّون ويتركوهم تحت رحمة محمد. وكانت قريش أيضاً قد بدأت تشعر بالإنهاك. فقد كان من الصعب الإبقاء على حصار فى بلاد العرب حيث لا توجد إمدادات ويجوع الرجال والخيل. كما أن القرشيين لم يكونوا محاربين مهرة أو ذوى خبرة، وكانوا يفقدون العزيمة بسرعة عند الانتكاسات الفجائية. ويبدو أن عزمهم وهن حين تغيّر الجو فجأة. ويتحدث القرآن عن انخفاض درجة الحرارة والزوابع والأمطار كفعل إلهى. واتخذ أبو سفيان قراره، فخطب فيهم قائلاً: «يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام. لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره وألْقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قِدْر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل»(٦٠).

وبقوله هذا، امتطى بعيره وضربه دون أن ينتبه أنه مازال معقولاً. وتبعه قبيلته والبدو الذين كانوا قد اعتراهم القلق من فترة. وسرعان ما تفرقوا.

وحينما تراجع التحالف تراجعاً خاذلاً قال خالد لأبى سفيان إن أى رجل عاقل يعلم الآن أن محمداً لم يكذب(٦١). وحينما أطل المسلمون فى الصباح التالى من أعلى المنحدر على التل، كان السهل خالياً.

بقى إذاً أن يقرر محمد ما هو فاعل بيهود قريظة الذين دفعُوا الأمة إلى شفا الهلاك. ولم يترك رجاله ليستريحوا فى الصباح التالى. بل، وبوحى جبريل كما يقال، توجه جيش المسلمين إلى مكان قريظة. وتكتب قصة ما حدث لقريظة فى الغرب معانى إضافية من الكآبة والرعب. فقد كان حُيىّ قد انضم إلى قريظة فى حيهم بعد أن رجعت قريش وحلفاؤها عن المدينة. وحينما سمعت قريش أن محمداً يتقدم نحو أراضيها، تحصّن القوم فى

قلاعهم وأمكنهم أن يصمدوا أمام المسلمين خمسة وعشرين يوماً. كما أنهم كانوا يعلمون أنهم كحلفاء نقضوا العهد وخانوه، فليس لهم أن يتوقعوا أى رحمة بهم. ويبدو أيضاً أن حُييًّا وكعباً قد قاما بحثّهم على قبول ما هو محتوم، ووضع كعب بن أسد أمامهم ثلاثة خيارات: إما أن يستسلموا دون شرط (وخاصة أن نجاح محمد غير المعتاد يُحتمل معه كونُه نبيًّا صادقاً)، أو أن يقوموا بقتل نسائهم وأطفالهم ثم يهاجموا جيش المسلمين، وذلك لأنهم إن ماتوا فلن يصبح هناك من يقلقون عليه ممن يعولون، وإن هم انتصروا فمن السهل حينذاك أن يجدوا زوجات جديدات، أو أن يفاجئوا محمداً ويهاجموه يوم سبتهم، حيث لا يتوقع منهم ذلك الصنيع.

ورفض اليهود كل تلك الخيارات، وطلبوا من محمد أن يسمح لهم بمغادرة الواحة بنفس شروط بنى نضير. لكن محمداً رفض. فقد برهن بنو نضير أنهم أكثر خطراً على الأمة بعد مغادرتهم المدينة، لذا، أصرّ فى هذه الحالة على التسليم الكامل. وسمح لقريش بمشاورة أحد حلفائهم السابقين وهو أبو لبابة بن عبد المنذر، من كبراء عوف. وهذا الجزء من القصة يبدو غامضاً. ويقال إن اليهود سألوا أبا لبابة عما ينوى محمد فعله معهم. ولمس أبو لبابة رقبته مُوحياً أنه قد حكم بذبحهم. وفيما بعد، غلبه شعور بالذنب حتى إنه ربط نفسه إلى عمود من أعمدة المسجد حتى حله رسول الله. وإن كان ذلك هو ما أبلغه أبو لبابة لليهود عن مصيرهم، فلا يبدو أن ذلك قد أثّر فى قرارهم. ولذا، فقد قال البعض إن أبا لبابة قد ألمح للقرظيين أنه على استعداد للوفاء بعهده القديم معهم. وفى اليوم التالى، وافق القرظيون على قبول حكم محمد وفتحوا بوابتهم أمام جيوش المسلمين، ولعلهم فعلوا ذلك لأنهم كانوا يأملون فى مؤازرة حلفائهم السابقين من قبيلة الأوس.

وفى الواقع، فإن الأوس رجَوْا محمداً استعمال الرحمة، وذكروه أنه أعتق بنى قينقاع بناء على طلب ابن أبىّ الخزرجى. وسألهم محمد إن كانوا يقبلون

قرار رؤسائهم، فوافقوا. وكان سعد بن معاذ قد تلقى طعنة قاتلة أثناء الحصار ونقل إلى ناحية قريظة على حمار. وحثه زملاؤه على أن يبقى على حياة حلفائه السابقين، لكن سعداً أدرك أن ذلك سيؤدى إلى إثارة الفوضى مرة أخرى فى المدينة، ورفض أن يتغلب ولاؤه السابق على التزامه نحو الأمة. وأصدر سعد حكمه بقتل الرجال السبعمائة، وسَبْى نسائهم وأطفالهم، وقال محمد لسعد «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع أرقعة»(٦٢).

وفى اليوم التالى أمر محمد بحفر خندق فى سوق المدينة. وتم أيضاً العفو عن بعض الأفراد كطلب المسلمين. ثم تم تقييد الباقين فى مجموعات، وأطيح برءوسهم. ولم يتم قتل سوى امرأة واحدة لإلقائها بحجر رحى على المسلمين فى أثناء حصارهم قبيلتها. وتذكرت عائشة فيما بعد الموقف بوضوح فقالت: «والله إنها لعندى تحدث معى، ونضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله يقتل رجالها فى السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. فانطُلِق بها، فضرب عنقها». فكانت عائشة تقول: «فوالله ما أنسى عجباً منها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل».

ومن غير المحتمل بالنسبة لنا نحن الغربيين أن نفصل تلك القصة عن أفعال النازى الشنعاء. ولا شك أنها ستؤدى إلى اغتراب كثير من الناس عن الإسلام اغتراباً أبدياً. لكن بعض المفكرين الغربيين، مثل ماكسيم رودينسون، و و. منتجومرى واط، يقولون إنه من الخطأ الحكم على تلك الحادثة بمعايير القرن العشرين. فقد كان ذلك المجتمع بدائياً وأكثر بدائية بكثير من المجتمع اليهودى الذى عاش فيه المسيح ودعا فيه إلى رسالة الرحمة والحب قبل ذلك بستمائة عام. ففى تلك المرحلة لم يكن لدى العرب مفهوم عن قانون طبيعى، والذى من الصعب، إن لم يكن من المحال، أن يصل إليه قوم فى غياب حتى اليسير من النظام العام، كذلك الذى كانت تفرضه الإمبراطوريات

القديمة فى العالم القديم. أما فى زمن محمد، فيبدو أن الحالة فى المدينة كانت تشبه الحالة فى القُدس فى عصر داود، والذى كان قاتلاً أعظم لأعداء الله. وقد قام فى إحدى المناسبات بذبح مائتين من الفلسطينيين Philistines القدماء، وتم خصيهم وإرسال كومة قلفهم foreskins الدامية إلى ملكتهم. أما كثير من المزامير التى نسبت لداود فقد تم تأليفها بعد عدة قرون - بعضها كتب عام ٥٥٠ ق. م - لكنها تورد تفاصيل دموية لأفعال بشعة كان الإسرائيليون يأملون أن يرتكبوها فى حق أعدائهم. وهكذا، لم يكن يُتوقع فى أوائل القرن السابع الميلادى أن يُظهر قائد عربى أية رحمة تجاه خونة مثل القرظيين.

وكانت الأمة الإسلامية قد نجت من الإبادة بأعجوبة وقت الحصار. وبطبيعة الحال، كانت العواطف متقدة. كما أن القرظيين أوشكوا أن يُدمّروا المدينة. ولو أن محمداً أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود فى خيبر، ولنظموا هجوماً آخر ضد المدينة حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى. كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لا نهاية، ويستمر معها المعاناة والموت. ولابد أن أحكام الإعدام تلك قد تركت أثرها المطلوب فى نفوس أعداء محمد. كما أنه لا يبدو أن أحداً قد صدمته المذبحة، بالإضافة إلى أن القُرظيين أنفسهم يبدو أنهم كانوا قد ارتقبوا حتميتها. وبعثت تلك الإعدامات رسالة قميئة إلى يهود خيبر. كما أن القبائل العربية لابد وأنها لاحظت أن محمداً لم يكن يخشى من ثأر أصدقاء وحلفاء قريظة ثأراً دمويًا. وكان ذلك رمزاً للقوة غير العادية التى اكتسبها محمد بعد الحصار، حينما أصبح قائد أقوى مجموعة فى بلاد العرب.

إن مذبحة قريظة لتذكرة بالأحوال البائسة فى بلاد العرب فى أثناء حياة محمد. وبالطبع، فمن حقنا أن نستنكر تلك المذبحة دون تحفظات، لكنها لم

تكن فى ذلك الوقت جريمة كبيرة كما تبدو اليوم. فلم يكن محمد يعمل من خلال إمبراطورية عالمية كانت قد فرضت نظاماً شاملاً، ولا من خلال مأثورات دينية متأصلة. فلم تكن هناك «وصايا عشر» (بالرغم مما يقال عن أن موسى أمر الإسرائيليين بقتل جميع سكان كنعان بعد فترة وجيزة من أمره إياهم «لا تقتل»). ولم يكن لدى محمد فى تلك اللحظة سوى الأخلاقيات القبلية التى كانت تبيح مثل ذلك الإجراء. وكانت المشكلة قد تعقدت أيضاً، لأن محمداً بعد انتصاره كان قد أصبح أكثر الزعماء قوة فى بلاد العرب، وعلى رأس مجموعة تختلف عن المجموعة القبلية المعروفة. فكان قد بدأ لتوه التسامى على القبيلة، وكان فى المنطقة المشاع بين مرحلتين من التطور الاجتماعى.

غير أنه من الأهمية بمكان أن نسجل هنا أن تلك البداية المأساوية لم تؤثر بصفة دائمة فى موقف المسلمين من اليهود. فبمجرد أن أقام المسلمون إمبراطوريتهم العالمية الخاصة وطوروا نظاماً متقدماً فى شريعتهم، أسسوا نظام تسامح ظل يسود الأجزاء المتمدينة فى الشرق الأوسط لمدة طويلة حيث تعايشت مجموعات دينية فى ظله جنباً إلى جنب. إن المعاداة للسامية خطيئة مسيحية غربية، وليست خطيئة إسلامية، ويجب أن يكون ذلك حاضراً فى أذهاننا كى لا نخضع لإغراء التعميمات بناء على ذلك الحادث المرعب الذى وقع فى المدينة. وحتى فى أثناء حياة محمد، بقيت مجموعات يهودية صغيرة فى المدينة بعد عام ٦٢٧م، وسُمح لها بالعيش فى سلام دون أدنى قمع. ويبدو أن الجزء الثانى من «عهد المدينة» والذى يُعنى بالسكان اليهود فى المستوطنة، وضع فى زمن لاحق على ذلك التاريخ. ففى ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتّع اليهود، مثلهم مثل المسيحيين، بُحرّية دينية كاملة. وعاش اليهود فى المنطقة فى سلام حتى إقامة دولة إسرائيل فى قرننا الحالى. ولم يُعانِ اليهود فى ظل الإسلام قط ما عانوه فى ظل المسيحية. أما الأساطير

الأوربية المعادية للسامية فقد قدمت إلى الشرق الأوسط فى نهاية القرن الماضى على يد البعثات التبشيرية المسيحية، وكانت الجماهير عادة ما تقابلها بالازدراء. لكن فى السنوات الأخيرة لجأ بعض المسلمين إلى أجزاء من القرآن تشير إلى القبائل اليهودية التى تمردت فى المدينة، وتجاهلوا الآيات الأكثر عدداً بكثير، والتى تتحدث بإيجابية عن اليهود وأنبيائهم العظام. ويُعتبر هذا تطوراً جديداً كلية فى تاريخ المائتين وألف عام من العلاقات الحسنة بين المسلمين واليهود(٦٤).

ويعلمنا القرآن أن الحرب دائماً أمر بغيض. وأنه لا يجب على المسلمين أن يبدءوا بالعداوات، لأن الحرب العادلة هى التى تشن للدفاع عن النفس فقط. غير أنه، متى دخلوا الحرب، فعلى المسلمين أن يقاتلوا بالتزام مطلق لكى ينتهى القتال فى أسرع وقت ممكن(٦٥). وإذا اقترح العدو هدنة، أو أبدى استعداداً للسلم، فإن القرآن يأمر المسلمين ألا تكون شروط السلام غير أخلاقية أو مخزية. لكن القرآن يؤكد أيضاً على أن إنهاء الصراع الحربى أمر مقدس، على أن تتم مواجهة العدو بحزم، وأنه يجب تحاشى أى تردد لأن ذلك يعنى أن يستمر الصراع لأجل غير مسمى.

إن هدف أى حرب فى الإسلام هو إحلال السلام والوفاق فى أسرع وقت. ورغم أننا قد نرتعد لما حدث فى سوق المدينة عام ٦٢٧م، فقد قيل عنه إنه كفعل سياسى محض، كان هو القرار المناسب. فقد كان ما حدث هو آخر الأعمال الفظيعة، لأنه كان بداية النهاية لأسوأ مراحل الجهاد، فقد تم لمحمد هزيمة أكبر جيوش العرب التى لم يسبق لها أن اتحدت بهذا الشكل ضد عدو منفرد فى معركة الخندق. كما أنه سحق ثلاث قبائل يهودية قوية وأثبت أنه لن يصبر بعد ذلك على خيانات أو مؤامرات أكثر ضد الأمة. كما أنه برهن على أنه أقوى شخصية فى بلاد العرب، ووضع نهاية سريعة وحاسمة لصراع دموى استمر سنوات.

إن لفظ «إسلام» مشتق من جذر يعنى «السلام» والصلح وسنرى بعد معركة قريظة تغييراً واضحاً فى سياسة الجهاد. فالآن، ولأنه لم يكن عليه أن يقاتل من أجل الحياة، أصبح بإمكان محمد أن يبدأ فى فرض «السلم الإسلامى» Pax Islamica على بلاد العرب. وهكذا، يُصرّ محمد فى العام التالى على سياسة سلام ووفاق كادت تتسبب فى اغتراب أكثر صحابته قرباً وولاء.

الفصل التاسع
السِّلْم المُقَدَّس

كان انتـصار محـمد على قـريش فى حصار المدينة فـوزاً مبـيناً، إذ كان، عندما وصل إلى الواحة قبل خمس سنوات، لاجئـاً لاغباً هدّه السفر وأضنته وعثاء الرحلة، وفى أثره أهل مكة يطلبـونه ويريدون هلاكه، ولكنه نجح اليوم فى قلب هذه الأوضاع، وأثبت لبلاد العرب كلهـا أن شمس مكة قد غربت، فلقد أخفق أهل مكة إخفاقاً ذريعاً فى التخلص من محمد ومن أمة الإسلام، وكان من المحال أن يستعيدوا هيبتـهم السابقة، وهى التى كانوا يستمدون منها قوتهم، بل كان أسلوب حيـاتهم برُمَّته يعتمد عليها. لقـد أصبح سقوط مكة أمراً محتوماً، كما اعترف الجميع عندما رفعت قريش الحصار، حتى خالد بن الوليد نفسه، بأن مـحمداً هو الزعيم القادم. لقد قـهرت قوة الإسلام المعنوية والسياسية النظام القبلى القـديم، وأيديولوچيا الحِلْم، والرأسمالية القوية التى كانت تطبـقهـا قريش. وانطوت الآن صفـحة إراقـة الدماء التى اتسـمت بها مرحلة الجـهاد، إذ كـان محمـد يسعى على الدوام إلى أن تنضـم قريش إلى صفّه لا إلى استئصال شأفتها، وهكذا كان عليه بعد رفع الحصار أن يشرع فى جهود المصالحة ولكن، وهو ما يعتبر شرطاً أساسياً، دون إظهار أى دليل على الضعف أو التردد.

ويبدو أن تصور محمد لرسالتـه قد تغير فى هذا الوقت مرة أخرى. وكان قد بدأ يدرك منذ انتصاره فى غزوة بدر أن الوحدة العربية لم تعد حلماً محال التحقيـق، وكان انتصاره اليوم على قريش وتخلصـه الحاسم من بنى قريظة، من الأحداث التى بهرت القبائل البدوية فغـدا الكثير منها على استعداد لإلغاء

تحالفها مـع قريش وعقد حلف مع أمة المسلمين فى المدينة. وكـان محمد يُمدّ بصره إلى مـا هو أبعد من مكة، صـحيح أنه كان يريد أن يظفـر بتلك البلدة لأنها أصـبحت تشغل مـكاناً أساسيـاً فى رؤيته الدينية، ولكـنه بدأ أيضاً فى النظر إلى المنطقة التى تقع شـمالى المدينة باعتـبارها من المناطق التى يمكن أن يمتد إليـها الإسلام. ولا يعنى ذلك أنه كـان يحلم بفتح العالم بل كـان معناه فحسب هو أنه كان يريد إبلاغ رسالة القـرآن العربى إلى قبائل الشمال، وربما أيضاً إلى العرب فى سوريا والعراق الذين يعـيشون فى كنف الدولة البيزنطية ونظامـهـا الدينى. ويرود الرواة رواية لم توردها أقـدم المصـادر، مفـادها أن محمـداً قام فى نحو تلك الآونة بإرسال رسائل وهدايا ثمـينة إلى إمبراطورىْ بيزنطة وفارس، وإلى النجاشى ملك الحبـشة، وإلى المقوقس عظيم القبط فى مـصـر يدعـوهم إلـى الدخـول فى الإسـلام. ونكاد نقطـع بأن هذه الرواية مدسوسة لأننا لا نملك الدليل على أن محمداً كان يرى أن الإسلام دين عالمى وأنه سوف يلغى مـا أنزل على أهل الكتاب. كـان الإسلام حتى تلك الفـترة ديناً لأبناء إسـماعـيل، مثلمـا كانت اليـهودية دين أبنـاء يعقـوب. واستـمر المسلمون، إلى مـا بعد وفاة نبيهم بنحـو مائة عام، يعتـبرون أن الإسلام دين مُنَزَّلٌ على العرب وحسب، وإذا صدقتْ رواية سفراء النبى إلى حكام البلدان المجاورة، فقد كانت تعبيراً عن الثقة الجـديدة التى اكتسبها محمد وعن اتساع نطاق رؤيته. لم يعـد محمد مجـرد قائد لطائفة مضطهـدة، أو زعيم من بين زعماء المدينة الكثيرين، بل أصبح سيداً من أهم سادة بلاد العرب. وربما كان القـصد من الرسـائل قطع الطريق عـلى أى محـاولة من مكة لطلب العـون الخارجى، فى تلك المرحلة الأخيرة من الكفاح. ولم يطلب محمد من هؤلاء الحكام، فى الرسائل التى وصلت إلينا، إلا بقـبوله نبياً، وكان مـحمد يؤمن فى تلك الأيام بأن الله قـد أرسله إلى العرب كـافة، وفى الوقت نفـسه الذى كتب فيه إلـى الإمبراطورين والنجاشى والمقوقس، قيل إنه كـتب أيضاً رسائل

إلى قبيلتين من قبائل عرب الشمال وهما غسان وحنيفة، وكان معظم أفرادها يدينون بالنصرانية، لكنه لم يكن يتوقع من هؤلاء التخلى عن النصرانية بل الانضمام إلى الأمة فحسب، وذلك على نفس الأسس تقريباً التى قام عليها انضمام العشائر اليهودية المتبقية فى المدينة.

وفى عامى ٦٢٧ و٦٢٨ بدأ محمد فى بناء تحالفه الخاص، داعياً القبائل إلى أن تصبح من حلفائه، بنفس الصورة التى أصبح الأحابيش بها حلفاء لقريش. وكان بعض الأفراد من البدو قد اعتنقوا الإسلام بل وهاجر بعضهم فعلاً إلى المدينة. وإذا كانت الأحلاف التى بدأ بناءها فى ذلك العام ذات طابع سياسى محض فى معظم الأحوال، فقد كان يأمل أن ذلك سوف يؤدى آخر الأمر إلى التزام دينى. وكان من الضرورى أن يواصل إبراز صورة القوة والحسم. كما قام فى غضون هذا العام أيضاً بغزوات شتى على القبائل التى كانت أعضاء فى التحالف المكى مثل بنى أسد وبنى ثعلبة، وربما تكون مواقعها قد أصبحت أقرب قليلاً من المعتاد من المدينة فى هذه السنة التى اتسمت بالجفاف البالغ الشدة. وقد يكون المقصود بالغزو أن يقول لها أن «ترفع أيديها» عن المدينة. كما قام بغزوة على قبيلة بنى سعد التى كانت تفكر فى عقد تحالف مع يهود خيبر. وبدأ البدو يدركون أنه من الخطر عليهم مصادقة أعداء الأمة، ولاشك أن قوتها سوف تزيد من احترامهم لمحمد ولدينه.

لم يكن محمد يعتزم الهجوم على مكة فى ذلك العام، ولكنه كان يحاول إضعاف الاحتكار المكى للتجارة. ولما كان عدد المؤمنين المهاجرين فى ازدياد، وكان عدد سكان المدينة يزداد كذلك، أصبح من الضرورى للأمة أن تقيم علاقات تجارية مع سوريا وأن تأتى بالواردات إلى الواحة. وأرسل النبى حملات إلى الشمال، ربما كان الهدف منها اجتذاب جانب من التجارة السورية إلى المدينة، إلى جانب نشر رسالته الدينية. فقام عبد الرحمن، على

سبيل المثال، بالسير بقافلة إلى دومة الجندل التى تقع على الطريق الموصل إلى سوريا، وكان يعقد فيها سوق عظيم مرة فى العام. كانت المدينة قد بدأت عملياً فى ضرب حصار اقتصادى تدريجى على مكة منذ غزوة بدر، وعندها أصبح طريق البحر الأحمر مغلقاً تماماً فى وجه قريش. وقد حاول محمد فى العام التالى لحصار المدينة أن يُحكم الحصار الاقتصادى ويضمن فى الوقت نفسه إتاحة الفرص التجارية للمسلمين، فأرسل زيداً للتجارة مع سوريا ولكن قافلته تعرضت للهجوم، فتركها وقد ظنه الناس قد مات، ولكنه تمكن من العودة بصعوبة إلى المدينة. وقام زيد، بعد ذلك بقليل، بغزوة أخرى صادف فيها حظًا أفضل، حين هاجم قافلة مكية فى طريق عودتها من سوريا. وكان أحد التجار القرشيين فى تلك القافلة هو صهر محمد، أبو العاص، الذى كان ما يزال مشركاً. وقد نجح أبو العاص فى الفرار وتسلل إلى المدينة ليلاً لزيارة زوجته السابقة زينب بنت محمد. وأعلنت زينب فى صلاة الفجر فى صبيحة اليوم التالى فى المسجد أنها قد أجارت أبا العاص بن الربيع، ولم يكن محمد قد علم بما جرى فقال إنه يؤيد حق ابنته فى إجارة ذلك الرجل، ولو أنه حذرها من مضاجعته.

وأخبرت زينب أباها أن أبا العاص كان كاسفاً حزيناً لضياع البضائع التى اشتراها لحساب شتى الأفراد فى مكة ممن استأمنوه على أموالهم. وأمر محمد على الفور برد الغنائم التى ظفر بها الغزاة من القافلة إلى أبى العاص، فأطاعوا أمره بدقة، حتى أنهم ردوا عليه بعض قرب الماء القديمة والزجاجات وقطع الخشب التى لا قيمة لها. وآتى ذلك أُكُله، فعاد أبو العاص إلى مكة ووزع البضائع على أصحابها ثم هاجر وأسلم وعاد إلى زينب. كان على استعداد يوماً ما للتخلى عن زوجته التى يحبها وعن ابنته فى غمرة حماسه لدين الشِّرك، ولكنه كان يدرك أن قومه لم يعد لهم أمل، وأن عليه أن يتقبل ما أصبح محتوماً. كان بعض الناس فى مكة قد بدءوا فى الإحساس بذلك

أيضاً، ولابد أن محمداً كان يدرك ذلك. كانوا قد شنوا الحرب على المدينة تكريماً للآلهة القديمة، وكانت صيحة الحرب فى غزوة أحد هى «يا عُزّى! يا هُبْل!» ولكن هذه الآلهة كانت قد أصبحت لا حول لها ولا طول فى مواجهة دين الله الذى أتى به محمد. ومع ذلك فقد ظل البعض الآخر مثل صفوان وعكرمة وسهيل، رئيس بنى عامر، ملتزمين بالكفاح ضد محمد.

ولابد أن محمداً قد سمع عن ذلك التغير فى المشاعر من الذين اعتنقوا الإسلام، مثل أبى العاص، ومن جواسيسه (وكان قد أصبح له الآن جهاز استخبارات بالغ الإحكام) ولكنه وجد صعوبة فى الاهتداء إلى وسيلة «للتعامل» مع مكة إذ إنه، كما سوف نرى، لم يكن يعتزم قيادة حملة عسكرية للهجوم بها على البلدة المقدسة. ولم تكن لديه، كالعادة، خطة محددة واضحة المعالم، ولكن لابد أنه كان يكابد المشكلة على مستوى العقل الباطن، إذ حدث فى مارس عام ٦٢٨، أثناء الشهر التقليدى لرحلة الحج، أن رأى فيما يرى النائم حلاً أو رؤيا للمصالحة والنصر. فقد رأى نفسه وقد حلق شعر رأسه كما يفعل الحجاج، وارتدى ملابس الإحرام، واقفاً فى الكعبة وممسكاً بمفتاحها فى يده. وبدا أن تلك الرؤيا قد أفعمته بالثقة فى النصر الذى عبرت عنها كلمات الله فيما بعد، فى الآية التالية من القرآن:

﴿ **لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾ (الفتح: ٢٧).

وأعلن فى صباح اليوم التالى أنه سوف يقوم بزيارة الكعبة، ودعا الصحابة إلى مرافقته. ومن اليسير أن نتصور ما انتاب المسلمين من خوف ودهشة وسرور وقلق عندما سمعوا هذه الدعوة الغريبة. وأوضح محمد لهم أنها لن تكون حملة عسكرية، فسوف يرتدى المسلمون ملابس الإحرام البيضاء التى يرتديها المعتمرون ولن يحملوا أسحلة فى أيديهم. وكان فى ذلك خطر بالغ بطبيعة الحال، ورفض حلفاء المسلمين من البدو تلبية هذه الدعوة، ولكن نحواً

من ألف من المهاجرين والأنصار وافقوا على اصطحاب محمد. بل إن ابن أُبيّ نفسه وبعض مؤيديه وافقوا على الذهاب معه، مما يدل على أنهم لُقِّنوا درساً شديداً نتيجة لانتصار المسلمين فى ظروف لم تكن ترجح وقوعه على الإطلاق فى العام السابق، وللمصير الذى انتهى إليه بنو قريظة. وقرر محمد أن يصطحب زوجته أم سلمة معه، كما سمح للمرأتين اللتين شهدتا بيعة العقبة الثانية بالمشاركة فى العمرة.

وشرع المعتمرون فى تجهيز أنفسهم على وجه السرعة، وجمعوا سبعين جملاً تقرر ذبحها، وفقاً للشعائر القديمة، فى بيت الله الحرام. وارتدى محمد لباس الإحرام، الذى كان يتكون من قطعتين من النسيج غير المرتق بالخيط، وكانت إحداهما تلتف حول الخاصرة والثانية حول الكتفين، ولا يزال المعتمرون يرتدون ملابس الإحرام نفسها عندما يزورون مكة فى هذه الأيام. وقال عمر إن قريشاً سوف تعتدى حقاً على المعتمرين المسلمين، ودعا إلى أن يحمل المعتمرون أسلحتهم حتى يردوا العدوان إن وقع. ولكن محمداً أصر على رأيه ولم يتزحزح عنه، قائلاً إنه لن يحمل السلاح وإنه لا مقصد له إلا زيارة بيت الله الحرام[٢]. كان قلبه لا يزال مفعماً بالثقة والاطمئنان بعد الرؤيا التى رآها فى منامه، وبأنه سوف يعود إلى الكعبة بطريقة ما، دون خوف («لا تخافون») ولو أنه لم يكن قد حدد أسلوب تنفيذ ذلك بالتفصيل. ولكنه أصر على عدم القتال هذه المرة، ومن ثم اقتصر السلاح الذى يحمله المعتمر على سيف قصير لا يصلح إلا للصيد، وأُمر كل واحد بألا يستل السيف من غمده.

وعندما توقف الركب فى أول مرحلة، قام محمد بمباركة أحد الجمال بالأسلوب التقليدى، (وهو من الهَدْى)، فوسمه وسماً خاصاً وعلق زهور الرسم حول رقبته، وجعله يتحول لمواجهة مكة. وبعد ذلك ردد النداء القديم الذى كان الحجاج ينشدونه عند اقترابهم من الكعبة وهو «لبيك اللهم لبيك».

وحذا بعض المعتمرين حذوه، ولكن البعض الآخر قرر تأجيل «المباركة» إلى وقت لاحق، بسبب القيود التى تنص عليها شعائر العمرة فيما يتعلق بالصيد فى أثناء موسم الزيارة.

كان محمد يعلم حق العلم أنه قد وضع قريشاً فى موقف بالغ الصعوبة: كانت قريش تتولى الوصاية على مكة، وكان من العار أن تحاول منع ألف معتمر عربى، يراعون الشعائرالقديمة مراعاة صارمة، من دخول بيت الله الحرام فى مكة، ولكن دخولهم كان معناه أن يحرز محمد نصراً معنوياً هائلاً، خصوصاً حين يدخل الحجاج المدينة المقدسة بهذا الأسلوب، وأن يتأكد إذلالهم على يديه. كان سهيل وعكرمة وصفوان ومؤيدوهم قد صمموا على منعه من دخول مكة، حتى ولو أدى ذلك إلى غضب القبائل البدوية وفزعها. أما أبو سفيان فقد التزم الصمت، فيما يبدو، وكان ذلك مدعاة للدهشة. لقد كان رجلاً يتمتع بذكاء بالغ، وقد يكون قد أدرك أن تدبيره قد أخفق، وأنه لم يعُدْ من الممكن التعامل مع محمد بالأساليب التقليدية.

لكنه يبدو أن أبا سفيان كان الوحيد من أعضاء مجلس الشيوخ (دار الندوة) الذى اتجه إلى هذا الرأى، إذ أرسلت قريش خالد بن الوليد ومعه مائتا فارس لمنع المسلمين من دخول مكة، وعندما وصل المعتمرون إلى بئر عُسفان، التى تقع إلى الشمال الشرقى من مكة، على بعد خمسة وعشرين ميلاً تقريباً، أبلغهم الدليل أن خالداً لم يكن يبعد عنهم إلا بنحو ثمانية أميال. وردّ محمد ردّاً ينمّ عن الشقة، إذ قال: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب، . . . فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»[٣] (ابن هشام: جـ ٣/ ص ٢٠٠) وطلب من الحجاج أن يستعينوا بدليل من أبناء المنطقة يستطيع أن يهديهم إلى البقعة الحرام، وهى المكان المقدس الذى يحيط بمكة والذى حُرِّم فيه القتال وارتكاب أعمال العنف. وتطوع رجل من بنى

أسلم فسلك بالمعتمرين طريقاً وعــراً أجدل، بين شعاب، لا يستطيع خالد أن يصل إليه. وعندمــا وصلوا إلى السهل، وبلغوا مشــارف الأرض الحرام، قام محمد بتذكير المعتمرين بالطابع الدينى للرحلة. وقال لهم إنهم يهمون بدخول مكان مقــدس وحثهم على أن يتجــهوا بروحهم إلى الله ويتوبوا إليــه، قائلاً: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه»(٤). ثم أمرهم أن يسلكوا الطريق إلى الحديبية على مشارف بيت الله الحــرام، وأن يجعلوا أظلاف جمالهم تثير الغــبار حتى يدرك خالد ومن معه أن المسلمين قد تجاوزوا الخطر.

من المحتــمل أن رؤيا محــمد جعلتــه يتوقع من قريش أن تــرضخ للضغط فتسمح للمعتمرين المسلمين بدخول مكة، ولكن القوة المسلحة التى كان خالد يقودها أثبتت له أن قريشاً كانت على استعداد لقتل أصحابه العزل من السلاح ولا تسمح لهم بدخول الكعــبة. وكعادته، أظهر محــمد براعة ذهنه فى ردود فعلــه على تطورات الموقف، مع أنه لم يكن يعلم مــا سوف يئول إلــيه ذلك الموقف. وعندما وصلوا إلى الحديبية بركت راحلة النبى محمد فجأة ورفضت القيام، مثلمــا سبق لها أن فعلت فى المدينة. وتجمع المعتمــرون حولها وقالوا «خلأت النــاقة» وصاحــوا بها أن تنهض ولــكنها أصــرت على عدم القــيام، فكرهوا عنادها ولكن محــمداً قال إن ذلك ليس من طبعهــا، وذكرهم بهزيمة جيش الحــبشة فى عــام الفيل، عندمــا برك ذلك الحيوان الضــخم وركع أمام الكعبة، وقال النبى عندها: «حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيــها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»(٥) (ابن هشام: جـ ٣/ ص ٢٠١) كان قد قرر أن تكون المصــالحة، لا الحرب، هى طابع تلك الرحلة، ثم أمر المعتــمرين أن يترجلوا. وعندما اشتكوا من عــدم وجود ماء، قيل إن محمداً أخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل به فى قَلِيبٍ من تلك القُلُب (أى آبار الماء الجــافة) فغرســه فى جوفه فــجاش بالرواء (أى بالماء) على الفور.

وشربت الإبل عللاً بعد نهل ثم رقدت، وخلد المعتمرون إلى الراحة وربما خاب أملهم فى أن يُطلب إليهم القيام بأعمال «بطولية»، فكان المشهد أشبه بما يطلق عليه اليوم تعبير «الاعتصام»، أو أشبه شىء بمظاهرة بليغة المعنى بليغة التأثير فى الأعراب. كانت جميع العيون معلقة بمحمد فى ذلك الوقت، وانتقلت الأنباء بسرعة من قبيلة إلى قبيلة، ولا شك أن البدو الرُّحّل قد أزعجهم أن يسمعوا أن قريشاً كانت على استعداد لمهاجمة جماعة من المعتمرين العرب المسالمين، ومنعهم من الوصول إلى الكعبة، وهو حق مقدس للعرب كافة. وكان محمد يجلس صابراً على مشارف بيت الله الحرام، مرتدياً ملابس الإحرام الكاملة، ومثبتاً أن المسلمين كانوا فى هذا الشأن أقرب إلى الاتفاق مع التقاليد العربية من الأوصياء على الكعبة. وبعد وصولهم بقليل، جاءهم وفد من قبيلة خزاعة، على رأسه بُدَيْل بن ورقاء، وكان من رؤساء تلك القبيلة وسمع بهذه الأنباء فى أثناء زيارته لمكة. وعندما سأل بُدَيْل محمداً عن سبب قدومه، أجابه بأنه لم يأت لقتال بل جاء زائراً لهذا البيت، ولكن المسلمين سوف يقاتلون، إذا اقتضى الأمر، ورغم ضعف سلاحهم، فى سبيل حقهم فى زيارة الكعبة، وإن كانوا يريدون من قريش أن تصل إلى قرار بشأن ما تريد أن تفعله. وانزعج بديل عندما علم أن الحجاج المسالمين قد منعوا من دخول الكعبة على هذا النحو، ووعد بأن تقدم خزاعة إلى المسلمين الطعام والمعلومات ماداموا قد مكثوا فى الحديبية.

وعاد بُدَيْلٌ فوراً إلى مكة وأعلن فى غضب معارضته لسياسة قريش، التى تمثل انتهاكاً لجميع التقاليد التى يعتبرها العرب بالغة القداسة. ورفض عكرمة حتى أن يسمع ما قاله محمد، ولكن صفوان طلب أن يسمع الرسالة. وعندما أكد بُدَيْلٌ نوايا محمد السلمية، لم يصدق بعض أبناء قريش، وقالوا: «وإن كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبداً، ولا تحدث بذلك عنا العرب»(٦). وأقسموا ألا يسمحوا له بالدخول، وأن يحولوا بين محمد

وبين الكعبة وأن يقاتلوا حتى يسقط آخر رجل منهم. وحاولوا بعد ذلك إحداث الفرقة فى صفوف المسلمين فأرسلوا إلى ابن أُبىّ ودعوه إلى إقامة الشعائر فى الكعبة، لأنهم كانوا يعرفون الود الذى يحمله لمكة. ولكنهم دهشوا عندما رد عليهم ابن أُبىّ قائلاً إنه لا يستطيع الطواف أمام محمد، ومهما يكن من أمر آرائه السابقة، ورغم أنه عاد لمعارضة محمد من جديد فى المستقبل، فقد أثبت ابن أُبىّ فى الحديبية أنه مسلم صالح.

واتجه رأى آخرين من أبناء قريش، وكان من بينهم صفوان وسهيل، إلى محاولة التفاوض مع محمد. وعرض أحد رجال الطائف الذى كان من الأحلاف، وكان فى زيارة آنذاك لمكة، وهو عروة بن مسعود، أن يقوم بدور الوساطة، قائلاً إن رفض الطلب المعقول الذى تقدم به محمد ستكون له آثاره العكسية، وخصوصاً أن محمداً قد أعلن على الملأ استعداده لتقديم بعض التنازلات. وقبلت قريش عرض عروة. ولكنهم أرسلوا إلى محمد أولاً أحد حلفائهم من الأعراب، واسمه الحُلَيْس بن علقمة، رئيس قبيلة بنى الحارث، وكان أحد سادة الأحابيش كلهم. فلما رآه محمد قادماً قال لمن معه: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهَدْىَ فى وجهه حتى يراه». وعندما رأى الهَدْى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده، وعلى كل من الجمال العلامات المميزة للهَدْى، لم يشأ أن يرى المزيد وكرّ راجعاً إلى قريش. لم ير ما يدعوه حتى إلى سؤال محمد عن أى شىء، وقال لقريش عندما عاد إن هؤلاء حقاً معتمرون ونواياهم حسنة، ولابد من السماح لهم بدخول الكعبة فهذا حقهم. ولكن صفوان وزملاءه غضبوا غضباً شديداً مما سمعوا، وقالوا له: «اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك». وكان ذلك خطأ جسيماً، على نحو ما بيّن لهم حليس على الفور إذ نهض بوقار وقال:

«يا معشر قريش! والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذى نفس الحليس بيده، لَتُخْلُنَّ بين

محـمد وبين مـا جاء له، أو لأَنْفِـرَنَّ بالأحابيش نفـرة رجل واحد»(٧). (ابن هشام: جـ٣/ ص ٢٠٣).

وسرعـان ما اعـتذرت قـريش وطلبت من حليس أن يصبـر عليهـم حتى يتمكنوا من الوصول إلى حل وسط يرضى عنه الجميع.

وأرسلت قـريش بعد ذلك عـروة بن مسـعود إلى الحديـبية، فـجلس مع محمـد وحذره من قريش قائلاً إنـها قد خرجت إليه بـأسلحتها «وقـد لبسوا جلود النمور» ويؤكد له أنه لن يستطيع مقاومة قريش استناداً إلى الذين معه، فهم خليط غير متجانس وينتمون إلى قبائل مختلفة، بل إن بعضهم قد حارب البعض الآخر حرباً شعـواء فى الماضى، وغضب أبو بكر لسماع ذلك وصاح قائلاً: «امصص بظر اللات!» فقـال عروة لا بأس لأنه مدين لأبى بكر ولولا ذلك لاضطر إلى رد إهانة أبى بكر. وعمـد عروة أثناء الحديث إلى لفت نظر محمد بأن جعل يجذب لحيته، وهى من علامات رفع الكلفة التقليدية، ولكن مسلماً آخر قـرع يده وأبعدها، وعندما غادر عروة المخيم كـان قد بهره تعظيم المسلمين وإخلاصـهم لمحمد. ويقـول ابن إسحق إنه «رأى ما يصنع أصـحابه به، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبـصق البصاق إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه» (ابن هشام: جـ٣/ ص ٢٠٤). وكان عروة تاجراً طبق الآفاق فى أسـفاره، ومن ثم عاد إلى قريش ليـخبرها أن التبـجيل الذى يحظى به محمد لم يتمتع به حـتى أباطرة بيزنطة والفرس، قائلاً: «لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشىء أبداً فروا رأيكم».

وقرر محـمد إرسال مبعوث خـاص من لديه إلى مكة. فأرسل أولاً أحد الأنصار، إذ تصور أن ذلك سيكون أقل إثارة لهم من إرسال أحد المهاجرين، ولكن قريشـاً عقرتْ بعيـره وكادت تقتله لولا أن حـالت قوات حليس بينهم وبين الرجل. ثم طلب مـحمد من عمـر أن يذهب إليهم، ولكن عـمر أبدى الحذر والتردد،إذ لم يكن بين أبنـاء عشيرته من يقوى على حـمايته، ومن ثم

اقترح أن يذهب عثمان بن عفان بدلاً منه. وكـان لعثمان معارف كثيرون من أرستقراطيـة مكة، فأصغت قريش لما قاله ولكنهم لم يستجـيبوا له. وقالوا له إن شئت أن تطوف البيت فطف، ولكن عثـمان رفض مثل ابن أُبىّ، وقال ما كنت لأفـعل حـتى يطوف به رسـول الله، وهكذا احتـبـسـتـه قـريش عندها وأرسلت إلى مخيم محمد من أبلغهم أنه قد قتل.

وعندما بلغ محمداً أن عثمان قـد قتل قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم». وأقسم ألا يغـادر الحديبـية دون مواجـهة العـدو، فكانت اللحظة التى بلغت الأزمـة فيـها مـداها، إذ بدا أن الرحلة التـى كانت وليـدة فكرة ملهـمة قـد أخفـقت. وفى تلك اللحظة العصـيبة قـيل إنه أصابته غـيبوبة دون أن يفـقد الوعى، وكانـت تشبه حـاله عندما كـان الوحى يتنزل عليه، ولابـد أنه كان يبحث فى أعـماق نفـسه جاهداً عن حل للأزمـة. ثم طلب من المسلمين أن يبايعوه بأن يقـسموا له قسماً خاصـاً، فتقدم المعتمـرون واحداً بعد الآخر منه وأقسـموا على يديه القسم، فـيما أصـبح يسمى ببـيعة الرضـوان. وتختلف مصادر السيرة حول مـضمون هذه البيعة، فبعضهـا يقول إن المسلمين أقسموا على قتال قريش حتى الموت، ولكن القائلين بذلك أقليـة. أما الأكثرية فتقول إن المسلمين أقسموا «على أن لا يفروا»، وإن كان الواقدى يذكر أن كل مسلم أمسك بيد الرسول وأقسم أن يتبع «ما فى نفسه»، وأن يطيع محمداً ضمناً فى أثناء هذه الأزمة(٩). وأقسم الجميع هذا القسم، ومن بينهم ابن أُبىّ والمنافقون الذين كانوا بين المعتمرين.

وهناك من الأسباب ما يغـرى بقبول قول الواقدى. فعندما انتـابت محمداً حالة التـركيز الشـديد، لابد أنه قرر على مـستوى عمـيق (وربما بالفطرة) أن ينتهج نهـجاً عملياً كـان يعرف أنه سوف يبـدو شديد الوطأة بل ربما أدى إلى التمـرد بين أتباعه. وكـان من شأنه أن يبـدو مناقضاً كل التـناقض لسياسـته السابقة تجاه قريش. وكان ذلك النهج حتى تلك اللحظة أقرب إلى الحدس منه

إلى السيـاسة العقلانيـة الواضحة التفـاصيل. كان يصغى إلى المنطق العـميق للأحداث التى كـانت تتطور فى الحديبـية بطريقة لم يكن يتـوقعهـا حين قاد مسـيرة المعتمـرين خارجين من المدينة. ولم تكد تنتـهى المبايعة حـتى جاءت الأنباء بأن عثـمان لم يقتل. وبعد ذلك رأى مـحمد سهيـلاً وهو يقترب من المخيم مع اثنين من أصحابه فعرف أن وصـول هذا المبعوث معناه أن قريشاً قد قررت الـتفاوض. وقـضى مع سهـيل وقتـاً طويلاً، وبعـد المناقشـة الحامـية الوطيس، اتفق الجـانبـان على شـروط الصلح، وهى التى أفـحـمت قلوب أصحابه غَمًّا وهَمًّا.

وعد مـحمد بالعـودة إلى المدينة دون زيارة الكعبة هذه المرة، وكـان معنى هذا أنه لن تتمكن قـبيلة من القبائل العـربية من القول بأنه أجبـر قريشاً على الرضوخ لمطلـبه، ولكن المسلمين سـوف يعودون فى العام التـالى، فى نفس الوقت، إلى مكة، وسوف تجلو قريش عن المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى يتمكنوا من أداء شعائرالعمرة حول الكعـبة فى سلام. كما نصّت شروط الصلح على أن تقوم هدنة بين مكة والمدينة لمدة عشر سنوات، بشرط أن يعد محمد بإعادة أى فرد من قـريش إلى مكة إذا أسلم وهاجر دون موافـقة من يكفله. ولكن قريشاً ليـست ملزمة بإعادة أى مسلم يفر إليهـا. وأخيراً نص الصلح على أن تُحَلَّ قبائل الأعراب من التزاماتها السابقة بحيث يكون من حقها التحالف مع مكة أو المدينة حسـبما تشـاء. وكان القرآن قد نـص على أن يوافق المسلمون على أى شروط يقترحـها العدو، مادامت الفرصة قائمـة لعقد الهدنة. ولكن هذه الشروط بدت مـهينة للمسلمين. إذ بدا أن مـحمداً قـد أضاع المزايا التى اكتـسبـها خـلال الرحلة حين وافق على الانسـحاب دون أن يفـرض قضـية العـمرة. وكـان معنى الـهدنة مع مكة أن المسلـمين لم يعودوا قـادرين على مهاجمة قوافل قريش: كيف يتـسنى للمهاجرين إذن أن يكسبوا رزقهم، ولماذا قرر محمد رفع الحصار الاقتصادى الذى كان قد بدأ ينجح فى خنق الاحتكار

التجارى الذى كانت مكة تتمتع به؟ وأهم من ذلك كله كان السؤال الذى سألوه هو: لماذا وافق محمد على إعادة من يدخلون الإسلام إلى مكة إذا كانت قريش ترفض المعاملة بالمثل، أى إعادة المرتدين والفارين من المسلمين إلى المدينة؟ بدا لهم أن محمداً قد أقلع عن الجهاد، الذى ضحى فى سبيله الكثيرون بأرواحهم وخاطر فيه غيرهم بكل شىء، ثم سلّم بهدوء لمكة ما كان لديه من مزايا. ويقول ابن إسحق: «وقد كان أصحاب رسول الله (ص) خرجوا وهم لا يشكون من الفتح، لرؤيا رآها رسول الله (ص) فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله (ص) فى نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون»(١٠).

والأسوأ من ذلك أن روح التمرد قد ظهرت، فكانت المعاهدة أكبر من طاقة عمر على الاحتمال فانطلق على الفور إلى أبى بكر وسأله: «ألسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ فعلام نُعْطَى الدَّنِيَّةَ فى ديننا؟»(١١) وكان أبو بكر قلقاً كذلك ولكنه أخبر عمر أنه لا يزال يثق فى محمد. وقال عمر فيما بعد إنه لو وجد مائة صاحب يتبعونه لترك الأمة ومضى. ولكن نظر محمد كان أبعد من نظر الجميع فى الحديبية، فإذا كانت الرحلة لم تنجح النجاح الذى توقعه لها، فقد كانت من قبيل الإلهام الذى مكنه من فتح طريق السلام. كان يوشك على محاولة القيام بعمل جديد كل الجدة، مما استعصى فهمه حتى على أوثق وأخلص أصحابه، ناهيك بالقاعدة العريضة من المسلمين الذين كانوا يجلسون فى ذهول عقد ألسنتهم وهم يحاولون استيعاب ذلك التحول المفاجئ. ولكن محمداً كان يدرك، على مستوى بالغ العمق، إدراكاً كاملاً ما كان بصدده، حتى ولو كان يتحسس طريقه إليه فى الظلام. كان حظر دخوله الكعبة معناه أن قبائل الأعراب سوف تبدى التردد فى الانضمام إليه، وكان عليه أن يقنع أتباعه من المسلمين الذين لا يقل إخلاصهم لأقدس مكان فى بلاد العرب عن إخلاص تلك القبائل، وكان

السلام مع مكة معناه النجاح فى الوصول إلى الكعبة، وهو سلاح حيوى فى حرب الدعوة، كما أنه انتزع من قريش اعترافاً مهمّاً بأن مكة والمدينة أصبحتا متساويتين. وقد اتضح ذلك بصورة خاصة فى النص فى شروط الصلح على السماح لقبائل الأعراب بأن تترك تحالفها القديم مع قريش وأن تتحالف مع الأمة، ولم تلبث قبيلة خزاعة التى أصبح للنبى نسب فيها بعد زواجه من جويرية الخزاعية[١٢]، حتى اغتنمت الفرصة التى يتيحها لها الصلح وانضمت إلى محمد. كانت الخطوة الواضحة أمام محمد بعد هزيمة قريش فى المدينة هى أن يواصل كفاحه فيقضى عليها عسكرياً، ولكن محمداً لم يكن يريد ذلك أبداً. بل كان يأمل من رفع الحصار الاقتصادى أن يخطب ود قريش ويكسبها إلى صفه بالطرق السلمية. كان محمد يقترب من تحقيق حل سياسى ودينى لم يسبق له مثيل لدى العرب، وكان معنى ذلك ألا يفعل ما كان متوقعاً وواضحاً، لأن ذلك كان من شأنه أن يقيده إلى الوضع الراهن المؤسف.

وعندما جلس محمد مع سُهيل لتوقيع المعاهدة، كان يعلم أنه قد وضع على كاهل المسلمين عبئاً لا يكاد إخلاصهم يقوى على النهوض به. ترى هل يستمرون فى التزامهم ببيعة الرضوان أم يتمردون؟ وقد ازداد التوتر عندما سمع المسلمون الصياغة الفعلية للمعاهدة، إذ نادى محمد علياً ليكتب ما يمليه عليه، وعندما بدأ بقوله «بسم الله الرحمن الرحيم» وهى صيغة الافتتاح الإسلامية الخاصة، اعترض سهيل على الفور، إذ كانت قريش دائماً تبغض هذه الألقاب القدسية ولم تكن على استعداد لتوقيع معاهدة تبدأ بهذه الصيغة الدينية بعد ما بدا من استعداد محمد للتنازل، فقال سهيل «لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم». وذهل المسلمون عندما سمعوا محمداً يوافق دون تردد ويطلب من علىّ تغيير الصيغة. وزاد الطين بلة ما تلا ذلك، إذ استمر محمد قائلاً: «اكتب: هذا ما صالح عليه رسول الله سهيل بن عمرو»،

فاعترض سهيل قائلاً: «لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك»، وكان ذلك أمراً منطقياً لاشك، ثم أردف: «ولكن اكتب اسمك واسم أبيك». ولما كان عليٌّ قد كتب بالفعل عبارة «رسول الله» فقد قال إنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على شطب هذه الكلمات، فطلب منه محمد أن يريه موضع الكلمات على اللوح وقام بشطبها بنفسه، ثم واصل إملاءه قائلاً: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو»[١٣].

وكأنما لم يكن الموقف عسيراً بما فيه الكفاية، إذ وصل أبو جندل، وهو ابن سهيل، فجأة فى أثناء توقيع المعاهدة. كان أبو جندل قد اعتنق الإسلام، وكان أبوه قد حبسه فى بيته حتى يمنعه من اللحاق بمحمد، ولكنه نجح فى الهرب وجاء يرسف فى قيوده الحديدية وقد بدت عليه آيات الظفر، فهب سهيل واقفاً، ولكمه فى وجهه، وجره من قيوده، وصاح بمحمد «يا محمد! قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا». وتطلع المسلمون غير مصدقين: ترى هل يخون محمد أبا جندل ويسلمه وادعاً إلى أبيه حتى يواجه حياة من الذلة والمهانة؟ وكان محمد مصراً فى صرامة على الوفاء بالعهد، ورفض أن يسمح لأبى جندل بالهجرة دون موافقة والده. وبينما كان سهيل «يجره بتلبيبه» عائدين إلى مكة، جعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين! أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟» وتعليق ابن إسحق على ذلك يعتبر مثالاً على التعبير بألفاظ أدنى من الواقع إذ قال: «فزاد ذلك الناس إلى مابهم» ولم يجدوا العزاء فى قول محمد: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً؛ إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم» (ابن هشام: جـ٣/ ص ٢٠٧ و٢٠٨).

أما بالنسبة لعمر بن الخطاب، فقد كانت هذه هى القشة التى قسمت ظهر البعير، إذ نهض ووجد فى نفسه الجرأة على مناقشة الرجل الذى ظل يُطيعه

ضمناً على امتداد إثنى عشر عاماً. أليس رسول الله؟ أليس المسلمون على حق وأليس أعداؤهم على باطل؟ فلماذا يقبل المسلمون إقرار هذا السلام المشين؟ ألم يعدهم محمد عندما غادروا المدينة قبل أيام معدودة أنهم سوف يصلُّون مرة أخرى فى الكعبة؟ وأقر محمد بأنه كان وعدهم بذلك، ثم أضاف قائلاً: «أفقلت لكم من عامى هذا؟» (ابن هشام ٣/ ٢١٥) واضطر عمر إلى التسليم بأنه لم يقل ذلك، ومن ثم قال محمد: «إننى رسول الله، ولن أعصى ما أمرنى ولن يجعلنى من الأخسرين»(١٥). وانفثأ غضب عمر، وإن كان لا يزال حزيناً حائراً، فوافق على إمضاء المعاهدة مع علىّ، وأبى بكر، وعبد الرحمن، وعبد الله بن سهيل (وهو أخو أبى جندل) ومحمود ابن مسلمة.

ولكن المعتمرين كانوا غاضبين، وحلت لحظة الخطر، عندما كانوا فيما يبدو على وشك التمرد. فبعد أن وقّع الشهود على المعاهدة، أعلن محمد على المسلمين أنهم سوف يقومون الآن بمناسك العمرة فى الحديبية نفسها، حتى دون أن يصلوا إلى الكعبة، وعلى كل رجل أن يحلق رأسه وأن ينحروا الهَدْى (أى الجمال السبعين) وساد الصمت المطلق. ولم يتحرك الرجال بل تطلعوا فى مرارة إلى محمد. وقام فى يأسه إلى خيمته مدركاً أنهم إذا لم يطيعوه ويؤازروه فى هذه اللحظة الحاسمة فسوف يضيع كل شىء. ماذا عليه أن يفعل؟ وطرح هذا السؤال على زوجته أم سلمة التى كانت تراقب ما يجرى من خيمتها الجلدية الحمراء، وكان حُكمها على الموقف صائباً إلى أقصى حد، فقالت له إن عليه أن يعود إلى الناس مرة أخرى ويعلن أنه لن يكلم أحداً منهم حتى يذبح جمله أمام جميع المعتمرين. وكان ذلك هو القرار الصائب تماماً. كان مشهد الذبح رائعاً مهيباً وأدى إلى تفريج التوتر على الفور، إذ خرج محمد من خيمته، لا ينظر إلى يمينه ولا إلى شماله، واتجه مباشرة إلى الجمل الذى خصصه للهَدْى، وأدى الشعيرة كاملة. كانت تلك من المناسك المقدسة، المألوفة لجميع الحجاج من العرب، ولكنها كانت أيضاً

عمــلاً يوحى بالتحدى والاســتقلال لأن مــحمداً كــان يخرج به عن التقــاليد الموروثة، فهو يذبح الجمل خارج مكة نفــسها. وأدى ذلك إلى تفجير نبع من الإدراك فى نفوس الجمهور الصامت، وإلى انقشاع سحابة الخمول التى أنزلها الاكتــئاب، وســبّبــتْها الحــيرة، فكان بمــثابة تفريــج وتطهير. ووثــب الرجال يتسابقون إلى جمالهم، وربما فَرَّج من بــأسائهم أنهم سوف يقومون بعمل ما بعد لأى. وذبحوا الهَدْى وهم يصيــحون بصوت عال «باسمك اللهم»، وهى الصيغــة العربية القديمة، ثم أضافــوا إليها شعار المسلمين «الله أكــبر!» وعندما نادى محمد على أحد الأنصار وطلب منه أن يحلق شعر رأسه، تواثب الناس وتسابقــوا حتى اضطربوا فى حرصــهم على ذلك، وشرعــوا يحلقون رءوس بعضهم بعضاً بحماس بلغ حــد اللوثة، حتى خشيت أم سلمة، وفقاً لما روته فى وقت لاحق، أن يصيبوا أنفــسهم بجراح قاتلة فى غمرة حمــيّتهم. وجاء فى الأثر أنهم كانــوا على وشك الرحيل من الحديبــية حين هبت الريح فــجأة فحملت كومة الشعر الأسود إلى مكة، آيةً من الله على أنه قبل أضحياتهم.

وبدأ المعتــمرون رحلة العودة وقد خــفّت وطأة ما حل بهم، ولو أن بعض المرارة ظلت قائمة، وكان محمد يعرف أنه لابد أن يعوضهم عما حدث، عن طريق حــملة جديدة لا تــعرض المعــاهدة للخطر. وربما كــانت لا تزال لديه بعض شكوكه الخــاصة، إذ يكاد يكون من المؤكــد أنه كان يتــوقع دخول مكة ظافراً دون توقــيع ذلك الميثــاق العســير. وكان أثــناء رحلة العودة يبــدو عليه الشرود والانشغــال، وكان عمر يخشى أن يكــون ما أبداه من تمرد أو من تحدٍّ قد أضر بصداقتهما ضرراً لا يزول. كان يخاف أن ينزل الله آيات تدين جُبْنَه، وعندما وجد أن محمداً لــم يزد على رد مقتضب على إحدى الملاحظات التى أبداها، خشى أن تتحقــق مخاوفه، وفجأة وصل رسول يدعــو عُمَر إلى تقدم الركب للحاق بمحمد، فغاص قلبه فى جوفه فَرَقاً. ولكن همه زال عندما رأى محــمداً منفرج الأســارير كأنما انزاح عن كاهلــه عبء رازح من القلق، وقال

ناقص من المصدر

٣٣١ الى ٣٣٤

حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل تلك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر» (ابن هشام: جـ٣/ ص ٢١١).

لقد بيّن محمد فى الحديبية أن الإسلام كانت له جذوره الضاربة فى أقدس التقاليد العربية، وأثبت صعوده بسرعة مذهلة إلى موقع الصدارة فى بلاد العرب أن الدين الذى أتى به قد نجح. لم يكن العرب متعصبين، بل إن السنوات العسيرة التى كابدوها فى الصحراء قد أكسبتهم نزعة عملية عميقة، ولذلك فعندما نظروا فى النجاح العملى الذى حققته الأمة، بدءوا يقولون: ربما كان ذلك هو التغيير الذى طالما سعى إليه الناس.

ولكن صلح الحديبية كان يُلزم محمداً بأن يُعيد إلى مكة كل من يعتنق الإسلام ويهاجر إلى المدينة. ومن ثم أخذ يحاول البحث عن طريقة للتحلل من ذلك الالتزام، فوجد، على سبيل المثال، أن المعاهدة لم تذكُرْ شيئاً عن إعادة من يدخل الإسلام من النساء، وهكذا فعندما هاجرت أخت عثمان غير الشقيقة إلى المدينة بُعيْد صلح الحديبية رفض محمد أن يعيدها إلى مكة. وكانت تلك الحادثة إيذاناً بالسماح للنساء بالهجرة، أما إذا جئن دون موافقة الأوصياء عليهنّ، فإن محمداً كان يعيد صداقهن إلى قريش. ونحو ذلك الوقت ظهر فى المدينة رجل دخل الإسلام، وكان من ذوى العزم والحزم، واسمه أبو بصير بن أسيد. كان من المتحالفين مع عشيرة زهرة، ثم تمكن من مغافلة كافليه ومجيريه، فهاجر إلى المدينة. وأرسلتْ قريش مبعوثاً فى أثره ومعه أحد الموالى، وكلفتهما بإعادة أبى بصير إلى مكة. واشتكى أبو بصير للنبى ولكن محمداً أوضح له أنه لا يملك إلا أن يعيده من حيث أتى. ولكن أبا بصير لم يقبل الاستسلام بسهولة، فبينما كان المسافرون الثلاثة يستريحون فى قرية تُدعى ذا الحليفة، تقع جنوبى المدينة على مبعدة ثمانية أميال تقريباً،

تحامل أبو بصير على المبعوث فأخذ سيفه وقتله به. ومن ثم أهرع المولى عائداً فى فزع إلى المدينة وألقى بنفسه عند قدمى محمد، وهو يتمتم ويتلعثم، قائلاً إن أبا بصير نفسه قد وصل إلى المسجد. وجاء أبو بصير إلى محمد وقال له إنه (أى النبىّ) أَوْفَى بذمته عندما أسلمه إلى قريش، ومادام لم يتمكن من الهجرة فهو لا يعتبر رسمياً من المسلمين، ولذلك فإن محمداً ليس مسئولاً عن إراقة دم المبعوث. ولكن محمداً أصر على عدم قبوله فى الأمة، وحاول تسليمه من جديد إلى المولى المسكين، ولكن الأخير لم يستطع أن يتصور كيف يسافر مع أبى بصير وحدهما مسافة ٢٠٠ ميل، فاعتذر بسرعة، وفر ناجياً بحياته. وعند ذلك قال محمد لأبى بصير إنه ـ وإن كان لا يستطيع البقاء فى المدينة ـ حُرٌّ فى أن يقيم بأى مكان شاء. وعندما هم بالرحيل قال محمد كلمات لا تخلو من الغموض وهى «ويل أمة محش حرب لو كان معه رجال»[٢٥] (ابن هشام: جـ ٣/ ص ٢١٢).

وفهم أبو بصير ما ألمح إليه النبى فى الكلمات الأخيرة، فاتجه وضرب خيمته فى العيص، وهى على ساحل البحر الأحمر بالقرب من الطريق التجارى الذى أصبحت قريش قادرة على استخدامه من جديد بعد الهدنة. وبلغت مكة أنباء هذه الحادثة، ومن بينها الحكمة التى قالها محمد تعليقاً عليها، وسرعان ما اغتنم الفرصة بعض الرجال الذين كانوا يتوقون إلى الهجرة مثل أبى جندل بن سهيل. كانت الرقابة التى يفرضها الأولياء على المستضعفين بمكة قد خفَّتْ صرامتُها وحدتها بعد صلح الحديبية، فتمكن نحو سبعين من الشباب بسهولة ويسر من مغادرة مكة، ولكنهم لم يقصدوا محمداً فى المدينة، بل قصدوا أبا بصير فى العيص. لم يكن فى صلح الحديبية ما يحظر ذلك، ولم يكن أحد من هؤلاء الشبان ينتمى إلى الأمة. ومن ثم باتوا يقطعون الطريق على كل قافلة مكية تمر بالطريق التجارى إلى سوريا. لم يكن محمد مسئولاً عنهم، وكان من المحال اتهامه بانتهاك شروط المعاهدة، ولكن

قريشــاً اكتشفت أن المقــاطعة الاقتصــادية القديمة قد فُــرضت من جديد، من الناحية الفعلية، وإن كانت قد فُرضت جزئياً فحسب. وكانت هيبة قريش قد تدهورت كثيراً منذ هزيمتها، إلى الحد الذى لم تعد تضمن معه تأييد الأعراب المقيمين فى المنطقــة إذا هى أرسلت جيشاً للقضــاء على قطاع الطرق الشبان. وانتهى الأمر بقريش إلى أن اضطرت إلى أن تطلب من مــحمد أن يرفع عنها هذا الخطر ويقــبل لحاق الــشبــان بالأمة، وأســعد مــحــمداً أن يرسل إليــهم يستدعيهم، ولكن الدعوة فات موعدهــا لأبى بصير نفسه، إذ كانت قد وافته المنية.

لقد تمكــن محمــد من الالتفــاف حول شــروط المعاهدة عن طريق مــسألة شكلية، وكانت تلك من الحــيل المعترف بها فى بلاد العرب. وســوف نشهد قريشاً وهى تحاول اســتعمال حيلة مماثلة فى صراعها مع مــحمد بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن عــام واحد. كان محمــدٌ سياسيــاً بارعاً يعرف كيف يســتعمل قواعد النظام القبلى لصالحه، وقــد يكون فى هذا ما يصد ابن الغرب الحديث الذى يعتبر أن شرعة الأخلاق القبلية قاسية ومتعسفة، وهذا أمر مفهوم، ومن ثم فقد لا يــقبل استعمــال محمد أو اســتناده إلى هذه الشرعة القبليــة. فلقد تخطينا منذ زمن بعــيد وتجاوزنا الشرعــة القبلية أو الجــمعية، مع أنهــا كانت السبيل الأوحد لضمان أدنــى قدر من السلم والنظام فى الأزمنة البدائية. لقد نجحت فى بلاد العــرب على امتداد قــرون طويلة، ولكن عصرها قــد انقضى اليوم. ومع ذلك فقد كان محمد يشارك جميع معاصريه جذورهم العميقة فى النظام القبلــى، وتقبل مبــادئه الأساسيــة. لقد كان النوع الوحــيد الذى يمكن تصوره للدولة ولنظام الضمان الجماعى، وكــان من المحال إجراء تغيير جذرى فى تلك الفترة الانتقالية. ففى قضية أبى بصير، استند محمد إلى نقطة دقيقة من نقاط القانون القبلى لتدعــيم الأمة وهى التى كانت تسعى لإصلاح النظام المتداعى وتصحيح بعض مظاهر الانتهاك الجسيمة له.

ولذلك فالتشريعات الاجتماعية الإسلامية لا تبتعد عن الروح القبلية ابتعاداً

تاماً، فـالقصـاص فضيلة وهو واجـب اجتمـاعى ودينى. وعلى المسلمين أن يقتصوا قصـاصاً عادلاً، فالعين بالعين والسن بالسن(٢٦). وسوف يجد الذين درجوا على مبادئ موعظة الجـبل أن فى ذلك ما يصعب قوله، ونحن نستنكر أن يوصى كتاب مقدس بقطع يد السارق، ولا نفهم لماذا لم يحرّم محمدٌ مبدأ الثأر ويدعـو إلى الغفـران، ولكن علينا أن نتـذكر أن عيـسى لم يكن رئيس دولة، على نحو ما أصبح عليه محمد بعد الحديبية، فلم يكن على عيسى أن يشـغل نفســه بالحفـاظ على النظام العـام، وهى المهمـة التى كانت تتـولاها المؤسسة الدينيـة التى قيل إنه كان يندد بها، إلى جانب المسـئولين الرومانيين. فلو كان مسئـولاً عن التشريع الاجتماعى فالأرجح أنه كان سـيلجأ رغماً عنه إلى أساليب قاسية مماثلة، لأن تنفيذ القانون فى معظم المجتمعات التى سبقت المجتمع الحـديث كان لابد له من الأساليب القاسـية والوحشية التى نعـتبرها اليوم رهيبة. بل إننا كنا فى بريطانيا، حتى عهد قريب نسبياً، لا نكتفى بقطع أطراف السارق، بل كنا نعـاقبه على الجنح الطفـيفة إمـا بالقتل أو النفى إلى المستـعمرات باعتـباره من العبيـد. ومما يدعو إلى الأسف دون شك أن بعض البلدان الإسـلاميـة، ونحن نؤكـد تعـبيـر «بعض» هنا، مـا تزال تطبق هذه العقوبات القديمة، لكنه ليس من الإنصاف أن نصم القرآن والتقاليد الإسلامية بالوحشية. ولقد ذكر بعضـهم أن الحكام المسلمين لم يستطيعوا الاقتصار على الأحكام القرآنـية فيـما بعد لأنهـا تتسم بدرجـة من اللين تمنعهـا من إحداث تأثيرها المنشـود فى المجتمعـات الكبيرة، واضطروا إلى تعـضيدها بتشـريعات جديدة تكفل الحد الأدنى من الأمن الاجتماعى(٢٧).

كان محـمد يعتبر أن الأمـة ضرب من القبيلة الكبرى ومن ثم اسـتمر فى تطبيق الأسـاليب القديمة للحـافظ على النظام. لم يكن فى المدينة أو فى بلاد العـرب شرطة، وكـان أقرب أقـرباء الجانى، منذ أقـدم العصـور، هو الذى يتحمل مسـئولية عقابه، وتوفير الرّادع الذى يحـد إلى أقصى درجة ممكنة من

ارتكاب العنف. وقد أبقى القرآن على هذا النظام ويقول إن لوليّ القتيل سلطاناً فى القصاص من الجانى(٢٨).

ولكن القصاص مُقيد بحدود صارمة، فالعين بعين واحدة **فقط**، والسن بالسن، أما إذا أنزلت بالجانى عقوبة أكبر من المنصوص عليها، فإن من حقه «النصر» أى إن على أقرب أقربائه أن ينصره فتبدأ دورة جديدة من الاعتداءات، وحلقة مفرغة من أعمال العنف التى يتعذر إيقافها. والواقع أن القرآن يبيّن فضيلة الاكتفاء بقصاص **أدنى** من المستوجب. وهو يذكرنا بالقواعد التى أنزلها الله على أنبياء العبرانيين فى التوارة والتى صادق عليها الحكماء ورجال الدين فى العصور اللاحقة، ثم يتخطاها إلى أن يقول:

﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾(٢٩) (المائدة: ٤٥).

وعندما أشار عيسى إلى هذه الكلمات الواردة فى التوراة، طلب من أتباعه أن يحبوا أعداءهم، ولما كان المسيح رجلاً ذا بديهة حاضرة، فإن المفارقة التى أتى بها تتضمن نظرة دينية عميقة ومعقدة ليس من اليسير تفسيرها فى جميع الأحوال. ولكن محمداً لم يصل إلى الحد الذى وصل إليه عيسى، فعندما حث المسلمين على أن يغفروا جرائم بعضهم البعض وأن يتنازلوا عن القصاص كان على الأرجح يحثهم على الرضا بالدية (الفدية) بدلاً من إزهاق روح أخرى. وكان هذا المثل الأعلى للغفران، مهما يكن محدوداً فى نطاقه، بمثابة التجديد الذى لم تعهده بلاد العرب، وبمثابة التحسين الأخلاقى للنظام القديم.

وكثيراً ما يقال إنه إذا كانت المسيحية دين الحب، فالإسلام دين العدالة الاجتماعية، ويرى المسيحيون أن معيار الدين الصادق هو حب الإنسان جاره، أما تعريف القرآن لروح الدين فقد يبدو أقل طموحاً ولكنه قد يتسم بطابع

عملى أقرب إلى التطبيق:

﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة** ﴾[٣٠] (البقرة: ١٧٧).

ويقوم تنظيم المجتمع فى الأمة على أسس المساواة، فعلى الجميع القيام بنفس الواجبات، وبحيث لا تكون هناك صفوة أو نخبة أو بناء هرمى من القسس والرهبان. أما الزكاة فالقصد منها سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء، كما أصبح إعتاق العبيد من الأعمال الصالحة[٣١]. ولابد، من ناحية المبدأ، أن يلقى جميع أبناء الأمة نفس المعاملة، فإذا تعذر أن يسود الحب أو أن يُدفع الناس إليه دفعاً، فمن الممكن إصدار التشريعات التى تكفل إقامة العدالة والمساواة. وتؤكد الظواهر أن القرآن، ثم الشريعة في مرحلة لاحقة، قد ساعدا المسلمين فى الواقع على غرس روح المساواة العميقة[٣٢]. فبعيد وفاة الرسول، أسلم أحد رؤساء البدو، واسمه جبلة بن الأيهم. وحدث ذات يوم أن رجلاً لا يشغل مكانة سامية بين أبناء الأمة لطمه على وجهه. ولم تكن الشريعة تقضى بأن يدير له خده الآخر، وتوقع جبلة إنزال عقاب بالغ الصرامة بالمذنب بسبب المنزلة الرفيعة التى يتمتع بها جبلة. ولكن قيل له إنه قد سمح له بأن يلطم المعتدى لطمة واحدة فقط على وجهه، باعتبار ذلك قصاصاً عادلاً ودقيقاً من الإهانة. ولكن جبلة غضب غضباً شديداً جعله يرتد من الإسلام إلى المسيحية.

ويمكننا النظر إلى المثل الأعلى للمساواة فى الإسلام باعتباره الوسيلة العملية لتنمية الحب الأخوى، بإخضاع جميع الناس لمستوى اجتماعى وسياسى واحد. وقيل إن محمداً بدأ بُعيد الهجرة بتطبيق مبدأ المؤاخاة وهو المبدأ الذى ربط بين كل من المهاجرين والأنصار، وقيل لكل منهما أن يعتبر الآخر أخاً له. وكانت تلك محاولة لإدماج المجموعات القبلية الثلاث فى

مجتمع مُوحد، وبياناً عملياً لوشائج القرابة الدينية الجديدة التى تقرر أن تتجاوز روابط الدم. ويتمتع المثل الأعلى للتواصل والترابط الاجتماعى بقيمة مقدسة عُليا فى أديان التوحيد الثلاثة، فمن الأسس الجوهرية لليهودية والمسيحية أنه ما اجتمع اثنان أو ثلاثة إلا كان الله معهم، وكتب القديس بولس يقول إن المجتمع المسيحى يمثل جسد المسيح، وسوف نرى أن مفهوم الأمة قد اكتسب أهمية تكاد تكون مقدسة فى إطار البرّ الإسلامى. كان محمد يرعى النزعة الفردية التى بدأت تظهر فى بلاد العرب، وهكذا أنزل عليه فى القرآن أن أقارب القتيل من حقهم عقاب قاتله فقط، لا أى فرد آخر من أفراد قبيلة الجانى، على نحو ما كان الحال عليه فى النظام القديم(٣٣). ولكن المثل الاجتماعى الأعلى ظل يشغل مكانته الأساسية أيضاً، وازداد ترسيخ الإحساس بأخوة جميع المسلمين وتعميقه فى الإسلام.

كان محمد قد بنى نظامه الأخلاقى على المروءة، وهى النزعة الإنسانية القديمة لدى القبائل العربية، والتى كانت ترمى إلى تحقيق الصالح العام، وإلى التعاون، وإلى رعاية الفقراء والمستضعفين. أما أهم ما أتى به محمد فهو توسيع نطاق هذه المبادئ حتى تشمل المسلمين جميعاً، أى لتنطبق على الأمة كلها لا على أفراد قبيلة واحدة فحسب. وعندما ساعد أصحابه على تنمية الإحساس بأن جميع المسلمين - سواء كانوا من الأوس أو الخزرج أو قريش - قد أصبحوا الآن إخواناً، كان فى الحقيقة يرسى الأسس اللازمة لإقامة دولة إسلامية متميزة فى المستقبل. وكان ذلك من الأسباب التى جعلت من العسير على المسلمين أن يتكيفوا مع المثال الغربى «للدولة الأمة» حيث تنقسم فيها الأمة فى الواقع إلى «قبائل» أو مجموعات منفصلة يحتمل أن يعادى بعضها بعضاً(٣٤).

والواقع أن محمداً نفسه قدم نموذجاً رفيعاً للتآخى (أو «المؤاخاة») فى سلوكه الشخصى. فالرجل الذى كان أعداؤه يزدادون فرقاً منه ووجلاً، كان يحظى بحب عميق بين أفراد الأمة، والتى كانت، رغم الخطر الدائم الذى

تُواجهه، تمثل مجتمعاً ينعم بسعـادة غامرة. كان محمد يرفض أن يقيم فجوة من الاعتبـارات الشكلية أو الرسمية بينه وبين غـيره من المسلمين، وكان يكره أن يخاطبه أحد بألقـاب التشريف الطنانة، وكثيراً مـا كان يشاهد وهو جالس على سجيتـه ودون تكلف على الأرض فى المسجد، وكثيراً مـا كان يختار أن يجالس أفقر أفراد المجتمع. وكـان يحظى بحب الأطفال بصفة خاصة، فكان دائماً ما يحـملهم بين يديه ويعانقهم ويقبلهم. وعندما كـان يخرج فى إحدى الغزوات، كـان من عادة أطفال الأمـة أن يخرجوا لاستـقباله عند عـودة قوة الغزو، وكانوا يسيرون أمامـه فى موكب النصر حتى يصل إلى الواحة. وكان إذا سمع طفلاً يبكى فى المسجد أثناء صلاة الجمعة، كان كثيراً ما يُنهى الصلاة قبل الموعد الذى كان يعتزم انتهـاءها فيه، لأنه لم يكن يطيق أن يتصور الحزن الذى تكابده أم الرضيع.

وإذا كانت القوانين التى جاء بها القرآن تبـدو بالغة الصرامة لنا اليوم، فقد كان المعروف عن النبى نفسه أنه رحيم ليّن الجانب. وجاء فى الأثر أن محمداً حكم على رجل فقير ارتكب جنحة طفيفـة بأن يتصدق ببعض ما لديه تكفيراً عن ذنبه. ولكن الرجل أجابه بأنه لا يملك طعاماً أو بضائع حتى يتصدق بها. وفى تلك اللحظة جاءت إلى النبى فى المسجد سلة كبيـرة مليئة بالتمر، فقال محمد للـرجل أن يأخذها ويقوم بتوزيع التمر على الفـقراء. وقال المذنب إنه بصراحـة لا يعرف من يزيد عنه فقراً فى الحىّ. فـضحك محمـد وقال له إن كفارته هى أكل ذلك التمر.

كان غرس الشفقة والتراحم وتنمية الإحـساس بهما من العناصر الأساسية فى الرسالة الإسلامـية منذ البداية. وإذا كان القانون إبان تلك الفـترة سلاحاً صارمـاً، على ما يبدو، فـإن جهود التـهذيب أو التزكى كـانت قد بدأت فى الارتقـاء بنظرة المسلمين إلى بعضـهم البعض. وكـان محـمد هنا أيضـاً يمثل القدوة. وجاء فى الأثر أنه شاهد ذات يوم أحـد الموالى وهو يقوم بعمل شاق

عسير، فتسلل إليه من الخلف ووضع يديه على عَيْنَىْ الرجل، على نحو ما يفعل الأطفال. وأجاب المولى أنه لابد أن يكون النبى، إذ لن يفكر غيره فى تخفيف عنائه بمثل هذه اللفتة الرحيمة.

لقد دأبنا فى الغرب، على مر القرون، على أن نتصور محمداً فى صورة الرجل الجهم، والمحارب القاسى، والسياسى البارد. ولكنه كان رجلاً يتميز بأقصى درجات الشفقة ورقة المشاعر. فكان، على سبيل المثال، مُحبّاً للحيوان، فإذا رأى قطة نائمة على بردته تركها وكره أن يُقلقها. وقد قيل إن أحد معايير تقدم المجتمع هو موقفه من الحيوان، وجميع الأديان تحث الناس على حب العالم الطبيعى واحترامه، وكان محمد يحاول تعليم المسلمين هذا السلوك. كان العرب فى الجاهلية يعاملون الحيوان معاملة بالغة القسوة، فكانوا مثلاً يقطعون قطعاً من لحمها ويأكلونها وهى ما تزال حية، ويضعون قلائد مؤلمة حول أعناق الإبل. وقد حظر محمد وصم الحيوانات وصماً يتسبب فى إيلامها، وحظر تنظيم مسابقات اقتتال الحيوان. وجاء فى الأثر أنه قال إن رجلاً سقى كلباً يعانى من العطش فدخل الجنة، وإن امرأة حبست قطتها فماتت جوعاً فدخلت فيها النار. وهذه الأحاديث التى وصلت إلينا تدل على مدى الأهمية التى اكتسبتها تلك القيم فى العالم الإسلامى، ومدى السرعة التى تقدم بها المجتمع نحو رؤية تتميز بمزيد من التراحم الإنسانى والتعاطف والشفقة.

واتضح الآن أنه لابد من ضم اليهود إلى بلاد العرب التى ازداد تراحمها الإنسانى، فقام محمد بُعيد صلح الحديبية بإرسال رسالة إلى الحبشة يدعو فيها المسلمين هناك إلى القدوم إليه فى المدينة للمساعدة فى الكفاح، ثم تحول اهتمامه إلى الشمال من جديد. كانت مستوطنة خيبر اليهودية، التى نهضت بدور خطير فى أثناء حصار المدينة، قد تعلمت درساً مهماً من المصير الذى آلت إليه بنو قريظة، ولكنها كانت تعمل على إثارة العداء لمحمد بين قبائل

الشمـال. وأراد محمـد أن يضمن ألا تعود خـيبر إلى تهـديد أمن الأمة من جديد، وهكذا فلم يلبث بـعد عودته من الحديبـية أن انطلق إلى خيـبر على رأس قوة من ٦٠٠ رجل. ولما كانت الغنائم المتوقعة تبـشر بخير كثير، أبدى حلفاؤه من الأعراب الحرص على المشـاركة فى الحملة، ولكنه لم يسمح لهم بذلك، إذ كان يريد مكافـأة المسلمين الذين كانوا يشعرون بالضـيق والإحباط بعد الحديبـية، وإتاحة الفرصة لهم للقـيام بعمل ما، وهو ما كانوا يحـتاجون إليه ولم يتسنَّ لهم تحـقيقه فى الحديبيـة. ولكن خيبر كانت مسـتوطنة شديدة القـوة وكان يُظن أنهـا تمتنع على الغـزاة، إذ كانت تحـيط بها، مـثل المدينة، سهولٌ من الصخـور البركانية، وكانت حدائق نخـيلها وبساتينها تحمـيها سبع قلاع ضخمة. ولم تكد قريش تصدق هذه الأنباء، إذ كيف يقدم محمد على هذه الغزوة المتهـورة، وبدا لقريش أن محمـداً كان يقود ذلك الجيش الصـغير إلى كارثة محققة.

ولكن الحليف الأول لمحـمد فى هذه الغزوة أيـضاً كان يتـمثل فى الفُـرقة والتناحـر المزمن الذى كان، فـيما يبـدو، سمـة دائمة مـن سـمـات تدهـور النظام القبلى فـى بلاد العرب. كانت خـيبر، على عكس الأمـة، تعانى من انقسـام داخلى عميق، فكانت كل قبـيلة داخل المستوطنة تـتمتع باستقـلالها الذاتى، وكان من المحـال عليهـا توحيد صـفوفـها لمواجهـة العدو المشـترك. وأرسلت قبـائل خيبر رسالـة إلى حلفائها من بنى غطفان، وقـيل إن غطفان سمعت صوتاً غامضاً يدعـوها إلى العودة، فلم تكمل المسيرة لنجدتهم. وقد يكون محـمد قد حث غطفـان على عدم المسير بأن وعـدها بقسط كبـير من محصول التمر بالمدينة. ووصل المسلمون إلى خـيبر ليلاً، وفى الصباح خرج عمـال خيبـر، يحملون مسـاحيهم (فـئوسهم) ومكاتلهم (قـففهم) فـوجدوا أنفسـهم فى مواجهة جـيش صامت متجهم، فصاحـوا: «محمد والخـميس

معه!» (أى جاءنا محمد بجيشه) وفروا عائدين إلى المستوطنة. وهنا صاح محمد «الله أكبر! خربت خيبر!».

ولكن حصار خيبر استمر فى الواقع شهراً كاملاً. فكان المسلمون يقومون بحصار الحصون حصناً حصناً، ويمطرونه بوابل من السهام حتى يستسلم، ثم يفوزون بالغنائم والسبايا. وأخيراً قام اليهود بعرض الصلح على محمد، بعد أن تيقَّنوا من استحالة النصر. ووفقاً للمبادئ القرآنية قبل محمد شروط الصلح التى لم تكن تتضمن إذلالاً كبيراً لخيبر. وكان عقد الصلح يماثل تماماً عقود الصلح التى كان العرب فى المستوطنات كثيراً ما يعقدونها مع الأعراب الذين كانوا فى العادة أقوى وأقدر على القتال. وكان الصلح ينص على تقديم يهود خيبر نصف محصولهم من التمر، فى مقابل تقديم محمد الحماية العسكرية لهم، ومن ثم يصبحون تابعين للمدينة، بعد أن استبدلوا محمداً بحماتهم القدماء من الأعراب. وعندما سمع يهود فَدَك، وهى واحة صغيرة غنية تقع فى الشمال الشرقى من خيبر، بخبر هذه المعاهدة، قرروا أن يتفادوا احتمال غزو المسلمين لهم، ومن ثم استسلموا لمحمد بالشروط نفسها. وتوثيقاً للاتفاق، تزوج محمد أرملة جميلة فى السابعة عشرة من عمرها هى صفية (بنت حُيَىّ، عدوه القديم) وكان زوجها قد قُتل أثناء الغزوة. وقيل إنها كانت قد تنبأت بهزيمة اليهود على أيدى أبناء المدينة فى منام رأته، وكانت على استعداد كامل لاعتناق الإسلام. وتم الاحتفال بالزفاف فى النصف الأول من رحلة العودة إلى المدينة.

وعندما رجع المسلمون إلى المدينة، كان بعض المسلمين الآخرين قد عادوا من الحبشة، ومن بينهم جعفر ابن عم النبى، وقد عانقه محمد بعد غيبة طويلة، إذ كان قد شاهده آخر مرة قبل ثلاثة عشر عاماً وهو بعدُ فتى فى السابعة والعشرين. وقبّله محمد فى جبينه وقال له: «ما أدرى بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟» كما أبدى ترحيبه بوصول زوجة أخرى من

زوجاته. ففى وقت سابق من ذلك العام كان قد سمع أن قريبه وصهره عبيد الله بن جحش قد توفى فى الحبشة. وكان عبيد الله، على نحو ما ذكرنا، من الموحدين بالله قبل بعثة محمد، ولكنه فجع الجالية الإسلامية فى الحبشة بارتداده عن الإسلام واعتناقه المسيحية. وقرر محمد أن يتزوج أرملته واسمها رملة، والتى يشار إليها عادة بكنيتها وهى أم حبيبة، وهكذا فما إن انتهت فترة الحداد حتى عُقِد عَقْد الزواج عليها بالوكالة أمام النجاشى ملك الحبشة. والواضح أن ذلك الزواج لم يكن قائماً على الحب بل كان خطوة سياسية بارعة، لأن أم حبيبة كانت بنت أبى سفيان. وتم إعداد مسكن لها بجوار المسجد، وما إن وصلت إلى المدينة حتى استقرت فيه، بينما ظلت صفية تقيم فى منزل قريب حتى تم تجهيز كوخها الخاص بها.

وعندما سمعت عائشة بهذه الزوجة الجديدة شعرت بما يشبه القهر، فلم تكن أم حبيبة تمثل خطراً عليها، ولكن الفتاة اليهودية كانت رائعة الجمال. وعندما سأل محمد عائشة عن رأيها فى صفية لم تلجأ إلى المواراة أو تدبر ما تقول، فقالت له إنها لا تفهم سر الاهتمام الشديد بها، فاليهوديات متساويات، ولكن محمداً طلب منها ألا تقول ذلك لأنها أسلمت فحسن إسلامها. ومرت صفية بفترة عصيبة أول الأمر فى علاقتها بزوجات النبى اللائى لم يلبثن أن عايرنها بأبيها حُيَىّ. وذات يوم جاءت إلى محمد باكية فقام بتهدئة روعها وقال لها أن ترد عليهن قائلة إن أباها هارون وعمها موسى[٣٥]. ولكن الصداقة ربطت بينها وبين عائشة آخر الأمر، وأصبحت الزوجات الشابات الثلاثة ـ عائشة وحفصة وصفية ـ يشكلن «ثلاثية» تتميز عن الأخريات.

وقضى المسلمون بقية العام فى غزوات عادية، قاموا ببعضها بناءً على طلب الحلفاء اليهود الجدد فى الشمال. وعندما حل ذو القعدة وهو الشهر الحرام، الذى كان يوافق مارس ٦٢٩، حان موعد قيامهم مع محمد بالعمرة

إلى الكعبة، طبقاً لمعاهدة الحديبية. واصطحب محمد فى هذه الرحلة ٢٦٠٠ معتمر، وعندما اقتربوا من بيت الله فى مكة، جَلَتْ قريش عن البلدة وفاءً بوعدها حتى يتمكن المسلمون من زيارة الأماكن المقدسة فى سلام. واصطف رؤساء قريش على قمة جبل أبى قبيس يشهدون هذا المشهد الغريب وقد عقد الخوف ألسنتهم. وبدأ تدفق الفوج الكبير من المعتمرين، يرتدون ملابس الإحرام البيضاء، إلى داخل البلدة المقدسة، وعلى رأسهم محمد راكباً راحلته قسوة، وترددت فى الوادى أصداء أصواتهم وهم يقولون: «لبيك اللهم لبيك!» وعندما وصل محمد إلى الكعبة نزل محمد عن راحلته وقبَّل الحجر الأسود، وعانقه ولامسه، ثم بدأ الطواف ومن خلفه جميع المعتمرين. واستكمالاً لمناسك العمرة، وهى التى تختلف عن الحج فى أنها لا تتضمن الوقوف بعرفات ولا زيارة وادى منىً، قام المسلمون بالسعى بين الصفا والمروة سبع مرات.

لابد أن الإحساس بالغربة الشديدة كان يخامر محمداً والمهاجرين عندما عادوا إلى البلدة المهجورة، ولابد أن قريشاً قد أفزعها أن ترى بلالاً، الحبشى الأسود الذى لم يكن سوى عبد فى بلدتهم، وهو يصعد إلى سطح الكعبة ويؤذن للصلاة ثلاث مرات فى اليوم. وقام العباس، عم النبى، بدخول البلدة لزيارة ابن أخيه وتزويجه من أخته ميمونة، التى كانت قد ترملت قبل فترة قصيرة. وقبل محمد الزواج منها، وقد يكون دافعه حث العباس على الدخول فى الإسلام أخيراً، ثم دعا قريشاً لحضور حفل زفافه. ولكن ذلك كان لوناً من التمادى الذى لم تقبله قريش، فنزل سهيل من قمة جبل أبى قبيس وقال لمحمد إن الأيام الثلاثة قد انقضت وإن عليه مبارحة البلدة على الفور. وغضب سعد بن عبادة، أحد المهاجرين الذين كانوا مع النبى آنذاك، واعترض على ما أبداه سهيل من فظاظة ولكن محمداً أسكته على الفور ونصحه بعدم إهانة من جاء لزيارتهم فى مخيمهم[٣٦]. ودهشت قريش حين

شاهدت جموع المسلمين كلها وهى ترحل عن البلدة مع هبوط الظلام، وكان النظام الذى تسير به يبدو بعيداً عن تصور أبناء مكة، إذ كانت الفُرقة والفوضى بينهم من العوامل التى أدت إلى سقوطهم.

وكانت تلك العمرة بمثابة إنذار لبعض شبان قريش، فلقد كانت نصراً معنويًا هائلاً للمسلمين وكان الناس يناقشون أبناءها بتلهف فى شتى بلاد العرب. كان مصير البلدة قد تحدد منذ تلك اللحظة، فازداد عدد الأعراب الذين تحالفوا مع محمد، وقام كثيرون من شباب مكة بالهجرة إلى المدينة. وكان لإسلام اثنين منهما دلالة خاصة، إذ كان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قد أصبحا أهم مقاتلى مكة بعد بدر، ولكنهما باتا يريان أنهما لم يعد لهما مستقبل فى مكة. وقال خالد: «استقام المنسم، وإن الرجل لنبىّ، أذهبُ والله فأُسلم»(٣٧) (ابن هشام جـ ٣ ـ ١٧٤). وكان العون الإلهى، فيما يبدو، هو التفسير الأوحد للنجاح الفذ الذى حققه محمد. وقيل إن خالداً وعَمْراً قد هاجرا معاً ولقيا الترحيب فى المدينة. وكان خالد قلقاً من أن يقف ماضيه فى سبيل هدايته، إذ كان من كبار القُوّاد فى غزوة أحد وغزوة الخندق، وكان قد قتل كثيراً من المسلمين ويخاف الثأر. ولكن محمداً أكد له أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ويمثل بداية جديدة تماماً. وكان ذلك من المبادئ الأساسية للأمة، إذ لم يكن معناه يقتصر على بداية روحية جديدة فحسب، بل كان الأسلوب الوحيد الذى يمكن للإسلام به أن يفرض السلام فى بلاد العرب.

كان العام عام نصر مبين لمحمد، ولكنه كان عام حزن كذلك. فبعيد العمرة توفيت ابنته زينب، وبعد فترة من العام نفسه استشهد اثنان من أفراد أسرته فى غزوة على الحدود السورية. وكان النبى يزيد من تركيز اهتمامه بالشمال فى السنوات الأخيرة من حياته. ولسنا واثقين كل الثقة من الأسباب التى دفعته إلى ذلك، ولو أن الأوضاع السياسية خارج بلاد العرب كانت قد شهدت تغيراً كبيراً. كانت بلاد فارس وبيزنطة تشتبكان فى حروب طاحنة لم

تتوقف على امتـداد عقود طويلة، وكان نجم الفرس فى صعـود فى بداية بعثة محمد فقاموا بغزو سوريا وحصار القسطنطينية. ولابد أن ذلك قد أقلق قريشاً ودفعهم إلى التشكك فى جدوى حيادهم. ولكن كفة الصراع كانت قد بدأت تميل لصالح بيزنطة فاستطاع هرقل فى عام ٦٢٥، وهو العام الذى شهد غزوة أُحد، من صد جحـافل الفرس بل شرع فى غزو أراضيهم نفـسها. فلو تمكن محمـد من إحلال عرب الشمال محل الإمـبراطورية المسيحيـة، فربما استطاع الوقوف فى وجه البـيزنطيين والساسانيين جـميعاً، ويبـدو أنه كان يحاول فى هذه السنوات الأخـيرة أن يشـعر الناس بوجـوده على الحدود، وأن يجـتذب القبائل المسيحية فى الشمال إلى الانضمام إلى الأمة، على نفس الأسس التى انضمت بها المستوطنات اليهودية.

وعلى أى حال فقـد أرسل محمد زيداً وجعفـراً إلى الحدود السورية على رأس جيش كبير يتكون من ثلاثة آلاف رجل. ومـايزال الغموض يحيط بهذه الغزوة، ومازلنا نفتقر إلى الكثيـر من المعلومات الأساسية. ويبدو أن المسلمين علموا أثناء مسيرتهم بـأن هرقل على مقربة منهم على رأس جيش يتكون من مائة ألف رجل. ولكنهم قرروا المضى فى المسيرة، حتى تعرضوا للهجوم عند قرية مـؤتة، على البحر الميت، فـيما يعرف الآن بالأردن، من جـانب إحدى فصائل البـيزنطيين. وقُتل فى هذا الهجـوم زيد وجعفر، وعـشرة آخرون من المسلمين، ومن ثم قرر خالد، الذى كان قـد خرج مع الغزاة، العودة بالجيش إلى المدينة.

وعندما سمع محمد هذه الأنبـاء، اتجه من فوره إلى أسرتى زيد وجعفر. وتَذْكُـرُ أسمـاء، زوجة جـعفـر، أنها كـانت تخبـز الخبـز حين وصل النبى وحدست من التعبير المرتسم على وجهه أن شيئاً رهيباً قد وقع. وطلب محمد أن يرى ابنىْ جعـفر، وما لبث أن أقـعى إلى جوارهمـا واحتضنهـما وبكى. وبدأت أسـماء فى الصـراخ والعويل والنواح بالأسلوب العـربى التقلـيدى،

وأهرعت إليهـا النساء. وقبل أن يخرج مـحمد طلبَ منهن التأكـد من رعاية الأسرة وإحـضار الطعام إليهـا فى الأيام القليلة التاليـة. وفى أثناء عودته إلى المسجد خرجت إليـه ابنة زيد الصغيرة من منزلها وألقت بنفسـها بين ذراعيه، فحملها محمد ووقف فى الطريق، وطفق ينهنه رغماً عنه.

ونحن لا نعرف بدقة السبب الذى حدا بخالد إلى العودة بالجيش، مادامت الخسائر البشرية كانت طفيفة نسـبياً، ولكن الصبيان تلقوهم عند وصولهم إلى المدينة بالسـخرية والصيـاح من فرارهم، فكان على محـمد أن يبـسط عليهم جناح حمايتـه القوى. ورُدَّت الكرامة بعد نحـو شهر، عندما قـام عمرو بن العاص بقـيادة حمـلة أخرى لغزو قـبائل الشمـال التى كانت فـيما يبـدو قد احتشدت على الحدود، ونجح عمرو فى حملها على الفرار.

ولكن ذلك العام شـهد حدثاً كان مصـدر سرور على المستوى الـشخصى لمحمد، إذ قيل إن المقوقس حاكم مصـر أرسل إليه جارية مصرية جميلة ذات شعر أجـعد، وكانت قبطية مسـيحية اسمـها مارية، فاتخذها محـمد سُرِّية، وكان يزورها كل يوم ويقضى المزيد من وقته معها، وربما وجد فى ذلك راحة له من جو الغيـرة بين زوجاته. وكان من المستبعـد أن يجد أحد فى ذلك أى غـرابة، فقـد نصت التـوارة على السـرارى عندما كـانوا بنو إسـرائيل يمرون بالمرحلة الانتقالية نفسها، من حياة الترحال إلى حياة الاستقرار. وكان إبراهيم الخليل نفـسـه قد اتخـذ هاجـر سُـرِّيّة، وكان إسـمـاعيل أبو الـعرب ثمـرة لارتباطهما. ومن ثم فلابد أن حمل مارية قد بدا بشير خير، وعندما ولد ابن محمد فى العام التالى أسماه إبراهيم.

وعلى نحو ما يتـوقع المرء، شعرت زوجاته بغيـرة شديدة من تلك النكرة الصغيرة التى تحمل طفل النبى. وقامت عائشة وحفصة بتنظيم احتجاج وتمرد بين الزوجات. ومن الصعب أن نفهم الحادثة الغريبة التالية، وهى التى تسببت فى أزمة كبـرى، وربما كانت لها دلالات أكبر مما توحى به الوقـائع. والقصة

التى بين أيدينا تُنْسب لعمر بن الخطاب، وكانت له فى المرأة آراؤه الصارمة، فكان يقول بأن المرأة يجب أن تُشاهد ولا تُسمع، وكان يرى أن زوجات المهاجرين بدأن فى اكتساب عادات سيئة من نساء المدينة. ولكن محمداً كان أكثر رفقاً وليناً مع النساء، وانزعج عمر ذات يوم حين سمع ضجيجاً وصخباً شديداً صادراً من منزل النبى، وكانت الزوجات آنذاك يتشاجرن حول تقسيم بعض الغنائم ويطالبن محمداً فى إصرار على أن يزيد من نصيب أسرته منها على نصيب سائر الأمة. ونادى عمر محمداً وطلب منه الإذن بالدخول، ولم يلبث أن ساد الصمت. وعندما دخل وجد النبى قد تملكه الضحك، إذ حالما سمعت النساء صوت عمر حتى أهرعن فى رعب إلى الحجاب. وقال عمر بنبرات صارمة إن الأَوْلى بزوجات النبى أن يُبدين احتراماً مماثلاً للرسول، وصاح فى النساء اللائى كن يقبعن خلف الستار قائلاً إنهن يعادين أنفسهن، فهل يخفن من عمر ولا يخفن من رسول الله؟ وقالت إحدى الزوجات إن ذلك صحيح، فعمر يتميز بلغظة وشدة أكثر من رسول الله(٣٨).

وكان عمر قد ساوره القلق من قبل على سلوك ابنته حفصة الذى تجاوز الحدود، وقال لها إنها يجب أن تضع حداً لغيرتها وأن تتقبل الواقع الذى يقول مثلاً إنها ليست فى جمال عائشة. ولكن حفصة أكثرت من الحديث عن مارية حتى وعد محمد، إرضاءً لها، ألا يرى مارية مرة ثانية، ولكنه اكتشف أن الأحوال لم تتحسن. وكانت عائشة وحفصة تحضان زوجات النبى على التهكم من مارية ضاحكات، كما استمرت المشاحنات فيما بينهن. وبلغ الاستياء بمحمد من هذا الجو الكدر أن قرر هجر زوجاته جميعاً شهراً كاملاً.

ولكن الشجار المذكور بين الزوجات كان يشير فيما يبدو، وعلى نحو ما تشير إليه معظم حكايات الزوجات، إلى مشكلة نشبت بين سائر أبناء الأمة. إذ بدأ المسلمون بعد صلح خيبر يتمتعون برفاهية لم يعهدوها من قبل. وتقول عائشة إنها لم تكن تعرف قبل خيبر معنى الشبع من التمر. ولكن الثراء

الجـديد جـاء ومعـه مـشكلاته، فكان بعض المزارعـين يتوقـون إلى الراحـة والاستمـتاع بالثروة، بينما بدأ آخـرون يدبرون للحصول على قـسط أكبر من الغنائم أو فيء الغـزوات، ويبدو أن أسرة مـحمد بدأت تطلـب بعض الهدايا الخاصـة التى كان يعطيهـا للفقراء. وكـان محمد فـى قلق بالغ إزاء الضعف المعنوى الذى تؤدى إليـه الرفاهية، خـصوصاً بين زوجـاته، وهو القلق الذى يظهر فيـما رواه عمر عن هَجْر محـمد لزوجاته، إذ ساء المسلمين جمـيعاً أن يسمعوا أن محمداً قد انعزل عن زوجاته، وأصبح ذلك حديث الجميع، حتى احتشد حشد خارج المسجد الصغير، وعيونهم معلقة فى توتر بالغرفة الصغيرة على السطح حيث يعتكف مـحمد، ويذكر عمر أن شخـصاً ما أهرع إليه فى منزله ليبلغه الخبر، وجعل يطرق الباب بصـورة عاجلة ملحة جعلته يتصور أن خطباً هائـلاً ألم بالمسلمين، لا يقل عن قيـام قبائل الشـمال بحـصار المدينة. وقال له الزائر إن ما حدث أفدح وأعظم إذ إن محمداً سرّح جميع زوجاته!

لم تكن تلك أزمة عائـلية محضة، فـزيجات محمد كـانت تمثل تحالفات سيـاسية تم التـخطيط لها بعناية. ولو أنه طلق عائشـة وحفصـة لأضر ذلك بعـلاقته بأبـويهما أبـى بكر وعمـر. وهكذا تعرض كل شىء للخطر بسـبب مهاترات حفنة من النساء. وقد تكون للأزمة أسـباب نجهلها تتعلق بصراعات داخلية فى المدينة امـتد تأثيرها إلى زوجـات النبى. وأسرع عمر إلى المسـجد على الفور ليرى مـا يمكنه أن يفعل، ولكن محمداً رفض مقـابلته أول الأمر. وعندما سمح له النبى بالدخول، نظر حوله، فيما يذكر، فلم يجد فى الغرفة الصغيرة المتواضعة سوى ثلاثة جلود غير مـدبوغة. وكان محمد يرقد مهموماً على حـصير، دون غطاء، وكـان أثر الأسل المنسوج فـى الحصيـر بادياً على خده. وانقـشع قلق عمـر عندما علم أن محـمداً لن يطلّق نسـاءه، واستطاع تدريجياً أن يدفع النبى إلى الابتسام عندما قص عليه طرفاً من الصعوبات التى يكابدها هو مـع النسـاء منذ هاجـر الجـميـع إلى المدينة، حـيث تعـذر على

الرجال، فيما يبدو، تطويع سلوك زوجاتهم. وعندما زال التوتر عن محمد آخر الأمر جلس عمر إلى جواره على الأرض وسأله عن عدم سماح الله لرسوله بإتاحة بعض المتع لزوجاته، مادام أباطرة بيزنطة وفارس يعيشون فى رفاهية بالغة. ولكن محمداً أنّبه قائلاً إن الأباطرة نالوا سعادتهم فى هذه الدنيا.

قد نجد هذه القصة عسيرة الوقع على آذاننا اليوم بسبب عناصر تعصبها للرجال، ولكن تتعلق بمواجهة النزعة المادية المتزايدة فى الأمة أكثر مما تتعلق بالغيرة بين الرجل والمرأة. فلقد احتجب محمد عن زوجاته شهراً ثم خيّرهن بين أمرين: إما قبول شروطه والحياة الإسلامية المتواضعة، وإما الطلاق والتسريح بالمعروف. والجدير بالذكر أن آيات التخيير، حسبما يطلق عليها المفسرون، لا تشير إلى مارية أو غيرة النساء، بل إن الآيات تركز على الموقف من الترف والبضائع المادية:

﴿ا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْن أمتعكنّ وأسرّحْكنّ سراحاً جميلاً، وإن كنْتنّ تُردْن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً﴾[٣٩] (الأحزاب: ٢٨ و٢٩).

ووافقت النساء على هذه الشروط، وازدادت أهمية زوجات محمد منذ تلك اللحظة فى الأمة، وأطلق عليهن القرآن صفة «أمهات المؤمنين» وقضى بألا يتزوجن ثانياً بعد وفاة الرسول، ليس بسبب غيرة من أزواج المستقبل، ولكن مثل هذه الزيجات يمكن أن تنجب أسراً وقبائل تفصم عرى الأمة.

والواقع أن القرآن يقدم بعد آيات التخيير صورة تتسم بالمزيد من الإيجابية للعلاقة بين الجنسين فى الأمة، إذ تبين أن الرجال والنساء يتقاسمون واجبات الإسلام ومزاياه، جنباً إلى جنب، فى مجتمع العدل:

﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات

والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[٤٠] (الأحزاب: ٣٥).

وقد يكون المسلمون المتأخرون قد ابتعدوا أحياناً عن هذه الرؤية القرآنية للمساواة، ولكن الأَوْلى بدعاة نُصرة المرأة فى الغرب، ممن يتهمون الإسلام بكراهية المرأة، أن يتأملوا مدى السلبية الشديدة فى التقاليد المسيحية إزاء المرأة. فالعهد الجديد يقدم أساساً رسالة إيجابية للنساء، ولكن الواقع أن الإنجيل لم يكن على مر القرون يحمل أنباء طيبة «للجنس الثانى»[٤١] وكانت الكراهية المسيحية للمرأة تتسم بنزعة عُصابية خاصة لأنها تقوم على أساس رفض الحياة الجنسية، وهو رفض تتفرد به المسيحية بين أديان العالم، وهو قطعاً لا يعيب اليهودية ولا الإسلام. وليس من الإنصاف أن نلوم محمداً أو الإسلام بتهمة كراهية المرأة، فإذا كانت النساء المسلمات اليوم يرفضن بعض الحريات التى نشعر أننا قدمناها إليهن، فلا يرجع سبب ذلك إلى العناد، بل إلى التخبط فى النظرة الغربية إلى المرأة، وفى العلاقات بين الجنسين. فنحن ندعو إلى المساواة وإلى التحرر، ولكننا فى الوقت نفسه نستغل المرأة ونمتهنها فى الإعلانات وفى الكتابات والفنون الإباحية، وفى كثير من أشكال الفرجة الشعبية بأسلوب يستهجنه المسلمون ويتأذون منه.

والمحتوم أن يهتم الرواة بأنباء التوتر والتحزّب بين زوجات محمد أكثر من اهتمامهم بالحياة اليومية لهن، ولكنا نخطئ إذا تصورنا أن تلك الحياة كانت تفتقر إلى الحب أو إلى السعادة. وعندما قرأ محمد آيات التخيير على عائشة، طلب منها أن تُمْعِن النظر وأن تفكر ملياً قبل اتخاذ قرارها، وطلب منها أيضاً أن تستشير والديها. ولكن عائشة رفضت ذلك فوراً قائلة إن الأمر لا يحتمل التفكير، فهى قطعاً تختار الله ورسوله. كانت عائشة تتسم بالغيرة الشديدة وأحياناً ما كانت تتحسس الأخبار لتتأكد أن زوجها لا يقضى وقته مع غيرها.

ولابد أن حمل مارية قـد آلمها ألماً شديداً، وكانت جمـيع الزوجات الأخريات قـد خملن من أزواجـهن السابقين، ولـكن عائشـة لم تنجب أطفالاً. وقـد وصلتنا رواية تثير الأسى إذ تقـول إنها طلبت من محمد أن يطلق عليـها كُنْيةً مثل الأخريات، فأطلق عليها كنيـة أم عبد الله، لأنها كانت تحب ابن أخ لها حـمل ذلك الاسم. ولكن من الخطأ الظن بـأن حيـاتهـا كـانت تفتـقـر إلى السعادة، لأن محمـداً كان زوجاً متسامحاً وكان يفـوق أباها فى عطفه ورقته تجاهها، فالمعـروف أن أبا بكر كان يضـرب بناته، أما مـحمـد فكان، على إصراره على حياة التقشف لزوجاته، دائمـاً ما يساعدهن فى الأعمال المنزلية، وكان يعتمد على نفسـه فى كل شئونه، فكان يصلح ويرقع ملابسه، ويصلح أحذيتـه، ويعتنى بالماعـز، وكان يحـاول تعليم المسلمين وتربيتـهم على زيادة احتـرام المرأة. ومما يُثبت تقبل الناس لـرسالته أنهم قـد حفظوا التقـاليد التى أرساها فى وقت كان أغلبـية البشر فى أغلب الديانات يسـتنكرون اهتمام نبىّ عظيم بالأعـمـال المنزليـة، ولو أن بعض المسلمين مـثل أبى بكر وعـمر قـد استحال عليهم تبديل عاداتهم.

لم تستطع أى زوجـة أن تملأ الفراغ الذى تركـته خديجـة، ولكن يبدو أن حياة مـحمد مع عائشة مكّنتْـه من الاطمئنان والتبسط. فـقد دعاها ذات يوم مثلاً إلى التسابق معه، وعندما فاز فى السباق صاح برنة انتصار قائلاً إنهما قد تعادلا الآن، مشـيراً بذلك إلى أنها انطلقت تجرى أمـامه وهى طفلة فى مكة ولم يستطع اللـحاق بها. ولكن عـلاقتهـما المنزلية كـانت تتميـز أيضاً بدفء كبير، فكـانت عائشة تحب أن تضع الطِّيب الذى يفضله محمـد على شعره، وأن تغتـسل من الإناء الذى يغتسل منه وتشـرب من الكأس نفسهـا. وكانت تحب أن ترعاه فى مرضه، ولو أنها لم تكن تتردد فى إغاظته إذا رأت أنه يدلل نفسه أكـثر مما ينبغى. وذات يوم كان يـجلسان معاً وقد شُـغل بإصلاح خُفٍّ له، فشاهدت وجهه وقد أشـرق لفكرة عابرة خطرت له، فهنأته على الفرحة

التى أضاءت ملامحه. فنهض محمد وقبلها فى جبينها ودعا الله أن يجزيها عنه خير الجزاء، قائلاً إنها تدخل من السرور على قلبه ما لا يستطيع إدخاله من السرور على قلبها(٤٢).

ولكن عائشة كانت تتمتع بنظرة جدٍّ وذكاءٍ وقّاد. وجاء فى الأثر أن محمداً كان يطلب من المسلمين، حين يضطر للغياب عن المدينة، أن يستشيروا عائشة فى أية مشكلات دينية قد تعنُّ لهم. وأصبحت من الثقات بعد موته فيما يتعلق بالسيرة والسنة، وهو أمر يدعو للدهشة أيضاً إذا تذكرنا أن الخلفاء أبا بكر وعمر وعلياً لم يكونوا يشاركون النبى احترامه للمرأة. وقد نُسب عدد كبير من الأحاديث النبوية يبلغ ٢٢١٠ إلى عائشة، وإن كان البخارى ومسلم، اللذان جمعا الأحاديث الصحيحة فى القرن التاسع، لم يتمكنا من إثبات معظمها، ولم يقبلا إلا ١٧٤ حديثاً قيل إن عائشة قد أخذتها مباشرة عن النبى. كما كان لها دورٌ بالغ الأهمية إبان القلاقل السياسية التى شهدتها الإمبراطورية الإسلامية فى أيامها الأولى، وقامت بالثورة على علىّ أثناء خلافته. لم يسحق الإسلام المرأة على نحو ما يتخيله الناس فى الغرب. وقد انتهى بعض الباحثين إلى أن الإسلام قد مكّن المرأة من النهوض بدور كان من المحال عليها أن تنهض به فى الجاهلية.

وفى أواخر العام انتهك أهل مكة صلح الحديبية، ومن ثم عرّضوا أنفسهم من جديد للهجوم. كانت قبيلة بكر قد ظلت حليفة لقريش ولكنها كانت على امتداد عقود طويلة من الأعداء الألداء لخزاعة التى انضمت إلى حلف محمد. وفى نوفمبر عام ٦٢٩ قامت إحدى عشائر بكر بمهاجمة خزاعة ليلاً فى مرابضها، وكان الهجوم مفاجئاً، ويبدو أن بعض رجال قريش قد ساعدوا فى هذا الهجوم وعضّدوه، إذ أمدوا بكراً بالسلاح، كما قيل إن صفوان شارك فى القتال. وثأرت خزاعة على الفور لقتلاها ونشب القتال بين القبيلتين فى بيت الله الحرام بمكة، فاستنجدت خزاعة بمحمد فوافق على السير إليهم لنجدتهم.

وما لبث بعـض رجال قريش أن ترددوا فى مـوقفهـم من بكر، إذ أدركوا أنهم قد قدمـوا ذريعة صحيـحة لمحمد للهـجوم على مكة. واستمـر صفوان وعكرمة يُبديان العداء والتشدد والتـحدى، ولكن الآخرين، حتى سهيل الذى كانت أمه من خـزاعة، كانوا ينادون بالتنصل من بنى بكر. وكان محـمد قد بثّ العيون وجاءتـه الأخبار، فقال ذات يوم لأصحابه إن لهـم أن يتوقعوا أن يروا أبا سفيان عما قريب فى المدينة. ومن المحـتمل أن أبا سفيان كان قد بدأ يدرك، منذ هزيمتـه فى غـزوة الخنـدق، أنه من العـبث مـواصلة العـداء مع محمد، خصـوصاً بعد مصاهرته له بزواج محمد من ابنته أم حـبيبة. وصدق محمد إذ لم يلبث أبو سفيان، بُعيد خرق الهدنة، أن وصل إلى المدينة يطلب الصلح ـ وهو ما لم يكن ليجول بخاطر أحد قبل عامين.

وقد وردتنا روايات مختلفة عن المبادرة السلمـية التى قام بها أبو سفيان فى المدينة. إذ قيل إنه زار ابنته أم حبيبة ليطلب منهـا التأثير على محمد، ولكنها لم تسمح له حتى بالجـلوس على فراش النبى. ولكننا لا نرجح هذه الرواية، لأن محمداً لم يكن يستمتع بهذا اللون من التبجيل والتوقير فى حياته. وتقول الرواية الثانية إنه طلب المشورة من أبى بكر، وعـمر، وعثمان، وعلى، وهى رواية نتشكك فى صحتهـا بعض الشىء، لأنها تقول إنه زار وخاطب الخلفاء الراشدين الأربعة بتـرتيب توليهم الخلافة. ولكن المقطوع به هو أن أبا سـفيان اضطلع بدور بالغ الأهميـة فى تلك الآونة، فإذا كان قد تعـذر عليه الدخول فى الإسلام آنذاك، فلقـد كان يدرك أن نصر الـنبى محتـوم فى النهاية، وأن على قـريش أن تعقـد الصلح معـه بأفضل شـروط ممكنة. وكان يحـاول هو وسهـيل تخليص أهل مكة من المشاركة فى النزاع بطرح مـسئوليـتهم عن بنى بكر، استناداً إلى نفس النقطـة الفنية التى استند إليهـا محمد قـبل ذلك بعام واحد فى مـسألة أبى بصـير. ولكن قـريشاً لم تكن تملك من القـوة الآن ما يمكّنهـا من النجاح فى ذلك، فـاقتـرح علىٌّ على أبى سـفيـان أن يطلب من

محمد الموافقة على أن «يجعل له شيئاً» يفخر به، باعتباره قادراً على إجارة أى مكىّ يريد الاستسلام لمحمد. وكان من شأن ذلك أن يحفظ ماء وجوههم وينجيهم من القتل إذا قام المسلمون بفتح مكة، لأن معناه عدم الاستسلام لمحمد مباشرة بل لرجل من رجالهم.

ووافق أبو سفيان على أن يفكر ملياً فى الأمر ورحل إلى مكة، ومن المحتمل أنه بذل جهداً كبيراً فى تهيئة رفاقه فى القبيلة لتقبل المصير المحتوم. وبعد رحيله بدأ محمد فى الاستعداد لحملة جديدة، فدعا الأمة وحلفاءها للالتحاق بجيش المسلمين. أما مقصد الحملة فقد ظل سراً محوطاً بالكتمان الشديد، لأسباب أمنية، ولو أن الناس كانت تحاول أن تحدس وجهتها وقد أثارت الأنباء حميتها. وفى العاشر من رمضان عام ٦٣٠م انطلق محمد على رأس أكبر جيش يغادر المدينة المنورة فى تاريخها، إذ تطوع للالتحاق به جميع رجال الأمة تقريباً، وانضم إليهم الأعراب من حلفائهم على طول الطريق حتى بلغ عدد أفراد الحملة عشرة آلاف رجل، ولكن أحداً لم يكن يعلم علم اليقين وجهتهم. كان من الممكن، بالتأكيد، أن يكونوا يقصدون مكة، لكنه كان من المحتمل أيضاً أنهم يقصدون مهاجمة بعض القبائل الجنوبية فى الطائف، وهى التى ظلت على عدائها للإسلام. وقد خطر ذلك الاحتمال لقبيلة هوازن المقيمة جنوب المدينة عندما سمعوا أن جيش محمد كان متجهاً إليهم، ومن ثم شرعوا فى حشد جيشهم الكبير فى الطائف، مدينة اللات ومعقل الشرك. أما فى مكة فكانت قريش، بطبيعة الحال، تخشى أسوأ العواقب. وتوسل إليهم العباس أن يحاولوا درء الكارثة قائلاً: «واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوا فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر»[٤٣] (ابن هشام: جـ٤ ـ ٢٧٦). وانطلق ليلاً للحاق بمحمد، وأدرك فى الطريق أبا سفيان وبُدَيْلا، رئيس خزاعة، اللذين كانا متجهين أيضاً إلى معسكر المسلمين. وقضى الثلاثة ليلتهم هناك، وفى

الصباح سأل محـمد أبا سفيان إن كان على استـعداد لدخول الإسلام. وقال أبو سفيــان، إنه يقر بالجزء الأول، أى بشهــادة ألا إله إلا الله، بعد أن أثبتت آلهة الشرك أنهــا لم «تُغْن عنه شيئاً»، ولكن كان مـا يزال فى نفسه شىءٌ إزاء الشهادة الثانية، وهى أن محمـداً رسول الله. ولكنه عندما شاهد جميع أفراد الجيش الجرار يركعون ويسجـدون فى صلاة الصبح وقد يمموا وجوههم شطر مكة وعندما شاهد شتى القبـائل وهى تمر به فى طريقها إلى مدينته، أيقن أن قريشاً لابد لها من الاستسلام.

وأهرع عائـداً إلى مكة حتى إذا جـاءهم صرخ بأعلى صـوته: «يا معـشر قريش! هذا مـحمد جاءكم فـيما لا قـبل لكم به» (ابن هشام: ٤/٢٧٩) ثم عرض عليهم الخيار الذى اقترحه على بن أبى طالب وهو أنه سوف يجير كل من يريد الاستسلام، وأن محمداً سـوف يفى بما تعهد به لأبى سفيان فى هذا الشأن، فمن دخل دار أبى سـفيان فهو آمن، ومن أغلق عليـه بابه فهو آمن، عندمـا يصل جـيش المسلمين. ولكن هنداً، زوجـته، بلغ بـها الغـضب كل مبلغ، فأمسكتْ بشاربه وصاحت فى الناس «اقتلوا الحميث الدسم الأحمس! قُبِّح من طليعة قوم!»(٤٤) (ابن هشام: ٤/٢٧٩) ولكن أبا سفيان توسل إليهم ألا ينصتـوا لها، فقـد انقضى زمن ذلك التـحدى والعناد، مؤكـداً أنه شاهد جيشاً لا قبل لقريش به. وكـانت قريش تؤمن بالمذهب الواقعى حتى النهاية، ولم تكن بالتأكـيد ترغب فى واقعة انتحـار جماعية فـى بلاد العرب، فذهب الناس إلى دورهم وأغلقوا أبوابهم عليهم رمزاً لاستسلامهم.

ولكن البعض كان يريد القـتال، فاجتمع عكرمة وصـفوان وسهيل، على رأس قوة صغيرة على جبل أبى قيس، وهاجموا اللواء الذى يقوده خالد أثناء دخوله مكة، ولكنهم سرعان ما انهزمـوا ففر عكرمة وصفوان من مكة، وقرر سهيل أن يستسلم فعـاد إلى داره. ودخل سائر جيش المسلمين مكة دون قتال على الإطلاق. وكانت خيمـة محمد الحمراء قد ضـربت بالقرب من الكعبة،

فلحقت به أم سلمة وميمونة، الزوجتان اللتان صاحبتاه، مع عليّ وفاطمة. وبعد أن استقر بهم المقام بقليل وصلت أم هانئ، أخت عليّ بن أبى طالب، وكانت زوجة أحد المشركين ولم تهاجر مع مهاجرى مكة، فتشفعت عند النبى لاثنين من أقاربهما كانا قد اشتركا فى القتال ضد خالد. وكان عليٌّ وفاطمة يريدان قتلهما ولكن محمداً وعد على الفور بتأمينهما وإجارتهما. لم يكن النبى يريد الشروع فى أعمال ثأر دموية، ولم يفرض على أحد قبول الإسلام، بل لم يشعر أحد أنه يتعرض لأى ضغط حتى يدخل فى الإسلام. كان محمد لا يريد إرغام الناس بل مصالحتهم.

لم يكن هدفه من القدوم إلى مكة هو التنكيل بقريش بل إلغاء دين الشرك الذى خذلهم. وبعد أن نام قليلاً نهض فتوضأ وصلى ثم طاف بالكعبة سبع مرات على ظهر راحلته قسوة، وكان يلمس الحجر الأسود فى كل مرة ويصيح «الله أكبر!» وكان يردد الصيحة خلفه جنوده، أى عشرة آلاف رجل، وسرعان ما رددت جنبات مكة أصداء الكلمات التى كانت ترمز للنصر النهائى للإسلام. ثم توجه إلى الأصنام المقامة حول الكعبة، وعددها ٣٦٠، وقد ازدحمت بها الشرفات والأسقف، فحطمها واحداً واحداً وهو يقول: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**﴾[٤٥] (الإسراء ـ ٨١). وكانت الجدران داخل الكعبة مزينة بصور للآلهة الوثنية فأمر محمد بطمسها، ولو أنه سمح، فيما قيل، بترك النقوش الجدارية للمسيح والبتول، ولكن الإسلام حرّم فيما بعد استعمال أى نوع من الصور فى العبادة لأنها تصرف الذهن عن الله من خلال التركيز على رموز بشرية محضة للمقدسات.

وكان بعض أهالى مكة قد خرجوا من دورهم واتجهوا إلى الكعبة ولبثوا ينتظرون مغادرة محمد للبيت الحرام. فوقف أمام بيت الله وطلب منهم أن يتقبلوا الأوضاع الجديدة، وعمادها وحدة الأمة، وأن يطرحوا ما أورثتهم الوثنية من فخر وخيلاء وإحساس بالاستغناء بالنفس عن الله، فليس من شأن

ذلك سوى إحداث الفرقة والظلم. وأنهى حديثه بآية من القرآن، فسرها المسلمون فيما بعد بأنها تعتبر إدانة للعنصرية، وهى من الرذائل التى لم يتسم بها الإسلام، إذ قال: «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا هذه الآية:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[٤٦] (الحجرات: ١٣).

ثم أصدر محمدٌ عفواً عاماً، ولم يُدرج فى القائمة السوداء إلا عشرة أشخاص تقريباً كان من بينهم عكرمة (ولم يكن بينهم صفوان، لسبب ما) والذين قاموا بنشر الدعاية المناهضة للإسلام، والذين آذوا أسرة الرسول. ولكن من طلب العفو من بين هؤلاء أجيب فيما يبدو لطلبه.

كانت تلك سياسة حكيمة. فكان محمد يعرف مثلاً أن سهيلاً قد فرّ، وطلب من أصحابه أن يترفقوا فى معاملته قائلاً: «لا أريد أن يتهجم أحد فى وجه سهيل إذا رآه، فليأتِ طائعاً، فلعمرى إنه لذو عقل راجح وشرف، ولن يغفل عن الحق الذى أتى به الإسلام»[٤٧] وبعد أن ألقى محمد خطبته فى الكعبة ذهب إلى الصفا ودعا أهل مكة إلى مبايعته وقبول رئاسته السياسية. واصطفّت قريش، وتقدم منه الناس واحداً تلو الآخر، وكان أبو بكر وعمر يقفان عن يمينه وشماله. وكانت إحدى النساء اللائى وقفن أمامه منقبة، ولكن محمداً عرف من صوتها أنها هند، زوجة أبى سفيان، وكان اسمها فى قائمة المحكوم عليهم بالقتل لتمثيلها بجثة حمزة، وسألها النبى: «وإنك لهند بنت عتبة؟» فقالت فى تحدٍّ: «أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف عفا الله عنك!» واستمر محمد فى استجوابه فسألها إن كانت تتعهد بألا تزنى أو تسرق، وبألا تقتل أولادها، وأجابت هند على ذلك قائلة: «قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم»[٤٨] (الطبرى ٣/ ٦٢).

وقررت هند أن تدخل فى الإسلام، وقالت لمحمد: «يا رسول الله! ليس لك أن تؤاخذنى اليوم بجريرة بعد إسلامى» وتبسم النبى وقال: «اذهبى فأنت من الطلقاء»(٤٩). وسرعان ما رأت زوجها وأبناءها يشغلون مناصب مهمة فى الأمة، جزاءً لأبى سفيان على تعاونه. وقد كُتب لسلالة أبى سفيان أن تؤسس دولة بنى أمية.

وتوسل أقارب صفوان وعكرمة للنبى أن يعفو عنهما، فوعدهما محمد أن يسمح لهما بجرية دخول مكة بشرط أن يقبلا زعامته. وقرر الاثنان العودة، وكان عكرمة أسبقهما إلى الإسلام. وكافأه محمد بأن حياه تحية مودة، ومنع الجميع من أن يذكروا والده (وهو أبو جهل) بسوء. ورغم مبايعة صفوان وسهيل للنبى محمد، فإنهما لم ينطقا حتى تلك اللحظة بشهادة الإسلام (بالشهادتين). وكان من بين الذين ضمّتهم القائمة السوداء رجل صوّره سلمان رشدى فى كتابه «الآيات الشيطانية» وإن كانت الصورة الخيالية التى رسمها رشدى للرسول صورة رجل بارد المشاعر قاسى القلب يهوى الثأر، وهى أبعد ما تكون عن الحقيقة. كان ذلك الرجل، واسمه عبد الله بن سعيد، أخاً فى الرضاعة لعثمان بن عفان، وكان قد هاجر إلى المدينة فى عام ٦٢٢م، ولكنه، فيما يبدو، ارتدّ عن الإسلام. وكان قد عمل كاتباً يُمليه محمد ما ينزل عليه من الوحى، ثم عمد إلى إدخال تغييرات طفيفة فى النص القرآنى، قد يكون دافعها التفكّه أو اختبار النبى محمد، فعندما قرأ الرسول «والله سميع عليم» كتب عبد الله «والله حكيم عليم»، ولم يفطن محمد إلى ما فعله عبد الله الذى هرب بعد فعلته إلى قريش مرتداً عن الإسلام، فاستغلت قريش القصة استغلالاً قبيحاً، وكان القرآن قد قال لمحمد نفسه إنه إذا حاول تغيير النص المقدس وفق هواه فسوف تكون لذلك عواقب قاتلة مدمرة، وإلحاح القرآن على هذه النقطة يؤكد وعى محمد بصعوبة الحفاظ على سلامة رسالته، فالسهو والخطأ من طبائع البشر. وعندما علم عبد الله

أنه قـد حُكم عليه بالإعـدام فرّ مـستنجـداً بعثـمان الذى أجـاره حتى تـهدأ الأحداث التى أثارها الفتح، ومن ثم أتى به إلى محمد سائلاً العفو. وقيل إن محـمداً ظل صامـتاً فتـرة طويلة قبل إلغـاء حكم الإعدام، كمـا قيل إنه لام صحابته فيما بعد على عدم اغتنام فرصة صمته لقتل عبد الله. ولكن عبد الله عاد إلى الإسلام بعد أن رُفع اسمه من القائمة السوداء وسطع نجمه فى الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول.

كان الانتـصار على مكـة بمثابة الفـتح النهائى الذى مـهد له الانتـصاران السابقـان فى بدر والحديبـية. وكلمـة الفتح ـ كـما يدل على معنـاها الحرفى بالعربيـة ـ تشيـر إلى فتح باب جـديد للإسلام، ومن ثم أصبـحت المصطلح الرسمى الذى يطلق على فتوح البلدان. وقـد أثبت الرسول بفتح مكة صدق دعوى نبوته، ولو أن هذا الفـتح قد تحقق دون إراقة دماء فأثبت نجـاح سياسة محـمد السلمـية. ولم تمض سنوات قليلة حـتى قُضى على الوثنيـة فى مكة قضـاءً مبرماً، وأصـبح بعض أعداء محمـد الألداء مثل عكرمة وسـهيل من المسلمين المخلصين المتحمسين للإسلام.

ولم يكتب لمحمد أن يسـتمتع طويلاً بالفتح إذ سـمع أن جيش هوازن قد احتشد له فى الطائف. وهكذا أرسل بُعيد الفتح خالداً إلى نخلة ليحطم صنم العُزّى، وبـعد ذلك أرسل عليّـا ليحطم مـعبد مناة فـى هُذيل. ولكن ثقيـفاً وحلفاءهم عقدوا العزم على إنقاذ اللات، فحشدوا عشرين ألف رجل للدفاع عنها. كانت لحظة خطر تنذر بضياع كل شىء، ولكن قريشاً بعد الفتح كانت على استعـداد للقتال جنباً إلى جنب مع محـمد والمسلمين، إذ كانت الطائف وهوازن من أعدائهم القـدماء. وهكذا تحول محـمد بين عشية وضـحاها من فاتح مكة إلى ذائد عن حماها. والتقـى الجيشان فى وادى حُنين فى آخر يناير عام ٦٣٠م، ولما ينْقَضِ أسبوعان على الفتح. وكاد المسلمون ينهزمون ولكنهم شنوا هجوماً فى اللحظة الأخيرة فأجبروا العدو على الفرار، فلجأ البعض إلى

الاختبـاء فى التلال والبعض الآخر فى مدينـة الطائف ذات الأسوار. وحاول محمد حصار المدينة ولكنه سرعـان ما تبين أنه لن يتمكن من فتحها هذه المرة فعاد أدراجه.

وكان تقـسيم الفىء بعـد غزوة حنين مـثار جدل كـبير أفـصح عنه بعض بواعث التوتر داخل الأمة. إذ إن محمداً كان يريد استمالة خصومه السابقين، مثل أبى سفيـان وصفوان وسهيل، فمنحـهم نصيب الأسد من الغنائم. وبلغ من تأثير ذلك فى صفوان أن أسلم على الفـور، وقال إنه يشهد أن النفس لا يمكن أن تُكِنَّ مثل هذا الخير لو لم تكن نفس نبىّ، وأضاف: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله»[٥٠] واعتنق سهيل الإسلام كـذلك. وكان قد عُرف عنه التـدين دائماً، ثم أصـبح أشد من دخلوا الإسـلام حمـاساً له. ولكن أتـباع محمد الخلصاء، بطبيعة الحـال، لم يرضهم تفضيل هؤلاء عليهم، وخصوصاً الأنصار الـذين رأوا فى ذلك دليلاً على أن عـودة محـمد إلى قـريش سوف تؤدى إلى هجـره لهم، وإلى نسـيـانـه أن الأوس والخـزرج قـد آووه عندمـا خـرج من مكة لاجئاً إليهم. وأنقذ مـحمد الموقف بأن ألقـى خطاباً مؤثراً أقر فيه بما لأهل المديـنة من أيادٍ بيضاء عليه، ووعــدهـم بأن يسـتقـر فى المدينة إلى آخر أيامـه، فانحـدرت الدموع من مـآقى الأنصار وهو يدعـو الله دعاءه الأخير وقال:

«أوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصـار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تَأَلَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكَلْتُكُمْ إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجـعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذى نفس محـمد بيده، لولا الهـجرة لكنت امـرأً من الأنصار. ولو سلك الناسُ شِعْـباً وسلكت الأنصار شـعباً لسلكت شـعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصـار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنـصار»[٥١] (ابن هشام: ٤/ ٣٥٤).

ورضى الأنصار، مؤقتاً على الأقل، ولكن محمداً قام ـ بعد تقسيم الفيء ومبايعة هوازن له، وحشد جيشه ـ بالعمرة إلى بيت الله الحرام فى مكة ثم عاد إلى المدينة.

كان النظام القبلى القديم يعتمد على قيام كل مجموعة بالحفاظ على توازن القوى، وكانت شرعة الأخذ بالثأر تنصّ على أنه إذا قُتل أحد أفراد القبيلة، فلابد من إضعاف القبيلة المعتدية بنفس النسبة تماماً. ولكن محمداً كان قد اكتسب من القوة ما يجعله يتجاوز القيود التى يفرضها هذا النظام، مما فرض حدّاً معيناً من السلم فى بلاد العرب. وكان على قبائل الرُّحّل أن تختار أحد أمرين، إما أن تتحالف مع محمد، أو أن تصبح غنيمة مباحة للأمة التى كانتْ أعداؤُها فى تزايد مستمر هى وحلفاؤها. وعلى مدى العامين التاليين أخذت وفود القبائل تصل إلى المدينة بصورة متوالية. وكان على كل قبيلة أن تعد بتحطيم أصنامها، وتقديم المقاتلين إذا طلب منها ذلك، وأن تمتنع عن مهاجمة الأمة وحلفائها، وأن تدفع الزكاة. وأصبح بعض الأعراب يؤمنون بالإسلام إيمان الخلصاء، ولكن البعض الآخر ظلوا مخلصين للدين القديم فى أعماق قلوبهم، وكان محمد يدرك ذلك إدراكاً كاملاً. وهنا أيضاً لم يبذل الرسول أى جهد لفرض الصورة اللاهوتية الصحيحة، راجياً أن يؤدى الاستسلام السياسى آخر الأمر إلى التسليم الدينى الذى يتطلبه الإسلام. لقد نجح محمد، وحده تقريباً، فى فرض السلام الإسلامى.

كان القتال وشن الغارات من عناصر أسلوب الحياة العربية، وكانت عادة العدوان متأصلة فى النفوس. كما كان محمد يدرك أن عدم تمزيق أوصال السلام الذى تحقق أخيراً يتطلب محاولة الحفاظ على قوة دفع خارجية. ولذلك فعندما ازداد عدد القبائل التى انضمّتْ إلى الأمة أو تحالفت معها ـ ومن ثم حُرّم غزوها على المسلمين ـ حاول محمد توجيه طاقات المسلمين إلى غزو القبائل الشمالية التى ظلت على عدائها للمسلمين وقد حدث ما يشبه

ذلك فى أوربا المسيحية فى القرن الحادى عشر عندما كانت الكنيسة تحاول منع الفرسان واللوردات من مهاجمة بعضهم البعض، وجهدت جهدها لتحقيق ما أسمته السلام الإلهى. وانتهى الأمر بأن قام البابا أوربان الثانى فى مجلس كليرمونت عام ١٠٩٥ بحثّ المسيحيين على توحيد صفوفهم لدحر العدو المشترك فى الأرض المقدسة، ومن ثم دعا إلى شن الحملة الصليبية الأولى ضد «الكفار» المسلمين، بحيث يسود سلام الله فى الغرب، وتنشب حرب الله فى الشرق الأوسط.

وفى أكتوبر ٦٣٠م أعلن محمد عن غزوة جديدة، ولكنه أحاط الجميع علماً هذه المرة، خلافاً لما جرت عليه عادته، بأنهم سوف يقصدون الحدود البيزنطية حتى يتمكن الرجال من تجهيز أنفسهم بجهاز مناسب للرحلة الطويلة. ونحن لا نعلم علم اليقين الأسباب التى حدتْ بمحمدٍ للقيام بهذه الغزوة التى لم تَلْقَ الترحيب من المسلمين، فكان الجو حاراً، وكان البلح قد نضج وآن أوان جَنْى المحصول، وكان المسلمون يخافون بأس الجيش البيزنطى، وهو خوف رشيد له ما يبرره. لا نستبعد أن محمداً قد بدأ فعلاً فى التخطيط لفتح سوريا وفلسطين، وربما كان يريد الثأر من هزيمة مؤتة وترسيخ أقدامه وتأمين مواقعه فى الطرف الشمالى من بلاد العرب. وبدأ معظم المسلمين يتجهزون للحملة، ولكن بعضهم أبدى تذمره أو تكاسل، بل إن بعضهم رفض الخروج. كان المنافقون، على نحو ما نتوقع منهم، عازفين عن الخروج، وطلب بعض الحلفاء الجدد من الأعراب إعفاءهم من المشاركة فى الغزوة، وكان بعض المسلمين الآخرين يريدون البقاء فى المدينة لجنى محصول البلح وكسب المال، ولكن بعض من اعترضوا كانوا من المسلمين الذين لا تشوب إسلامهم شائبة. بل إن عليّا نفسه تخلف فى المدينة، ولو أن بعض المصادر تقول بروح الولاء إن محمداً طلب إليه البقاء لرعاية الأسرة أثناء غيابه. ثم انتهى الأمر بأن بدأ نحو ٣٠٠٠٠ رجل مسيرتهم الشاقة

العسيرة إلى الشمال. وتخلّف فى المديـنة نحو تسعين رجلاً، وقد يكونون قد تآمروا على النبى، فقد حزّ فى نفـوس الناس، وهذا أمر طبيعى، أن يشاهدوا أشخاصـاً مثل أبى سفيـان، وهم يتلقون التكريم والهدايا الثـمينة، وأن أوائل المسلمين من الأنصار والمهاجرين لا يلقون، فيما يبدو، سوى التجاهل. وكثيراً ما يحدث فى أى حـزب أن يصبح الأوائل من مؤازريه مشكلة عـويصة، فهم يتشـبثون بالمثالـية الأولى للحركة، وينـظرون شزراً إلى الذين اضطروا ـ وربما تكون دوافعهم انتهازية رخيصة ـ إلى أن يصبحوا من الحواريين المتأخرين. لقد استطـاع محمـد بعقله الراجح أن ينـشئ مناخاً يسـاعد أعداءه القـدامى على التعاطف مع الإسلام، ولكن ذلك أدى إلى نشوء مشكلة فى المدينة. وقد برز الاستيـاء حتى بين من التحقـوا بالحملة، فكان معسكر ابن أُبىّ يضـجّ بالتذمر دائماً، فتخلف البعض عمداً، وغمغـم الآخرون غمغمات غامضة تشكك فى الحكمة من تعريض أنفسهم للجيش البـيزنطى القوى، وعندما سألهم الرسول عما يقـولون ردوا بمرح قائلين: «كنا نتحـدث ونضـحك يا رسول الله» ولكن محمداً لم ينخدع بكلامـهم، كما أثبت ذلـك ما نزل من القرآن(٥٢): ﴿**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب**﴾ (التوبة: ٦٥).

ووصل الجيش أخـيراً إلى تبـوك، التى تقع فى الشمال الغـربى من المدينة على مبعدة ٢٥٠ ميـلاً تقريباً، ونجح محمد فى البقاء نحو عـشرة أيام فيها. لقد كان ذلك إنجازاً هائلاً، إذ كان الجيش كبيراً، والموقع متاخماً لبيزنطة، ولا شك أن هذا النجاح قد بهر الأعراب المقيـمين فى المنطقة. وعقد الرسول أثناء وجوده هناك بعض المواثيق مع الحكام المحليين، فقام الملك النصرانى يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أَيْـلة (وهى ميناء إيلات فى إسـرائيل الحديثة) بدفـع الجزية له، وكذلك فعل رؤســاء ثلاث مستوطنات يهودية فى جَـرْباء وفى أَذْرُح الواقعتين فى الأردن الحديثة، وفى مَـقْنا على ساحل البحر الأحمر. كـما أُرسل خالد على رأس قوة صغيرة لإخضاع حاكم دومة الجندل، ومن ثم وصل هو الآخر لعقد صلح مع محمد.

كان النجاح متواضعاً ولكنه كان ذا دلالة كبيرة، وكان محمد مستبشراً ويشعر بالثقة فى طريق عودته إلى المدينة. كان قد عقد العزم على الانتهاء من المعارضة داخل معسكره بعد تلك البداية التى تبشر بالخير لدولة المدينة فى العالم الخارجى. ولكن التذمر والانشقاق استمرا أثناء مسيرة العودة، ويبدو أن بعضهم دبر مكيدة لدفع محمد من فوق صخرة عالية ولكنه وصل آخر الأمر سالماً إلى منطقة على مقربة من المدينة، إذ كان قد طُلب منه قبل مغادرة الواحة افتتاح مسجد جديد بُنى فى قُباء، وكان قد وعد بأن يفعل ذلك بعد عودته. ويبدو أنه قد توافر لديه ما يدعوه للاعتقاد بأن المسجد كان بؤرة التمرد، بل نزل القرآن بأن الذين بنوه كانوا قد عادوا لإقامة العلاقات مع عدد من ألد أعداء محمد الذين كانوا ما يزالون يرفضون الاعتراف بنجاحه(٥٣). وهكذا فقبل أن يدخل المدينة أرسل رجلين إلى قباء لإضرام النار فى المسجد. وفى صباح اليوم التالى قام بالتحقيق فى سلوك الأشخاص الذين تخلفوا فى المدينة، وأسرع معظمهم إلى الاعتذار وقدموا ذرائع مقبولة، ولكنه أمر بمقاطعة ثلاثة رجال لمدة تقرب من شهرين.

ويبدو أن ذلك قضى على المعارضة داخل صفوف المسلمين، وبُعَيْدَ عودته من تبوك قام محمدٌ على قبر خصمه القديم ابن أُبىّ، دليلاً على الاحترام والمصالحة. كما شهدت تلك الفترة أيضاً نهاية معارضة المشركين، ففى يناير ٦٣١م أرغمت مدينة الطائف على الاستسلام، وكانت آخر معقل للوثنية بعد ما لا يزيد عن عام من رفع الحصار الذى كان محمد قد ضربه حولها. كان أهل الطائف يكابدون ازدياد عزلتهم منذ أن أصبحت هوازن من حلفاء الرسول، بعد غزوة حنين، وكان من المحال مواصلة عنادهم، وتوسل وفد الطائف إلى محمد أن يمنحهم شروطاً خاصة، فقالوا إنهم تجار يقومون بأسفار كثيرة، وإنهم يريدون من ثم أن يأذن لهم بمضاجعة نساء أخريات غير زوجاتهم أثناء رحلات أعمالهم؛ كما طلبوا السماح بأن يشربوا النبيذ المصنوع

من أعنابهم، وأهم من ذلك كله أن يحتفظوا بهيكل اللات بضعة أعوام أخرى أو، وهذا هو الطلب الأخيـر، عاماً واحداً على الأقل. ولكن مـحمداً رفض كل طلباتهم. أما ما تنازل عنه فقط هو أنهم ليـسوا ملزمين بأن يحطموا معبد اللات بأنفسهم فيـغضب الناس منهم، ومن ثم أرسل محمد أبا سـفيان نيابة عنه إلى الطائف لتدمير هيكل تلك الربة.

كانت لحظة ذات دلالـة رمزية، إذ سبق لأبى سـفيـان أن حارب محـمداً خمسة أعوام وكان يدخل إلى ساحة القتال واسم اللات على شفتيه. لقد كان ذلك دليلاً مؤكـداً على أن الوثنية مقضىٌ عليـها بالزوال. لقد كان لهـا يومها ولكنها عجزت عن مساعدة العرب على التكيف مع حياة الاستقرار ومتطلبات القرن السـابع. لقد أصـبحت عـوامل الحركة الداخلـية التى تحدث التـغيـير الاجتماعى تؤازر الآن مـحمداً. لقد أنجز محمد إنجـازاً فذاً، فلم يستند فقط إلى الوحى الذى أنزله الله عليـه، بل إنه طبق المبدأ الذى جـاء به القرآن وهو التوسل بالأسباب، فاستخدم جميع موارده الطبيعية وعبقريته الشخصية الفائقة حتى تمكـن من الظفر. ولكنه كـان فى عام ٦٣١م قد أصـبح شيـخاً وبدأت صحته تتدهور: ترى هل يكتب للأمة البقاء بعد موته؟

الفصل العاشر
وفاة الرسول

خطا المجتمع الإسلامى الصغير أولى خطواته تجاه القوة السياسية عام ٦٢٢م حينما قام محمد بالهجرة. وبعد عشر سنوات تقريباً، كان محمد يسيطر على معظم بلاد العرب تقريباً. وأرسى قواعد نظام عربى جديد سيمكن المسلمين من حكم إمبراطورية هائلة لأكثر من ألف عام. وكان النجاح السياسى قد تطلب جهداً وتوتراً مستمراً، كما أن السنوات العاصفة فى المدينة أوضحت صعوبة وخطورة إعادة تأسيس مجتمع إنسانى طبقاً لخطة إلهية. وخبر محمد الجهد الذى تتطلبه ترجمة كلمة الله - والتى هى أقدس من أن ينطق بها - إلى لغة إنسانية، تلك اللغة التى بدت أحياناً وكأنها تتصدع وتتشظى من الأثر الإلهى. وكان النضال من أجل تجسيد كلمة الله فى مجتمع إنسانى قد أوصل المسلمين أحياناً إلى شفا اليأس. وأحياناً أخرى اقترب بهم من التخلى عن محمد كلية. لكن نجاحه كان البرهان الأفضل على مصداقية سياساته غير العادية والخلافية أيضاً. فحينما اتخذ محمد قرارات القتال فى بدر، أو طرد أو قتل القبائل اليهودية، أو عقد معاهدة الحديبية، لم يكن تحت التأثير المباشر للوحى الإلهى، لكن كان عليه أن يلجأ لمساعدة وإرشاد واستعمال مواهبه الطبيعية. فالقرآن لا يتوقع من المسلمين أن يتخلوا عن عقلانيتهم الفطرية، ولا أن يتقاعدوا انتظاراً لأن ينقذهم الله بمعجزة. فقد كان الإسلام دائماً ديناً واقعيّا وعمليّا، يرى أن الذكاء الإنسانى والإيحاء الإلهى يعملان جنباً إلى جنب فى توافق. وفى عام ٦٣٢م، بدا وكأن إرادة الله على وشك التحقق فى بلاد العرب. وخلافاً لأنبياء كثيرين سابقين فإن محمداً لم يأت فقط برؤية أمل جديدة للأفراد من الرجال والنساء، لكنه أيضاً اضطلع

بمهمة خلاص المجتمع الإنسانى وإقامة مجتمع عادل يمكن البشر من الرجال والنساء من تحقيق إمكاناتهم الفعلية. وأصبح للانتصار السياسى، منزلة تشابه منزلة القربان المقدس عند المسيحيين، فقد كان آية للحضور الإلهى غير المرئى وسطهم. وهكذا، فقد كان على النشاطات السياسية أن تستقر كمسئولية مقدسة، وأصبح النجاح اللاحق للإمبراطورية الإسلامية «آية» على أنه بالإمكان خلاص البشرية جمعاء.

وبدلاً من أن يتجول بطريقة لا دنيوية بين تلال الجليل مبشراً وشافياً، كما فعل المسيح فى تصوير الكتاب المقدس له، كان على محمد أن يشتبك فى جهد سياسى ضارٍ لإصلاح المجتمع. كما كان على تابعيه أن يتعهدوا بمواصلة النضال. وبدلاً من تكريس الجميع جهودهم لإعادة بناء حياتهم الشخصية الخاصة فى سياق «السلم الرومانى القائم» كما فعل المسيحيون الأوائل، اضطلع محمد وصحابته بمهمة تجديد مجتمعهم، الأمر الذى بدونه لم يكن ليتحقق أى تقدم أخلاقى أو روحى. والقرآن واضح فى نصه على أن مصير الفرد الأبدى على درجة عالية من الأهمية وله أيضاً الأسبقية على الواجبات الاجتماعية للمسلمين. والتاريخ والنشاط السياسى لدى المسلمين هدفان فى حد ذاتهما، لكن يُظلهما ويحكمهما النظام الإلهى الأسمى كما توضح باستمرار الرموز القرآنية المتعلقة بالحساب والجحيم والجنة. وفى هذا الصدد نجد تجاوباً بين القرآن وروح الفردية الجديدة، وكانت قد بدأت تُلمس فى بلاد العرب. وتعكس تشريعات القرآن الاجتماعية ذلك الاهتمام بالفرد. وكانت المثل الجماعية مازالت معيارية فى بلاد العرب رغم ذواء النظام القبلى. ولذا، لم يكن بوسع محمد تجاهل ذلك الواقع والإتيان بفردية كاملة من أجل إرضاء مُثُلنا الغربية الليبرالية، لكنه خطا نحو ذلك. غير أن خلاص الفرد كان لا يمكن تحقيقه إن استمرت دائرة سفك الدماء اللامنتهية فى بلاد العرب. إذ إن المجتمع الفاسد المتحلل لا يولد سوى الانحلال والعلة واليأس فى

جـميع الأفـراد الذين يُستَثْنَى منهم الأبطال الحـقيـقيـــون. وهكـذا تطلبت الأحوال فى بلاد العـرب فى القرن السابع فى المدينة خطة للخـلاص الفردى والجماعى أيضاً.

وتمكن محمد من إنشاء مجتـمع قوى له استقلاله عن الفوضى المحيطة.. وبدأت مجموعات قبلية أخرى فى الانضمام إليه رغم أنها لم تكن قد التزمت بعد برؤيته الدينيـة. ولكى يمكنها البقاء كـان على الأمة أن تكون قوية، رغم أن هدف محمد الأساسى لم يكن القوة السياسية، بل إيجاد مجتمع خيّر.

ويبدو أن نجـاح محمـد قد أثبت مـا قاله القرآن من أن المجـتمـعات التى ترفض ذلك النظام الإلهى لابـد وأنها هالكة. لكن الـصراع لم ينتـه. فلدى عودة المسلمين من تبوك، ألقى بعضهم بسيوفـهم جانباً. لكن يُقال إن محمداً أخبرهم أن القتـال لم ينته وأن عليهم الاستعداد لجهـد جديد. إذ إن التحدى من أجل تحقـيق المشيئـة الإلهية فى التـاريخ الإنسانى لن ينتـهى أبداً. فهناك بالضرورة أخطار ومشـاكل لابد من التغلب عليها. وأحيـاناً يصبح لزاماً على المسلمين أن يقاتلوا. وفى أحيان أخرى يكون فى مقدورهم العيش فى سلام. لكنهم كانوا قد بدءوا فـى تحقيق خطة لخلاص التاريخ والفـرد معاً، خطة من أجل جَعْل مـا يجب حدوثه حـقيقـة معـاشة فى الدنيا. وحـتى يومنا هذا، يضطلع المسلمون بهذه المهمة بجدية تامة.

أما استسلام الطائف، والذى أرغمت عليه، فقد برهن على أن هناك عرباً كثـيرين كـانوا متـرددين فى اعتناق النظام الجـديد. وكان ولاء الحلفـاء البدو لمحمـد ولاءً سطحياً. لكنه كـان لديه جمع جوهرى من المسلمين المتـفانين، والذين قد لا يكونون ألموا إلمامـاً تاماً بكل ما كان يحاول فـعله، لكنهم كانوا متفـهّمين جوهر الرسالة تماماً كـما سيثبتـون فيما بعد. وكـان أبو بكر وعمر وعثمـان بن عفان قدْ أصبحـوا أعضاء فى أسرة نبيـهم بالتزاوج، الأمر الذى دعم صلتهم الروحـية به. وكانوا يعلمـون أن الدين يأتى فى المقام الأول وأن

على العرب أن يُصلحوا من أنفسهم بممارسة الإسلام ومراعاة أركانه والتى كانت تعلمهم كيف يضعون الله فى مركز حياتهم.

وكان الصحابى الرابع المقرب إلى محمد هو ربيبه علىّ، والذى كان يصغر الآخرين كما كان أحياناً يُبدى تذمُّراً من هؤلاء الأكبر سناً. غير أنه بحلول عام ٦٣٣م لم يكن قد تبقى من عائلة محمد القريبة سواه. فقد توفيت أم كلثوم أثناء حملة تبوك وأصبحت فاطمة زوجة علىّ الابنة الوحيدة المتبقية من خديجة. وكان محمد شديد الولع بابنى علىّ، الحسن والحسين. غير أن محمداً ولد له ابنٌ جديد من مارية القبطية، وكان محمد مولعاً بحمل إبراهيم فى أنحاء المدينة، ورفضت عائشة أن يؤثر ذلك فيها. فحينما سألها محمد إن كان يشبهه أجابته أنها لا ترى شبهاً. ولما لفت النبى نظرها متحمساً إلى بدانته وجمال بشرته ردت عليه بتحد ومرح قائلة: إن من يُطعم حليب الغنم لابد وأن يصبح بديناً وجميلاً. وربما كانت هنا تعبر عن ضيقها لأن قدراً خاصاً من الحليب كان يُسلَّم إلى مرضعة إبراهيم كل صباح(١). ورغم تلك العناية فقد مرض الرضيع فى بداية عام ٦٣٢م وأصبح من الواضح أنه لن يُعافى. وكان محمد مع ابنه حينما توفى وحمله بين ذراعيْه فى اللحظة الأخيرة وهو يبكى بمرارة. غير أن عزاءه كان أنهما سيلتقيان بعد فترة ليست بالطويلة.

وفى العام العاشر للهجرة كان محمد يشعر باقتراب المنية بشكل متزايد. وكان دائماً يُحبّ أن يختلى فى رمضان إن هو استطاع أن يمضيه فى المدينة. وفى تلك السنة، طلب من صحابته أن يُطيلوا فى الخلوة عن المعتاد، وأسرَّ إلى فاطمة بأنه يشعر بدنو أجله. وهكذا، أعلن محمد فى ذى الحجة أنه سيقود حج هذا العام بنفسه. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يُؤدى فيها تلك الشعائر القديمة حول الكعبة والمزارات. كما أن محمداً كان مُصرًا على ترسيخ الدين الجديد فى المأثورات المقدسة للعرب (الديانات التوحيدية القديمة). وبدأ رحلته للحج فى نهاية فبراير عام ٦٣٢م مع كل زوجاته وحشد

كبير من الحجيج. ووصلوا خارج مكة يوم الخامس من ذى الحجة أو اليوم الثالث من شهر مارس. وبدأ ينطق بالنداء القديم «لبيك اللهم لبيك». ومن ثم قاد تأدية الشعائر القديمة العزيزة على قلوب العرب، مضفياً عليها أهمية جديدة، بينما هو يؤكد الاستمرارية الجوهرية الخلاقة مع الماضى.

إن على كل مسلم أن يؤدى فريضة الحج مرة واحدة على الأقل فى حياته شريطة أن تسمح له ظروفه بذلك. وقد تبدو تلك الشعائر غريبة للشخص الغربى، كما تبدو أى شعائر دينية أو اجتماعية أجنبية. غير أن تلك الشعائر مازالت مصدر إلهام للمسلمين بتجربة دينية شديدة العمق. وهم غالباً ما يجدون الحج ذروة حياتهم الروحية كأفراد وكأعضاء فى الأمة. فإن الحج يغلف المظاهر الجماعية والفردية للروحانية الإسلامية تغليفاً كاملاً، فليس كل الآلاف الذين يتجمعون كل عام لتأدية الحج فى مكة من العرب، ورغم ذلك فقد جعلوا من تلك الشعائر العربية القديمة شعائر لهم. فإنهم فى طوافهم حول الكعبة وهم يرتدون لباس الحج التقليدى الذى يلغى جميع الفوارق العرقية والطبقية يشعرون أنهم قد تحرروا خارج نطاق الحدود الأنانية لحياتهم اليومية وأصبحوا ضمن جماعة ذات بؤرة واحدة. وتوجه واحد. وقد ألهم الطواف حول الكعبة مؤخراً علىّ شريعتى الفيلسوف الإيرانى المتوفى أن يقول:

«يشعر المرء حينما يطوف حول الكعبة ويقترب منها أنه كقناة صغيرة تندمج فى نهر كبير. وتحملك الموجة، فتفقد الصلة بالأرض. وفجأة تطفو ويحملك الفيضان. وحينما تقترب من المركز يعتصرك ضغط الحشود بقوة تُمنح خلالها حياة جديدة. فإنك الآن جزء من الحشد، إنك الآن إنسان حى خالد... إن الكعبة لهى شمس العالم يجذبك وجهها فى مدارها. وتصبح جزءاً من النظام الكونى. وبطوافك حول (عرش) الله تنسى ذاتك... فقد تحولت إلى جزىء يذوب تدريجيًا ويختفى... ذلك هو أوج الحب المطلق»(٢).

وقد أكد اليهود والمسيحيون أيضاً على روحانية الجماعة. فإن المجاز المرسل للقديس بولس عن جسد المسيح يقول بأن وحدة الكنيسة ومشاركة أعضائها هو تجلٍ للحب فى أسمى مظاهره. ويهيئ الحج لكل مسلم تجربة اندماج فى سياق الأمة حيث يكون الله هو المركز.

وبمعنىً ما يمنح الحج المسلمين صورة المجتمع الأمثل فى المواقف والتوجهات. والسلام والوئام «تيمات» مهمة فى معظم الأديان. وفى الإسلام، فإنه بمجرد دخول الحجيج الحرم يحرم العنف بجميع أشكاله. فإنه من غير المسموح به للحجيج قتل أى كائن ولو كان حشرة أو التلفظ بكلمة تدل على ضيق الصدر. ومن هنا كان الغضب العارم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى إزاء انتهاك حج عام ١٩٨٧ من قبل الحجاج الإيرانيين الذين أشعلوا تمرداً قُتل خلاله ٤٠٢ فرد وأصيب ٦٤٩.

ويتحدث القرآن دوماً عن العودة إلى الله التى سيأتيها جميع المخلوقات. والحج تعبير قوى عن رحلة العودة الإرادية إلى الله من حيث أتى البشر. وهتاف الحجيج الذى يُرددونه مجتمعين يُذكّرهم كأفراد وكأمة بأنهم قد كرسوا أنفسهم كليّة لعبادة الله وأنهم بإمكانهم أن يعيشوا ذلك الالتزام أيام الحج بتكثيف أكثر من المعتاد، حيث يديرون ظهورهم لجميع اهتماماتهم. وهكذا، فحينما قاد محمد جَمْعَهُ من الحجيج المهاجرين والأنصار والبدو إلى الكعبة عام ٦٣٢م، لابد وأنهم قد شعروا بأن تلك رحلة عودة بالمعنى الأكثر عمقاً. وتُرى جميع رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة على أنها نوع من الاقتراب من جذور كيان الإنسان، ومن بداية العالم. ولابد أن المهاجرين قد شعروا بإحساس خاص بالعودة إلى الموطن. لكن محمداً كان يُذكّر العرب بأنهم يعودون إلى جذورهم لأن إبراهيم وإسماعيل، أجداد العرب، قيل إنهما اللذان بنيا الصرح. واليوم يشعر المسلمون أيضاً بتجربة العودة لجذور هويتهم الإسلامية. وبالطبع فإنهم يتذكرون محمداً، لكن الحج أيضاً يعنى تذكر

إبراهيم وإسماعيل أبوى كل المؤمنين. وهكذا، فحينما يُهرولون سبع مرات بين الصفا والمروة فإنهم يتذكرون كيف كانت هاجر تهرول غادية رائحة باهتياج شديد وهى تبحث عن الماء لإسماعيل بعد أن تركهما إبراهيم فى الصحراء. وبعد ذلك، يعود المسلمون أيضاً إلى أصولهم المشتركة حينما يقفون بجبل عرفات على بعد ١٦ ميلاً خارج مكة، ويتذكرون العهد الأول لله مع آدم، أول الأنبياء ومؤسس الجنس البشرى. وفى منى يقومون برَمْى الجمرات على أعمدةٍ ثلاثة تذكرةً للصراع الدائم ضد الغواية التى يتطلبها الجهاد فى عبادة الله. وبعد ذلك يضحون بغنمة أو ماعز كذكرى لأضحية إبراهيم بالحيوان بعد أن قدم ابنه لله. ويقوم المسلمون الذين لم يؤدُّوا الحج فى عام ما فى جميع أنحاء العالم بأداء تلك الأضحية فى الميعاد المحدد، لكى تبرهن الأمة جمعاء على استعدادها للتضحية بأى شىء ولو كان هو أعز ما لديها، فى عبادة الله.

ومسجد نمرة أقيم قرب عرفات فى البقعة التى يُعتقد أن محمداً ألقى فيها خطبة الوداع عام ٦٣٢م ووصاهم فيها أن يُقسطوا فى التعاملات بينهم، وأن يُعاملوا النساء برفق قدر المستطاع، وأن ينبذوا كل الضغائن الثأرية الدموية لانتهاكات ارتُكِبَتْ أثناء الفترة الوثنية لأن الأمة وحدة واحدة: «اسمعوا قولى واعقلوه. تعلمُنَّ أن المسلم أخو المسلم. وأن المسلمين إخوة. فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت.. اللهم فاشهد»(٣).

وبعد رحلة الوداع وعقب عودته للمدينة بدأ محمد يعانى من نوبات من الصداع المعجز. وتذكرت عائشة بعد ذلك ما كان يحدث فقالت: «رجع رسول الله من البقيع، فوجدنى وأنا أجد صداعاً فى رأسى، وأنا أقول: وارأساه. فقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه. ثم قال: وما ضرك لو مت قبلى فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ قالت: قلت والله لكأنى

بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك.
قالت: فتبسم رسول الله، وقام به وجعه. . .»(٤).

ثم ازداد الألم سوءاً. ويبدو أيضاً أنه كان يعانى من نوبات إغماء. لكنه لم يلزم الفراش بصفة دائمة. فكان غالباً ما يلف رأسه بقطعة من القماش ويذهب إلى المسجد ليؤم الصلاة أو ليخطب فى الناس. لكنه ذات صباح أطال فى الصلاة بصفة خاصة وصلى على المسلمين الذين ماتوا فى أحد وأضاف: «إن عبداً من عباد الله خَيَّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله». ولكن الوحيد الذى يبدو أنه فَهم إشارة محمد إلى وفاته، هو أبو بكر فبكى، فقال له: «على رسلك يا أبا بكر»(٥). لكن فى النهاية انهار محمد فى بيت ميمونة وأحاطت به زوجاته بحب، فاستأذنهن فى أن يمرَّض فى بيت عائشة، فأُذن له.

ورقد محمد هناك فى سكون ورأسه فى حجر عائشة. ولكن يبدو أن الناس ظنوها وعكة وقتية، وأن الأمة وجدتْ فكرة وفاته غير محتملة ومخيفة، حتى أنهم لم يفهموا الأدلة رغم تحذير أبى بكر عائشة من أن محمداً لن يمكث طويلاً فى الدنيا. فقد كان ما أنجزه فى بلاد العرب فريداً غير مسبوق، ولذا بدت الحياة بدونه فى ظل النظام الجديد غير معقولة. وتعلق الناس بأى قشة للأمل. فمثلاً، ترنح محمد يوماً وذهب إلى المسجد ليُطمئن الناس أن أسامة، ولد زيد الصغير، كان ذا خبرة وقدرة كافيتين لقيادة حملة إلى الشمال. وحينما اشتد عليه المرض، طلب من أبى بكر أن يؤم الصلاة نيابةً عنه، وقاومتْ عائشة نفسها ذلك القرار. وكان على محمد أن ينهر الناس كى يطيعوه فيما قرر. وفيما بعد قالت عائشة إن اعتراضها لم يكن لشعورها أن أباها لا يستحق ذلك الشرف، ولكن لتخوفها أن يكرهه الناس لقيامه بما كان يقوم به محمد. واستمر فى إعطائهم أسباباً للأمل، لأنه أحياناً كان يؤم الصلاة رغم أن مرضه كان يمنعه من التلاوة، فكان يجلس صامتاً إلى جوار أبى بكر.

وفى الثانى عشر من ربيع الأول الموافق الخامس من يونيو عام ٦٣٢م لاحظ أبو بكر أن انتباه المصلين مشتت وأنهم كانوا يوجهون أنظارهم صوب مدخل المسجد. وعرف لتوّه أن محمداً لابد وأنه أتى، لأنه ما كان هناك شيء آخر يُشتّت جُموع المصلين بتلك الطريقة. وبدا محمدٌ وقد تحسن كثيراً. وفى الواقع فقد قال البعضُ إنهم لم يرَوْهُ بمثل ذلك التوهج من قبل. وسرَتْ فى أنحاء المسجد موجة فرح وارتياح. وفور ذلك استعد أبو بكر لإفساح مكان له. لكن محمداً وضع يديه على كتفيه ودفعه بلطف إلى مكانه على رأس المصلين وجلس بجانبه حتى انتهت الصلاة. وبعد ذلك توجه إلى مسكن عائشة ورقد فى سكون ورأسه فى حجرها. وبدا تحسُّنه مرموقاً لدرجة جعلت أبا بكر يستأذنه فى الذهاب لزيارة زوجته الجديدة التى كان قد تزوجها مؤخراً وكانت مازالت تقطن فى الجانب الآخر من المدينة. وأثناء العصر زاره العباس وعلىّ، وأذاعا أخبار تحسُّن صحة النبى، وحينما زاره عبد الرحمن بعد ذلك لاحظ محمد أنه كان يحمل مسواكاً وأظهر رغبته فى استعماله. وقامت عائشة بتليينه له ولاحظت أنه استعمل المسواك بنشاط أكثر من العادى. لكن سُرعان ما لاحظت عائشة أن ثقله على حجرها قد ازداد وبدا وكأنه يفقد الوعى. ولكنها كانت بعد لا تدرى ما حدث. وكما قالت فيما بعد: «مات الرسول بين سحرى ونحرى، وفى دولتى، لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله قُبض وهو فى حجرى». وسمعته يتمتم قائلاً: «بل الرفيق الأعلى من الجنة»(٦). ثم اكتشفت أنه قد أسلم الروح. ووضعت رأسه بعناية على وسادة، وأخذت تضرب صدرها، وتلطم وجهها طبقاً للتقاليد العربية القديمة.

وحينما سمع القوم ولولة النساء أسرعوا شاحبى الوجوه إلى المسجد. وسرت الأنباء سريعاً فى الواحة. وأسرع أبو بكر عائداً إلى المدينة. ودخل عليه ونظر إلى وجهه وقبّله وودعه، وبعد ذلك خرج حيث وجد عمر يخطب

فى الجموع. ورفض عمر تصديق وفاة النبى رفضاً مطلقاً، وقال إن روحه قد تركتْ جسده مؤقتاً وأنه لا محالة عائد إلى قومه، وإنه أيضاً سيكون آخر من يموت منهم. ولابد أنه كانت هناك مسحة هستيرية فى كلام عمر القسرى، وذلك لأن أبا بكر تمتم قائلاً: «على رسلك يا عمر، أنصت». وكان كل ما بوسع أبى بكر فعله هو أن يخطو إلى الأمام. ولابد أن تعبير وجهه وتماسكه أثرا فى الناس، لأنهم تركوا الاستماع لتقريع عمر والتفوا حوله.

وذكرهم أبو بكر أن محمداً قد كرس كل حياته داعياً إلى الوحدة الإلهية. كما أن القرآن قد حذرهم تكراراً من إسباغ أى منزلة إلهية على مخلوق. وكان محمد أيضاً يحذرهم دائماً من إسباغ التبجيل عليه كذلك الذى يسبغه المسيحيون على عيسى، لأنه إنسان مثلهم. كما أن رفضهم الاعتراف بموت محمد هو إنكار للحقيقة الجوهرية لمحمد. لكن طالما بقى المسلمون مخلصين للاعتقاد بأن الله وحده هو الجدير بالعبادة، وأن محمداً سيبقى. ثم اختتم قائلاً: «أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت»[٧]. ثم تلا هذه الآية: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين**﴾[٨].

وتركت تلك الآيات أعمق الأثر فى الناس حتى كأنهم لم يسمعوها من قبل. وأصاب عمر الارتباك التام حتى إنه قال: «فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرتُ حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله قد مات»[٩].

وكانت صدمة وفاة محمد أحد أخطر المآزق التى تعرضت لها الأمة الإسلامية على الإطلاق. فحتى تلك اللحظة، كان محمد يقود خطواتهم، فكيف كان لهم أن يستمروا بدونه؟ وقد انفصلت بعض قبائل البدو، والذين

كان التزامهم سياسياً محضاً، عن الأمة، ظناً منهم أن موت محمد يعفيهم من عهدهم. وأصبح هناك خطر فعلى من ارتداد العرب إلى فرقتهم القبلية القديمة. وحتى بعض المسلمين الأكثر التزاماً فقد تساءلوا عما إذا كانت وفاة محمد تعنى انتهاء رسالته(١٠). وانقسم هؤلاء الذين أرادوا اختيار خليفة إلى معسكرات متنافسة، وربما كانت تلك المعسكرات تعكس انقسامات داخل المجموع، وكانت تقلق محمداً خلال سنواته الأخيرة.

وآزر معظم المهاجرين أبا بكر، والذى كان صاحب محمد الحميم منذ بداية دعوته، فى أحقيته بالخلافة. كما أيّد عمر أيضاً تلك الأحقية. لكن الأنصار كانوا يريدون لسعد بن عبادة، وهو واحد منهم، أن يكون خليفة لمحمد أو ممثلاً له. أما أفراد أسرة محمد نفسها فكانوا يعتقدون أن الرسول أراد لعلىّ أن يخلفه. وانتصر أبو بكر فى النهاية، ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى أن قبضته على زمام المأزق قد تركت أثرها الحسن فى نفوس الأمة جمعاء. وبعد مبايعته خطب أبو بكر فى القوم واضعاً المبادئ الرئيسية التى يجب أن تنطبق على كل الحكام المسلمين، فقال: «أما بعد، أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينونى، وإن أسأت فقوّمونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوىّ عندى، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»(١١).

وتباعد علىّ عن أبى بكر فى أول الأمر، غير أنه انْصاع له فيما بعد. وتوفى أبو بكر بعد عامين فقط وخلفه عمر وبعده عثمان. وفى النهاية، وفى عام ٦٥٦م أصبح علىٌّ الخليفة الرابع. وعرف هؤلاء بالراشدين لأنهم حكموا

وفقاً لمبادئ الرسول. وأكدّ علىّ خاصة أن الحاكم المسلم لا يجب أن يكون مستبدًا. فإنه، وتحت ولاية الله، على قدم المساواة مع رعيته. ولابد أن يُراعى تخفيف العبء على الفقراء والمحرومين لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذى يضمن استمرار النظام. وقد قال ما معناه أنه إن اشتكت الرعية من الأعباء أو الفاقة أو من قطع مياه الرواء، أو انعدام الغيث، أو تغير التربة نتيجة لفيضان، أو فسادها من أثر الجفاف، فيجب تخفيف أعبائها بالدرجة التى يود بها إصلاح شئونه الخاصة. كما أنه لا يجب أن يقف أى شىء حائلاً بين الراعى وبين تخفيف عبء الرعية، لأن ذلك مخزون سيرتد إلى الرعاة بازدهار الأرض وتقوية الحكم... فإن خراب الأرض ينجم عن بؤس ساكنيها، ويُصيب البؤس السكان فقط حينما يهتم الحكام بجمع الثروة، وحينما يتملكهم هاجس بقاء حكمهم، وحينما لا يستفيدون من أمثلة ما حدث لغيرهم من محن»(١٢).

وطبقاً لذلك، فيجب على الحاكم ألا يَفصِل نفسه عن رعيته عن طريق التفرد أو العزلة المُهابة. فإن عليه أن يُقاسمهم أعباءهم، وأن يكون فى متناولهم ليستمع إلى مشاكلهم ويأخذ مشورتهم.

ولم يُراع كل الحكام المسلمين تلك المعايير السامية. وفى الواقع، فإنه حينما يتوجه المسلمون إلى فترة خلافة الراشدين وينظرون إليها على أنها العصر الذهبى، فإن ذلك يوضح أن الخلفاء والسلاطين اللاحقين لم يتمسكوا بمبادئ المساواة والعدالة بنفس القوة والإحساس.

غير أن بعض المسلمين استطاعوا أحياناً إقامة إمبراطورية بعد أن برهنوا على أنهم يعيشون ويحكمون وفقاً لتلك المبادئ. فكما رأينا، فإنه إبان الحرب الصليبية خرج نور الدين وصلاح الدين عن طريقهما ليعطيا الفقراء ويصلحا الضرائب على أسس إسلامية، كما أنهما كانا فى متناول رعيتهما. كما رأينا المسلمين فى زماننا يُنحّون حكاماً مثل شاه إيران ورئيس مصر أنور السادات لأن حكوماتهم انحرفت عن سبيل الإسلام(١٣)، فقد استمرت المبادئ التى

ألهمت محمداً والراشدين قـوة ذات سطوة فى المجتمع الإسلامى إلى اليوم، ويعرّض الحاكم الذى يتجاهلها نفسه للخطر.

وللمسيحية ولع بالمناقشات اللاهوتية، وقد نجمت الانشقاقات الرئيسية فى العالم المسيحى عن تلك النزاعات العقائدية، ومثل الحال فى الديانة اليهودية، فلا يوجد فى الإسلام مفـهوم عن الهرطقة العقائدية. فقـد تسببت الخلافات السياسية فى معظم المجادلات البناءة، وأيضاً فى معظم الانقسامات العصيبة. وهكذا، انقسمت وحدة الأمـة التى كانت مهمة بالنسبة لمحمـد حينما حدثت فرقـة بين عنصرى الأمـة الرئيسـيين واللذين يعرفـان بالسنة وشيـعة علىّ أو جـمـاعـة علىّ الذين اعـتـقدوا أن لـنسل علىٍّ فـقط الحق فى حكم الأمـة وكمجموعة أقلية، فإنهم أوجدوا معتقداً احتجاجياً يمثله حفيد الرسول الحسين الذى رفض أن يعترف بخلافة الأمويين وتم قتله بقسوة مع جماعة صغيرة من رفاقه على يد الخليفـة يزيد. وأصبحت الخلافات المكثفـة بين جماعات السنة والشـيعـة تدور حول من له الحق فى إمـامة الأمـة الإسلامـية، وحـول نوع المجـتمع الذى يجب أن يكون. وكـانت تلك الخـلافات مـهمـة، وذات أثر تكوينى بناء، تناظر تلك المنـاظرات الكريستـولوچية Christological(*) فى المسيحية. وإن دل هذا على شىء، فإنه يدل على ما لواقع الأمة السياسى من قيمة مـقدسة فى الإسلام. ورغم أن كلاً من الشيـعة والسنة قد طوروا أنماطاً من المعتقـدات التعبدية الخاصـة، فإنه لا توجد خلافات عـقائدية بينهم. وقد رأينا أن القرآن قـد نظر لتلك الخلافـات العقائدية على أنهـا غير مـجدية ولا تؤدى إلى نتيجة تفقيهية. غيـر أن للسياسة أهميتها فى الإسلام، وليس ذلك لمجرد أن الحكام المسلمين وظفوا الدين للإعلاء من قوتهم الـسياسية فقط، بل لأن المشروع الإسـلامى هو محاولة لخلاص التـاريخ من الانحطاط والفوضى

(*) علم المسيح، ويهتم بالتعليل اللاهوتى لشخص المسيح وعمله. (المحرر)

الحتمية التى تنجم عن غياب قوانين العدالة والمساواة. وعلى هذا، فالجهد السياسى ليس عرضيًا فى حياة المسلم الروحية الشخصية إذ إن للأمة أهمية مقدسة. وبالإمكان استيعاب تلك الأهمية أكثر، إن نحن أخذنا فى الاعتبار أنها تحتل نفس المكانة التى تحتلها الخيارات اللاهوتية العقائدية (الكاثوليكية والبروتستانتية والميثودية والبابتستية) فى الحياة الروحية لكل فرد مسيحى فى الغرب.

وبعد وفاة محمد كان النجاح المستمر للمشروع الإسلامى مبرراً للجهد السياسى، وغدا برهاناً على الاعتقاد فى أن إعادة تنظيم المجتمع وفقاً لمشيئة الله تؤدى إلى سيادته. فما لبثت الجيوش العربية أن أسست إمبراطورية امتدت من جبال الهملايا حتى جبال البرانس. وفى البداية كان ذلك بوحى رغبة العرب فى بناء إمبراطورية أكثر من كونه إيحاءً من القرآن. وهكذا، فلم يحاول العرب إجبار شعوب تلك البلاد على اعتناق الإسلام. واستمر يُنظر للإسلام على أنه دينٌ للعرب كما كانت اليهودية ديانة لبنى إسرائيل، حتى إنه كانت هناك فترة شديدة القصر فى حوالى عام ٧٠٠م حينما مُنع أهل الديانات الأخرى من اعتناق الإسلام. لكن بعد حوالى مائة عام من وفاة الرسول بدأ الخلفاء فى تشجيع اعتناق الآخرين الإسلام، وبدءوا يدخلونه أفواجاً، مما يبرهن على أن القرآن أجاب احتياجات القوم الدينية فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. كما برهن أيضاً على أن الإسلام أمكنه استيعاب حكمة الحضارات القديمة الأخرى، وسرعان ما أقام إرثه الحضارى المتميز. كما أن الإسلام لم يكن قوة تهديد أو تفريق، لكنه أثبت قدرته على توحيد المجتمع، وأرسى المشرعون الإسلاميون فقه الجهاد ليواكب الأحوال الجديدة. وهكذا أفتَوْا بأنه نظراً لعدم وجود إله سوى الله فلابدَ وأن يتوحد العالم فى أمة واحدة، وأنه على المسلمين أن يناضلوا نضالاً مستمراً كى يتقبل العالم المبادئ الإلهية ويوجد مجتمع عدل وكفاية. وعلى ذلك، فإن الأمة،

أو بيت الإسلام، هى المنطقة المقدسة والتى فرضت عليها مشيئة الله، أما بقية العالم، فهو المنطقة الكافرة أو «دار الحرب» والتى يجب أن تخضع لحكم الله. غير أن ذلك الفقه لم يُنفَّذْ فى الواقع، وأصبح حرفاً ميتاً حينما وضح أن الإمبراطورية الإسلامية قد بلغت حدود توسعها بعد مائة عام من وفاة الرسول.

بعد ذلك طورَّ المسلمون علاقات دبلوماسية مع جيرانهم فى «دار الحرب». كما أنه لم يكن هناك أى ضغط على اليهود أو المسيحيين أو الزرادشتيين لاعتناق الإسلام. واستمر المسلمون متمسكين بالتعددية الدينية القديمة فى الشرق الأوسط، وتعلموا أن يتعايشوا مع أفراد الديانات الأخرى، والتى، طبقاً للقرآن، هى تجليات إلهية مبكرة صحيحة كل الصحة. ويمكن النظر إلى صعود وهبوط مختلف الممالك والإمبراطوريات وانتشار الإسلام فى الهند وإندونيسيا، وتطور النظرة والأسلوب فى تأويل القرآن على أنها ظواهر تدل على استمرار للحوار الإسلامى مع التاريخ. وقد استمر المسلمون فى الاستجابة الخلاقة للتحديث حتى عصر متأخر نسبياً. كما كان بمقدروهم مجابهة المصائب والكوارث المدمرة مثل تلك التى نجمت عما أحدثه المغول فى القرن الثالث عشر، وأمكنهم بعدها النهوض، واستعادة قوة دولتهم، والإتيان بإنجازات جديدة. واستمر القرآن يمنح الشعوب من الأعراق المختلفة، وعلى مر العصور، سُبل التغلب على الكوارث، وتوفير الشجاعة على الاستمرار. وهكذا، أنجز الصوفى العظيم جلال الدين الرومى «المثنوى»، أعظم الأعمال الكلاسيكية فى الموروث الصوفى، بعد سنوات قلائل من دمار بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية على يد الحشود المغولية. ويُبرهن الصوفيون على عمق أثر العنصر السياسى والاجتماعى فى روحانيات المسلمين. فإن التكريس للأمة أحد المكونات المهمة فى حياة التصوف. وكما يبين لوى ماسينيون، المتخصص العظيم فى التصوف، قائلاً: إن دعوة المتصوف، كقاعدة، تنشأ نتيجة لتمرد

داخلى للضمير ضد أنواع الظلم الاجتماعى، ولا يكون ذلك فقط تمرداً ضد أخطاء الآخرين، لكنه بشكل رئيسى وخاص ضد أخطاء الفرد نفسه، ويرافق ذلك رغبة متعاظمة للتطهر الداخلى كوسيلة للتلاقى مع الله مهما كلف ذلك[١٤]. فالمهمة الصوفية هى مهمة زهد فى المقام الأول. فالصوفيون يقودون حملة جهد روحانى يدعونه «الجهاد الأكبر» (بالمقابلة مع الجهاد الأصغر الذى يتطلب التصارع الجسمانى). وعلى أية حال، فإنه وحتى يومنا هذا تتداخل روحانية شديدة فى النشاط السياسى فى العالم الإسلامى. وقد كان الصوفيون دائماً على رأس حركات إصلاحية كثيرة، كما كانوا فى ثلة المعارضة لأى شىء يهدد الأمة، سواء كان ذلك عدواً خارجياً مثل المغول، أو حاكماً فشل فى أن يحكم وفقاً للمبادئ الإسلامية. ولا ينسحب الصوفيون من الحياة كما يفعل الرهبان المسيحيون، بل إن الدنيا هى مسرح حملتهم فى بحثهم عن الله.

وتلك الروحانية مؤسسة على مثال الرسول نفسه الذى لم يعتزل الحياة، بل عمل دون توقف كى يعيد تنظيم مجتمعه. وبدلاً من أن ينتظر لحين حلول عالم طوباوى، أو لحين تحقق نبوءة مسيانية، حاول محمد إقامة مجتمعه الطوباوى فى المدينة. ومنذ البداية احتذى المسلمون مثال حياة محمد نفسه، فقد كانت هجرته مقدمة استهلالية لأحداث سياسية قامت على نمطها بدءاً من زمن الخوارج الذين خرجوا عن إجماع الأمة فى القرن السابع، ووصولاً إلى أفعال ومواقف جماعة التكفير والهجرة فى مصر السادات. فينسحب المسلمون الذين يريدون إصلاح الأمة مما يرون أنه مجتمع فاسد ويعلنون الحرب على النظام. فقد قال أبو بكر للمسلمين إن عليهم تنحيته إن هو فشل فى أن يحكم كما يجب. ويأخذ المسلمون تلك النقطة مأخذ الجد، فإن خير الأمة جزء لا يتجزأ من حياتهم الروحية. وعليهم أن يشتبكوا فى جهاد مستمر، ليس بروح الارتداد إلى الماضى أو الغضب المتعصب، لكن بروح التضحية

بالنفس والشجاعة وقوة التحمل. وكما وضّح علىّ شريعتى لشعب إيران إبان حكم الشاه، فإن موت الذات ليس التدريب والتهذيب الوحيد المرتبط بالرهبانية، لكنه التكريس للنضال من أجل الدفاع عن خلق الله، حتى ولو كان ذلك يعنى المعاناة والموت. ويضيف قائلاً: إن رهبانية المناضلين ليست رهبانية الأديرة، لكن موقعها هو المجتمع. إنها التضحية بالنفس، والإخلاص، وإنكار الذات، واحتمال العبودية والحرمان والتعذيب والأحزان وتقبل المخاطر فى ساحات الاصطدام ومن أجل القوم، فتلك هى الأمور التى تُوصّل إلى الله. لأن الرسول قد قال ما معناه إن لكل دين نوعاً من الرهبانية ورهبانية دينى هى الجهاد[١٥].

فلكل دين مجالات يؤكد عليها، لكن ذلك الاهتمام الاجتماعى مهم لروحانية الديانات الثلاث التوحيدية. فإن وجد المسيحيون ذلك المفهوم عن المهمة السياسية الجوهرية غريباً، فعليهم أن يروا أيضاً اهتماماتهم العقائدية وولعهم بالتوصيفات اللاهوتية المهمة عن الحقائق الإلهية لابد وأنها تبدو غريبة فى عيون المسلمين واليهود.

وكان ولع المسلمين بمحمد هو أحد الطرق الرئيسية التى أسس بها المسلمون ذلك التكافل، وهذا الحس الأخوى. فمازال المسلمون يؤكدون أن محمداً ما هو إلا رجل عادى مثلهم، لكنهم حددوا ذلك المعنى على مرّ السنين. فقد أصبحوا يرونه رجلاً مثل كل الرجال لكن مثل «جوهرة نفيسة بين الحجارة»[١٦]. فبينما تكون الحجارة العادية معتمة وثقيلة فإن الجوهرة شفافة يخترقها عنصر ضوئى يُغيّر من طبيعتها. وبذلك أصبحت حياة محمد «آية» مثل الآيات الأخرى فى العالم الطبيعى التى يحث القرآن المسلمين على تأويلها. فإن رسالته النبوية «رمز» أو «تجلٍّ»، لا يبين فقط النشاط الإلهى فى العالم، بل إنها أيضاً تعكس الاستسلام التام لله. ويمكن النظر إلى تطور مبدأ «قداسة» محمد على أنه محاولة تخيلية لتأمل مغزى حياته، وتطبيقها على

ظروف الحياة اليومية للأفراد. وبالمثل، فقد طور المسيحيون صورة للمسيح الإنسان الذى هو أيضاً «كلمة الله»، و«صورة» لمشيئة الله للخليقة. وخلافاً لتكريس المسحيين لعيسى، فإن حب المسلمين لمحمد لا ينصب على الشخصية الذاتية التاريخية لكن على الرمز أو السر المقدس، الذى تشبه رمزيته رمزية الأعمال الفنية العظيمة، فهو بهذا يضىء الحياة ويضيف إليها معنى جديداً بتوجيهه إيانا نحو بعد جديد للحقيقة خارج نطاق ذاته (أى شخصيته الحقيقية كما وجدت فى الواقع).

وهكذا يعتبر محمد على المستوى الرمزى الإنسان الكامل، أو النموذج الإنسانى، وصورة التلقى receptivity الكامل لله. ومن هنا تأتى الأهمية التخيلية للاعتقاد فى أُمية محمد، لأنها تبين انفتاحه الكامل على الكلمة الإلهية، وكذلك، ينظر لمرحلة الإسراء على أنها المثال الكامل للفناء فى الله الذى يتحدث عنه المتصوفون. ومثل المسيحيين الذين طوروا ممارسة محاكاة المسيح، يسعى المسلمون أيضاً إلى محاكاة الرسول فى حياتهم اليومية من أجل أن يقتربوا بقدر الإمكان من هذا الكمال، وهذا يقربهم، قدر الاستطاعة، من الله. وكما يتوقع، فقد كانت تلك المحاكاة دائماً على مستوى عمليّ ملموس، أكثر من محاكاة المسيحيين لعيسى. وهكذا بدأ العلماء المسلمون فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بحث وجمع أحاديث محمد (السنن القولية والفعلية) وقاموا بالتنقل فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ليكتشفوا أكبر قدر مستطاع من الروايات الصادقة عن أشياء قالها أو فعلها فى مناسبات معينة، وتُكوِّن الأحاديث مع القرآن أصول الشريعة الإسلامية. كما أصبحت أيضاً أساساً للحياة اليومية والروحية لكل مسلم. فقد علمت السُّنة المسلمين محاكاة أسلوب محمد فى الكلام والأكل والحب والاغتسال والعبادة لدرجة يُعيدون معها إنتاج حياة النبى على الأرض فى أدق تفاصيل حياتهم اليومية بأسلوب واقعى، أى أنهم، وعلى مستوى رمزى، يَحْيَوْنَهُ مرة أخرى.

وليس لدى المسيحيين ما يعادل التوراة والشريعة، وهم يميلون للاعتقاد أن تلك الشعائر الدينية لابد وأنها عبء معوِّق. بالإضافة إلى كونها نوعاً من الروحانية هاجمها العهد الجديد حيث ندد بولس بالتوارة كجزء من هجومه على «المسيحيين اليهود» الذين رأوا فى ديانة عيسى مذهباً متشدداً من مذاهب اليهودية. غير أن اليهود والمسلمين لا ينظرون إلى التشريع الدينى على أنه عبء. فالمسلمون ينظرون إلى السنة نظرة المسيحيين للقربان Sacrament أو الطقوس الروحانية، حيث تساعدهم فى جهدهم لتطوير الوعى الإلهى الذى نص عليه القرآن فى تشعبات حياتهم اليومية. كما أنهم، وبمحاكاتهم للنموذج النبوى قدر جهدهم، فهم لا يستبطنونه فقط على مستوى شديد العمق فى وجدانهم، بل إنهم أيضاً يحاولون تنمية توجه كتوجه محمد الباطنى من أجل التقرب إلى الله الذى يحتل أعماق أعماقهم. وهناك من الأحاديث ما هو قُدسى وقد طرحه الله على لسان نبيه وهى تؤكد أن الله ليس كياناً ميتافيزيقيّاً (منعزلاً كلية)، لكنه، بمعنىً ما، حضور يتماهى مع جوهر كينونتهم. وهناك حديث قدسى شهير يُوضّح المراحل التى يُمكن للمرء أن يعى بها ذلك الحضور الباطنى. وتبدأ تلك المراحل باتباع أوامر الله، وتتقدم بعد ذلك نحو أفعال عبادية اختيارية:

«مازال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته صرت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها وقدمه التى يمشى بها[١٧].

أما الأفعال الخارجية، فمثلها مثل العنصر الفيزيائى فى القربان المسيحى، أى أنها هى الآيات المحسوسة لتلك النعمة الإلهية، ولابد من تأديتها ومراعاتها بكل تبجيل. ومعنى ذلك الاهتمام، هو أن كل المسلمين فى أنحاء العالم يتشاركون فى أسلوب معيّن للحياة. ومهما كان بينهم من خلافات، فهناك هوية إسلامية واضحة تجمع بينهم فوراً. فهناك أسلوبهم المشترك فى الاغتسال والصلاة، وسلوكهم على المائدة وعاداتهم الصحية المشتركة والتى

تتبع نموذجاً واحداً متميزاً. فيقوم المسلمون من الصين وإندونسيا ومناطق الشرق الأوسط المتعددة مثلاً بالسجود فى أثناء الصلاة بنفس الطريقة، ويستغرقون أيضاً نفس المدة الزمنية تقريباً.

والمسلمون الذين يُبجّلون محمداً بأسلوب رمزى، لا يُهمهم بوجه خاص البحث وراء الشخص التاريخى لمحمد، وهم فى ذلك مثل المسيحيين الذين التزموا بالمسيح بشكل متخيلّ مماثل، والذين لا تقلقهم البحوث الحالية فى حياة المسيح الأرضية. غير أن حادثة سلمان رشدى قد برهنت على أن ما اعتبره المسلمون هجوماً على الرسول قد انتهك حرمة منطقة مقدسة فى نفوس المسلمين فى جميع أنحاء الأرض. فقد كان أى تقليل من قدر النبىّ أو من شأن دينه يُنظر إليه على أنه إثم كبير. أما الآن، وبوجه خاص، فإن ذلك له من القوة ما يجرح مشاعر المسلمين، وذلك لما جرى من امتهان للأمة الإسلامية على يد العالم الغربى. فقد بدأت الإمبراطورية الإسلامية فى الذواء أثناء القرن الثامن عشر. وفى هذه المرة، وبصفة خاصة، وجدت من الصعب النهوض ثانية. وتزامن ذواؤها وسقوطها مع صعود الغرب ومعه مجتمع لم يوجد له مثيل فى العالم من قبل. ولذلك أصبح من الصعب مقارعته. ولم يكن هذا مجرد امتهان سياسى فقط، بل إنه لمس جوهر الهوية الإسلامية ذاتها. فإن كان الإسلام لم ينجح وللمرة الأولى فى تاريخه، إذن، فما مدى صحة ما يقول به؟ فقد برهنت التوصيات الاجتماعية الإسلامية حتى ذلك الحين على صحتها المطلقة. لكن حدث أن انهار المجتمع الإسلامى رغم أن الأمة كانت تبذل جهودها لتنفيذ الخطة الإلهية. إذن فقد حدث خطأ جذرى فى التاريخ الإسلامى.

ومرة أخرى، يجب التأكيد على أن نجاح الأمة له أهمية شبه مقدسة (لها مثلها فى القربان المسيحى) فى الحياة الشخصية الدينية لكل مسلم. لذا أوجد ذلك السقوط مأزقاً دينياً فى العالم الإسلامى، له شبيهه من حيث جديته بذلك المأزق الذى خبرته أوربا لدى اكتشافات ليل وداروين والتى بدا أنها

قوضت أسس العقيدة المسيحية. فإن اليأس الذى يتجسد فى قصيدة ماثيو آرنولد «شاطئ الدوفر Dover Beach» والأسى الذى يتجلى فى مرثية تينيسون لصديقه "In Memoriam"، يساعدنا على تبصر الرعب والأسى المعتمل فى صدور بعض المسلمين اليوم. فكيف لهم أن يفسروا حالة العقم الظاهرى للإسلام اليوم فى مواجهة الغرب وعلمانيته المنتصرة. فجوهر التعاليم المجتمعية فى القرآن هو الاعتقاد بأن المجتمع المؤسس على المبادئ الصحيحة لا ينهار، وذلك لأنه يتسق مع ما يجب أن تكون عليه الأمور. وقد أثبت نجاح الأمة فى ظل قيادة محمد وخلفائه فاعلية مثل ذلك المجتمع. وكان لذلك النجاح أهمية أيقونية. كما أن مشكلة الإسلام - وخلافاً للديانة المسيحية التى تزدهر دائماً فى أوقات الشدة - هى العكس.

وفى بداية هذا الكتاب، وحينما طرحنا نظرة الغرب لمحمد، فإننا أيضاً عرضنا لغضب ويأس «شهداء قرطبة» فى القرن التاسع. وفى العالم الإسلامى اليوم يتجه الكثيرون إلى شكل إسلامى راديكالى جديد يغذيه أحياناً رعب مماثل لذلك الذى ساد قرطبة. فمثل «شهداء قرطبة» يحاول مسلمون كثيرون اكتشاف هوية جديدة لهم بالعودة إلى جذورهم الخاصة. وأصبح ذلك الأمر تيمة فى الحركات المسماة بالأصولية الإسلامية فى السنوات الأخيرة. فإن المسلمين لم يشعروا فقط بالامتهان والازدراء من قبل القوى الغربية الخارجية، لكنهم شعروا أيضاً بالاغتراب والضياع فى الداخل لطغيان الحضارة الغربية على موروثاتهم، فلقد بزغت العلمانية التى نميناها بعناية فى الغرب من تقاليدنا الخاصة، لكنها فى البلاد الإسلامية تبدو غريبة وأجنبية، وذات أثر سلبى أكثر من كونه إيجابياً. وهناك جيل من الناس شبّ فى العالم الإسلامى لا يشعر بالانتماء سواء كان فى الشرق أو فى الغرب. ووجد هؤلاء الإجابة فى الرجوع إلى جذورهم الإسلامية. وكما سعى محمد إلى غرس دينه فى التقاليد الدينية العربية المقدسة حينما عرّف الحج تعريفاً جديداً، فإن المسلمين الراديكاليين يسعون إلى إيجاد جذور لهم أكثر أمناً فى ماضيهم الإسلامى.

أما التيمة الأخرى للأصولية الإسلامية فهى محاولة تصحيح مسار التاريخ الإسلامى. فلم تكن الثورة الإيرانية مجرد فعل ارتدادى إلى الماضى، لكنها كانت محاولة لفرض قيم رفيعة على إيران مرة أخرى. وقد عمل مثال الدولة الإسلامية فى باكستان وإيران على إيقاظ آمال عميقة بدت غريبة للغربيين، الذين نما بينهم المثال العلمانى للحكومة. غير أنه فى حالة إيران وباكستان، يمثل هذا مطلباً دينياً وحضارياً عميقاً، وفرصة لإحياء فاعلية الإسلام مرة أخرى. ويبرهن تاريخ المحاولتين على أن محاولة تجسيد كلمة الله على الأرض فى القرن العشرين مليئة بالمشاكل ومفعمة بمعوقات من الصعب تخطيها. فبينما استطاع المسلمون فى الماضى النهوض مرة أخرى بعد الكوارث والمآزق المختلفة مثل وفاة النبى والدمار الذى أحدثه المغول، فإن النهوض هذه المرة قد برهن على أنه أشد صعوبة بكثير، ومن هنا دخل عنصر اليأس الغاضب إلى الدين.

إن ظاهرة الأصولية الإسلامية مركبة ومعقدة، فقد انبثقت من الألم الكبير. كما أنها تُغلف حاجة يائسة لدى كثير من المسلمين لأخذ زمام مقاديرهم فى أيديهم مرة أخرى بالطريقة الإسلامية التى كرّس لها التاريخ. وبرغم أن بعض أشكال الأصولية الإسلامية تبدو غير صحيحة وتشع عدم اطمئنان، واستياءً كذلك الذى غذى فريق «الشهداء فى قرطبة»، الذين أشعل حماسهم مثل تلك الاحتياجات والمخاوف، فلقد رأينا أنه أثناء أزمة السويس كتب الباحث المتخصص فى الفكر الإسلامى ويلفرد كانتويل سميث أن الإسلام الصحى الفعال هو أمر مطلوب فى المأزق الحالى لأنه يساعد الشعوب الإسلامية على تنمية قيم رفيعة ومُثُل يشاركهم فيها الغرب لأنها قد انبثقت من إرث مشترك. غير أنه، ومنذ أزمة السويس فقد عمل الغرب على اغتراب شعوب الشرق الأوسط بقدر أكبر، الأمر الذى أساء إلى الليبرالية العلمانية التى يعمل على نشرها. فنحن فى الغرب لم نستطع أبداً التعامل مع الإسلام. فأفكارنا عنه كانت، ومازالت، فجة ورافضة. كما أننا الآن نبدو

كأننا نناقض التزامنا المعلن بالتسامح والتراحم بازدرائنا الألم والأسى اللذين ظهرا حديثاً فى العالم الإسلامى. إن الإسلام لن يختفى ولن يخبو. وكان من الأفضل أن يظل معافىً قوياً. ونحن نأمل فقط ألا يكون الوقت قد فات.

وفى نهاية القرن العشرين، فإن لدى الشعوب فى العالم الإسلامى العديد من المشاكل. وكما ذكر ويلفرد كانتويل سميث فى عام ١٩٥٦، فلدى الغرب أيضاً مشكلة إذ إن «الضعف الأساسى» للحضارة الغربية، وللمسيحية فى العالم الحديث هو عدم القدرة على الاعتراف بأنهم يقتسمون الكوكب، ليس مع من هم أدنى منهم، بل مع أنداد لهم. وأنه ما لم تستطع الحضارة الغربية أن تتعلم فكرياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، وأن تتمرس الكنيسة فقهياً فى التعامل مع البشر على أساس من الاحترام الجوهرى، فإن (تلك المؤسستين) ستفشلان فى التوافق مع وقائع القرن العشرين[١٨]. وإن المشكلات التى تثار فى هذا الصدد هى بالطبع عويصة بنفس درجة الأمور التى تم معالجتها من قبلنا بالنسبة للإسلام.

والواقع أن الإسلام والغرب يشتركان فى نفس المأثورات. وقد عرف المسلمون ذلك منذ زمن محمد، غير أن الغرب غير قادر على تقبل تلك الحقيقة. واليوم، بدأ بعض المسلمين فى إدارة ظهورهم لحضارة أهل الكتاب التى امتهنت كرامتهم واحتقرتهم. وأخذوا أيضاً فى أسلمة تلك الكراهية الجديدة. وأصبح شخص النبى مركزياً فى أحدث التصادمات بين الإسلام والغرب إبان مشكلة سلمان رشدى. وإن كان المسلمون اليوم فى حاجة لفهم الموروثات والمؤسسات الغربية بدقة أكثر، فإننا فى الغرب بحاجة أن نخلص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة. ولعل شخص محمد يكون مناسباً للبدء، فقد كان رجلاً متدفق المشاعر ذا شخصية مركبة، وقد أتى ببعض الأفعال التى نجد صعوبة فى تقبلها، لكنّه كان ذا عبقرية تستعصى على الإدراك. وقد أسس ديناً وموروثاً حضاريًا لم يكن السيفُ دعامته ـ برغم الأسطورة الغربية ـ وديناً اسمه الإسلام، ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق.

هوامش الكتاب

All quotations from the Qu'ran are taken from the translation of Arthur J. Arberry, *The Koran Interpreted* (Oxford, 1964), unless otherwise stated.
Quotations from the Jewish and Christian Scriptures are taken from the Jerusalem Bible.

الفصل الأول

محمد العدو

1. John of Joinville, *The Life of St louis*, trans. René Hague and ed. Natalis de Wailly (London, 1955), p. 36.
2. Paul Alvaro, *Indiculus Luminosus*, quoted in R.W. Southern, *Western Views of Islam in the Middle Ages* (London, 1962), p. 21.
3. Perfectus was probably a Latin version of the Arab name al-Kamil (the Complete One); other martyrs were called Servus Dei, which must be a translation of Abdallah (the Slave of God).
4. Paul Alvaro, *Vita Eulogii*, quoted in Norman Daniel, *The Arabs and Medieval Europe* (London and Beirut, 1975), p. 29.
5. II Thessalonians 1: 4-8. The author was not St Paul; the letter was written years after Paul's death.
6. Revelation 19:19.
7. *Gesta Francorum or The Deeds of the Franks and Other Pilgrims to Jerusalem*, trans. Rosalind Hill (London, 1962), p. 22.
8. Southern, *Western Views of Islam*, p. 29.
9. Quoted in Daniel, *The Arabs and Medieval Europe*, p. 156.
10. *The Comedy of Dante Alighieri*, Cantica I: Hell, trans. Dorothy L. Sayers (London, 1949), Canto XXVIII: 22-7, p. 246.
11. *Gesta Regum*, quoted in Southern, *Western Views of Islam*, p. 35.
12. *Chronicon*, in ibid., p. 36.
13. Quoted in Benjamin Kedar, *Crusade and Mission: European Approaches to the Muslims* (Princeton, 1984), p. 99.
14. Ibid., p. 101.

15. Quoted in Régine Pernoud, *The Crusaders*, trans. Enid Grant (Edinburgh and London, 1963), p. 221.
16. Ibid.
17. Kedar, *Crusade and Mission*, pp. 125-6.
18. Quoted in Pernoud, *The Crusaders*, pp. 222-3.
19. Umberto Eco, 'Dreaming of the Middle Ages', in *travels in Hyper-Reality*, trans. William Weaver (London, 1987), p. 64.
20. Quoted in Southern, *Western Views of Islam*, pp. 79-80.
21. Daniel, *The Arabs and Medieval Europe*, p. 302.
22. Norman Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh, 1960), pp. 284-5.
23. Quoted in Edward W. Said, *Orientalism: Western Conceptions of the Orient* (New York and London, 1985 edn), p. 66.
24. Humphry Prideaux, *The True Nature of Imposture, Fully Displayed in the Life of Mahomet* (7th edn, London, 1708), p. 80.
25. Daniel, *Islam and the West*, p. 297.
26. Ibid., p. 300.
27. Ibid., p. 290.
28. *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Dero E. Saunders, abridged in one volume (London, 1980), pp. 657-8.
29. *On Heroes and Hero-Worship* (London, 1841), p. 63.
30. Quoted in Said, *Orientalism*, p. 172.
31. Ibid.
32. Ibid., p. 171.
33. *Histoire générale*, quoted in ibid., p. 149.
34. M. Baudricourt, *La Guerre et le gouvernement de l'Algérie* (Paris, 1853), p. 160.
35. Quoted in Said, *Oreintalism*, p. 38.
36. *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London, 1988).
37. Rana Kabbani, *Letter to Christendom* (London, 1989), p. 54.
38. Fay Weldon, *Sacred Cows* (London, 1989), pp. 6, 12.
39. Conor Cruise O'Brien, *The Times*, 11 May 1989.
40. *Islam in Modern History* (Princeton and London, 1957), pp. 304-5.

الفصل الثانی

محمد رجل الله

1. After the revelations, Muhammad is said to have thickened the 'l sound of 'al-Llah' so that it became *al-Llah* to distinguish the Islamic from the pagan concept of God. This usage is more correct than the familiar 'Allah'.

الفصل الثالث

الجـاهليــــة

1. Zoroastrianism was preached by the prophet Zarathustra in Iran in the seventh and sixth centuries BCE at about the same time as Jeremiah and Isaiah were preaching in Jerusalem. It is a dualistic faith which sees an eternal struggle between two supreme powers, a Good and an Evil principle.
2. A. J. Toynbee, *A Study of History* (London, 1951), vol. III, pp. 7-22.
3. W. Montgomery Watt, *Muhammad's Mecca: History in the Qu'ran* (Edinburgh, 1988).
4. It seems, however, that some of the pagans of Yathrib had effigies of Manat in their homes.
5. See the genealogical table of the Quraysh on p. 18.
6. Muhammad is traditionally believed to have been born in the Year of the Elephant, but Western scholars put the Abyssinian invastion about ten years earlier, in 560.
7. Quoted by Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 38, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 21.
8. Sura 29:61-3.
9. Sura 10:22-4; see also 29:65, 31:31, 17:69.
10. *Sira* 143, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 99.
11. Ibid., 145, p. 100

الفصل الرابع

الوحـــــى

1. Sura 93: 6-8.
2. Today many Muslims believe that Muhammad was the archetypal Perfect Man and that he was therefore incapable of 'error'. I discuss this in more detail in Chapter 9.
3. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 150, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 104.
4. Sura 61:6. See also Tor Andrae, *Muhammad: The Man and His Faith*, trans. Théophil Menzel (London, 1936), pp. 44-5.
5. Ibn Ishaq, *Sira* 136, in Guillaume (trans. and ed.) *The life of Muhammad*, p. 94.
6. Ibid., 134, p. 93. Ad and Iram were ancient Arab peoples, whose destruction was mentioned in the Qu'ran.
7. *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, quoted in Andrae, *Mohammad*, pp. 43-4.
8. The translation of Hilf al-Fudul as the League of the Virtuous or Chivalrous has been disputed.
9. Ibn Ishaq, *Sira* 104-5, in Guillaume (trans. and ed.), *The life of Muhammad*, p. 71.
10. Abu Bakr Ahmad al-Baihaqi (d. 1066), *Dala'il an nubuwwa*, 1.12, quoted in Annemarie Schimmel, *And Muhammad Is His Messenger: The Veneration of the Prophet in Islamic Piety* (Chapel Hill and London, 1985), p. 68.
11. Ibn Ishaq, *Sira* 116-17, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 81.
12. Thus Andrae, *Mohammed*, pp. 50-1.
13. Ibn Ishaq, *Sira* 121, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 83.
14. Ibid., 120, p. 82.
15. Ibid., 155, p. 111.
16. Some of the Arabs in this story are almost always referred to by their *kunyas* in the sources, eg. Abu Talib, Abu Sufyan and Umm Salamah.
17. Ibn Ishaq, *Sira* 124-5, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp.85-6.
18. Sura 28:86.
19. Muhammad ibn Isma'il al-Bukhari, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), pp. 43-4.
20. Sura 96:1.
21. Ibn Ishaq, *Sira* 153, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of*

Muhammad, p. 106.

22. Isaiah 6:1-9.
23. Jeremiah 20:7-9.
24. Andrae, *Mohammad*, p. 59.
25. Ibn Ishaq, *Sira* 153, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 106.
26. Ibid., 154, p. 107. *Namus* was the Greek *nomos*, Law, that is the Law of Moses or the Torah revealed to the people of Israel. This word used by Waraqa was new to the Arabs. Muslims identified it with Gabriel. Waraqa meant that this was one of the great revelations that God periodically made to men.
27. Sura 35:22.
28. See, for example, Sura 6:160ff.
29. Sura 3:76.
30. Sura 61:6.
31. Sura 81:19-24.
32. Ibn Ishaq, *Sira* 151, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 105.
33. Jalal al-Din Suyuti, *al-itqan fi'ulum al-aq'ran*, quoted in Maxime Rodinson, *Mohammed*, trans. Anne Carter (London, 1971), p. 74.
34. Bukhari, Hadith 1.3, quoted in Lings, *Muhammad*, pp. 44-5.
35. Sura 75: 17-19.
36. Arberry translates the last two words of the sura 'declare it' but the Arabic really means something like: 'give glory to God'.

الفصل الخامس

النذير

1. Sura 42:7.
2. Sura 88:21-2.
3. Sura 74:1-5, 8-10. Some authorities think that this, not Sura 96, was the first part of the Qu'ran to be revealed.
4. Sura 80:24-32.
5. Sura 51:19, 70:24. In the early days *zakat* was established as a principle, but did not become a regular tax until after Muhammad's death.
6. W. Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953), Excursus D 'Tazakka', pp. 165-9.
7. Sura 92: 18, 9:103, 63:9, 102:1.
8. Sura 4:2,5,10, 6:152, 17:34, 51:19, 70:24.
9. Sura 96:6-8.
10. Sura 104:1-3.

11. Sura 70:11-14.
12. Sura 105.
13. Sura 80:11.
14. Sura 106.
15. Sura 55:1-12.
16. Sura 36:33-40.
17. Sura 36:41-4.
18. Isaiah 55:8-9.
19. Sura 2:158-9.
20. Sura 6:96-9.
21. Sura 10:69, 21:26-30.
22. Sura 8:2-4.
23. Sura 2:89, 27:14.
24. Muhammad ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, 8:102, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 51.
25. Muhammad ibn Ishaq, *Sira Rasul Allah* 162, in A Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, (London, 1955), p. 116.
26. Ibid., 161, p. 115.
27. Ibn Sa'd, *Tabaqat*, 3:1, 37, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 47.
28. Quoted in Watt, *Muhammad at Mecca*, p. 87.
29. Ibn Ishaq, *Sira* 166, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 117.
30. Sura 26:214.
31. Sura 17:28-31.
32. Abu Ja'fah at-Tabari, *Tariq ar-Rosul wa'l-muluk* 1171, in Guillaume (trans. and ed.) *The Life of Muhammad*, pp. 117-18.
33. Sura 83: 13.
34. Sura 37:15.
35. Sura 37:12-19.
36. Sura 45:23.
37. Sura 83:9-14.
38. Sura 36:77-83.

الفصل السادس

افتراق الطرق

1. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 166-7, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 118.
2. See Sura 38:4-8.
3. See for example, Sura 46:8.
4. Sura 17:75-7.
5. Quoted in W. Montgomery Watt, *Muhammad at Mecca* (Oxford,

1953), p. 100.

6. *Tafsir*, xvii, 119-21, quoted in Watt, *Muhammad at Mecca*, p. 102.
7. *Tariq ar-Rosul wa'al Muluk* 1192, quoted in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 165.
8. Sura 53:19-20.
9. Sura 53:26, though even here the angels' intercession is minimised.
10. Tabari, *Tariq*, 1192, quoted in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 166.
11. See Sura 7:9-15.
12. William O. Beeman, 'Images of the Great Satan: Rrepesentations of the United States in the Iranian Revolution', in Nikki R. Keddie (ed.), *Religion and Politics in Iran: Shi'ism from Quietism to Revolution* (New Haven, 1983), pp. 191-217.
13. *Tariq* 1192, quoted in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 166.
14. Sura 53:19-26.
15. Sura 22:51.
16. Sura 2.100; cf. 13:37, 16:101, 17:41, 17:86.
17. See Sura 69:44-7.
18. Sura 29:17, 10:18, 39:43.
19. Sura 25:17ff., 16:86, 10:28.
20. Sura 36:74.
21. Ibn Ishaq, *Sira* 167-8, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 119.
22. Ibid.
23. Ibid., 206-7, p. 145.
24. Sura 19:16-22.
25. Qouted in Ibn Ishaq, *Sira* 183-4, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp. 130-1.
26. Ibid., 185, p. 131.
27. Ibid., p. 132.
28. Sura 41:1-6.
29. Ibn Ishaq, *Sira* 186-7, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp. 132-3.
30. Sura 52:34, 2:23, 10:38.
31. George Steiner, *Real Presences: Is There Anything* in *What We Say?* (London, 1989), pp. 142-3.
32. Seyyed Hossein Nasr, *Ideals and Realities of Islam* (London, 1966), pp. 47-8.
33. Ibn Ishaq, *Sira* 227, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 157.
34. Ibid., 228, p. 158.
35. Ibid., 230, p. 159.
36. Sura 23:22-4.
37. Sura 11:103.
38. Sura 11:102-3.

الفصل السابع

الهجرة : قبلةٌ جديدة

1. Quoted in Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 278, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 191.
2. Ibid., 244, pp. 169-70.
3. Muhammad ibn Isma'il al-Bukhari, *Ahadith*, 63:26, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 94.
4. Ibn Ishaq, *Sira* 280, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 193.
5. Sura 46:28-32.
6. Sura 13:12.
7. Neither refused Muhammad protection specifically because of his religion. Akhnas refused because even though he was regarded as the chief of the clan he was actually one of its confederates and was not empowered, therefore, to grant protection to outsiders. Suhayl replied that he could not give Muhammad protection because he came from the wrong branch of Quraysh.
8. Sura 17:1.
9. Ibn Ishaq, *Sira* 271, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 186.
10. Sura 53:13-18.
11. See Annemarie Schimmel, *And Muhammad Is His Messenger: The Veneration of the Prophet in Islamic Piety* (Chapel Hill and London, 1985), pp. 161-75.
12. *Ilahinama* quoted in ibid., pp. 167-8.
13. In *The Making of Late Antiquity* (Cambridge, Mass., and London, 1978), Peter Brown shows that trance and ecstasy were normative in early Christianity. The dream had particular importance in the religious life of the age-pagan as well as Christian. "It was a paradigm of the open frontier between human and divine: when a man was asleep and his bodily senses were stilled, the frontier lay wide open between himself and the gods" (p. 65).
14. *Acts of Perpetua and Felicitas*, IV, quoted in Peter Dronke, *Women Writers of the Middle Ages: A Critical Study of Texts from Perpetua (d. 203) to Marguerite Porete (d. 1310)* (Cambridge, 1984), p. 2.
15. *The Power of Myth* (with Bill Moyers) (New York, 1988), p. 85.
16. Ibid., p. 87.
17. Ibn Ishaq, Sira 134, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 93.
18. Ibid., 287, p. 198.

19. Ibid., 246, p. 171.
20. Ibid.
21. Quoted in Ibn Ishaq, *Sira* 289, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 199. The command that forbade Muslims to 'slay their children' prohibited the custom of female infanticide, which had been common in pre-Islamic Arabia.
22. Ibid., 291-2, pp. 200-1.
23. Quoted in ibid., 293, p. 201.
24. Sura 5:5-7. Muslims are forbidden to eat pork, carrion, the flesh of strangled animals and those who have died of natural causes, the blood of an animal and meat that has been sacrificed to idols. Cf. Acts of the Apostles 15:19-21,29.
25. Ibn Ishaq, *Sira* 295, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 202.
26. Ibid., 304-5, p. 208.
27. Some of the Muslims had relatives in Medina: Muhammad himself had Medinan connections through his mother Amina. But the *hijra* demanded that Muslims abandon the whole tribe and blood-group for another to whom they were not realted.
28. W. Montgomery Watt, *Muhammad's Mecca: History in the Qu'ran* (Edinburgh, 1988), p. 25.
29. Sura 60:1,9,47-13.
30. Sura 8:30, 28:19, 27:48-51.
31. Western scholars question the historical role of Abbas at Second Aqaba. They point out that Abbas was the founder of the Abbasid dynasty and that this and other flattering references were an attempt to whitewash his reputation. As we shall see, Abbas seems to have fought against Muhammad and did not convert to Islam until almost the last moment.
32. Ibn Ishaq, *Sira* 296, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 203.
33. Ibid., 297, p. 204.
34. Ibid., 316, p. 215.
35. Sura 9:40.
36. Ibn Ishaq, *Sira* 334, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 227.
37. Ibid., 337, p. 229.
38. Ibid., 342, p. 232.
39. Ibid.
40. Ibid., 341, pp. 231-2.
41. Sura 8:72 This translation is by W. Montgomery Watt in *Muhammad's Mecca*, p. 20.
42. Ibn Ishaq, *Sira* 341, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 232.
43. Sura 3:109.
44. Ibn Ishaq, *Sira* 247, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of*

Muhammad, p. 236.

45. Muhammad ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, VIII, 42, quoted in Lings, *Muhammad*, pp. 133-4.
46. Ibn Ishaq, *Sira* 414, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 280. Fakhkh is a place outside Mecca; Majanna was the market place in the lower part of the city; Shama and Tafil are two Meccan mountains.
47. Ibid.
48. Sura 2:6-14.
49. Ibn Ishaq, *Sira* 413, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 279.
50. Ibid., 362, p. 246.
51. Ibid., 361, p. 246.
52. Sura 2:25, 4:153, 5:15.
53. Sura 3:72, 3:87. The Jews are also accused of distorting the meaning of texts to suit themselves (4:48, 5:16). Later Muslims have used these verses to argue that the Jewish scriptures are corrupt. The text, however, says that the Jews have 'altered wrods from their proper meanings'.
54. Sura 2:79, 5:82.
55. See, for example, 4:156-7. This is not an attack on Jesus or aganist Christianity but is part of the polemic against the Jews. The idea that Jesus had not really suffered and died on the Cross was a feature of various Oriental Christian docetist sects and of Manichaeism, which seems to have penetrated Arabia.
56. see Sura 2:110.
57. Sura 29:46.
58. Sura 3:58-62.
59. Sura 2:129-32.
60. See D. Sidersky, *Les Origines des légendes musulmans dans le Coran et dans les vies des prophètes* (Paris, 1933), pp. 51-3.
61. Genesis 21:8-21.
62. Sura 2:122-4.
63. Sura 2:39. See also 2:140-6.
64. Sura 6:160, 162-3.

الفصل الثامن

الحرب المقدّسة

1. These remarks apply only to Western Christianity. The Eastern Orthodox Church did not cultivate the image of the vulnerable Christ but Christ Pantocrater, Emperor of the Universe. The Emperor of Byzantium was his representative on earth and his splendid court was modelled on Christ's court in heaven.
2. This attitude is already present in the New Testament: I John

2:12-17.
3. Even the Puritans saw worldly prosperity as a *reward* rather than a spiritual achievement in itself.
4. *The Roman Martyrology*: entry for Christmas day.
5. Sura 33:72.
6. See, for example, Sura 11:28-125.
7. Sura 22:40-3.
8. Tor Andrae, *Muhammad: The Man and His Faith*, trans. Theophil Menzel (London, 1936), p. 197.
9. Sura 2:213-15.
10. Sura 5:17, but in 5:85 the Qu'ran suggests that the Christians are far more charitable than the Jews.
11. Sura 22:252.
12. I have discussed the modern *jihad* more fully in *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London, 1988), pp. 223-84.
13. Quoted in Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 430, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 291.
14. Ibid., 435, p. 294.
15. Ibid., 438, p. 296.
16. ibid., 441, p. 298.
17. Ibid.
18. Ibid., 442, p. 298.
19. Sura 8:70.
20. Armstrong, *Holy War*, throughout.
21. Sura 8:45.
22. Sura 8:17.
23. Srua 8:66-7.
24. Sura 21:49.
25. Exodus 14:25-31.
26. *Tariq ar-Rasul wa'l-Muluk* 1281, quoted in W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956), p. 205.
27. See Sura 47:5, 24:34, 2:178.
28 Quoted in Muhammad Zafrulla Khan, *Islam: Its Meaning for Modern Man* (London, 1962), p. 182.
29. Ibn Ishaq, *Sira* 459, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 309.
30. Sura 47:22.
31. Ibn Ishaq, *Sira* 543, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 361.
32. Ibid., 545, p. 363.
33. Muhammad ibn Umar Al-Waqidi, *Kitab Al-Maghazi* 214, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 176.
34. Ibn Ishaq, *Sira* 559, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 372.

35. Ibid., 562, p. 374.
36. Ibid.
37. Ibid., 583, p. 386.
38. *Muhammad at Medina*, p. 184.
39. Sura 4:3.
40. Sura 4:23.
41. Sura 2:225-40; 65:1-70.
42. Sura 4:3.
43. Sura 6:152.
44. Matthew 6:26.
45. Sura 24:33.
46. Quoted in Maxime Rodinson, *Mohammed*, trans. Anne Carter (London, 1961), p. 192. Source not given.
47. Muhammad ibn Sa'ad, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir*, VIII, 71-2, quoted in Ling's, *Muhammad*, p. 213.
48. Sura 33:36-40.
49. Sura 33:53.
50. Ibn Ishaq, *Sira* 729, p. 493.
51. Ibid., 726, p. 491.
52. Ibid., 735, p. 496.
53. Ibid., 735, p. 496, and *Ahadith* of Ahmad ibn Hanilal VI:60, 197 and Muhammad ibn al-Bukhari, III:108, 296; quoted in Nabia Abbot, *Aishah, the Beloved of Muhammad* (Chicago, 1942), p. 36. The patriarch whose name Aisha could not remember was, of cours, Jacob. See Qu'ran, Sura 12:18.
54. Sura 24:11.
55. Waqidi, *Kitab al-Maghazi*, 448-9; Ibn Sa'd, *Tabaqat*, 2:51, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 218.
56. Ibn Ishaq, *Sira* 677, p. 454.
57. See Sura 4:54.
58. Ibn Ishaq, *Sira* 675, p. 453.
59. Sura 33:10-11.
60. Ibn Ishaq, *Sira* 683, p. 460.
61. Waqidi, *Kitab*, 488-90, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 227.
62. Ibn Ishaq, *Sira* 689, p. 464.
63. Ibid., 689, pp. 464-5.
64. See Bernard Lewis in *Semites and Anti-Semites, An Inquiry into Conflict and Prejudice* (London, 1986), pp. 117-39, 164-259.
65. Sura 2:191, 251.
66. Sura 8:62-3.
67. Sura 3:147-8.
68. Watt, *Muhammad at Medina*, pp. 215-17; Rodinson, *Mohammed*, p. 214.

الفصل التاسع

السّلم المقدّس

1. Sura 48:27.
2. Muhammad ibn Umar al-Waqidi, *Kitab al-Maghazi* 587, quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983), p. 247.
3. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 741, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 500.
4. Ibid.
5. Ibid.
6. Ibid., 743, p. 501.
7. Ibid., p. 502.
8. Ibid., p. 745, p. 503.
9. W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956), p. 50.
10. Ibn Ishaq, *Sira* 748, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 505.
11. Ibid., 747, p. 504.
12. By his marriage to Juwayriyah, daughter of the chief of al-Mustaliq of Khuza'ah, after the attack on al-Mustaliq in January 627.
13. Ibn Ishaq, *Sira* 747, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 504.
14. Ibid., 748, p. 505.
15. Quoted in Lings, *Muhammad*, p. 254. Source not given.
16. Ibid., p. 255.
17. Sura 48:1.
18. Sura 48:2.
19. Sura 48:10-17.
20. Sura 48:20.
21. Sura 48:26-7.
22. sura 48:29.
23. Matthew 10:34-6.
24. Ibn Ishaq, *Sira* 751, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 507.
25. Ibid., 752, p. 507.
26. Sura 2:174-5.
27. Marshall G.S. Hodgson, *The Venture of Islam: conscience and History in a World Civilization* (Chicago, 1974), vol. I, p. 339.
28. Sura 17:35.
29. Sura 5:49. Cf. 16:127, 42:37.
30. Sura 2:172.
31. Sura 2:172. Muhammad has been blamed for not abolishing slavery, but this is an anachronistic judgement. The institution is

also taken for granted by New Testament writers. But Muhammad did in fact reduce slavery in Arabia by imposing the *pax Islamica*, which cut down on raids and violence in the peninsula.

32. It is also true that the egalitarian spirit was deeply embedded in the culture of the Middle East and that Islam was in part a response to this.
33. Watt, *Muhammad at Medina*, p. 268.
34. William and Fidelity Lancaster, 'The Gulf Crisis and Arab Disenchantment', *Middle East International*, 385, 12 October 1990. For Arab views about division between Muslims.
35. Muhammad ibn Sa'd, *Kitab at-Tabaqat al-Kabir* VII, 147, quoted in Lings, *Muhammad*, p. 271.
36. Quoted in Lings, *Muhammad* p. 282. Source not given.
37. Ibn Ishaq, *Sira* 717, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 485.
38. Muhammad ibn Isma'il al-Bukhari, *Ahadith* LXIII, 6 quoted in Lings, *Muhammad*, p. 275.
39. Sura 33:28-9.
40. Sura 33:35.
41. I have discussed this in more detail in *The Gospel According to Woman: Christianity's Creation of the Sex War in the West* (London, 1986).
42. Tradition of Abu Na'im al-Isfahani, *dala'il an nubuwwa*, II, 45, quoted in Nabia Abbott, *Aishah, the Beloved of Muhammad* (Chicago, 1942), p. 67.
43. Ibn Ishaq, *Sira* 812, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 546.
44. Ibid., 815, p. 548.
45. Sura 17:82.
46. Ibn Ishaq, *Sira* 821, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 553. The verse from the Qu'ran is Sura 49:13.
47. Quoted in Lings, *Muhammad*, p. 304. Source not given.
48. Abu Ja'far at-Tabari, *Tariq ar-Rosul wa'l-Muluk* 1642, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 553.
49. Muhammad Zafrulla Khan, *Islam: Its Meaning for Modern Man* (London, 1962), p. 60.
50. Quoted in Lings, *Muhammad*, p. 311. Source not given.
51. Ibn Ishaq, *Sira* 886, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, pp. 596-7.
52. Sura 9: 66.
53. Sura 9:108. It has been suggested that the rebellious Muslims were in touch with Abu Amir, the monotheist known as 'the Monk' who had defected to Mecca after Muhammad had arrived in Medina.

الفصل العاشر

وفاة الرسول

1. Qouted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London 1983), p. 317. No source given.
2. Ali Shariati, *Hajj*, trans. Laleh Bakhtiar (Tehran, 1988), pp. 54-6.
3. Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* 969, in A. Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad* (London, 1955), p. 651.
4. Ibid., 1,000, p. 678.
5. Ibid., 1,006, p. 679.
6. Ibid., 1,011, p. 682.
7. Ibid., 1.012, p. 683.
8. Sura 3: 138.
9. Ibn Ishaq, *Sira* 1013, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 683.
10 Wilferd cantwell Smith, Islam and Modern History (Princeton and London, 1957), p. 32, suggests this, but warns that not many Muslims would endorse it.
11. Ibn Ishaq, *Sira* 1,017, in Guillaume (trans. and ed.), *The Life of Muhammad*, p. 687.
12. Instructions given by Ali to Malik al-Ashtar, when he was appointed governor of Egypt, in William C. Chittick (trans. and ed.), *A Shi'ite Anthology* (Lonodn, 1980), p. 75.
13. I have discussed this in *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London, 1988), pp. 223-84.
14. *Encyclopaedia of Islam* (1st edn, Leiden, 1913), entry under 'Tasawwuf', quoted also in Malise Ruthven, *Islam and the World* (London, 1984), p. 230.
15. Shariati, Hajj, p. 54.
16. Seyyid Hossein Nasr, *Ideals and Realities of Islam* (London, 1966), p. 88.
17. Seyyid Hossein Nasr, 'The Significance of the *Sunnah* and *Hadith* in Islamic Spirituality', in *Islamic Spirituality: Foundation*, which he also edited (London, 1987), pp. 107-8.
18. Smith, *Islam and Modern History*, p. 305.

قائمة المراجع

Abbott, Nabia, *Aishah, the Beloved of Muhammad* (Chicago, 1942).
Alighieri, Dante, *The Divine Comedy*, Cantica I: *Hell*, trans. Dorothy L. Sayers (London, 1949).
Andrae, Tor, *Muhammad: The Man and His Faith*, trans. Theophil Menzel (London, 1936).
Arberry, Arthur J., *The Koran Interpreted* (Oxford, 1964)
———, *Sufism: An Account of the Mystics of Islam* (London, 1950).
Armstrong, Karen, *The Gospel According to Woman: Christianity's creation of the Sex War in the West* (London and New York, 1986).
———, *Holy War: The Crusades and Their Impact on Today's World* (London 1988; New York, 1991).
Baudricourt, M., *La Guerre et le gouvernement de l'Algérie*(Paris, 1853).
Bell, Richard, *The Origin of Islam in Its Christian Environment* (London, 1926).
———, *Qur'an, Translated with a Critical Re-arrangement of Its Suras,* 2 vols (Edinburgh, 1937-9).
Boulares, Habib, *Islam: The Fear and the Hope,* trans. Lewis Ware (London, 1990).
Brown, Peter, *The Making of Late Antiquity* (Cambridge, Mass., and London, 1978).
Campbell, Joseph (with Bill Moyers), *The Power of Myth* (New York and London, 1988).
Carlyle, Thomas, *On Heroes and Hero-Worship* (London, 1841).
Chittick, William C. (ed. and trans.), *A Shi'ite Anthology* (London, 1980).
Corbin, Henri, *Creative Imagination in the Sufism of Ibn Arabi,* trans. Ralph Manheim (London, 1970).
———, *Spiritual Body and Celestial Earth: From Mazdean Iran to Shi'ite Iran*, trans. Nancy Pearson (London, 1990).
Crone, Patricia, and Cook, Michael, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge, 1977).
Cupitt, Don, *Taking leave of God* (London, 1980).
Dan, Joseph, 'The Religious Experience of the *Merkavah*', in Arthur Green (ed.), *Jewish Spirituality*, 2 vols (London, 1986), vol. 1.
Daniel, Norman, *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh, 1960).
———, *The Arabs and Medieval Europe* (London and Beirut, 1975).
Deshti, Ali, *Twenty-three Years*, trans. F. R. C. Bagley (London, 1985).

Dronke, Peter, *Women Writers of the Middle Ages: A Critical Study of Texts from Perpetua (d. 203) to Marguerite Porete (d. 1310)* (Cambridge, 1984).
Eco, Umberto, *Travels in Hyper-Reality* (London, 1987).
Eliade, Mircea, *The Sacred and the Profane: The Nature of Religion*, trans. Willard R. Trask (New York, 1959).
Frend, W. H. C., *Martyrdom and Persecution in the Early Church: A Study of a Conflict from the Maccabees to Donatus* (Oxford, 1965).
Fuller, Peter, *Images of God: The Consolations of Lost Illusions* (London, 1982).
Gabrieli, Francesco, *Muhammad and the Conquests of Islam*, trans. Virginia Luling and Rosamund Linell (London, 1968).
Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Dero E. Saunders, abridged in one volume (London, 1980).
Gilsenan, Michael, *Recognizing Islam, Religion and Society in the Modern Middle East*, (London, & New York, 1982).
Green, Arthur (ed.), *Jewish Spirituality*, 2 vols (London, 1986-8).
Guillaume, A. (trans. and ed.), *The Life of Muhammad: A Translation of Ishaq's Sirat Rasul Allah* (London, 1955).
Heschel, Abraham J., *The Prophets*, 2 vols (New York, 1962).
Hill, Rosalind (trans. and ed.), *Gesta Francorum or The Deeds of the Franks and the Other Pilgrims to Jerusalem* (London, 1962).
Hodgson, Marshall G. S., *The Venture of Islam: Conscience and History in a World Civilization*, 3 vols (Chicago, 1974).
Iqbal, Sir Mohammad, *Six Lectures on the Reconstruction of Religious Thought in Islam* (Lahore, 1930).
John of Joinville, *The Life of St louis*, trans, René Hague and Natalis de Wailly (London, 1955).
Kabbani, Rana, *Europe's Myths of the Orient* (London, 1986).
______, *Letter to Christendom* (London, 1989).
Kedar, Benjamin, *Crusade and Mission: European Approaches towards the Muslims* (Princeton, 1984).
Keddie, Nikki R. (ed.), *Religion and Politics in Iran: Shiism from Quietism to Revolution* (New Haven and London, 1983).
Kepel, Gilles, *The Prophet and Pharaoh: Muslim Extremism in Egypt*, trans. Jon Rothschild (London, 1985).
Khan, Muhammad Zafrulla, *Islam: Its Meaning for Modern Man* (London, 1962).
Leaman, Oliver, *An Introduction to Medieval Islamic Philosophy* (Cambridge, 1985).
Lewis, Bernard, *The Arabs in Histoy* (London, 1950).
______, *Islam from the Prophet Mohammad to the Capture of Constantinople*, 2 vols, vol I: *Politics and War*, vol. II: *Religion and Society* (New York and London, 1976).

———, *The Muslim Discovery of Europe* (New York and London, 1982).
———, *The Jews of Islam* (New York and London, 1982).
———, *Semites and Anti-Semits: An Inquiry into conflict and Prejudice* (London, 1986).
Liebeschuetz, J. H. W. G., *Continuity and Change in Roman Religion* (Cambridge, 1979).
Lings, Martin, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (London, 1983).
Mansfield, Peter, *The Arabs* (3rd edn, London, 1985).
Massignon, Louis, *La Passion d'Hallaj*, 2 vols (Paris, 1922).
Nasr, Sayyid Hossein, *Muhammad: Man of Allah* (London, 1982).
———, (ed.), *Islamic Spirituality: Foundation* (London, 1987).
———, *Ideals and Realities of Islam* (London, 1966).
Nicholson, R. A., *The Mystics of Islam* (London, 1914).
———, *Eastern Poetry and Prose* (Cambridge, 1922).
Parrinder, Geoffrey, *Sex in the World's Religions* (London, 1980).
Pernoud, Régine, *The Crusaders*, trans. Enid Grant (Edinburgh and London, 1963).
Prideaux, Humphry, *The True Nature of Imposture, Fitly Displayed in the Life of Mahomet* (7th edn, London, 1708).
Rodinson, Maxime, *Mohammed*, trans. Anne Carter (London, 1971).
———, *Europe and the Mystique of Islam*, trans. Roger Veinous (London, 1988).
Ruthven, Malise, *Islam in the World* (London, 1984).
———, *A Satanic Affair: Salman Rushdie and the Rage of Islam* (London, 1990).
Said, Edward W., *Orientalism: Western Conceptions of the Orient* (New York and London, 1978).
———, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World* (New York and London, 1981).
Sardar, Ziauddin, and Davies, Merryl Wyn, *Distorted Imagination: Lessons from the Rushdie Affair* (London, 1990).
Saunders, J. J., *A History of Medieval Islam* (London, and Boston, 1965).
Schimmel, Annemarie, *And Muhammad Is His Messenger: The Veneration of the Prophet in Islamic Piety* (Chapel Hill and London, 1985).
Scholem, Gershom G., *Major Trends in Jewish Mysticism* (2nd edn, London, 1955).
Schuon, Frithjof, *Understanding Islam* (London, 1963).
Shariati, Ali, *Hajj*, trans. Laleh Bakhtiar (Tehran, 1988).
———, *What is To Be Done?: The Enlightened Thinkers and an Islamic Renaissance*, ed. Farhang Rajaee (Houston, 1986).

Sidersky, D., *Les Origines des légendes musulmans dans le Coran et dans les vies des prophétes* (Paris, 1933).
Smith, wilfred Cantwell, *Islam in Modern History* (Princeton and London, 1957).
______, *Towards a World Theology* (London, 1981).
Southern, R. W., *Western Views of Islam in the Middle Ages* (Cambridge, Mass., 1962).
Steiner, George, *Real Presences: Is There Anything in What We Say?* (London, 1989).
Torrey, C. C, *The Commercial-Theological Terms in the Koran* (Leiden, 1892).
Toynbee, A. J., *A Study of History* (London, 1951).
Trimingham, J. Spencer, *Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times* (London, 1979).
Von Grunebaum, G. E., *Classical Islam: A History 600-1258*, trans. Katherine Watson (London, 1970).
Watt, W. Montgomery, *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953).
______, *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956).
______, *Islam and the Integration of Society* (London, 1961).
______, *Muhammad's Mecca: History in the Qur'an* (Edinburgh, 1988).
Weldon, Fay, *Sacred Cows* (London, 1989).
Wensinck, A. J., *The Muslim Creed: Its Genesis and Historical Development* (Cambridge, 1932).

تصويبات الأزهر الشريف

ص ٢١: موضوع الختان (أجمعت المذاهب على أنه مكرمة فقط ورغم ذلك فهذه مسألة فرعية.

ص ١٢٩: اليأس الذى أُصيب به الرسول والمنقولة عن الطبرى قد تكون من الإسرائيليات.

ص ٣٣٩: الآية القرآنية سقطت (الأنف بالأنف).

ص ٣٤٧: العباس (زيارة البلدة) الصواب تزويجه من أخت زوجته أم الفضل وليست أخت العباس لأنها تكون عمته لمحمد ومحرم زواجها.

ص ٣٤٩: أرسل محمد زيداً وعبد الله بن رواحة وجعفراً.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٩٧/١٤١٦٣

الترقيم الدولى
I.S.B.N
977-5868-00-9

الناشــر

شركة سطــور

العنـــوان:

٨ تقسيم الشيشــيني - كـورنيش النيــل - بجـوار بـدايـة

الكوبـرى الدائـرى - المعـادى - القـاهرة

تليفـون وفـاكس / ٥٢٤٠٠٢٠ - ٥٢٤٠٦٦٧

دار اللـواء للطباعـة

ت : ٢٧٩٢٩٤٨ - ٢٨١٦٧٠٧